رُفِعَ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

مُخْتَصَرُ
البِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ

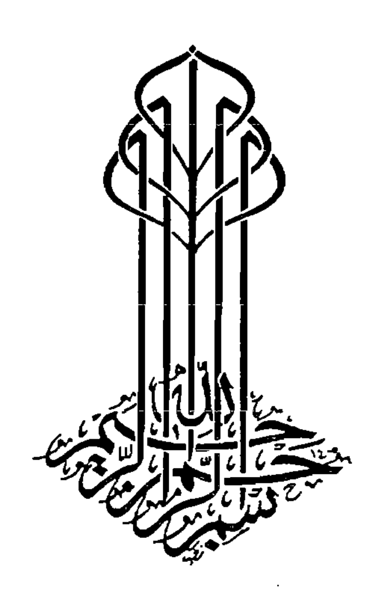
للإمام الحافظ عماد الدين، أبي الفداء إسماعيل بن كثير
القرشي الدمشقي
المتوفى سنة ٧٧٤هـ

اختصره
الدكتور أحمد الخاني

تقديم
فضيلة الشيخ الدكتور
عبد العزيز بن أحمد المسعود
حفظه الله

مكتبة بيت السلام
الرياض

مختصر
البداية والنهاية


بسم الله الرحمن الرحيم

مختصر

البداية والنهاية

للإمام الحافظ عماد الدين، أبي الفداء إسماعيل بن كثير
القرشي الدمشقي
المتوفى سنة ٧٧٤هـ

اختصره
الدكتور أحمد الخاني

تقديم
فضيلة الشيخ الدكتور
عبد العزيز بن أحمد المسعود
حفظه الله

مكتبة بيت السلام
الرياض

ⓒ مكتبة بيت السلام ، ١٤٢٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ابن كثير ، اسماعيل بن عمر
مختصر البداية والنهاية. / اسماعيل بن عمر ابن كثير - الرياض ، ١٤٢٨هـ

٢مج.

ردمك: ٩٧٨-٩٩٦٠-٥٨-٨٥٧-٥ (مجموعة)
٩٧٨-٩٩٦٠-٥٨-٨٥٨-٢ (ج١)

١- التاريخ الاسلامي أ.العنوان

ديوي ٩٥٣ ١٤٢٨/٧٦٨٨

رقم الإيداع: ١٤٢٨/٧٦٨٨
ردمك: ٩٧٨-٩٩٦٠-٥٨-٨٥٧-٥ (مجموعة)
٩٧٨-٩٩٦٠-٥٨-٨٥٨-٢ (ج١)

ⓒ مكتبة بيت السلام ، ١٤٢٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ابن كثير ، اسماعيل بن عمر
مختصر البداية والنهاية. / اسماعيل بن عمر ابن كثير - الرياض ، ١٤٢٨هـ

٢مج.

ردمك: ٩٧٨-٩٩٦٠-٥٨-٨٥٧-٥ (مجموعة)
٩٧٨-٩٩٦٠-٥٨-٨٥٩-٩ (ج٢)

١- التاريخ الاسلامي أ.العنوان

ديوي ٩٥٣ ١٤٢٨/٧٦٨٨

رقم الإيداع: ١٤٢٨/٧٦٨٨
ردمك: ٩٧٨-٩٩٦٠-٥٨-٨٥٧-٥ (مجموعة)
٩٧٨-٩٩٦٠-٥٨-٨٥٩-٩ (ج٢)

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٧م

يطلب الكتاب من

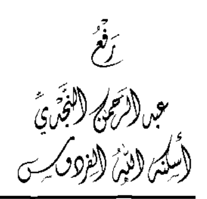
مكتبة بيت السلام

الرياض: ١١٤٧٤ - ص.ب: ١٦٧٣٧

هاتف: ٤٤٦٠١٢٩ - فاكس: ٤٤٦٢٩١٩

جوال: ٠٥٠٤٦٦٦٦٤٦ - ٠٥٠٢٠٣٣٣٦٠ - ٠٥٠٥٤٤٠١٤٧

المملكة العربية السعودية



مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الوهاب ، والصلاة والسلام على نبينا وسيدنا وحبيبنا محمد رسول الله ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً وبعد :

فإنني احتجت إلى نسخة من هذا الكتاب فبحثت عنها لدى الناشر والمكتبات فلم أجد ، فاضطررت إلى أن أستنجد بمن أهديته نسخة من أصدقائي حتى أعد الكتاب للطبعة الثانية ، ومما شجعني خطاب الشكر رقم (٨) وبتاريخ ١٤٢٦/٤/٢١هـ من **معالي فضيلة الشيخ الدكتور/ عبد الله المطلق** عضو هيئة كبار العلماء – يحفظ الله الجميع – كان الحافز كافياً لإنجاز الطباعة .

أما تشجيع جامعة الإمام بن محمد بن سعود الإسلامية لهذا الكتاب فقد كان السبب في إنجاز طباعته بأسرع وقت ممكن .

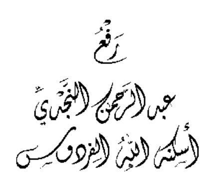
وجاءني هاتف من فرنسا يطلب مني السماح بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية ، فلبيت .

في هذه الطبعة حافظت على منهجي في الطبعة الأولى مع بعض الزيادات التي تتعلق بأبرز الأحداث كفتح القدس وببعض الشخصيات كصلاح الدين الأيوبي يرحمه الله . وقد وردت مادة بعض السنين في الأصل مقتضبة لا تزيد على ثلاثة أسطر ، فأبقيتها على حالها .

هـذا ، وقـد تلقيـت بعـض الرسـائل مـن بعـض كبـار العلماء يحفظهم الله عن هـذا الكتاب انتفعت بهـا ، جـزاهم الله خيراً ، وجزى عنا مؤلف الكتاب خير الجزاء اللهم انفعني بتهذيبي هذا ، وأخلص قلبي وعملي إليك يا أرحم الراحمين .

هـذا وإن مكتبـة بيـت الـسلام قـد تبنـت طباعـة هـذا الكتـاب في طبعتـه الثانيـة ، وهـي المعروفـة بتـبني الـتراث الأصـيل وكـل كتـاب مفيـد ، وإخراجـه بثـوب قـشيب مـن الأناقة والجمال .

الفقير إلى عفو ربه
أحمد الخاني



مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله مالك الملك ، والصلاة والسلام على نبينا محمد سيد الأولين والآخرين وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها أما بعد :

فقد قرأت كتاب ((البداية والنهاية)) لابن كثير رحمه الله تعالى رحمة واسعة . .

فقلت في نفسي :

إن هذا الكنز النفيس وأمثاله أمانة في أعناق الغيورين على الأمة العربية الإسلامية وعلى تاريخها وتراثها ، فاستخرت الله تعالى واستشرت بعض أهل العلم لاختصار هذه الموسوعة العظيمة فشرح الله صدري والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، وما أمتع أن يعرف الإنسان أخبار الأمم السابقة :

ولله در القائل :

مَنْ لم يعِ التاريخَ في صدرِهِ
لم يدرِ حلو العيشِ من مُرِّهِ
ومَن وعى أخبارَ مَن قد مضى
أضافَ أعماراً إلى عمرِهِ

ويمكن تقسيم مادة هذه الموسوعة إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : كلام المؤلف رحمه الله عن بدء الخليقة وقصص الأنبياء والأمم الماضية .

القسم الثاني : السيرة النبوية الشريفة والخلفاء الراشدون .
ومن الهجرة النبوية يبدأ يؤرخ على السنين .
القسم الثالث : الدولة الأموية فالعباسية فالدول المتتابعة
حتى سنة ثمان وستين وسبعمئة أي قبل وفاة
المؤلف بست سنين .

عملي في هذا الكتاب :

أولاً : حذفت في التلخيص تراجم الرجال إلا ماندر .

ثانياً : حذفت الأسانيد إلا ما ندر تخفيفاً على القارئ .

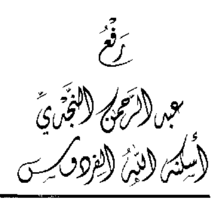
ثالثاً : اختصرت بعض الأخبار المطولة واقتصرت على أهم ما فيها .

رابعاً : خرَّجت الأحاديث الشريفة ، وعزوت الآيات القرآنية الكريمة إلى سورها مع أرقامها . وفهرست للآيات والأحاديث والشعر ومادة الكتاب .

خامساً : إذا أضفت شيئاً عقَّبت على رواية ابن كثير في الحاشية بعبارة (وأقول) ثم أورد كلامي .

جعل الله عملي خالصاً لوجهه الكريم ، ونفع به آمين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل بيته وصحبه الطاهرين الطيبين .

أحمد الخاني



ترجمة ابن كثير رحمه الله تعالى

ترجم له أكثر من عشرين مصدراً كما ترجم لنفسه حين ترجم لوالده رحمهما الله في كتابه هذا في سنة ثلاث وسبعمئة .

يقول ابن كثير رحمه الله : ((وفيها – أي في هذه السنة – توفي الوالد ، وهو الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء بن درع القرشي ، من بني حصلة ، وهم ينتسبون إلى الشرف وبأيديهم نسب ، وقف على بعضها شيخنا المزي فأعجبه ذلك وابتهج به ، فصار يكتب في نسبي بسبب ذلك : – القرشي – من قرية يقال لها : الشركوين غربي بصرى ، بينها وبينه أذرعات ، ولد بها في حدود سنة أربعين وستمئة ، واشتغل بالعمل عند أخواله بني عقبة ببصرى ، فقرأ ((البداية)) في مذهب أبي حنيفة ، وحفظ ((جُمَل الزجاجي)) ، وعُنِيَ بالنحو والعربية واللغة وحفظ أشعار العرب ، حتى كان يقول الشعر الجيد الفائق في المديح والمراثي وقليلاً من الهجاء ، وقُرر في مدارس بصرى بمبرك الناقة شمالي البلد حيث يزار ، وهو المبرك المشهور عند الناس ، والله أعلم بصحة ذلك .

ثم انتقل إلى خطابة القرية شرقي بصرى ، وتمذهب للشافعي ، وأخذ عن النواوي والشيخ تاج الدين الفزاري ، وكان يكرمه ويحترمه فيما أخبرني شيخنا العلامة

الزملكاني ، فأقام بها نحواً من ثنتي عشرة سنة ، ثم تحول إلى خطابة مجيدل القرية التي منها الوالدة ، فأقام بها مدة طويلة في خير وكفاية وتلاوة كثيرة وكان يخطب جيداً ، وله قَبول عند الناس ، ولكلامه وقع ؛ لديانته وفصاحته وحلاوته ، وكان يؤثر الإقامة في البلاد لما يرى فيها من الرفق ووجود الحلال له ولعياله ، وقد وُلِد له عدة أولاد من الوالدة ؛ عبد الوهاب وعبد العزيز ومحمد وأخواته عدة ، ثم أنا أصغرهم ، وسميت باسم الأخ إسماعيل ؛ لأنه كان قد قدم دمشق فاشتغل بها بعد أن حفظ القرآن على والده ، وقرأ مقدمة في النحو ، وحفظ ((التنبيه)) و((شرحه)) على العلامة تاج الدين الفزاري ، وحصل ((المنتخب)) في أصول الفقه ، قاله لي شيخنا ابن الزملكاني، ثم إنه سقط من سطح الشامية البرانية ، فمكث أياماً ومات ، فوجد الوالد عليه وجداً كثيراً ، ورثاه .

فلما ولدت أنا له بعد ذلك سماني باسمه ، فأكبر أولاده إسماعيل وآخرهم وأصغرهم إسماعيل ، فرحم الله من سلف وختم بخير لمن بقي ، وكانت وفاة الوالد في شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعمئة ، في مجيدل القرية ، ودفن بمقبرتها الشمالية عند الزيتونة ، وكنت إذ ذاك صغيراً ابن ثلاث سنين أو نحوها ، لا أدركه إلا كالحلم ، ثم تحولنا من بعده في سنة سبع وسبعمئة إلى دمشق صحبة الأخ كمال الدين عبد الوهاب ، وقد كان لنا شقيقاً ،

وبنا رفيقاً شفوقاً ، وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمسين ، فاشتغلت على يديه في العلم ، فيسر الله تعالى منه ما يسر ، وسهل منها ما تعسر)) إ هـ .

من أشياخه شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية . وأشهر مؤلفاته ((البداية والنهاية)) و ((تفسير القرآن العظيم)) وقد كُفَّ بصرُه أواخر حياته .

توفي سنة ٧٧٤هـ بدمشق ودفن قريباً من شيخه ابن تيمية رحمهما الله تعالى : رثاه بعض طلبته بقوله :

لفقدكَ ، طلابُ العلوم تأسفوا
وجادوا بدمع لا يبيد غزيرِ
ولو مزجوا ماءَ المدامعِ بالدما
لكان قليلاً فيك يابن كثيرِ

وكتب آخر على نسخة من البداية والنهاية

لقد سُقتَ في التاريخ كل عجيبةٍ
وصححتَ جمعاً فيه جبرُ كسيرِ
وأوضحتَ ما قد أبهم الناسُ كلُّهم
وما ذا قليلٌ منكَ يابن كثيرِ

يرحمه الله تعالى رحمة واسعة .

مقدمة المؤلف

قال الشيخ الإمام أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير رحمه الله تعالى : "الحمد لله الأول والآخر ، الظاهر الباطن ، الذي هو بكل شيء عليم ، أحمده حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه أما بعد :

فهذا كتاب أذكر فيه مبدأ المخلوقات ، من خلق العرش والكرسيِّ والسموات والأرضين وما فيهن وما بينهن من الملائكة والجان والشياطين وكيفية خلق آدم عليه السلام وقصص النبيين وما جرى مجرى ذلك إلى أيام بني إسرائيل وأيام الجاهلية حتى تنتهي النبوة إلى أيام نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فنذكر سيرته كما ينبغي فنشفي الصدور والغليل ، ثم نذكر ما بعد ذلك إلى زماننا.

العرش :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة))(١) قال : ((وعرشه على الماء)) (٢) قالوا : فهذا التقدير هو كتابته بالقلم المقادير.

وقد دل هذا الحديث أن ذلك بعد خلق العرش ، فثبت تقدُّمُ خلق العرشِ على القلم الذي كُتِب به المقادير ، كما ذهب إلى ذلك الجماهير.

(١) أخرجه الإمام مسلم برقم (٤٧٩٧) .
(٢) صحيح مسلم برقم (٤٧٩٧) .

ويُحمل حديث القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم . والله سبحانه وتعالى أعلم .

ومن شعر عبد الله بن رواحة رضي الله عنه :

شـــهدت بـــأن وعـــد الله حـــق
وأن النـــار مثـــوى الكافرينـــا
وأن العـــرش فـــوق المـــاء طـــاف
وفـــوق العـــرش رب العالمينـــا
وتحملـــه ملائكـــة كـــرام
ملائكـــة الإلـــه مـــسوّمينا

في خلق السموات والأرض :

قال الله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ (١) وقد اختلف المفسرون في مقدار هذه الأيام الستة على قولين : فالجمهور على أنها كأيامنا هذه .

عن ابن عباس وغيره أن كل يوم منها كألف سنة مما تعدون .

البحار والأنهار :

تكلم أصحاب علم الهيئة والتسيير على تعداد البحار والأنهار الكبار وأصولها ومنابعها ، وإلى أين ينتهي مسيرها ، بكلام فيه حكم ودلالات على قدرة الخالق تعالى .

(١) الأعراف : ٥٤ .

عن أبي هريرة قال : قال : رسول الله ﷺ ((فجرت أربعة أنهار من الجنة ، الفرات والنيل ، وسيحان ، وجيحان)) [1] .

وكأن المراد والله أعلم من هذا ، أن هذه الأنهار تشبه أنهار الجنة في صفائها وعذوبتها وجريانها .

السموات وما فيها من الآيات :

خلق الله الأرض قبل السماء كما قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[2] .

قال البخاري في بدء الخلق : وقال قتادة :

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾[3] خلق هذه النجوم لثلاث ؛ جعلها زينة للسماء، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يُهتدى بها .

فمن تكلف غير هذه الثلاث ، أي من علم أحكام ما تدل عليه حركاتها ، ومقارنتها في سيرها ، وأن ذلك يدل على حوادث أرضية فقد أخطأ . وذلك أن أكثر كلامهم في هذا الباب ليس فيه إلا حدس وظنون كاذبة ودعاوى باطلة . والكواكب كلها في السماء الدنيا ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٧٢٢٩) .

(٢) البقرة : ٢٩ .

(٣) الملك ٥ .

ولامانع من كون بعضها فوق بعض فخص سماء الدنيا من بينهن بزينة الكواكب ؛ والله أعلم .

وما أحسن ما أورده الإمام محمد بن إسحاق في أول كتاب السيرة من الشعر لزيد بن عمرو بن نُفيل في خلق السماء والأرض والشمس والقمر وغير ذلك .

قال ابن هشام هي لأمية بن أبي الصلت :

إلى الله أُهدي مدحتي وثنائيا
وقولاً رصيناً لا يني الدهرَ باقيا
حنانيك ؛ إن الجن كانت رجاءَهم
وأنت إلهي ربُّنا ورجائيا
وأنت الذي في فضل مَنٍ ورحمة
بعثت إلى موسى رسولاً مناديا
فقلت له : اذهب وهرون وادعوا
إلى الله فرعون الذي كان طاغيا
وقولا له : هل أنت سويت هذه
بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا
وقولا له : هل أنت رفّعت هذه
بلا عمد ؟ أرفق إذاً بك بانيا
وقولا له : هل أنت سويت وسطها
منيراً إذا ما جنه الليل هاديا

وقولا له : من يرسل الشمس غدوة
فيصبح مامست من الأرض ضاحيا ؟
وقولا له : من ينبت الحَب في الثرى
فيصبح منه البقل يهتز رابيا ؟
ويخرج منه حَبه في رؤوسه
وفي ذاك آيات لمن كان واعيا
وأنت بفضل منك نجيت يونساً
وقد بات في أضعاف حوت لياليا
فرب العباد ألق سيباً ورحمة
عليَّ وبارك في بَنيَّ وماليا

المجرَّة والقوس :

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هِرقْل كتب إلى معاوية وقال : إن كان بقي فيهم شيء من النبوة فسيخبرني عما أسألهم عنه ، قال : فكتب إليه يسأله عن المجرة ، وعن القوس ، وعن البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة واحدة .

قال : فلما أتى معاوية الكتابُ قال : إن هذا الشيء ما كنت آبه له أن أسأل عنه إلى يومي هذا ، من لهذا ؟ قيل : ابن عباس .

فبعث بالكتاب إلى ابن عباس فكتب إليه : إن القوس أمان لأهل الأرض من الغرق ، والمجرة باب السماء

الذي تنشق منه ، وأما البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة من النهار فالبحر الذي أفرج عن بني إسرائيل .

وعن ابن عباس مرفوعاً : ((إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله فإنه لا يصيب ذاكراً)) [(١)] .

خلق الملائكة وصفاتهم عليهم السلام :

والآيات في ذكر الملائكة كثيرة جداً ، يصفهم الله تعالى بالقوة في العبادة ، وفي الخلق ، وحسن المنظر ، وعظمة الأشكال ، وقوة الشكل في الصور المتعددة .

تبدو في صورة شباب حسان ، امتحاناً واختباراً ، حتى قامت على قوم لوط الحجة وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر . وكذلك كان جبريل يأتي إلى النبي ﷺ في صفات متعددة ؛ فتارة يأتي في صورة دحية بن خليفة الكلبي ، وتارة في صورة أعرابي ، وتارة في صورته التي خلق عليها ، له ستمئة جناح ، ما بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب . رفع مدائن قوم لوط ، وكنَّ سبعاً ، بمن فيها من الأمم ، وكانوا قريباً من أربعمئة ألف ، رفع كل ذلك على طرف جناحه حتى بلغ بهن عَنان السماء ، حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم وصياح ديكتهم ، ثم قلبها فجعل عاليَها أسافلها .

ومن صفة إسرافيل عليه السلام وهو أحد حملة العرش ، وهو الذي ينفخ في الصور بأمر ربه نفخات ثلاثاً ؛ أولاهن نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة البعث .

---

(١) رواه الإمام مالك .

عن أبي سعيد قال : ذكر رسول الله ﷺ صاحب الصور فقال : ((عن يمينه جبريل ، وعن يساره ميكائيل عليهم السلام)) [1].

فجبريل ينزل بالهدى على الرسل لتبليغ الأمم ، وميكائيل موكل بالقطر والنبات اللذين يخلق منهما الأرزاق في هذه الدار .

وأما ملك الموت ؛ فليس مصرحاً باسمه في القرآن ولا في الأحاديث الصحاح وقد جاءت تسميته في بعض الآثار بعزرائيل والله أعلم

ومن الملائكة المسمَّين في الحديث منكر ونكير عليهما السلام وقد استفاض في الأحاديث ذكرهما في سؤال القبر .

وخازن الجنة ملك يقال له : رضوان ، جاء مصرحاً به في بعض الأحاديث .

ومنهم الموكلون بالنار وخازنُها مالك . ومنهم الموكلون بحفظ أعمال العباد كما قال تعالى : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [2]

واختلف الناس في تفضيل الملائكة على البشر .

قال عمر بن عبد العزيز : ما أحدٌ أكرم على الله من كريم بني آدم . واستدل بقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٠٦٤٧) .

(2) ق : ١٧ .

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ (١). ووافقه على ذلك أميةُ بنُ عمروِ بنِ سعيد . فقال عِراك بن مالك : ما أحد أكرم على الله من ملائكته . فقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظي : ما تقول أنت يا أبا حمزة ؟ فقال: قد أكرم الله آدم فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة ، وجعل من ذريته الأنبياء والرسل ، فوافق عمر بن عبد العزيز في الحكم ، واستدل بغير دليله، وأضعف دلالة ما صرح به من الآية وهو قوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ مضمونه أنها ليست خاصة بالبشر، فإن الله قد وصف الملائكة بالإيمان في قوله : ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾(٢) وكذلك الجان ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ (٣). قلت : - والكلام لابن كثير - وأحسن ما يستدل به في هذه المسألة ما رواه عثمان بن سعيد الدارمي عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً وهو أصح . قال : ((لما خلق الله الجنة قالت الملائكة : يا ربنا اجعل لنا هذه نأكل منها ونشرب ، فإنك خلقت الدنيا لبني آدم . فقال الله : لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيديَّ ، كمن قلت له: كن فكان)) (٤).

---

(١) البينة ٧ .
(٢) غافر : ٧ .
(٣) الجن : ١٣ .
(٤) رواه النسائي .

خلق الجان وقصة الشيطان :

قال رسول الله ﷺ : ((خُلِقَتِ الملائكةُ من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم)) [١].

قال كثير من علماء التفسير : خلقت الجن قبل آدم عليه السلام ، وكان قبلهم في الأرض الحنُّ[٢] والبنُّ ، فسلط الله الجن عليهم ، فقتلوهم وسكنوها بعدهم بسبب ما أحدثوا. وذكر الضحاك عن ابن عباس أن الجن لما أفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء بعث الله إليهم إبليس ومعه جند من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم عن الأرض إلى جزائر البحور .

قال الحسن البصري : لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل البشر .

فالجان خلقوا من النار ، وهم كبني آدم يأكلون ويشربون ويتناسلون ومنهم المؤمنون ومنهم الكافرون . والصحيح أن مؤمني الجن يدخلون الجنة .

وكان اسم إبليس قبل معصيته عزازيل وكنيته أبو كردوس عن جابر عن النبي ﷺ قال : ((إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه في الناس ، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة)) [٣].

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحة (٥٢١٤) ، والإمام أحمد برقم (٢٠٤٣٨) .
(٢) الحن : هم ضعفة الجن وسفلتهم .
(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحة (٥٠٣٢) ؛ الإمام أحمد برقم (١٣٨٥٨) .

خلق آدم عليه السلام :

أخبر تعالى أنه خاطب الملائكة قائلاً لهم : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ أخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته ، كما يُخْبَرُ بالأمر العظيم قبل كونه . فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة ، لا على وجه الاعتراض والتنقص لبني آدم والحسد لهم: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾[1] قيل: علموا أن ذلك كائن بما رأوا ممن كان قبل آدم من الحن والبن . ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هؤلاء مالا تعلمون. أي سيوجد منهم الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء ثم بين لهم شرف آدم عليهم في العلم فقال ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ قال ابن عباس هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس . أربع تشريفات لآدم : خلقه له بيده الكريمة، ونفخه فيه من روحه، وأمره للملائكة بالسجود له، وتعليمه أسماء الأشياء . نظر إبليس نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم فرأى نفسه أشرف من آدم ، فامتنع من السجود له مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود .

استحق الخروج من رحمة الله لأنه استلزم تنقصه لآدم وازدراؤه به وترفعه عليه مخالفة الأمر الإلهي .

---

(١) البقرة : ٣٠ .

وشرع في الاعتذار وكان اعتذاره أشد من ذنبه ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ (١) عن ابن عباس وغيره أنهم قالوا : أُخرِجَ إبليس من الجنة وأُسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها ليس فيها زوج يسكن إليها ، فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة ، خلقها الله من ضلعه ، فسألها : من أنت ؟ قالت : امرأة قال: ولِمَ خُلقت ؟ قالت : لتسكن إلي .

فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه : ما اسمها يا آدم ؟ قال : حواء .

قالوا ولم كانت حواء ؟ قال : لأنها خلقت من شيء حي. وقد أبهم الله ذكر الشجرة وتعيينها ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لعيَّنها لنا ، إنما الخلاف الذي ذكره المفسرون في أن الجنة التي أُسكنها آدم هل هي في السماء أم في الأرض ؟ والجمهور على أنها هي التي في السماء وهي جنة المأوى لظاهر الآيات والأحاديث ، كقوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾(٢) واللام تعود على معهود ذهني وهو المستقر شرعاً من جنة المأوى ، وكقول موسى عليه السلام لآدم عليه السلام :

(علامَ أخرجتنا ونفسك من الجنة) الحديث . وعن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ ((يجمع الله الناس فيقوم

(١) الأعراف : ١٢ .
(٢) البقرة : ٣٥ .

المؤمنون حين تُزلَف لهم الجنة ، فيأتون آدم فيقولون : يا أبانا استفتح لنا الجنة . فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئةُ أبيكم؟)) وذكر الحديث بطوله،[1] وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة في الدلالة على أنها جنة المأوى .

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ((إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن)) [2] وعن ابن عباس أن الله قال : يا آدم ، إن لي حرماً بحيال عرشي فانطلق فابنِ لي فيه بيتاً فطف به كما تطوف ملائكتي بعرشي ، وأرسل الله له ملكاً فعرَّفه مكانه ، وعلمه المناسك .

قصة ابنَيْ آدم قابيلَ وهابيل :

عن ابن عباس وغيره أن آدم كان يزوج ذَكَرَ كل بطن بأنثى البطن الأخرى ، وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل وكان أكبر من هابيل ، وأخت قابيل أحسن ، فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه ، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى، فأمرهما أن يقربا قرباناً ، فقرب هابيل جذعة سمينة، وكان صاحب غنم ،وقرب قابيل حزمة من زرع من رديء زرعه ، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل فغضب وقال : لأقتلنك حتى لاتنكح أختي . فقال : إنما يتقبل الله من المتقين .

---

(١) رواه مسلم في صحيحة .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٧٩٤١) .

وروي عن ابن عباس وغيره : ((وايم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج أن يبسط إليه يده . [١]

وذكر بعضهم أنه لما قتله حمله على ظهره ولم يزل كذلك حتى بعث الله غرابين فتقاتلا فقتل أحدهما الآخر فلما قتله عمد إلى الأرض فحفر له فيها ثم ألقاه ودفنه وواراه . فلما رآه يصنع ذلك قال ﴿ يَـٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَـٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ ﴾[٢] ففعل مثل ما فعل الغراب، فواراه ودفنه .

وفاة آدم ووصيته إلى ابنه شيث :

ومعنى شيث : هبة الله وسمياه بذلك لأنهما رزقاه بعد أن قُتل هابيل ، قال محمد بن إسحاق : لما حضرت آدمَ الوفاة عهد إلى ابنه شيث ، وعلمه ساعات الليل والنهار وعلمه عبادات تلك الساعات ، وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك . ولما توفي آدم عليه السلام ، وكان ذلك يوم الجمعة ، جاءته الملائكة بَحنوط من عند الله عز وجل من الجنة ، وعزّوا فيه ابنه شيث عليه السلام .

والمشهور أنه دفن عند الجبل الذي أهبط عليه في الهند . ويقال : إن نوحاً عليه السلام لما كان زمن الطوفان حمله هو وحواء في تابوت فدفنهما ببيت المقدس . حكى ذلك ابن جرير .

---

(١) وأقول : في قرية بَرْهَلَيا شمال غربي دمشق قرب نهر بردى مغارة يقال لها : مغارة الدم ، مشهورة بأنها المكان الذي قتل قابيل أخاه هابيل عندها . والله أعلم بصحته .

(٢) المائدة : ٣١ .

واختُلف في مقدار عمره عليه السلام ، وفي الحديث عن ابن عباس وأبي هريرة مرفوعاً ، أن عمره اكتتب في اللوح المحفوظ ألف سنة .

فلما مات آدم عليه السلام قام بأعباء الأمر بعده ولده شيث عليه السلام وأُنزل عليه خمسون صحيفة .

إدريس عليه السلام :

وكان أول بني آدم أعطي النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام . وذكر ابن إسحاق أنه أول من خط بالقلم .

عن هلال بن يساف قال :

سأل ابن عباس كعباً وأنا حاضر : فقال له : ما قول الله تعالى لإدريس : ﴿ وَرَفَعْنَهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (مريم: ٥٧) قال كعب : أما إدريس فإن الله أوحى إليه : إني أرفع لك كل يوم مثل جميع عمل بني آدم – لعله من أهل زمانه – فأحب أن يزداد عملاً ، فأتاه خليل له من الملائكة فقال : إن الله أوحى إلي كذا وكذا فكلم ملك الموت فليؤخرني حتى أزداد عملاً ، فحمله بين جناحيه ثم صعد إلى السماء ، فلما كان في السماء الرابعة تلقاهم ملك الموت منحدراً ، فكلم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس فقال : وأين إدريس؟ قال: هو ذا على ظهري فقال ملك الموت : فالعجب! بعثت وقيل لي: اقبض روح إدريس في السماء الرابعة . فجعلت أقول : كيف أقبض روحه في السماء الرابعة وهو في الأرض ؟ فقبض روحه هناك .

قصة نوح عليه السلام :

نــوح عليه السلام بعثــه الله تعــالى لمــا عبــدت الأصــنام والطواغيت، وشرع الناس في الضلالة والكفر ، بعثه الله رحمة للعباد فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض .

ولما بعث الله نوحاً عليه السلام دعاهم إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له ، وألا يعبدوا معه صنماً ولا تمثالاً ولا طاغوتاً وأن يعترفوا بوحدانيته وأن لا إله غيره ولا رب سواه . ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (نوح: ٢٣) ، عن ابن عباس قال هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تُعبَد حتى إذا هلك أولئك ، ونُسخ العلم عُبدت .

دعاهم نبي الله نوح عليه السلام إلى الله بأنواع الدعوة ، في الليل والنهار والسر والعلن ، بالترغيب والترهيب ، وكل هذا لم ينجح فيهم ، بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان ، ونصبوا له العداوة وتنقصوه وتنقصوا من آمن به وتوعدوهم بالرجم والإخراج ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم . وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ١٤) .

ومع هذه المدة الطويلة ما آمن به إلا القليل منهم ، وكان كلما انقرض جيل وصَّوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق .

دعا عليهم نبي الله نوح دعوة غضب لله فلبى الله دعوته . عند ذلك أمره الله تعالى أن يصنع الفُلْكَ . كانت ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع فالسفلى للدواب والوحوش ، والوسطى للناس ، والعليا للطيور.

وعم الطوفان الأرض كلها ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ ﴾ (هود :٤٢) وهذا الابن هو يام أخو سام وحام ويافث . وكان كافراً فهلك مع من هلك . ولما أهلك أهل الأرض ولم يبق منها أحد ممن عبد غير الله عز وجل ، أمر الله الأرض أن تبلع ماءها وأمر السماء أن تمسك عن المطر . ولما نضب الماء عن وجه الأرض وأمكن السعي والاستقرار عليها هبط نوح من السفينة بأمر الله تعالى على ظهر الجوديِّ وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور . وكان مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلوهم فلما هبط إلى أسفل الجودي ابتنى قرية وسماها ثمانين فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة إحداها لغة العربي فكان بعضهم لا يفقه كلام بعض فكان نوح عليه السلام يعبر عنهم .

﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ (الصافات: ٧٧) فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم ينتسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم سام وحام ويافث .

عن سَمُرَةَ أن النبي ﷺ قال : ((**سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم**)) [1] .

قال رسول الله ﷺ : ((**إن نبي الله نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه : إني قاص عليك الوصية آمرك باثنتين ، وأنهاك عن اثنتين ؛ آمرك بلا إله إلا الله ؛ فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله . وسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء ، وبها يرزق الخلق . وأنهاك عن الشرك والكِبْر**)) [2] .

وأما قبره عليه السلام فروى ابن جرير وغيره أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام ، وهذا أقوى وأثبت من الذي يذكره كثير من المتأخرين من أنه ببلدة بالبقاع تعرف اليوم بكرك نوح . والله أعلم بالصواب .

قصة هود عليه السلام :

قوم هود كانوا عرباً يسكنون الأحقاف وهي جبال الرمل ، وكانت باليمن من عُمان وحضر موت بأرض مطلة على البحر يقال لها : الشحر ، وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخمة وهم عاد الأولى ، ومن زعم أن إرم مدينة تدور في الأرض فتارة في الشام ، وتارة في

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣١٥٥) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٦٢٦٥) .

اليمن وتارة في الحجاز وتارة في غيرها فقد أبعد النجعة وقال ما لا دليل عليه .

وفي (صحيح ابن حبان) عن أبي ذر في حديثه الطويل في ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه : (منهم أربعة من العرب؛ هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر) .

والمقصود أن عاداً وهم الأولى ، كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان ، فبعث الله فيهم أخاهم هوداً عليه السلام فدعاهم إلى الله وكانوا عرباً جفاة كافرين ، عتاة متمردين في عبادة الأصنام ، فأرسل الله إليهم هوداً فكذبوه فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

أول ما ابتدأهم العذاب أنهم كانوا ممحلين فطلبوا السقيا ، فرأوا عارضاً من السماء ظنوه سقيا رحمة ، فإذا هو سقيا عذاب، وجاءت ريح كشهب النار ،﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ (الحاقة:٧) أي دائمة ، فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك، واعتزل هود عليه السلام في حظيرة ومن معه من المؤمنين،ما يصيبهم إلا ما يلين جلودهم وتلتذ به نفوسهم .

وإنها لتمر على عاد بالظعن فيما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة ﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة:٧] شبههم بأعجاز النخل لا رؤوس لها ، وذلك لأن الريح كانت تجيء إلى أحدهم فتحمله فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى بلا رأس .

وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، أنه ذكر صفة قبر هود عليه السلام في بلاد اليمن ، وذكر آخرون أنه بدمشق وبجامعها مكان في الحائط القبلي يزعم بعض الناس أنه قبر هود عليه السلام والله أعلم .

قصة صالح عليه السلام :

قبيلة مشهورة يقال لهم ثمود ، وكانوا عرباً من العاربة يسكنون الحِجْر بين الحجاز وتبوك وكانوا بعد قوم عاد ، وكانوا يعبدون الأصنام فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو عبد الله ورسوله صالح فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ولا يشركوا به شيئاً . فآمنت طائفة منهم وكفر جمهورهم ونالوا منه بالمقال والفعال وهموا بقتله وقتلوا الناقة التي جعلها الله حجة عليهم . ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوماً في ناديهم ، فجاءهم رسول الله صالح عليه السلام فدعاهم إلى الله تعالى وذكّرهم وحذرهم ووعظهم فقالوا له : إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة هناك - ناقة من صفتها كيت وكيت - وذكروا أوصافاً سموها ، وأن تكون عشراء طويلة فقال لهم النبي صالح عليه السلام : أرأيتم إن أجبتكم إلى ماسألتم على الوجه الذي طلبتم ، أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقونني فيما أرسلت به ؟ قالوا : نعم . فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ثم قام إلى مصلاه فصلى لله عز وجل ما قُدِّر له ثم دعا ربه عز

وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا ، فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة كوماء عشراء على الوجه الذي طلبوا ، فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً ومنظراً هائلاً وقدرة باهرة ودليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً فآمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم . فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم وترد الماء يوماً بعد يوم ، ويقال إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم . فلما طال عليهم الحال هذا اجتمع مَلَؤهم واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة وكان الذي تولى قتلها منهم رئيسهم قُدار بن سالف وكان أحمر أزرق قصيراً وكان يقال : إنه ولد زانية من رجل يقال له صيبان ، وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم .

انطلقوا يرصدون الناقة ، كمن لها مِصْدَع فرماها بسهم فانتظم ساقها فابتدر قدار بن سالف فشد عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة إلى الأرض ورغت رغاة واحدة تحذر ولدها ، ثم طعن في لَبتها فنحرها ، وانطلق سقبها فصعد جبلاً ورغا ثلاثاً .

فلهذا قال لهم صالح ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ﴾ (هود :٦٥) فلم يصدقوه أيضاً في هذا الوعد الأكيد ، بل لما أمسوا هموا بقتله فأرسل الله تعالى على أولئك النفر حجارة رضختهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم ، وأصبحت ثمود يوم

الخميس وجوههم مصفرة فلما أمسوا نادوا بأجمعهم : ألا قد مضى يوم من الأجل .

ثم أصبحوا في اليوم الثاني وجوههم محمرة . ثم أصبحوا في اليوم الثالث وجوههم مسودة ، فلما كان صبيحة يوم الأحد تحنطوا فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت أرواحهم .

قال الإمام أحمد . . عن ابن عمر قال : لما نزل رسول الله ﷺ بالناس عام تبوك نزل بهم الحِجْرَ عند بيوت ثمود فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم فأمرهم رسول الله ﷺ فأهرقوا القدور ، وعلفوا العجين للإبل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا قال : ((إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم)) وفي بعض الروايات : **((إلا أن تكونوا باكين))** وفي رواية **((فإن لم تبكوا فتباكَوا))** [1] صلوات الله وسلامه عليه .

قصة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام :

هو إبراهيم بن آزر عليه السلام كان يكنى أبا الضيفان . والصحيح أنه ولد ببابل ، وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً سوى إبراهيم الخليل وامرأته سارَّة وابن أخيه لوط عليهم السلام .

(١) أخرجه الإمام أحمد برقم (٥٧١٢) .

قال ابن جرير : والصواب أن اسمه آزر ، ولعل له اسمين علمين أو أحدهما لقب والآخر علم ، والله أعلم .

يذكر الله تعالى ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجادلة وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عبارة وأحسن إشارة ، بيَّن له بطلان ما هو عليه من عبادة الأصنام التي لا تسمع دعاء عابدها ولا تبصر مكانه فكيف تغني عنه شيئاً أو تفعل به خيراً من رزق أو نصر ؟ فهدده والده وتوعده .

وقد كانت موعظته لأهل حرّان الذين كانوا يعبدون الكواكب حيث بين له بأن هذه الأجرام المشاهَدة من الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية ولا تُعبد مع الله عز وجل ، لأنها مخلوقة ، تطلع تارة وتأفل أخرى فتغيب عن هذا العالم ، والله تعالى لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية بل هو الدائم الباقي بلا زوال .

وقد أنكر إبراهيم على قومه عبادة الأوثان وحقرها وتنقصها ، فما كان حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد . فلما خرجوا إلى عيدهم ذهب إليها مسرعاً مستخفياً ، فحطمها وعلق الفأس في عنق الكبير إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار ، فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا ماحل بمعبودهم سألوا سؤال إنكار عمن فعل هذا بآلهتهم فذكروا أنهم سمعوا من فتى يقال له إبراهيم أنه تنقص آلهتهم ﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾

(الأنبياء:٦١) أي في الملأ الأكبر على رؤوس الأشهاد لعلهم يشهدون مقالته ويسمعون كلامه وكان هذا من أكبر مقاصد الخليل عليه السلام أن يجتمع الناس كلهم فيقيم على جميع عُبَّاد الأصنام الحجة ببطلان ما هم عليه ، كما قال موسى عليه السلام لفرعون ﴿ **قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى** ﴾ (طه :٩٥) فلما اجتمعوا وجاؤوا به ﴿ **قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ** ﴾ (الأنبياء: ٦٢ – ٦٣) إنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات . فعادوا على أنفسهم بالملامة ، وأدركت القومَ حيرةٌ وانقطعت حجتهم ولم يبق لهم إلا استعمال قوتهم ، فشرعوا يجمعون حطباً جمعوه في حفرة عظيمة وأطلقوا فيه النار وعلا لها شرر لم يُرَ مثله قط ، ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام في كفة منجنيق صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له : هيزن ، وكان أول من صنع المنجنيق فخسف الله به الأرض ، فلما وضع الخليل عليه السلام في كفة المنجنيق مقيداً مكتوفاً ثم ألقوه قال : حسبنا الله ونعم الوكيل .

روى البخاري عن ابن عباس أنه قال : حسبنا الله ونعم الوكيل؛ قالها إبراهيم حين ألقي في النار وقالها محمد ﷺ حين قيل له : ﴿ **إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ**

إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ (آل عمران: ١٧٣- ١٧٤) قال الله تعالى: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ (الأنبياء:٦٩) . فلم يُحرق منه سوى وثاقِه .

عن أم شُرَيْك أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ وقال : **((كان ينفخ على إبراهيم))** [1] .

ثم يذكر الله تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد الذي ادعى لنفسه الربوبية فأبطل الخليل عليه السلام دليله وهو ملك بابل واسمه النمرود بن كوش ابن سام بن نوح. ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ (البقرة:٢٥٦) قال هذا الملك الجاهل (أنا أحيي وأميت). وقد أوتيت الرسلُ الحجة ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة:٢٥٨) وهاجر إبراهيم عليه السلام إلى مصر ثم عاد وصحبتهم هاجر القبطية المصرية .

أما لوط عليه السلام فنزل بأمر الخليل مدينة سدوم وكان أهلها أشراراً كفاراً فجاراً .

ثم وضعت هاجر إسماعيل عليه السلام قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة ولما ولد إسماعيل أوحى الله إلى

(١) أخرجه البخاري في صحيحة (٣١٠٩) ، الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٤٤٦٣) .

إبراهيم يبشره بإسحاق من سارة . ولما ولد إسماعيل من هاجر اشتدت غيرة سارة ، طلبت من الخليل أن يغيِّب وجهها عنها ، فذهب بها وبولدها حتى وضعهما حيث مكة اليوم وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء . ثم قفّى إبراهيم راجعاً حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها يتلوى ثم أخذت تسعى بين الصفا والمروة ، فعلت ذلك سبع مرات ولم تر أحداً ، ثم سمعت صوتاً فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوطه .

قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : **((يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم لكانت عيناً مَعيناً))** (1) ولكن هاجر حوطت الماء بيديها حرصاً منها ، فشربت وأرضعت ولدها . حتى مر بهم أهل بيت من جُرْهُمَ فأقبلوا فنزلوا حول الماء وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم ، وشب الغلام وتعلم العربية منهم ولما أدرك زوجوه امرأة منهم . وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم ثم قال : يا إسماعيل إن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً . فعند ذلك رفعا القواعد من البيت .

أما قصة الذبح فلا خلاف بين أهل الملل والنحل أن الذبيح إسماعيل عليه السلام أول ولده وبكره **﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ ﴾** (الصافات:١٠٢) أي شب وصار يسعى في مصالحه

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحة (٢١٩٥) ، الإمام أحمد في مسنده (٣٢١٧) .

كأبيه فلما كان هذا ؛ أُرِيَ إبراهيمُ عليه السلام في المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا . وفي الحديث عن ابن عباس مرفوعاً ((رؤيا الأنبياء وحي)) فعرض ذلك على ولده ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾ (الصافات:١٠٢) فبادر الغلام الحليم ببر والده الخليل إبراهيم فقال : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (الصافات:١٠٢) وهذا الجواب في غاية السداد والطاعة وعزم على ذلك ، أمرَّ السكين على حلقه فلم تقطع شيئاً ، عند ذلك نودي من الله عز وجل ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ ﴾ (الصافات:١٠٤-١٠٥) أي حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ومبادرتك إلى أمر ربك ﴿ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴾ (الصافات:١٠٧) والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن .

ثم وُلد لإبراهيم إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب عليهم السلام .

قصة لوط عليه السلام :

كان لوط قد نزح عن محلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له ، فنزل مدينة سدوم ، ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم يقطعون السبيل ، ويأتون في ناديهم المنكر ، ولا يتناهون عن منكر فعلوه ، وهو إتيان الذكران من العالمين، وترك ما خلق الله من النساء لعباده الصالحين ، فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا

شريك له ، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش والمنكرات، فتمادوا في ضلالهم وطغيانهم وهموا بإخراج رسولهم من بين أظهرهم وكان حاصل جوابهم ﴿ قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (النمل:٥٦) فجعلوا غاية المدح ذماً يقتضي الإخراج .

قال المفسرون : لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل أقبلوا حتى أتَوا أرض سدوم في صورة شبان حسان، فاستضافوا لوطاً عليه السلام عند غروب الشمس فخشي إن لم يضيفهم أن يضيفهم غيره من القوم الفاسقين، وحِسَبهم بشراً من الناس، فجاء بهم فلم يعلم أحد إلا أهل البيت فخرجت امرأته فأخبرت قومها فجاءه قومه يُهرعون إليه ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ (هود:٧٨) يرشدهم إلى غشيان نسائهم وهُنَّ بناته شرعاً ، لأن نبي الأمة بمنزلة الوالد ، ود عندئذ لوط عليه السلام لو كان له بهم قوة أو منعة أو عشيرة ينصرونه عليهم ، وجعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق وهم يرومون فتحه ، ذكروا ؛ أن جبريل عليه السلام خرج عليهم فضرب وجوههم خفقةً بطرف جناحه فطُمست أعينهم ، ثم أمرت الملائكة لوطاً عليه السلام أن يسريَ هو وأهله من آخر الليل إلا امرأته .

قال السهيلي : اسم امرأة لوط والهة ، واسم امرأة نوح والغة ، فلما خرج لوط عليه السلام بأهله وهم ابنتاه ولم

يتبعه رجل واحد ، فلما خلصوا من بلادهم وطلعت الشمس نزل بهم العذاب قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ (هود:٨٢ - ٨٣)

قالوا : اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهن وكن سبع مدن بمن فيهن من الأمم .

وأصبح مكانها بحرة منتنة ذات أمواج ، وماؤها ملح أجاج . ويقال : إن امرأة لوط كانت عيناً على من يكون عند لوط من الضيفان . قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف : ما بغت امرأة نبي قط ، وليس المراد أنها كانت على فاحشة حاشا وكلا ، وإنما المراد خانته في الدين فلم تتبعه فيه .

قصة مدين قوم شعيب عليه الصلاة والسلام :

كان أهل مدين قوماً عرباً ، يسكنون مدينتهم مدين ، قرية من أرض معان من أطراف الشام مما يلي الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط وهم من بني مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل عليه السلام .

وكان أهل مدين كفاراً ، يقطعون السبيل ويخيفون المارة ، وكانوا من أسوأ الناس معاملة يبخسون المكيال والميزان ، يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص . فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام ،

فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة ، فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم ، فوعظهم وذكرهم قوم لوط وهم قريبو عهد منهم مكاناً وزماناً فلم يستجيبوا له فدعا عليهم والله لا يرد دعاء رسله إذا استنصروه على الذين كفروا فأخذتهم الرجفة والصيحة وظُلَّةٌ أرسلها الله عليهم شراراً وناراً فهلكوا .

قصة يوسف عليه السلام :

قال رسول الله ﷺ : ((**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم**)) [1] قال المفسرون وغيرهم : رأى يوسف عليه السلام ، وهو صغير ، كأن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر قد سجدوا له ، فلما استيقظ قصها على أبيه فأمره بكتمانها وألا يقصها على إخوته كيلا يحسدوه . ثم تشاوروا فيما بينهم في قتل يوسف أو إبعاده إلى أرض لا يرجع منها ، وأجمعوا على هذا ، ولم يزالوا بأبيهم حتى بعثه معهم ، فبعد أن غابوا عن أعين أبيهم ألقوه في الجب فطمأنه الله تعالى .

ورجع إخوة يوسف إلى أبيهم ليلاً يبكون على أخيهم القتيل بزعمهم ومعهم قميصه وقد لطخ بدمٍ سخلة ، فسلم الوالد أمره إلى الله تعالى وصبر صبراً جميلاً .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٥٤٥٤) .

ومرت قافلة وإخوة يوسف يراقبون البئر فلما أخذت يوسف عليه السلام لحق بها إخوته يقولون : هذا غلامنا أبق منا،فاشتَرَوْه منهم بعشرين درهماً اقتسموها درهمين درهمين ، ثم اشتراه من أهل مصر عزيزها فأحسن إليه ، ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا ﴾ (يوسف:٢٣) امرأة العزيز دعت يوسف إلى نفسها وحرصت على ذلك أشد الحرص فقال : (معاذ الله) . وعصم الله نبيه يوسف عليه السلام ونزهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها .

هرب يوسف فلحقت به والباب يتدافع إذا بالعزيز أمامهما ، وكانت امرأة العزيز حاضرة البديهة فبادرته بالكلام حيث برأت نفسها ، وخافت في الوقت نفسه على يوسف من الغوائل فاستبعدت قتله واقترحت السجن أو العذاب . ودافع يوسف عن نفسه بردِّ التهمة قائلاً : ﴿ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ ﴾ (يوسف:٢٦)، تدخل شاهد يقول : إذا كان قميص يوسف تمزق من صدره أو مقدَّم قميصه فالمرأة صادقة ، وإن كان تمزقه من ظهره فإنها تكون قد اتبعته لما هرب وتعلقت به فانشق القميص فتكون كاذبة، نظر العزيز إلى القميص إذا به مشقوق من خلف ، فعرف الحقيقة أي أنت راودتيه عن نفسه ثم اتهمتيه بالباطل ، ثم التفت إلى يوسف يقول : لا تذكر هذا لأحد ، وأمرها بالاستغفار .

وتحدث بالخبر نساء في مصر ووصل كلامهن إلى المرأة المذنبة ، فدعت بهن وهيأت لهن فاكهة وناولت كل واحدة منهن سكيناً ، وأمرت يوسف أن يخرج عليهن . شدهت النساء لجمال يوسف وجرحن أيديهن . فقالت المرأة: ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِ ﴾ ثم مدحته بالعفة التامة .

ويوسف قد أعطي شطر حسن آدم عليه السلام ، وقد اعترفت المرأة بمبادرتها إلى المراودة وبرأت يوسف وصممت على أن تنال منه مرادها ، وإن أبى عليها هذه المرة لتأمرن بسجنه ، وكان بقية النساء يحرضن يوسف على السمع والطاعة لسيدته فاشتركن معها بدعوة يوسف إلى أنفسهن فأبى أشد الإباء ، ودعا فقال في دعائه : ﴿ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِىٓ إِلَيۡهِ ﴾(يوسف:٣٣) ثم سجن يوسف إنقاذاً لسمعة امرأة العزيز ، ومن العصمة ألا تجد . وفي السجن قص عليه فتيان رؤيا فعبرها لهما بقوله : ﴿ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِى رَبَّهُۥ خَمۡرًا وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦ ﴾ (يوسف:٤١) وقال للساقي: اذكر أمري عند الملك وما أنا فيه من السجن بغير جرم بعد أن ثبتت براءتي . فنسي هذا الساقي كلام يوسف .

وذات ليلة هب الملك مذعوراً وهو الريان بن الوليد يقول : إني رأيت سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات ضعيفات ؛ وسبع سنبلات خضر التفت عليهن سبع سنابل يابسات ، فسروا لي هذا المنام ، فعجز المنجمون والسحرة

والدجالون حول فرعون أن يفسروا له ذلك الحلم . عندئذ فطن الساقي فقال : أرسلوني إلى يوسف .

يا يوسف فسر لنا رؤيا الملك وأعاد كلام الملك بحذافيره . قال يوسف : سبع سنين خير وبعدها سبع سنين محل ، وبعدها تأتي سنة خير .

طلب الملك يوسف ليجعله من خاصته بعد ما ظهر للملك براءته فأبى يوسف عليه السلام إلا أن تظهر براءته مع امرأة العزيز والنسوة ، وكان التحقيق وبراءة يوسف . فوكل الملك إلى يوسف عمل العزيز . وبعد سني الجدب جاء إخوة يوسف عرفهم ولم يعرفوه ، وزودهم بالميرة وبقي أخوه الشقيق عند أبيه فقال : إذا قدمتم العام القادم فأتوا به معكم فإن لم تحضروه فليس لكم عندي شيء . وأعاد إليهم بضاعتهم .

عاد إخوة يوسف إلى أبيهم فوجدوا بضاعتهم ردت إليهم فقالوا لأبيهم منع منا الكيل بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا أخانا .

كان يعقوب عليه السلام أضن شيء بولده بنيامين لأنه كان يشم فيه رائحة أخيه يوسف . ثم أكدوا المواثيق أن يعيدوا أخاهم إليه .

دخل إخوة يوسف على أخيهم فآوى يوسف أخاه وعرّفه بنفسه ثم جهزهم بالميرة وجعل وعاء كيل الطعام في

حمل بنيامين ثم صاح المنادي : سرق صواع الملك وجعل لمن رده حمل بعير . روع إخوة يوسف لهذا النبأ ثم استخرج بعد التفتيش من خُرْجِ بنيامين فحجزه يوسف عنده حسب شريعة يعقوب .

عاد إخوة يوسف إلى أبيهم فأخبروه ، فتحسر وتأسف على يوسف وابيضت عيناه من كثرة البكاء . ثم عاد إخوة يوسف إليه حتى يُحَمِّلَهم الميرة ويردَّ عليهم بنيامين أخاهم . ثم حسر عن جبينه الشريف فعرفوه فابتهجوا له فعادوا إلى أبيهم والتقى الشمل وسجد الإخوة والأبوان .

عن الحسن : ألقي يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة ، وغاب عن أبيه ثمانين سنة ، وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة ، ومات وهو ابن مئة وعشرين سنة .

قصة نبي الله أيوب عليه السلام :

أيوب عليه السلام من سلالة العيص بن إسحاق وامرأته قيل : اسمها رحمة بنت أفراثيم بن يوسف بن يعقوب وهذا أشهر .

كان أيوب رجلاً كثير المال من أرض حَوْران ، فسُلب المال والأهل وابتلي في جسده بأنواع البلاء ، وأيوب صابر حتى إن المثل ليضرب بصبره عليه السلام .

وكانت امرأته تخدم الناس بالأجر وتطعم أيوب عليه السلام ، ثم إن الناس لم يكونوا يستخدمونها ، لعلمهم أنها امرأة أيوب ، خوفاً أن ينالهم من بلائه ، فلما لم تجد

أحداً تخدمه عمدت فباعت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيرتيها بطعام طيب كثير ، فأتت به أيوب فقال : من أين لك هذا ؟ وأنكره ، فقالت : خدمت به أناساً ، فلما كان الغد لم تجد أحداً فباعت الضفيرة الأخرى بطعام فأتته به فأنكره أيضاً، وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام ، فكشفت عن رأسها خمارها ، فلما رأى رأسها محلوقاً قال في دعائه ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (الأنبياء:٨٣) عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : ((إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانيَ عشرة سنة)) .

ثم أوصى الله إلى أيوب أن ﴿ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴾ (ص:٤٢) وأقبل على امرأته قد أذهب الله مابه من البلاء وهو على أحسن ما كان ، فلما رأته قالت : أي بارك الله فيك ؛ هل رأيت نبي الله هذا المبتلى؟ فوالله على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً قال : فإني أنا هو .

قال ابن عباس : وردَّ الله عليه ماله وولده بأعيانهم ومثلهم معهم .

وعن ابن عباس أيضاً : رد الله إليها شبابها وزادها وقد رخص الله له بعد أن حلف أن يضرب امرأته مئة سوط لبيعها ضفائرها ، أن يجمع مئة عود كالعثكال الذي

يجمع الشماريخ فيجمعها كلها ويضربها بها ضربة واحدة فيبر ولا يحنث ، وقد استعمل كثير من الفقهاء هذه الرخص في باب الأيمان والنذور .

قصة يونس عليه السلام :

بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل نَيْنَوى من أرض الموصل ، فدعاهم إلى الله عز وجل فكذبوه ، فلما طال ذلك عليه من أمرهم ، خرج من بين أظهرهم ، ووعدهم حلول العذاب بعد ثلاث ، فلما خرج من بين ظهرانيهم وتحققوا نزول العذاب بهم ، قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة ، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم ، فلبسوا المسوح ، ثم عجّوا إلى الله عز وجل ، وتمسكنوا لديه ، وبكى الرجال والنساء ، والبنون والبنات ، والأمهات ، وجأرت الأنعام ، ورغت الإبل وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وحُملانها ، وكانت ساعة عظيمة هائلة ، فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب ، وكانوا مئة ألف واختلفوا في الزيادة ، واختلفوا هل كان إرساله إليهم قبل الحوت أو بعده ، والمقصود أنه عليه السلام لما ذهب مغاضباً بسبب قومه ركب السفينة ، وماجت بهم وثقلت بما فيها وكادوا يغرقون ، فاشتوروا فيما بينهم على أن يقترعوا ، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخففوا منه ، فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس . فلم يسمحوا به ،

فأعادوها فوقعت عليه فشمر ليخلع ثيابه ويلقيَ بنفسه ، فأبوا عليه ذلك ، ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضاً لما يريده الله به من الأمر العظيم ، ألقي في البحر ، وبعث الله عز وجل حوتاً عظيماً فالتقمه وأمره الله تعالى : ألا تأكل له لحماً ولا تهشم له عظماً ، فليس لك برزق ، فأخذه وطاف به في البحار ، ولما استقر في جوف الحوت حسب أنه قد مات فحرك جوارحه فتحركت فإذا هو حي فخر لله ساجداً وقال : يا رب اتخذت لك مسجداً لم يعبدك أحد في مثله .

قال رسول الله ﷺ : ((اسم الله الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى)) .

فأمر الله الحوت فطرحه في العراء وأنبت الله عليه اليقطينة ، وهيأ له أرويَّةً وحشية ترويه من لبنها ، وكانت دعوة يونس : ((لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)) فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له))[1] .

قصة موسى الكليم عليه الصلاة والسلام :

رأى فرعون في منامه كأن ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس فأحرقت دور مصر وجميع القبط ، ولم تضر بني إسرائيل ، فقال له الكهنة : هذا غلام يولد من بني

(١) الترمذي (٣٥٠٥) .

إسرائيل يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه ، فأمر بقتل الغلمان وترك النسوان .

ثم أمر فرعون بقتل الأبناء عاماً وأن يتركوا عاماً ، فولد هارون في عام المسامحة وولد موسى في عام قتلهم . وألقى الله في خَلَدِ أمه أن لا تخافي ولا تحزني إنه إذا ذهب فإن الله سيرده إليك ، وأن الله سيجعله نبياً مرسلاً .

ألقت الأم ابنها في النيل ، فالتقطته الجواري في تابوت مغلق عليه ، ولما رأته امرأة فرعون أحبته حباً شديداً، فلما جاء فرعون أمر بذبحه ، فاستوهبته منه ودافعت عنه وقالت : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ (القصص:٩) فقال : أمَّا لكِ فنعم ، وأما لي ، فلا . ولما استقر بدار فرعون أرادوا أن يغذوه برضاعة فلم يقبل ثدياً ولا أخذ طعاماً فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق لعلهم يجدون من يوافق رضاعته ، فبصرت به أخته ودلتهم على مرضع ، فذهبوا معها إلى منزلهم فأخذته أمه ، فلما أرضعته التقم ثديها وأخذ يرتضعه ، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً ورتبت زوجة فرعون الرواتب وأجرت عليها النفقات ، وشب موسى عن الطوق ، وذات يوم رأى رجلين يتضاربان ويتهاوشان واحد إسرائيلي والآخر قبطي ، فاستنصره الإسرائيلي ، أقبل موسى إلى القبطي طعنه بجُمْع كفه فمات القبطي ولم يرد موسى قتله إنما أراد زجره ، فأصبح موسى خائفاً من فرعون وملئه ، فبينما هو كذلك إذا إسرائيلي الأمس

يتخاصم مع قبطي آخر ، فلما أراد موسى أن يبطش بالقبطي ظن الإسرائيلي أن موسى جاء ليقضي عليه لأنه عنفه أمس وقال له : إنك رجل غوي شرير ، فقال : ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾ (القصص:١٩) فذهب القبطي واستعدى فرعون على موسى .

فخرج موسى بنصيحة مشفق عليه ، لا يهتدي إلى طريق ، سار في طريق أدت به إلى مدين قوم شعيب عليه السلام ، فوجد بئراً وأناساً تسقي الغنم ، وامرأتين تكفكفان غنمهما أن تختلط بغنم الناس ، وكان الرعاء إذا فرغوا من وِردهم وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة فتجيء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما في فضل أغنام الناس ، فلما جاء موسى رفع الصخرة وحده وسقى غنمهما. قال أمير المؤمنين عمر : كان لا يرفعه إلا عشرة ، وإنما استقى ذنوباً واحداً فكفاهما ثم تولى إلى الظل وقال ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (القصص:٢٤) سمعته المرأتان، فأخبرتا أباهما ما كان من أمر موسى عليه السلام ، فأمر إحداهما أن تذهب إليه فتدعوه ، فمشت إليه، فقالت له : ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ (القصص:٢٥) قال والد الفتاتين لموسى : خرجت من سلطانهم فلست في دولتهم ، وأراد الشيخ أن يزوج موسى إحدى ابنتيه على أن يعمل له في رعي الغنم مدة ثماني سنين

أو عشراً . فلما انتهى الأجل وسار بأهله إلى مصر ومعه الغنم وكانت ليلة مظلمة باردة ، فرأى ناراً تأجج ، ولما قصد موسى تلك النار وقف متعجباً ، ثم كلمه ربه وأمره بالذهاب إلى فرعون وطلب موسى من الله أن يشد أزره بأخيه هارون ، فاستجاب الله له وجعل هارون رسولاً معه .

تكبر فرعون في نفسه وصار يمن على موسى وكذب فرعون بالآيات التي جاء بها موسى من عند ربه سبحانه وتعالى فاتهمه فرعون بالسحر ، ثم طلب منه أن يواعده إلى وقت معلوم ومكان معلوم، ولهذا قال ﴿ **مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى** ﴾ (طه:٥٩) جمع فرعون سحرته وجمع رجال دولته وأهل البلد ، وتقدم موسى عليه السلام فوعظهم وزجرهم عن تعاطي السحر فتشاوروا فيما بينهم ، ثم صمموا على الدخول في هذا التحدي فألقوا حبالهم وعصيهم وسحروا أعين الناس ﴿ **فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ** ﴾ (الشعراء:٤٥) عندئذ تحقق السحرة بما عندهم من العلم أن هذا ليس من السحر فسجدوا ﴿ **قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ** ﴾ (الأعراف:١٢١-١٢٢) أسلم السحرة فقتلهم فرعون صلباً على جذوع النخل ، وبدأ حواره مع موسى وقد أراه آيات باهرات فجحدها فرعون ، استأذن بنو إسرائيل فرعون في الخروج إلى عيد لهم ، فأذن لهم ، فخرجوا بليل طالبين بلاد الشام ، فلما علم بذهابهم فرعون اشتد غضبه عليهم ،

وشرع في جمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم ، وكان بين خروجهم من مصر صحبة موسى عليه السلام ودخولهم إليها صحبة أبيهم إسرائيل (يعقوب) حوالي أربعمئة سنة .

أدركهم فرعون عند شروق الشمس ، ولما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى وهم خائفون ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ (الشعراء:٦١) فقال لهم الرسول الصادق المصدوق ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الشعراء:٦٢) ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه وهو يقول : ههنا أمرت ومعه أخوه هارون ويوشع بن نون ، ضرب موسى البحر بأمر الله تعالى فانفلق بقدرة الله تعالى ومنِّه ورحمته ، فلما خرج منه بنو إسرائيل أراد موسى أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه حتى لا يدخله فرعون وجنوده ، ولكن إرادة الله نافذة فأمر موسى أن يترك البحر ساكناً على هيئته وصفته التي تركها عليه موسى وقومه . وشُده فرعون مما رأى وأيقن أن هذا من فعل الرب العظيم فأحجم بحصانه ولم يتقدم حمله الكبر على الباطل فاقتحم البحر وقال لهم : انظروا كيف انحسر البحر لي لأدرك عبيدي الآبقين من يدي وقد اقتحم مكرهًا لا يقوى على السيطرة على حصانه ، فلما رأته الجنود قد سلك البحر اقتحموا وراءه مشرعين فاجتمعوا في البحر أجمعين أكتعين أبصعين ، فعند ذلك أمر الله تعالى كليمه موسى فيما أوحاه إليه أن يضرب

البحر بعصاه فضربه فارتطم عليهم البحر كما كان فلم ينج منهم إنسان . وبنو إسرائيل ينظرون ، فشك بعضهم في موت فرعون حتى قال بعضهم : فرعون لا يموت . فأمر الله البحر أن يقذف بجثة فرعون وعليه درعه التي يعرفونها لتكون علامة على صاحبها ، ودليلاً على قدرة الله تعالى . ومن ذلك الزمان تسلط نساء مصر على رجالها بسبب أن نساء الأمراء والكبراء تزوجن ممن دونهن من العامة فكانت لهن السطوة عليهن واستمرت هذه سُنَّةَ نساء مصر إلى يومنا هذا . كان ذلك اليوم هو عاشوراء لذلك يصوم المسلمون هذا اليوم فالمسلمون أحق بموسى عليه السلام من بني إسرائيل ويصوم المسلمون أيضاً يوماً قبله أو يوماً بعده مخالفة لليهود. وما إن خرج بنو إسرائيل من البحر حتى بدأت ضلالاتهم تظهر بدل شكر النعم ، مروا على قوم وثنيين يعبدون الأصنام ﴿ **قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ** ﴾ (الأعراف:١٣٨) وبدأت متاعب موسى معهم وبعد الكثير من عنتهم وضلالاتهم دعا موسى قومه أن يدخلوا الأرض المقدسة ، وفي كتب اليهود من الهذيان ما فيه عن ذكر الجبارين وأن عوج بن عنق كان طوله أكثر من ثلاثة آلاف ذراع وما إلى ذلك من الهذيانات ، وما كان لهم من جواب إلا قولهم : ﴿ **فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ** ﴾ (المائدة:٢٤) يقال إن يوشع وكالب شقا ثيابهما

لما سمعا هذا الكلام ، ولما نجى الله بني إسرائيل من أعدائهم فجر لهم عيون الماء وأنزل عليهم المن والسلوى فطلبوا من ربهم أن يطعمهم العدس والبصل . وقد صاغ لهم السامري عجلاً من ذهب فعبدوه ثم لما جاء موسى غضب غضباً شديداً وأحرقه وهكذا كانت قلوب بني إسرائيل منصرفة عن الإيمان بالله تعالى تميل إلى أدنى انحراف .

أما عن البقرة فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان رجل في بني إسرائيل كثير المال وكان شيخاً كبيراً وله بنو أخ وكانوا يتمنون موته ليرثوه فعمد أحدهم في الليل فقتله وأنكر فعلته . جاؤوا إلى نبي الله موسى فقال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ ﴾ (البقرة:٦٧) وبدأت اللجاجة كطبع بني إسرائيل لكن هذه المرة كانت اللجاجة مع نبي الله موسى عليه السلام، وبعد ثلاث مرات من الشك والتردد ذبحوا البقرة ﴿ وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ (البقرة:٧١) . فضربوه ببعضها . ولا مصلحة في السؤال عن هذا الجزء الذي ضرب به القتيل ، حيث قام وقال : قتلني ابن أخي . ثم عاد ميتاً كما كان .

قصة موسى والخضر عليهما السلام :

وقام موسى يوماً خطيباً في بني إسرائيل فسئل : أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا .

فعتب الله عليه إذ لم يردَّ العلم إليه فأوحى إلى موسى أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . فانطلق ومعه

فتاه يوشع بن نون ، حتى إذا انتهيا إلى الصخرة إذا برجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى قائلاً : أتيتك لتعلمني مما عُلِّمتَ رشداً ، فشرط عليه الخضر ألا يسأله عن شيء حتى يكون المتحدث به الخضر ، مرت سفينة فحملوهم واقتلع الخضر لوحاً من ألواح السفينة فاعترض عليه موسى ، فذكّره الخضر بالشرط فاعتذر موسى ، ثم خرجا من السفينة فأبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان فقتله الخضر فأنكر عليه موسى إنكاراً أشد من الإنكار الأول ، فذكره الخضر بالشرط فسكت على مضض ، وصرح موسى للخضر بأنه إذا سأله المرة الثالثة فإنه يحق للخضر أن ينهي الصحبة .

دخلوا قرية فطلبا طعاماً من أهلها فرفضوا ، شاهد الخضر جداراً مائلاً فأصلحه فقال موسى : لو طلبت أجراً على إصلاح الجدار .

فرد عليه الخضر : انتهت الصحبة ، ثم فسر له ما تعجب منه فقد أعاب الخضر السفينة حتى لا يأخذها ملك ظالم . والغلام كان كافراً وكان أبواه مؤمنَيْن ، فخشي الخضر أن يحملهما حبهما له على متابعته على دينه .

والجدار قد كان تحته كنز من ذهب لولدين يتيمين حفظ الله لهما الكنز حتى يكبرا .

وفي قصة قرون : ذكر ابن عباس أن قارون أعطى امرأة بغياً مالاً على أن تقول لموسى عليه السلام وهو في ملأ

من الناس : إنك فعلت بي كذا وكذا . قالت ذلك فأُرعد موسى من الفرَق وصلى لله ثم أقبل عليها فاستحلفها : من دلك على ذلك ؟ وما حملك عليه ؟ فذكرت أن قارون هو الذي حملها على ذلك ، واستغفرت الله وتابت إليه ، فعند ذلك خر موسى لله ساجداً ودعا الله على قارون فابتلعته الأرض ، فقال بعض بني إسرائيل : إن موسى يطمع في مال قارون ، فقال موسى يا أرض خذيه وخذي ماله ، فابتلعته الأرض وابتلعت داره وكنوزه . قال البخاري في صحيحه (وفاة موسى عليه السلام) : عن أبي هريرة قال : أُرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام ، فلما جاءه صكه فرجع إلى ربه عز وجل فقال : أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت . قال ارجع إليه فقل له أن يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة قال موسى : أي رب ، ثم ماذا ؟ قال : ثم الموت . قال : فالآن . قال : فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر . مات موسى وهارون قبله في التيه جميعاً ، ولم يبق أحد ممن نكل عن دخول مدينه الجبارين .

يوشع عليه السلام :

بعد وفاة هارون وموسى عليهما السلام في التيه ، خرج يوشع بن نون عليه السلام ببني إسرائيل ، قطع بهم نهر الأردن وانتهى إلى أريحا وحاصرها ستة أشهر ، ثم إنهم أحاطوا بها يوماً ، وضربوا بالقرون – الأبواق – وكبروا

تكبيرة رجل واحد فتفسخ سورها وسقط وجبة واحدة ، فدخلوها ، وأمر الله بني إسرائيل أن يدخلوا سجداً مستغفرين ، فخالفوا الأمر الإلهي ودخلوا يزحفون على أدبارهم وهم يقولون : حنطة في شعرة .

واستهزؤوا فأرسل الله عليهم الطاعون .

داود عليه السلام :

سمع داود عليه السلام طالوت وهو يحرض بني إسرائيل على قتل جالوت وجنوده وهو يقول : من قتل جالوت زوّجته يابنتي وأشركته في ملكي .

وكان داود عليه السلام يرمي بالقذافة وهي المقلاع رمياً عظيماً فلما تواجه الصفان ؛ طالوت ومعه بنو إسرائيل وجالوت في جيشه . برز جالوت ودعا إلى مبارزته فتقدم إليه داود ومعه المقلاع ثم رمى به جالوت ففلق رأسه ، وفر جيشه منهزماً ، فوفى له طالوت بما وعده فزوجه ابنته وأجرى حكمه في ملكه ، وعظم داود عليه السلام عند بني إسرائيل وأحبوه ، فخلعوا طالوت وولوا عليهم داود عليه السلام ، وكان يصنع الدروع من الزرد وكانت قبله صفائح، وكان داود عليه السلام ذا صوت جميل . وعن أبي عباس أن رجلين تداعيا إلى داود عليه السلام في بقر فأرجأ أمرهما إلى الليل ، فأوحى الله إليه أن يقتل المدعي، فلما أصبح قال له داود إن الله أمرني أن أقتلك ، فما خبرك فيما ادعيته على هذا ؟ قال : والله يانبي الله إني لمحق

فيما ادعيته عليه ، ولكني كنت اغتلت أباه . فأمر به داود فقتل ، فعظم أمر داود في بني إسرائيل جداً وخضعوا له خضوعاً عظيماً .

قصة سليمان بن داود عليهما السلام :

كان سليمان عليه السلام يعرف ما تتخاطب به الطيور بلغاتها قال الحافظ أبو بكر البيهقي: مر سليمان ابن داود بعصفور يدور حول عصفورة فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول؟ قالوا : وما يقول يا نبي الله ؟ .

قال : يخطبها على نفسه ويقول : تزوجيني أسكنْك أي غرف دمشق شئت ، قال سليمان عليه السلام : لأن غرف دمشق مبنية بالصخر لا يقدر أن يسكنها أحد ولكن كل خاطب كذاب .

عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ((خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون الله ، فإذا هم بنملة رافعة بعض قوائمها إلى السماء فقال النبي : ارجعوا فقد استجيب لكم من أجل هذه النملة)) .

أما ما كان من أمر سليمان والهدهد فقد طلبه سليمان ذات يوم ففقده ولم يجده في موضعه من محل الخدمة ، فسأل عنه وهدده وتوعده بالذبح إن لم يأت بحجة تنجيه من هذه الورطة .

ثم قدم الهدهد يخبر نبي الله بخبر بلقيس ؛ أنه شاهد امرأة تملك ، ولها عرش مزخرف بأنواع الجواهر ، فعند

ذلك بعث سليمان عليه السلام كتابه يتضمن دعوتهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله ، حمل الهدهد الكتاب وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهي في خلوة لها ، ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها ، فجمعت أمراءها ووزراءها ثم قرأت عليهم الكتاب ، ثم شاورتهم في الجواب ، فبذلوا السمع والطاعة وأبدوا الاستعداد للقتال وفوضوا إليها في ذلك الأمر . فقالت : إن هذا الملك لو غلب على هذه المملكة ما كانت سطوته إلا علي ، ولكنني سأصانعه بهدية أرسلها إليه ، وقد كانت الهدية نفيسة فلما وصلت الهدية إلى سليمان قال لمن أتى بها : ارجع بهديتك ، ولأ بعثن بجنود لا تستطيعون دفعها . فلما بلغ بلقيس ذلك عن نبي الله سليمان لم يكن لهم بد من الإذعان وأقبلوا صحبة الملكة سامعين مطيعين .

ثم طلب سليمان من الجان أن يحضروا له عرش بلقيس، تبرع عفريت من الجن أن يحضره قبل وقت الظهر، وقال آصف بن برخيا وهو ابن خالة سليمان : إذا نظرت إلى أبعد غاية منك ثم أغمضت جفنيك يكون العرش عندك . فلما رأى عرش بلقيس مستقراً عنده شكر الله سليمانُ ثم أمر أن يغير بعض ملامح العرش ليختبر فهمها وعقلها ولما سئلت : أهكذا عرشك ؟ أجابت : كأنه هو ، وهذا من فطنتها وغزارة فهمها .

وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج وعمل في ممره ماء ، وجعل عليه سقفاً من زجاج ، وأُمرت بلقيس بدخول الصرح فرفعت ثوبها إلى نصف ساقها .

ثم تزوجها سليمان وأمّرها على مملكة اليمن وردها إليه وكان يزورها في كل شهر مرة يقيم عندها ثلاثة أيام ثم يعود على البساط وأمر الجان فبنوا لها قصر غمدان والله أعلم . ثم ذكر تعالى من أمر الخيل المضمرة السريعة لما عرضها بعد العصر غابت الشمس ولم يصلِّ العصر فمسح عراقيبها وأعناقها بالسيوف . روي هذا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وروي مثله عن غيره أيضاً .

وقد ذكر شُريح القاضي وغير واحد من السلف أن قوماً كان لهم كَرْم فأكلته غنم قوم آخرين فتحاكموا إلى داود عليه السلام فحكم لأصحاب الكرم بقيمته فلما خرجوا على سليمان قال : أما لو كنت أنا لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم فيستغلونها حتى يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ويردوه إلى ما كان عليه ثم يتسلموا غنمهم ، فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به .

وقريب من هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ((**بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما فتنازعتا في الآخر فقالت الكبرى : إنما ذهب بابنك وقالت الصغرى : إنما ذهب**

بابنك . فتحاكما إلى داود فحكم به للكبرى ، فخرجتا على سليمان فقال : ائتوني بالسكين أشقه نصفين لكل واحدة منكما نصفه فقالت الصغرى : لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به لها)) [1].

وكان له بساط مركّب من أخشاب بحيث إنه يسع جميع ما يحتاج إليه من القصور والخيام والخيول والرجال من الإنس والجان . .

فإذا أراد سفراً أو قتال أعداء حمل هذه الأمور على البساط وأمر الريح تحته فرفعته ، فإذا أراد الإسراع أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون ، يرتحل في أول النهار من بيت المقدس فتغدو به الريح فتضعه بإصطخر مسيرة شهر، بنتها له الجان ، وبَنَت تدمر وبيت المقدس، وكانت الجن تعمل بين يدي سليمان . ولما شعر بدنو أجله قال : اللهم عمِّ على الجن موتي حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب . فتوكأ على عصا فمات ، وبعد حول خر على الأرض إذ أكلت الأرضة العصا ، حينئذ عرفت الجن أن سليمان قد مات . ثم ملك بعده ابنه رحب عام ثم تفرقت بعده مملكة بني إسرائيل .

خراب بيت المقدس :

قال إسحاق بن بشر : إن الله تعالى لما بعث أرميا إلى بني إسرائيل وذلك حين عظمت الأحداث فيهم فعملوا

---

(١) أخرجه الإمام مسلم برقم (٣٢٤٥) .

بالمعاصي وقتلوا الأنبياء طمع ((بخت نصر)) فيهم ، لما أراد الله أن ينتقم منهم وبلغهم أرميا رسالة ربهم وسمعوا ما فيها من الوعيد والعذاب عصوه وكذبوه واتهموه وقالوا : كذبت واعتراك الجنون فأخذوه وقيدوه وسجنوه فعند ذلك بعث الله عليهم ((بخت نصر)) ثم حاصرهم ولما طال عليهم الحصر نزلوا على حكمه فقتل منهم الثلث وسبى الثلث وهدم بيت المقدس وساق الصبيان وأمر بخت نصر فأخرج أرميا من السجن ، ومن ذلك الزمان تفرقت بنو إسرائيل في البلاد .

قصة العزير :

قال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر : هو عزير بن حيوة ، وقال إسحاق بن بشر : إن عزير كان عبداً صالحاً حكيماً ، خرج ذات يوم على ضيعة له يتعاهدها ، فلما انصرف انتهى إلى خربة حين قامت الظهيرة وأصابه الحر ، ودخل الخربة وهو على حماره فنزل عنه ومعه سلة فيها تين وسلة فيها عنب ، فنزل في ظل تلك الخربة وأخرج قصعة معه فاعتصر من العنب الذي كان معه في القصعة ، ثم أخرج خبزاً يابساً معه فألقاه في تلك القصعة في العصير ليبتل فيأكله ، ثم استلقى على قفاه ، وتأمل البيت والبيوت حوله وهي قائمة على عروشها وقد باد أهلها ورأى عظاماً بالية فقال متعجباً : كيف يحيي هذه الله بعد موتها ؟! .

فبعث الله ملك الموت فقبض روحه فأماته الله مئة عام .

ثم جاء ملك نفخ فيه الروح فأحياه الله فقال له الملك ﴿ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ (البقرة:٢٥٩) حيث إنه نام في صدر النهار وبُعث في آخر النهار والشمس لم تغب فقال له الملك ﴿ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ﴾ طعامه لم يتغير وكذلك التين والعنب ، وحماره قد بليت عظامه فنادى الملك عظام الحمار فأجابت ، ثم ألبسها العروق والعصب ثم كساه اللحم ثم نبت عليها الجلد والشعر ثم نفخ فيه الملك فقام الحمار رافعاً رأسه ثم نهق .

وانقطعت التوراة في زمن العزير ثم أملاها من حفظه قال بنو إسرائيل : لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا في كتاب وعزير قد جاءنا بها من غير كتاب فقالت طوائف منهم : عزير ابن الله . لعنهم الله تعالى .

قصة زكريا عليه السلام :

قام زكريا من الليل فنادى ربه مناداة أسرَّها عمَّن كان حاضراً عنده فقال : يا رب يا رب يارب ، فقال الله : لبيك لبيك لبيك ، فشكا زكريا عليه السلام كثرة الشيب كما قال ابن دريد في مقصورته :

إمـا تَـرَي رأسـيَ حـاكى لونـه

طـرة صـبح تحـت أذيـال الـدجى

واشــــــتعل المبـــــيض في مــــــسوده
مثــل اشــتعال النـــار في جــزل الغـضى

وكان زكريا نجاراً بشره الله بالولد على كبر من السن .
وتحققت البشارة وشب يحيى بكاء من خشية الله تعالى .

بيان سبب قتل يحيى عليه السلام :

ذكروا في قتله أسباباً كثيرة من أشهرها أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج ببعض من محارمه ، أو من لا يحل له تزويجها ، فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك فبقي في نفسها منه ، فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها ، استوهبت منه دم يحيى ، فوهبه لها ، فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه إليها ودمه في طست فيقال: إنها هلكت من فورها .

وقيل : بل أحبته امرأة ذلك الملك وراسلته فأبى عليها فلما يئست منه تحيلت في أن استوهبته من الملك فتمنع عليها الملك ثم أجابها إلى ذلك فبعثت من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه في طست .

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق الوليد بن مسلم عن زيد بن واقد قال : رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق ، أُخرج من تحت ركن من أركان القبلة الذي يلي المحراب مما يلي الشرق فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير كأنما قتل الساعة

وذكر في بناء مسجد دمشق أنه جُعل تحت العمود المعروف بعمود السكاسكة فالله أعلم .

قصة عيسى عليه السلام :

كانت مريم قد كفلها نبي الله زكريا عليه السلام، فاتخذ لها محراباً في بيت المقدس ، ولما بلغت اجتهدت في العبادة ، فخاطبتها الملائكة بالبشارة لها باصطفاء الله لها وبأنه سيهب لها ولداً زكياً يكون نبياً طاهراً مكرماً مؤيداً بالمعجزات ، فتعجبت من وجود ولد من غير والد لأنها لا زوج لها ، فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء ، فاستكانت لذلك وأنابت وسلمت أمرها إلى الله وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها ، فإن الناس يتكلمون فيها بسببه لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر ، فبينما هي ذات يوم قد خرجت لبعض شأنها من استقاء ماء أو تحصيل غذاء . . انفردت وحدها شرقيَّ المسجد الأقصى إذ بعث الله إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام ﴿ **فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا** ﴾ (مريم:١٧) فلما رأته تعوذت بالله منه فخاطبها الملك : إنني لست بشراً ولكني ملك بعثني الله إليك ﴿ **لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا** ﴾ (مريم:١٩) فقالت : كيف يكون لي غلام أو يوجد لي ولد ولست بذات زوج ولا أنا ممن يفعل الفاحشة ؟ فأجاب الملك : إن الله وعد أنه سيخلق منك غلاماً ولست بذات بعل ولا تكونين ممن يبغي وهذا

سهل عليه وسيكون رحمة للعباد ، ثم نفخ جبريل في جيب درعها فحملت من فورها ، والظاهر أنها حملت به تسعة أشهر ، ولما شاع أمرها أنها حامل لم يدخل على أهل بيت من الهمّ والغمّ ما دخل على آل زكريا ، واتهمها بعض الزنادقة بيوسف النجار ابن خالها الذي كان يتعبد معها في المسجد ، وتوارت عنهم مريم فألجأها الطلق إلى جذع النخلة ، فتمنت مريم الموت وذلك لعلمها بأن الناس يتهمونها ولا يصدقونها بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها ، فطمأنها جبريل ألا تخافي وقد جعل ربك لك نهراً تشربين منه وهذا التمر إذا هززت الجذع تساقط عليك ، فلا تهتمي لشيء ، وإذا رأيت إنساناً فصومي عن الكلام فلا تكلمي أي إنسان لأن منطق الكلام لن يجدي .

ولما ولدت مريم حملت ولدها وأتت قومها ، فلما شاهدوها ومعها ولدها أنكروا ذلك وقالوا : أمر منكر فظيع وشبهوها بعابد من عباد زمانهم اسمه هارون وقالوا : لست من بيت هذا شيمتهم ، واتهموها بالفاحشة العظمى . .

اتهموا بها زكريا وأرادوا قتله ففر منهم فلحقوه وقد انشقت له شجرة فدخلها فنشروه فيها .

ولما اتهمها بعض المنافقين بابن خالها يوسف النجار ، ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ (مريم:٢٩) أي خاطبوه وكلموه فإن جوابكم عليه فقالوا :

كيف تحيليننا في الجواب على رضيع ؟ ما هذا منك إلا على سبيل التهكم بنا فعندها ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ (مريم:٣٠) هذا أول كلام تفوه به عيسى ابن مريم ثم برأ أمه مما نسبها إليه الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه ﴿ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ فالله لا يعطي النبوة من هو كما زعموا لعنهم الله ثم قال ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي ﴾ (مريم:٣٢) فلا والد له . فسبحان الخلاق العظيم .

وقد كان مولد عيسى عليه السلام ببيت لحم قريباً من بيت المقدس . ولما ولد عيسى ، بعث ملك الفرس رسله ومعهم ذهب وُمرٌّ ولبان هدية إلى عيسى ، فلما قدموا الشام سألهم ملكها عما أقدمهم فذكروا له ذلك ، واشتهر أمره بسبب كلامه في المهد فأرسلهم إليه بما معهم ، وأرسل معهم من يعرفه لهم ليتوصل إلى قتله إذا انصرفوا عنه .

فلما وصلوا إلى مريم بالهدايا ورجعوا قيل لها : إن رسل ملك الشام إنما جاؤوا ليقتلوا ولدك ، فاحتملته فذهبت به إلى مصر ، فأقامت بها حتى بلغ عمره اثنتي عشرة سنة . وظهرت على يديه كرامات ومعجزات ، ثم عاد مع أمه إلى بيت المقدس وأُنزل عليه الإنجيل ، وكان يشفي المرضى بإذن الله ويحيي الموتى بإذن الله .

واستمر أكثر بني إسرائيل على الكفر وانتدبت له فئة صالحة فكانوا له أنصاراً وأعواناً قاموا بمتابعته .

ثم إن عيسى أمر الحواريين بصيام ثلاثين يوماً فلما أتموها سألوا عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها وتطمئن بذلك قلوبهم أن الله تقبل منهم صيامهم وتكون لهم عيداً ، فوعظهم عيسى عليه السلام وخاف ألا يقوموا بشكرها فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عز وجل فقام إلى مصلاه وتضرع إلى الله في الدعاء فأنزل الله المائدة من السماء وهم ينظرون فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدي عيسى عليه السلام عليها سبع سمكات وسبعة أرغفة وثمار فأكلوا منها وكانوا أكثر من ألف .

عن النبي ﷺ قال : ((نزلت المائدة من السماء ، خبز ولحم ، وأُمروا ألا يخونوا ولا يدخروا ولا يرفعوا لغد فخانوا وادخروا ورفعوا فمسخوا قردة وخنازير)) والأصح أن هذا الحديث موقوف .

وهمَّ بعيسى بنو إسرائيل ، ووشوا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان ، فعزموا على قتله وصلبه فأنقذه الله منهم ورفعه إليه من بين أظهرهم وألقى على أحد بني إسرائيل شبهه فأخذوه فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدونه عيسى . عليه السلام .

قصة أصحاب الكهف :

اختلف العلماء في محلة هذا الكهف فقال كثير منهم: هو بأرض أيلة . وقيل : ببلاد الروم وهو أشبه والله أعلم .

ذكر بعض المفسرين أنهم كانوا بعد المسيح وأنهم كانوا نصارى وكان قومهم مشركين يعبدون الأصنام كانوا في زمن الملك دقيانوس ، اتفق اجتماعهم في يوم عيد لقومهم فرأوا ما يتعاطاه قومهم من السجود للأصنام والتعظيم للأوثان فألهمهم الله رشدهم فعلموا أن قومهم ليسوا على شيء فخرجوا عن دينهم وانتموا إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

واتفق اجتماع هؤلاء الفتية في مكان واحد ، فاعتزلوا قومهم وذهبوا إلى الكهف فضرب الله عليهم دهراً طويلاً من السنين لا يأكلون ولا يشربون يقلّبهم الله تعالى كي لا تفسد أجسادهم ، وعيونهم مفتوحة ومعهم كلبهم قد وضع يديه على عتبة باب الكهف ، من شاهد هذا المنظر خاف منه ، وبعد ثلاثمئة وتسع سنين بعثهم الله تعالى فقال بعضهم لبعض ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ (الكهف:١٩) وطلبوا الطعام الطيب الحلال وهذا من زهدهم وورعهم ، وقد ظنوا أنهم رقدوا جزءاً من النهار ولم يعرفوا أنهم مكثوا أكثر من ثلاثمئة سنة ، تبدلت فيها الدول التي كانوا فيها والبلاد والعباد ، وجاء غيرهم وذهبوا وجاء غيرهم ، ولهذا لما دخل أحدهم المدينة متنكراً لئلا يعرفه أحد من قومه حسب ظنه ، تنكرت له البلاد وأنكره من رآه من أهلها واستغربوا شكله

ودراهمه، فحملوه إلى متوليهم فأخبره خبرهم وما كان من أمرهم فانطلقوا معه ليريَهم المكان ، فلما قربوا من الكهف دخل إلى إخوانه فأخبرهم حقيقة أمرهم ومقدار ما رقدوا فعلموا أن هذا من قدرة الله ثم ماتوا بعد ذلك .

خبر ذي القرنين :

ملك الأرض كلها مؤمنان وكافران . سليمان النبي وذو القرنين . ونمرود وبخت نصر .

وقد ذكر الله تعالى ذا القرنين هذا وأثنى عليه بالعدل وأنه بلغ مشارق الأرض ومغاربها أو قرني الشمس شرقاً وغرباً وملك ما بينهما من الأرض وهذا أشبه من غيره وهو قول الزهري .

وكان لا يغزو قوماً إلا حدثهم بلغتهم . فسار بجيوشه حتى مغرب الشمس في نظره وعلى مقدمة الجيوش الخضر عليه السلام ، ثم اجتاز إلى مشرق الشمس فإذا هي تطلع على قوم ليس لهم بيوت ولا أكنان يستترون من حر الشمس، ثم سار حتى بلغ قوماً لم يفصحوا بكلامهم من شدة عجمتهم فيقال إنهم هم الترك أبناء عم يأجوج ومأجوج، فذكروا له أن هاتين القبيلتين قد تعدوا عليهم وأفسدوا في بلادهم ، فبذلوا لذي القرنين جُعلاً وخراجاً على أن يقيم بينهم وبينهم حاجزاً يمنعهم من الوصول إليهم، فامتنع من أخذ الخراج اكتفاء بما أعطاه الله من الأموال

الجزيلة ، ثم طلب إليهم أن يجمعوا رجالاً وآلات ليبني بينهم وبينهم ردماً بين جبلين ، وكانوا لا يستطيعون الخروج إليهم إلا من بينهما ،وبقية ذلك بحار مفرقة وجبال شاهقة ، فبناه من الحديد والنحاس المذاب ، فجعل بدل اللبن الحديد وبدل الطين النحاسَ ، فما استطاعوا أن يرتقوا إليه بالسلالم ولا بالمعاول والفؤوس .

ويقال : يافث بن نوح عليه السلام أبو الترك . فيأجوج ومأجوج طائفة من الترك وهم مغل المغول ، وهم أشد بأساً وأكثر فساداً من هؤلاء .

وقد قيل : إن الترك إنما سموا بذلك حين بنى ذو القرنين السد وألجأ يأجوج ومأجوج إلى ما وراءه فبقيت منهم طائفة لم يكن عندهم كفسادهم فتركوا من ورائه فلهذا قيل لهم الترك .

قصة أصحاب الأخدود :

عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال : ((كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر الساحر قال للملك : إني قد كبرت سني وحضر أجلي ، فادفع إلي غلاماً فأعلمه السحر ، فدفع إليه غلاماً فكان يعلمه السحر .

وكان بين الساحر وبين الملك راهب ، فأتى الغلام الراهب فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه ، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال : ما حبسك ؟ وإذا أتى أهله

ضربوه وقالوا : ماحبسك ؟ فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا أراد الساحر أن يضربك فقل : حبسني أهلي ، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل : حبسني الساحر .

فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا فقال : اليوم أعلم؛ الساحر أحب إلى الله أم أمرُ الراهب . فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس ، ورماها فقتلها ومضى الناس فأخبر الراهب بذلك فقال: أي بني، أنت اليوم أفضل مني وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل علي . فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم وكان جليس للملك فعمي فسمع به فأتاه بهدايا كثيرة فقال : اشفني ولك ماههنا أجمع فقال : ما أنا أشفي أحداً إنما يشفي الله عز وجل فإن آمنت به دعوت الله فشفاك فآمن فدعا الله فشفاه ، ثم أتى الملك فجلس منه نحوه ما كان يجلس فقال له الملك : يافلان ، من رد عليك بصرك ؟ فقال : ربي قال : أنا ؟ قال : لا ، ربي وربك الله قال : ولك رب غيري ؟ قال : نعم ، ربي وربك الله فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام فأتي به فقال : أي بني ، بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص وهذه الأدواء ؛ قال : ما أشفي أنا أحداً إنما يشفي الله عز وجل قال : أنا ؟ قال : لا . قال : ألك رب غيري ؟ قال ربي وربك الله ، فأخذه أيضاً بالعذاب

ولم يزل به حتى دل على الراهب فأتي بالراهب قال : ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه وقال للأعمى : ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه وقال للغلام : ارجع عن دينك فأبى فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا وقال : إذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه ، فذهبوا به فلما علوا الجبل قال : ((اللهم اكفنيهم بما شئت)) فرجف بهم الجبل فدُهدهوا أجمعون . وجاء الغلام يتلمس ، حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله ، فبعث به مع نفر في قرقور – قارب – فقال : إذا لججتم البحر فإن رجع عن دينه وإلا فغرقوه في البحر ، فلججوا به البحر فقال الغلام : ((اللهم اكفنيهم بما شئت)) فغرقوا أجمعون وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله . ثم قال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني وإلا فإنك لا تستطيع قتلي قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس في صعيد واحد ثم تصلبني على جذع وتأخذ سهماً من كنانتي ثم قل : بسم الله رب الغلام . فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني .

ففعل ووضع السهم في كبد القوس ثم رماه وقال : بسم الله رب الغلام ، فوقع السهم في صدغه فوضع الغلام يده موضع السهم ومات فقال الناس : آمنا برب الغلام ،

فقيل للملك : أرأيت ما كنت تحذر ؟ فقد نزل بك ؛ قد آمن الناس كلهم ، فأمر بأفواه السِّكك فخددت فيها الأخاديد وأضرمت فيها النيران وقال : من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها .

فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون فجاءت امرأة بابن لها ترضعه ، فكأنها تقاعست أن تقع في النار فقال الصبي: (**اصبري ياأماه فإنك على الحق**) [1] .



(١) أخرجه الإمام أحمد برقم (٢٢٨٠٥) .

ذكر أخبار العرب



ذكر أخبار العرب :

الصحيح المشهور أن العرب العاربة قبل إسماعيل ؛ أما العرب المستعربة وهم عرب الحجاز فمن ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

وأما عرب اليمن فالمشهور أنهم من قحطان وجميع العرب ينقسمون إلى قسمين : قحطانية وعدنانية ، فالقحطانية شعبان : سبأ وحضر موت .

والعدنانية شعبان أيضاً ربيعة ومضر ابنا نزار بن معد ابن عدنان وقضاعة في اليمن من حمير بن سبأ .

وقحطان أول من قيل له : أبيت اللعن وأول من قيل له: أنعم صباحاً .

قصة سبأ :

قال علماء النسب : اسم سبأ عبد شمس بن يشجب ابن يعرب بن قحطان .

قالوا : وكان أول من سبى في العرب فسمي سبأ لذلك . ويقال إنه أول من تتوج وذكر بعضهم أنه كان مسلماً وكان له شعر بشر فيه بالرسول فمن ذلك قوله :

سيملك بعدنا ملكاً عظيماً ... نبيٌّ لا يرخص في الحرام

ويملك بعده منهم ملوك ... يدينون العباد بغير ذام

عن عبد الرحمن بن وعلة سمعت عبد الله بن عباس يقول : إن رجلاً سأل النبي ﷺ عن سبأ ما هو ؟ أرجل أم امرأة أم أرض ؟ فقال :

((بل هو رجل ولد عشرة فسكن اليمن منهم ستة وبالشام منهم أربعة فأما اليمانيون ؛ فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير وأما الشامية ؛ فلخم وجذام وعاملة وغسان)) (1) .

وكانت العرب تسمي كل من ملك اليمن مع الشحر وحضر موت تُبَّعاً ، كما يسمون من ملك الشام والجزيرة قيصر ، ومن ملك مصر فرعون ، ومن ملك الحبشة النجاشي ومن ملك الهند بطليموس .

ذكر غير واحد من علماء السلف والخلف أن سد مأرب كانت صنعته أن المياه تجري من بين جبلين فسدوا ما بينهما ببناء محكم جداً ، حتى ارتفع الماء فحكم على أعالي الجبلين وغرسوا فيهما البساتين ويقال : كان أول من بناه سبأ بن يعرب وسلط إليه سبعين وادياً يفد إليه وجعل له ثلاثين فرضة يخرج منها الماء وكان اتساعه فرسخاً في فرسخ ، ذكر قتادة وغيره أن المرأة كانت تمر بالمكتل على رأسها فيمتلئ من الثمار مما يتساقط فيه من نضجه وكثرته ، وذكروا أنه لم يكن في بلادهم شيء من البراغيث ولا الدواب المؤذية لصحة هوائهم وطيب فِنائهم .

---

(1) أخرجه الإمام أحمد رقم (٢٧٤٨) .

فلما عبدوا غير الله وبطروا نعمته وسألوا أن يباعد الله بين أسفارهم وطلبوا أن يبدل بالخير شراً كما سأل بنو إسرائيل بدل المن والسلوى البقول والقثاء والفوم والعدس والبصل فسلبوا تلك النعمة العظيمة بتخريب البلاد والشتات على وجوه العباد .

أرسل الله على أصل السد الفأر ، فلما فطنوا لذلك أرصدوا عندها السنانير فلم تغن شيئاً إذ قد حم القدر ولم ينفع الحذر فلما تحكّم في أصله الفساد سقط وانهار فأصبحت زروعهم وأشجارهم كما يقال في المثل : لحم جمل غث على رأس جبل وعر ؛ لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقى ، فتفرقوا أيدي سبأ شذر مذر ، فنزلت طائفة منهم الحجاز وهم ؛ خزاعة نزلوا ظاهر مكة ومنهم الأوس والخزرج سكنوا المدينة النبوية اليوم فكانوا أول من سكنها ثم نزلت عندهم ثلاث قبائل من اليهود ؛ بنو قينقاع وبنو قريظة ، وبنو النضير ، فحالفوا الأوس والخزرج وأقاموا عندها . ونزلت طائفة أخرى منهم الشام وهم غسان وعاملة وبهراء ولخم وجذام وتنوخ وتغلب وغيرهم[1] .

---

(١) واقول : عند زيارتي لليمن في ١٤٢٨/١/١٥هـ اجتمعت بمهندس عمل في سد مارب قال لي : لما جاء سيل العرم كما ذكر الله تعالى في القرآن الكريم ، جرف الطمي فسد فتحات تصريف المياه فصار الماء يسقط من أعلى الجدار شلالاً عظيماً مما فتت الأرض خلف جدار السد فانهار . والله أعلم .

قصة تبع أبي كرب تبّان أسعد :

قال ابن إسحاق : وتبان أسعد أبو كرب ، هو الذي قدم المدينة وساق الحِبرين من اليهود إلى اليمن وعمر البيت الحرام وكساه ، وكان قد جعل طريقه حين رجع من غزوة بلاد المشرق على المدينة ، وكان قد مر بها في بدأته فلم يُهِجْ أهلها ، وخلف بين أظهرهم ابناً له ، فقتل غيلة ، فقدمها وهو مجمع لإخرابها واستئصال أهلها فجمع له هذا الحي من الأنصار ورئيسهم عمرو بن طلة أخو بني النجار فاقتتلوا ، فتزعم الأنصار أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل فيعجبه ذلك منهم ويقول : والله إن قومنا لكرام .

قال السهيلي : ويقال : إنه إنما جاء لنصرة الأنصار ــ أبناء عمه ــ على اليهود الذين نزلوا عندهم في المدينة على شروط ، فلم يفوا بها واستطالوا عليهم ، والله أعلم .

قال ابن اسحاق : فبينا تُبَّع على ذلك من قتالهم ، إذ جاءه حبران من أحبار اليهود من بني قريظة عالمان راسخان حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلها فقالا له : أيها الملك لا تفعل فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها ولم نأمن عليك عاجل العقوبة فقال لهما : ولم ذلك ؟ قالا : هي مهاجر نبي يخرج من هذا الحرم من قريش إلى آخر الزمان تكون داره وقراره ، فتناهى وأعجبه ما سمع منهما ، فانصرف عن المدينة واتبعهما على دينهما وكان تبع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها فتوجه إلى مكة وهي طريقه إلى

اليمن حتى إذا كان بين عسفان وأمج أتاه نفر من هذيل فقالوا له : أيها الملك ألا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك ؛ فيه اللؤلؤ والياقوت والذهب والفضة ؟ قال : بلى . قالوا : بيت بمكة يعبده أهله ويصلون عنده وإنما أراد الهذليون هلاكه بذلك لما عرفوا من هلاك من أراده من الملوك وبغى عنده ، فلما أجمع لما قالوا أرسل إلى الحبرين فسألهما عن ذلك قالا له : ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك ما نعلم بيتاً لله عز وجل اتخذه في الأرض لنفسه غيره ولئن فعلت ما دعوك إليه لتهلكن وليهلكن من معك جميعاً قال : فماذا تأمرانني أن أصنع إذا أنا قدمت عليه ؟ قالا : تصنع ما يصنع أهله ، تطوف به وتعظمه وتكرمه وتحلق رأسك عنده وتذل له حتى تخرج من عنده .

فقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم ثم مضى حتى قدم مكة فطاف بالبيت ونحر عنده وحلق رأسه، وأري في المنام أن يكسو البيت فكساه ثم خرج تبع متوجهاً إلى اليمن . عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ((لا تسبوا أسعد الحميري فإنه أول من كسا الكعبة)) .

وقد قال تبع شعراً :

شهدت على أحمر أنه
نبي من الله باري النسم
فلو مُدَّ عمري إلى عمره
لكنت وزيراً له وابن عم

وجاهـــــدت بالـــــسيف أعــــداءه

وفرجـــت عـــن صـــدره كـــل هـــم

ولم يزل هذا الشعر تتوارثه الأنصار ويحفظونه بينهم وكان عند أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه وأرضاه .

أصحاب الفيل :

قيل : أول من ذلل الفيلة أفريدون بن أثفيان ، قاله الطبري . وهو أول من اتخذ للخيل السروج وأول من سخر الخيل وركبها فطهمورث وهو الملك الثالث من ملوك الدنيا ، ويقال : إن أول من ركبها إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، ويحتمل أنه أول من ركبها من العرب والله تعالى أعلم ويقال : إن الفيل مع عظم خلقته يفرق من الهر . وقد احتال بعض أمراء الحروب في قتال الهنود بإحضار سنانير إلى حومة الوغى فنفرت الفيلة .

قال ابن إسحاق : ثم إن أبرهة بنى القُلَّيْسَ بصنعاء ، فبنى كنيسة لم يُر مثلها في زمانها بشيء من الأرض ثم كتب إلى النجاشي : إني قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب .

فخرج رجل من كنانة حتى أتى القليس فأحدث فيه ثم خرج فلحق بأرضه .

فغضب أبرهة عند ذلك وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه . فقاتلته بعض قبائل العرب في مسيره إلى البيت

فأسر نفيل بن حبيب ، وكان أبو رغال يدل الأحباش على الطريق إلى مكة حتى أنزلهم بالمغمس مات أبورغال هناك فرجمت العرب قبره فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس .

وأبو رغال كان رجلاً من ثمود والجمع بين هذا وذاك أن أبا رغال المتأخر وافق اسمه اسم جده الأعلى ورجمه الناس كما رجموا قبر الأول . والله أعلم .

قال جرير :

إذا مات الفرزدق فارجموهُ
كرجمكمُ لقبر أبي رغالِ

وأرسل الله على الأحباش طيراً من البحر أمثال الخطاطيف ؛ مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها أمثال الحمص والعدس وليس كلّهم أصابت .

وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التي منها جاؤوا ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق إلى اليمن فقال نفيل في ذلك :

ألا حُييت عنا يارديناً
نعمناكم مع الإصباح عيناً
ردينةُ ؛ إن رأيت ولا تريه
لدى جنب المحصَّب ما رأينا
إذاً لعذرتني وحمدت امري
ولم تأسَي على ما فات بيننا

حمـــدتُ الله إذ أبـــصرت طـــيراً
وخفـــت حجـــارة تلقـــى علينـــا
وكـــل القـــوم يـــسأل عـــن نفيـــل
كـــأن علـــي للحبـــشان دَيْنـــا

وفي عامها ولد رسول الله ﷺ على المشهور ثم عاد الملك إلى اليمن على يد سيف بن ذي يزن .

قصة عبادة العرب للأصنام :

استمرت خزاعة على ولاية البيت نحواً من ثلاثمئة سنة ، وكانوا مشؤومين في ولايتهم وذلك لأن في زمانهم كان أول عبادة الأوثان بالحجاز وذلك بسبب رئيسهم عمرو ابن لُحَي لعنه الله ؛ فإنه أول من دعاهم إلى ذلك ، وكان ذا مال جزيل جداً يقال إنه فقأ أعين عشرين بعيراً وذلك عبارة عن أنه ملك عشرين ألف جمل وكان قوله وفعله فيهم كالشرع المتبع لشرفه فيهم ومحلته عندهم وكرمه عليهم قدم بصنم هبل فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه . ثم كثرت الأصنام في العرب قال السهيلي : إن أجأ وسلمى وهما جبلان إنما سميا باسم رجل اسمه أجأ بن عبد الحي فجر بسلمى بنت حام فصلبا في هذين الجبلين فعرفا بهما وكان بين أجأ وسلمى صنم لطيئ يقال له : فلس .

قصة الساطرون صاحب الحضر :

والحضر حصن عظيم ، بناه هذا الملك ، وهو الساطرون ، على حافة الفرات ، وهو منيف مرتفع البناء ،

واسع الرحبة والفناء ، دَوْره بقدر مدينة عظيمة ، وهو في غاية الإحكام والبهاء ، والحسن والسناء ، وإليه يجبى ما حوله من الأقطار والأرجاء ، واسم الساطرون : الضيزن بن معاوية بن عبيد بن أجرم من بني سليح بن حلوان بن الحاف ابن قضاعة . كذا نسبه ابن الكلبي . وقال غيره : كان من الجرامقة ، وكان أحد ملوك الطوائف ، وكان يقدمهم إذا اجتمعوا لحرب عدو من غيرهم ، وكان حصنه بين دجلة والفرات .

قال ابن هشام : وكان كسرى سابور ذو الأكتاف ، غزا الساطرون ملك الحضر . وقال غير ابن هشام : إنما الذي غزا صاحب الحضر ، سابور بن أزد شير بن بابك ، أول ملوك بني ساسان ، أذل ملوك الطوائف ، ورد الملك إلى الأكاسرة . وأما سابور ذو الأكتاف بن هرمز فبعد ذلك بدهر طويل . والله أعلم . ذكره السهيلي .

قال ابن هشام : فحصره سنتين . وقال غيره : أربع سنين. وذلك لأنه كان أغار على بلد سابور في غيبته بأرض العراق ، فأشرفت بنت الساطرون ، وكان اسمها النضيرة، فنظرت إلى سابور وعليه ثياب ديباج ، وعلى رأسه تاج من ذهب ، مكلل بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ ، وكان جميلاً ، فدست إليه : أتتزوجني إن فتحت لك باب الحضر؟ فقال : نعم . فلما أمسى ساطرون ، شرب حتى سكر ، وكان لايبيت إلا سكران ، فأخذت مفاتيح باب الحضر

من تحت رأسه ، وبعثت بها مع مولى لها ، ففتح الباب . ويقال : بل دلتهم على نهر يدخل منه الماء ، متسع ، فولجوا منه إلى الحضر . ويقال : بل دلتهم على طِلَّسْمٍ كان في الحضر ، وكان في علمهم أنه لا يفتح حتى تؤخذ حمامة ورقاء ، وتخضب رجلاها بحيض جارية بكر زرقاء ، ثم ترسل ، فإذا وقعت على سور الحضر ، سقط ذلك الطلسم فيفتح الباب ، ففُعل ذلك ، فانفتح الباب ، فدخل سابور فقتل ساطرون ، واستباح الحضر وخربه ، وسار بها معه فتزوجها ، فبينا هي نائمة على فراشها ليلاً ، إذ جعلت تململ لا تنام ، فدعا لها بالشمع ففتش فراشها ، فوجد عليه ورقة آس ، فقال لها سابور : أهذا الذي أسهرك ؟ قالت : نعم ، قال : فما كان أبوك يصنع بك ؟ قالت : كان يفرش لي الديباج ويلبسني الحرير ، ويطعمني المخ ، ويسقيني الخمر . قال : أفكان جزاء أبيك ما صنعت به ؟ ! أنت إلي بذلك أسرع . ثم أمر بها ، فربطت قرون رأسها بذنب فرس ، ثم ركض الفرس ، حتى قتلها .

ذكر شيء من أخبار عبد الله بن جدعان :

هو عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تيم بن مرة ، سيد بني تيم ، وهو ابن عم والد أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه .

وكان من الكرماء الأجواد في الجاهلية ، والمطعمين للمسنتين ، وكان في بدء أمره فقيراً مملقاً ،

وكان شريراً يكثر من الجنايات ، حتى أبغضه قومه وعشيرته وأهله وقبيلته ، وأبغضوه حتى أَبَوْهُ ، فخرج ذات يوم في شعاب مكة حائراً باسراً ، فرأى شقاً في جبل ، فظن أن يكون به شيء يؤذي ، فقصده لعله يموت ، فيستريح مما هو فيه، فلما اقترب منه إذا ثعبان يخرج إليه ويثب عليه ، فجعل يحيد عنه ويثب ، فلا يغني شيئاً ، فلما دنا منه ، إذا هو من ذهب ، وله عينان هما ياقوتتان ، فكسره وأخذه ودخل الغار، فإذا فيه قبور لرجال من ملوك جُرْهُم ، ومنهم الحارث بن مضاض ، الذي طالت غيبته فلا يدرى أين ذهب، ووجد عند رؤوسهم لوحاً من ذهب ، فيه تاريخ وفاتهم ومُدد ولايتهم، وإذا عندهم من الجواهر واللآلىء والذهب والفضة شيء كثير ، فأخذ منه حاجته ثم خرج ، وعلّم باب الغار ، ثم انصرف إلى قومه ، فأعطاهم ، حتى أحبوه ، وسادهم وجعل يطعم الناس ، وكلما قل ما في يده ذهب إلى ذلك الغار ، فأخذ ثم رجع ، فمن ذكر هذا عبد الملك بن هشام في كتاب ((التيجان)) وذكره أحمد بن عمار في كتاب ((ري العاطش وأنس الواحش)) وكانت له جفنة يأكل منها الراكب على بعيره ، ووقع فيها صغير فغرق .

وذكر ابن قتيبة[1] وغيره أن رسول الله ﷺ قال : ((لقد كنت أستظل بظل جفنة عبد الله بن جدعان صكة عُمَيٍّ)) أي ؛ وقت الظهيرة .

(١) في غريب الحديث ٤٥٥/١ .

وفي حديث مقتل أبي جهل ، أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : ((تطلّبوه بين القتلى ، وتعرفوه بشجة في ركبته، فإني تزاحمت أنا وهو على مأدبة لابن جدعان فدفعته ، فسقط على ركبته، فأثرها باق في ركبته)) فوجدوه كذلك . وذكروا أنه كان يطعم التمر والسويق ، ويسقي اللبن ، حتى سمع قول أمية بن الصلت :

ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم
فرأيت أكرمهم بني الديان
البُر يُلبك بالشهاد طعامهم
لا ما يعللنا بنو جدعان

فأرسل ابن جدعان إلى الشام ألفي بعير ، تحمل البر والشهد والسمن ، وجعل منادياً ينادي كل ليلة على ظهر الكعبة ، أن هلموا إلى جفنة ابن جدعان .

فقال أمية في ذلك :

له داع بمكة مشمعلٌ[1]
وآخر فوق كعبتها ينادي
إلى ردح من الشيزى ملاء
لُباب البر يلبك بالشهاد

---

(١) مشمعل : سريع .

ذكر شيء من أخبار أمية بن أبي الصلت الثقفي :

قال الحافظ ابن عساكر : هو أمية بن أبي الصلت عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف ابن ثقيف بن منبة بن بكر بن هوازن ، أبو عثمان ، ويقال: أبو الحكم الثقفي . شاعر جاهلي ، قدم دمشق قبل الإسلام ، وقيل : إنه كان مستقيماً وإنه كان في أول أمره على الإيمان ثم زاغ عنه ، وإنه هو الذي أراده الله تعالى بقوله ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ (الأعراف:١٧٥) .

قال أبو سفيان : خرجت في ركب من قريش أريد اليمن في تجارة ، فمررت بأمية ، فقلت له كالمتسهزئ به : ياأمية ، قد خرج النبي الذي كنت تنعته . قال : أما إنه حق، فاتبعه . قلت : ما يمنعك من اتباعه ؟ قال : ما يمنعني إلا الاستحياء من نُسيات ثقيف ، إني كنت أحدثهن أني هو ، ثم يرينني تابعاً لغلام من بني عبد مناف . ثم قال أمية: وكأني بك ياأبا سفيان إن خالفته قد ربطت كما يربط الجدي ، حتى يؤتى بك إليه فيحكم فيك بما يريد .

وروى الحافظ بن عساكر عن الزهري أنه قال : قال أمية بن أبي الصلت :

الا رســـولٌ لنـــا منـــا فيخبَرنـــا
مـــا بُعـــد غايتنـــا مـــن رأس مُجرانـــا

ثم خرج أمية بن أبي الصلت إلى البحرين ، وتنبأ رسول الله ﷺ وأقام أمية بالبحرين ثماني سنين ، ثم قدم الطائف فقال لهم : ما يقول محمد بن عبد الله ؟ قالوا : يزعم أنه نبي ، فهو الذي كنت تتمنى . قال : فخرج حتى قدم عليه مكة فلقيه ، فقال : يابن عبد المطلب ، ما هذا الذي تقول ؟ قال : ((أقول : إني رسول الله وأن لا إله إلا هو)) . قال : إني أريد أن أكلمك ، فعدني غداً . قال : ((فموعدك غداً)) .

قال : فتحب أن آتيك وحدي أو في جماعة من أصحابي ، وتأتيني وحدك أو في جماعة من أصحابك ؟ فقال رسول الله ﷺ : ((أي ذلك شئت)) . قال : فإني آتيك في جماعة ، فأت في جماعة . قال : فلما كان الغد غدا أمية في جماعة من قريش . قال : وغدا رسول الله ﷺ معه نفر من أصحابه، حتى جلسوا في ظل الكعبة . قال : فبدأ أمية فخطب ثم سجع ثم أنشد الشعر ، حتى إذا فرغ قال : أجبني يابن عبد المطلب . فقال رسول الله ﷺ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ (يس : ١) .

حتى إذا فرغ منها وثب أمية يجر رجليه . قال : فتبعته قريش يقولون : ما تقول يا أمية ؟ قال : أشهد أنه الحق . فقالوا : هل تتبعه ؟ قال : حتى أنظر في أمره . قال : ثم خرج أمية إلى الشام فلما قتل أهل بدر ، قدم أمية من الشام حتى

نزل بدراً ، ثم ترحل يريد رسول الله ﷺ فقال قائل : يا أبا الصلت ، ما تريد ؟ قال : أريد محمداً . قال : وما تصنع ؟

قال : أؤمن به وألقي إليه مقاليد هذا الأمر . قال : أتدري من في القليب ؟ قال : لا . قال : فيه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وهما ابنا خالك ـ وأمه ربيعة بنت عبد شمس ـ قال : فجدع أذني ناقته وقطع ذنبها ، ثم وقف على القليب يقول :

ماذا ببدر فالعقنقل من مرازبة جحاجح

ومن شعر أمية بن أبي الصلت يمدح عبد الله بن جدعان التيمي :

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك ؟ إن شيمتك الحياء

وعلمك بالحقوق وأنت فرع لك الحسب المهذب والسناء

كريم لا يغيره صباح عن الخلق الجميل ولا مساء

يباري الريح مكرمة وجوداً إذا ما الكلب أجحره الشتاء

وأرضك أرض مكرمة بنتها بنو تيم وأنت لها سماء

إذا أثنى عليك المرء يوماً
كفاه من تعرضه الثناء

وله فيه مدائح أخر وكان يعتق الرقاب ، ويعين على النوائب،ومع هذا كله فقد ثبت في (الصحيح) لمسلم أن عائشة قالت : يا رسول الله ، إن ابن جدعان كان يطعم الطعام ويقري الضيف فهل ينفعه ذلك يوم القيامة ؟ فقال : ((لا ، إنه لم يقل يوماً : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين)) .

ذكر قس بن ساعدة الإيادي

قال رسول الله ﷺ عن قس : ((مهما نسيت فلست أنساه بسوق عكاظ ، واقفاً على جمل أحمر يخطب الناس: اجتمعوا فاسمعوا ، وإذا سمعتم فعوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا ، وقولوا ، وإذا قلتم فاصدقوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، مطر ونبات ، وأحياء وأموات، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وضوء وظلام ، وليل وأيام ، وبر وآثام ، إن في السماء خبراً ، وإن في الأرض عبراً ، يحار فيهن البصر، مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تغور ، وبحار لا تغور، ومنايا دوان ، ودهر خوان ، كحد النسطاس ، ووزن القسطاس ، أقسم قس قسماً ، لا كاذباً فيه ولا آثماً ، لئن كان في هذا الأمر رضى ، ليكونن سخط . ثم

قال : أيها الناس ، إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم هذا الذي أنتم عليه ، وهذا زمانه وأوانه ، ثم قال : مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ، أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا فناموا !)) والتفت رسول الله ﷺ ، إلى بعض أصحابه ، فقال : أيكم يروي شعره لنا ؟)) فقال أبو بكر الصديق : فداك أبي وأمي ، أنا شاهد له في ذلك اليوم حيث يقول :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائرْ

لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادر

ورأيت قوميَ نحوها تمضي الأصاغر والأكابر

لا يرجع الماضي إلي ولا من الباقين غابر

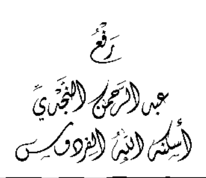
أيقنت أني لا محالة حيث صار الناس صائر

قال : فقام إلى رسول الله ﷺ ، شيخ من عبد القيس عظيم الهامة ، طويل القامة ، بعيد ما بين المنكبين ، فقال: فداك أبي وأمي ، وأنا رأيت من قس عجباً . فقال له رسول الله ﷺ : ((ما الذي رأيت يا أخا بني عبد القيس ؟))

فقال : خرجت في شبيبتي أربغُ بعيراً لي ، ففر مني فذهبت أقفو أثره في تنائف قفاف ذات ضغابيس ، وعرصات جثجاث ، بين صدور جذعان ، وغمير حوذان ، ومهمه ظلمان ، ورصيع أيهقان ، فبينا أنا في الفلوات أجول بسبسها وأرنق فدفدها ، إذا أنا بهضبة في نشزاتها أراك كباث مخضوضلة وأغصانها متهدلة ، كأن بريرها حب الفلفل وبواسق أقحوان ، وإذا بعين خرارة وروضة مدهامة ، وشجرة عارمة ، وإذا أنا بقس بن ساعدة في أصل تلك الشجرة وبيده قضيب ، فدنوت منه وقلت له : أنعم صباحاً .

فقال : وأنت فنعم صباحك . وقد وردت العين سباع كثيرة فكان كلما ذهب سبع منها يشرب من العين قبل صاحبه ضربه قس بالقضيب الذي بيده ، وقال : اصبر حتى يشرب الذي قبلك . فذعرت من ذلك ذعراً شديداً ، ونظر إلي فقال : لا تخف . وإذا بقبرين بينهما مسجد فقلت : ما هذان القبران ؟ قال : قبرا أخوين كانا يعبدان الله عز وجل، بهذا الموضع ، فأنا مقيم بين قبريهما أعبد الله حتى ألحق بهما . فقلت له : أفلا تلحق بقومك فتكون معهم في خيرهم وتباينهم على شرهم ؟ فقال لي : ثكلتك أمك أو ما علمت أن ولد إسماعيل تركوا دين أبيهم واتبعوا الأضداد وعظموا الأنداد ؟ ثم أقبل على القبرين وأنشأ يقول :

خليلـــي هبـــا طالمـــا قـــد رقـــدتما
أجـــدَّكما لا تقـــضيان كراكمـــا؟
أمـــن طـــول نـــوم لا تجيبـــان داعيـــاً ؟
كـــأن الـــذي يـــسقى العُقـــار سـقاكما
ألم تعلمـــــا أنـــــي بنجـــــران مفـــــرداً
ومـــالي فيـــه مـــن حبيـــب ســـواكما
مقـــيم علـــى قبريكمـــا لـــست بارحـــاً
إيـــاب الليـــالي أو يجيـــب صـــداكما
أأبكيكمـــا طـــول الحيـــاة ؟ ومـــا الـــذي
يـــرد علـــى ذي لوعـــة أن بكاكمـــا ؟
فلـــو جعلـــت نفـــس لـــنفس امـــرئ فـــدًى
لجـــدت بنفـــسي أن تكـــون فـــداكما
كأنكمـــــا والمـــــوت أقـــــرب غايـــــة
بروحـــيَ في قبريكمـــا قـــد أتاكمـــا



كتاب سيرة رسول الله ﷺ

قال أبو طالب يمدح النبي ﷺ

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر
فعبد مناف سرها وصميمها
فإن حصلت أشراف عبد منافها
ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوماً فإن محمداً
هو المصطفى من سرها وكريمُها

ولد صلوات الله وسلامه عليه يوم الاثنين . عن أبي قتادة أن أعرابياً قال : يا رسول الله ، ما تقول في صوم يوم الاثنين ؟ فقال ((ذاك يوم ولدت فيه وأنزل علي فيه)) (١) .

وكان مولده عليه الصلاة والسلام عام الفيل وهذا . هو المشهور عن الجمهور .

قال الزبير بن بكار : توفي عبد الله ـ والد الرسول ـ بالمدينة ورسول الله ﷺ ابن شهرين وماتت أمه آمنة بنت وهب وهو ابن أربع سنين ومات جده ﷺ وهو ابن ثمان سنين فأوصى به إلى عمه أبي طالب ، والذي رجحه الواقدي أنه

(١) صحيح مسلم (١١٦٢) .

عليه الصلاة والسلام توفي أبوه وهو جنين في بطن أمه وهذا أبلغ اليتم وأعلى مراتبه .

واسترضع عليه الصلاة والسلام من حليمة بنت أبي ذؤيب . قال محمد بن إسحاق : فشب رسول الله ﷺ يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته ، قال رسول الله ﷺ : ((ما بعث الله نبياً إلا راعي غنم)) [1] .

فقال له أصحابه : وأنت يا رسول الله قال : وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط ، واشترك ﷺ مع أعمامه في حرب الفجار وهو ابن أربع عشرة سنة أو خمس عشرة ينصر المظلوم على الظالم ، وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ، وقد تجر ﷺ لها في تجارة إلى الشام لما بلغها من صدق حديثه وعظيم أمانته وكرم أخلاقه وكان معه ﷺ غلامها ميسرة فحدثها بما رآه من الغمامة تظلله ﷺ فعرضت نفسها عليه للزواج منها فقبل .

تزوج رسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد وله من العمر خمسة وعشرون عاماً .

ثم جددت قريش الكعبة قبل البعثة بخمس سنين ، حتى إذا بنوها فبلغوا موضع الركن اختصمت قريش في

(١) أخرجه ابن ماجه برقم (٢١٤٠) .

الركن أيُّ القبائل تريد رفعه فقالوا : تعالوا نحتكم إلى أول من يطلع علينا ، فطلع عليهم رسول الله ﷺ فحكموه فأمر بالركن فوضع في ثوب ثم أخرج سيد كل قبيلة فأعطاه ناحية من الثوب ثم ارتقى هو فرفعوا إليه الركن فكان هو يضعه . كان ﷺ لا يزداد على السن إلا رضاً حتى دعوه الأمين قبل أن ينزل عليه الوحي .

بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ

كان ذلك وله من العمر أربعون سنة . قال البخاري : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث ــ يتعبد ــ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله حتى فجأه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ . فقال : ((ما أنا بقارئ)) قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ((ما أنا بقارئ)) فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ((ما أنا بقارئ)) فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق: ١-٥) فرجع رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال :

((زملوني ، زملوني)) ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر : ((لقد خشيت على نفسي)) [1] فقالت خديجة : لا والله ، لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتقري الضيف ، وتحمل الكَلَّ وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ابن عم خديجة وكان شيخاً كبيراً قد عمي فقالت له خديجة : يا بن عم اسمع من ابن أخيك . فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس الذي كان ينزل على موسى ، يا ليتني فيها جذعاً ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : ((أوَ مخرجيَّ هم ؟)) فقال : نعم ، لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً .

ثم فتر الوحي . وفي الصحيحين عن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي قال : ((فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجُئِثتُ ـ فزعت ـ منه فرقاً حتى هويت إلى الأرض فجئت أهلي فقلت : ((دثروني دثروني)) فأنزل الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ (المدثر:١-٥) ثم حمي الوحي .

---

(١) صحيح البخاري (٦٩٨٢/٣) .

ولما بعث النبي ﷺ منعت الشياطين من استراق أخبار السماء وكانوا يصعدون يسترقون كلمة وهي حق فيضيفون عليها تسعاً كلها باطل ، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك ، فلما منعوا ذكروا ذلك لإبليس فقال لهم : هذا لأمر قد حدث في الأرض ، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين جبلين ، فأتوا إبليس فأخبروه فقال، هذا الأمر الذي قد حدث في الأرض .

وكانت خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله ورسوله. ثم إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه جاء بعد ذلك بيوم وهما يصليان فقال علي : يا محمد ما هذا ؟

قال : دين الله الذي اصطفاه لنفسه وبعث به رسله فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عبادته وكفر باللات والعزى .

فقال علي : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم فأسلم علي ثم أبوبكر . ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ بإبلاغ الرسالة إلى الخاص والعام قال الله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء:٢١٤) فجهر رسول الله ﷺ . قال ابن إسحاق : ثم إن قريشاً تذامروا بينهم على مَنْ في القبائل مِنْ أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه ، فوثبت كل قبيلة على مَنْ فيها مِن المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم .

وقد قال أبو طالب يمنع رسول الله ﷺ:

ولما رأيت القوم لا ودَّ فيهمُ
وقد قطعوا كل العُرى والوسائل

وقد صارحونا بالعداوة والأذى
وقد طاوعوا أمر العدو المزايل

صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة
وأبيض عضب من تراث المقاول

وأحضرت عند البيت رهطي وإخوتي
وأمسكت من أثوابه بالوصائل

أعوذ برب الناس من كل طاعن
علينا بسوء أو ملحٍّ بباطل

ومن كاشح يسعى لنا بمعيبة
ومن ملحق في الدين مالم نحاول

وبالحجر المسود إذ يمسحونه
إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة
على قدميه حافياً غير ناعل

ومن حج بيت الله من كل راكب
ومن كل ذي نذر ومن كل راجل

فهل بعد هذا من معاذ لعائذ
وهل من معيذ يتقي الله عاذل ؟

كذبتم وبيت الله نترك مكة
ونظعن إلا أمركم في بلابل
كذبتم وبيت الله نُبزى محمداً
ولما نطاعنْ دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرَّع حوله
ونذهل عن أبنائنا والحلائل
وينهض قوم بالحديد إليكمُ
نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاّك من آل هاشم
فهم عنده في رحمة وفواضل

وهي قصيدة زادت على مئة بيت . قال فيها المؤلف ابن كثير : هذه قصيدة عظيمة فصيحة بليغة جداً لا يستطيع أن يقولها إلا من نسبت إليه ، وهي أفحل من المعلقات السبع وأبلغ في تأدية المعنى منها جميعاً .

وقد أسلم حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ فامتنع به أصحابه ، وأسلم عمر بن الخطاب وكان رجلاً ذا شكيمة لا يرام وراء ظهره .

ومنع الله رسوله ﷺ بعمه أبي طالب فقال ﷺ لأصحابه بعد ما اشتد البلاء عليهم : ((لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه)) فخرجوا فكانت أول هجرة في الإسلام.

فبعثت قريش رجلين إلى النجاشي هما عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ليردوا المهاجرين المسلمين إلى قريش . فطردهما النجاشي .

ثم إن المشركين اشتدوا على المسلمين وأجمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يُدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم ، وأمرهم أن يمنعوه ممن أرادوا قتله فاجتمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم ، فأجمع المشركون أمرهم أن لا يجالسوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا في ذلك صحيفة فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين ، واشتد عليهم البلاء .

ثم تواعد رجال على نقض الصحيفة فنقضوها فوجدوا الأرضة قد أكلتها إلا ((باسمك اللهم)) وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة فشلت يده فيما يزعمون .

وجاء الأعشى ليسلم فقال يمدح النبي ﷺ :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا
وبت كما بات السليم مسهَّدا ؟
نبي يرى ما لا ترون ، وذِكْرُهُ
أغار لعمري في البلاد وأنجدا

لكن المشركين ردوه فمات كافراً .

الإسراء والمعراج :

قال ابن إسحاق رحمه الله : ثم أسري برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وقد فشا الإسلام بمكة في قريش وفي القبائل كلها . ولما فرغ ﷺ من أمر بيت المقدس نصب له المعراج وهو السلم فصعد فيه إلى السماء ولم يكن الصعود على البراق . وفي المعراج كان فرض الصلاة .

ثم عاد رسول الله ﷺ من بيت المقدس إلى مكة المكرمة على البراق ولما أصبح من صبيحة ليلة الإسراء جاءه جبريل عند الزوال فبين له كيفية الصلاة وأوقاتها ، وأمر رسول الله ﷺ أصحابه فاجتمعوا وصلى به جبريل في ذلك اليوم إلى الغد والمسلمون يأتمون بالنبي ﷺ وهو يقتدي بجبريل .

ذكر ابن إسحاق أن الإسراء كان بعد البعثة بنحو من عشر سنين .

قال ابن إسحاق : ثم إن خديجة وأبا طالب هلكا في عام واحد ، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بُهلك خديجة ، وكانت له وزير صدق على الإسلام يسكن إليها ، وبهلك عمه أبي طالب وكان له عضداً وحرزاً وناصراً وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين ، فازداد إيذاء قريش لرسول الله ﷺ .

بدء إسلام الأنصار :

فلما أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيه خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار ، قال لهم الرسول ﷺ : من أنتم ؟ قالوا نفر من الخزرج قال : ((من موالي يهود ؟)) قالوا : نعم . قال : ((أفلا تجلسون أكلمكم ؟)) قالوا : بلى . فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن . فقال بعضهم لبعض : يا قوم ، تعلمون والله إنه للنبيُّ الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه .

وكان اليهود يقولون : إن نبياً مبعوثاً الآن قد أظل زمانه نتبعه نقتلكم معه قتل عاد وإرم .

فأجاب الأنصار الرسول ﷺ وصدقوه وكانوا ستة نفر كلهم من الخزرج فلما عاد هؤلاء الأنصار فشا الإسلام بالمدينة حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ حتى كان العام المقبل كانت

بيعة العقبة الأولى . فلما انصرف القوم إلى المدينة بعث رسول الله ﷺ مصعب بن عمير وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين .

بيعة العقبة الثانية :

ورد في بعض الأحاديث أنهم كانوا سبعين ، فالعرب كثيراً ما تحذف الكسر .

قال كعب بن مالك : اجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له ، فلما جلس كان أول من تكلم . ثم تكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب بالإسلام .

فقال أبو الهيثم بن التيِّهان : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال : فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : ((بل الدمُ الدمُ ، والهدُم الهدمُ ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربكم ، وأسالم من سالمكم)) ثم قال رسول الله ﷺ ((أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم)) ، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس .

الهجرة من مكة إلى المدينة :

قال رسول الله ﷺ وهو يومئذ بمكة للمسلمين ((قد أريت دار هجرتكم ، أُريت سبخة ذات نخل بين لا بتين)) [1] فهاجر من هاجر قِبَلَ المدينة حين ذكر رسول الله ﷺ ذلك ورجع إلى المدينة من كان هاجر إلى أرض الحبشة . وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة ، ولم يتخلف معه بمكة إلا مَن حُبس أو فُتن إلا علي بن أبي طالب والصديق رضي الله عنهما . وخافت قريش خروج رسول الله ﷺ وعرفوا أنه أجمع لحربهم فاجتمعوا في دار الندوة يتشاورون وحضر إبليس فقالوا : من الشيخ ؟ قال شيخ من أهل نجد حضر معكم ليسمع عسى ألا يعدمكم منه رأيًا ونصحاً ، فقرروا قتل النبي ﷺ فقال لعلي : ((نم على فراشي وتسج ببردي فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم)) .

واجتمع من فتيان القبائل حول باب الرسول ﷺ ومعهم السيوف ولكن الله أخذ أبصارهم فخرج رسول الله ﷺ وهو ينثر التراب على رؤوسهم ويتلو هذه الآيات ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ ﴾ إلى قوله ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ

(١) البخاري (٢٢٩٧) .

خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (يس: ١-٩) وبات علي في فراش رسول الله ﷺ والمشركون حين ينظرون من خلال الباب يقولون : إنه نائم يعنون به رسول الله ﷺ .

وهاجر الرسول ﷺ بعد ثلاث عشرة سنة من الوحي .

وكان برفقته أبوبكر الصديق رضي الله عنه اتجه خلاف الطريق نحو غار ثور فلحقه الطلب من قريش فعمى الله عنه[1] ، وكانت قريش جعلت مئة ناقة لمن يقتل الرسول ﷺ أو يدل عليه ، فلحق به سراقة المدلجي وكان أراد به شراً فمنعه الله منه ثم أسلم وورّى عن طريق النبي ﷺ ووِجهَتِه .

ووافى الرسول ﷺ المدينة يوم الاثنين فاستقبله أهلها بالأناشيد والدفوف :

طلــــع البـــــدر علينــــــا
مــــن ثنيــــات الـــــوداع

---

(١) صعد المؤلف إلى الغار في قمة جبل ثور ، وعلى الطريق عدة غارات تشبه غار ثور ، وهذا الغار صخرة مجوفة شكلها نصف كرة بابها يرتفع حوالي ٦٠ سم وعرضه حوالي ٤٠ سم ، ارتفاع السقف يصل إلى كتف الرجل واقفاً ، وفي السقف فجوة إذا أدخل الرجل رأسه فيها يقف مرتاحاً وحول الرأس فراغ كاف لا يلمس أطراف الفجوة ، أبعاد الغار حوالي مترين طولاً ومترين عرضاً سقف الغار فيه فتحة من جهته الجنوبية من كان واقفاً فوق السطح ونظر إلى موضع قدميه يرى ما في داخل الغار من جهته الجنوبية ولا يرى ما في وسط الغار وليس فيه شقوق. وقصة الثعبان من الإسرائيليات . والله أعلم .

وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا
جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة
مرحباً يا خير داع

وكان هذا التاريخ تاريخ الهجرة ابتداء التاريخ الإسلامي في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ولما بنى رسول الله ﷺ المسجد أعانه عليه أصحابه وهو معهم يتناول اللبن حتى غبّر صدره فقال : ابنوه عريشاً كعريش موسى ، يعني إذا رفع الرجل يديه بلغ السقف .

وبني لرسول الله ﷺ حول مسجده الشريف حُجَرٌ لتكون مساكن له ولأهله .

ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار وكتب في ذلك كتاباً وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم ثم شرع الأذان ، وكان وباء المدينة معروفاً في الجاهلية ، عن عائشة قالت : قدم رسول الله ﷺ المدينة وهي أوبأ أرض الله . فلما قدمها ﷺ قال : ((اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد ، وبارك لنا في مُدِّها وصاعها وانقل وباءها إلى مهيعة وهي الجحفة .

المغازي :

وأول المغازي هي غزوة الأبواء ، ويقال لها . وُدَّان . وفي صحيح البخاري عن بريدة قال : غزا مع رسول الله ﷺ ست عشرة غزوة .

وفي رواية لمسلم أن رسول الله ﷺ غزا تسع عشرة غزوة وقاتل في ثمان منهن . يوم بدر وأحد والأحزاب والمريسيع وقُدَيد وخيبر ومكة وحنين . وبعث أربعاً وعشرين سرية .

وقد وقعت غزوة بدر الأولى في السنة الأولى قال ابن إسحاق : ثم لم يقم رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من العشيرة إلا ليالي قلائل لا تبلغ العشر حتى أغار كُرْزُ بن جابر الفهري على سرح المدينة ، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه حتى بلغ وادياً يقال له سفَوان من ناحية بدر وهي غزوة بدر الأولى وقد فاته كرز فلم يدركه .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت السنة الثانية

نزل الأمر الإلهي بتحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام .

وفي هذه السنة فرض صيام شهر رمضان وفي هذه السنة أيضاً أمر الناس بزكاة الفطر وفيها صلى النبي ﷺ صلاة العيد وخرج بالناس إلى المصلى فكان أول صلاة عيد صلاها .

غزوة بدر العظمى :

وقعت في السابع عشر من رمضان حين سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان صخر بن حرب مقبلاً من الشام في عير لقريش عظيمة فيها أموال وتجارة وفيها ثلاثون رجلاً أو أربعون ، وكان في العير ألف بعير تحمل أموال قريش فقال لأصحابه : ((هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفّلُكُموها)) فخرجوا إليها .

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار ، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك ، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة فاستنفر قريشاً فخرجت على الصعب والذلول في تسعمئة وخمسين مقاتلاً معهم مئتا فرس يقودونها ومعهم القيان يضربن الدفوف ويغنين بهجاء المسلمين وكان معهم ستمئة درع .

وخرج رسول الله ﷺ ومعه ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً وسبعون بعيراً وستون درعاً . قال علي رضي الله عنه : ما كان معنا إلا فرسان ؛ فرس للزبير وفرس للمقداد بن الأسود ، يعني يوم بدر . واستشار رسول الله ﷺ أصحابه لما سمع باستنفار قريش فقال المقداد : يارسول الله امض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ،

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لوسرت بنا إلى بَرْك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه .

فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له ثم قال : أشيروا علي أيها الناس ، فقال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يارسول الله قال : ((أجل)) قال : قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك ، فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك ، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وإنا لصُبر في الحرب صدُق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك .

قال : فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ثم قال : ((سيروا وأبشروا)) .

فسار رسول الله ﷺ حتى أتى أدنى ماء من القوم بمشورة الحُباب بن المنذر رضي الله عنه ثم أمر بالقُلب فغورت ، وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه ، ثم بنى العريش بمشورة سعد بن معاذ رضي الله عنه .

وارتحلت قريش حين أصبحت فأقبلت ، فلما رآها رسول الله ﷺ قال : ((اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها

وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني اللهم أحنهم الغداة)) .

وقد تواجه الفئتان ، وتقابل الفريقان فكان أول من قتل من المشركين الأسود المخزومي وكان رجلاً شرساً سيئ الخلق خرج إليه حمزة بن عبد المطلب فلما التقيا ضربه حمزة فقطع ساقه ثم قتله في الحوض . فحمي عند ذلك عتبة بن ربيعة وأراد أن يظهر شجاعته فبرز بين أخيه شيبة وابنه الوليد فبارز عبيدة وكان أسن القوم عتبة ، وبارز حمزة شيبة ، وبارز علي الوليد ، فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله ، وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه ، وكرَّ حمزة وعلي بسيفيهما على عتبة فذففا عليه واحتملا صاحبهما ، فحازاه إلى أصحابه ثم مات رضي الله عنه فقال رسول الله ﷺ ((أشهد أنك شهيد)) وكان أول قتيل من المسلمين في المعركة مهجع مولى عمر رضي الله عنه أصابه سهم فمات .

وقد نذرت هند زوج أبي سفيان أن تأكل من كبد حمزة .

ثم تزاحف الناس والرسول ﷺ في العريش يناشد ربه ثم نزل إلى الصفوف . عن علي رضي الله عنه قال : لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو .

وأيّد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل في خمسمئة من الملائكة ، وميكائيل في خمسمئة ، وجاء إبليس في جند من الشياطين في صورة سراقة المدلجي .

وقال رسول الله ﷺ لعلي يوم بدر: ((أعطني حصى من الأرض)) فناوله حصى عليه تراب ، فرمى به وجوه القوم ، فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه من ذلك التراب شيء ، ثم ردفهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم . وأقبل أبوجهل يرتجز :

ما تنقم الحرب العوان مني بازل عامين حديث سني

لمثل هذا ولدتني أمي

وقد قيل في المعركة : أبو الحكم لا يُخلَص إليه .

ثم قتله ابنا عفراء . وطرح قتلى المشركين في القليب واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً ، وقتل من المشركين سبعون وأسر سبعون .

وأقام ﷺ في بدر ثلاثة أيام ثم ارتحل إلى المدينة ومعه الأسارى والغنائم ، حتى إذا كان بالصفراء قتل النضر بن الحارث ؛ قتله علي رضي الله عنه ثم خرج حتى إذا كان بعرق الظبية قتل عقبة بن أبي معيط ؛ قتله عاصم بن الأقلح. وتناهى خبر بدر إلى مكة نقله إليهم الحيسمان فقامت النياحة والبكاء والعويل . وبعثت قريش تفادي أسراها .

قال حسان بن ثابت : - وهذا أفخر بيت قاله العرب - .

وببئـــر بـــدر إذ يكـــف مطـــيَّهم
جبريـــل تحـــت لوائنـــا ومحمـــد

وفي هذه السنة دخل علي بن أبي طالب رضي الله عنه على زوجته فاطمة بنت رسول الله ﷺ بعد وقعة بدر .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث من الهجرة

خبر يهود بني قينقاع :

وكـان مـن حـديثهم أن رسـول الله ﷺ جمعهـم في سوقهم ثم قال : ((يا معشر يهود ، احـذروا مـن الله مثل ما نـزل بقـريش مـن النقمـة وأسلموا ، فـإنكم قـد عـرفتم أنـي نبي مرسـل تجـدون ذلـك في كتابكم وعهد الله إليكم)) قالوا : يـا محمـد إنـك تـرى أنـا قومـك ؟ لا يغرنَّك أنـك لقيـت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما نزل هؤلاء الآيات إلا فيهم ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ (آل عمران:١٢) فبنو قينقاع كانوا أول يهود نقضوا العهد وحاربوا فيما بين بدر وأحد .

وكان من أمرهم ؛ أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ هناك منهم، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهودياً ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ووقع الشر بين المسلمين وبين بني قينقاع . فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول حين أمكنه الله منهم فقال : يا محمد أحسن في مواليَّ ـ وكانوا حلفاء الخزرج ـ فأعرض عنه فأدخل يده في جيب درع النبي ﷺ قال ابن هشام : ـ وكان يقال لها : ذات الفضول ـ فقال له رسول الله ﷺ: ((أرسلني)) ثم قال : (ويحك أرسلني) قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي ؛ أربعمئة حاسر وثلاثمئة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة ؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر . فقال له رسول الله ﷺ: ((هم لك)) .

مقتل كعب بن الأشرف اليهودي :

قال محمد بن إسحاق : لما بلغه الخبر عن مقتل أهل بدر قال : والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها ، فلما تيقن عدو الله الخبر خرج إلى مكة وجعل يحرض على قتال رسول الله ﷺ وينشد

الأشعار ويندب من قتل من المشركين يوم بدر ، ولم يخرج من مكة حتى أجمع أمرهم على قتال رسول الله ﷺ ثم عاد إلى المدينة فجعل يشبب بنساء المسلمين ويهجو النبي ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: ((مَن لكعب بن الأشرف ؛ فإنه قد آذى الله ورسوله ؟)) فقال محمد بن مسلمة : يارسول الله أتحب أن أقتله ؟ قال : (نعم) قال : فأذن لي أن أقول شيئاً قال : ((قل)) . فأتاه محمد بن مسلمة فقال : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة وإنه قد عنانا وإني قد أتيتك أستسلفك قال : وأيضاً والله لتملُنَّهُ قال : إنا قد اتبعناه ، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه ، وقد أردنا أن تسلفنا قال : نعم ، أرهنوني ، قلت أي شيء تريد ؟ قال : أرهنوني نساءكم ، فقالوا : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟ قال : فارهنوني أبناءكم قالوا : كيف نرهنك أبناءنا فيُسبُّ أحدهم فيقال : رهن بوسق أو بوسقين؟ هذا عار علينا ، ولكن نرهنك اللأمة ـ يعني السلاح ـ فوادعه أن يأتيه ليلاً ، فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم فقالت له امرأته : أين تخرج هذه الساعة ؟ قال : إن الكريم لو دُعيَ إلى طعنة بليل لأجاب . قال : ويدخل محمد بن مسلمة معه رجلين فنزل إليهم متوشحاً وهو ينفح منه ريح الطيب قال عمرو : أتأذن لي أن أشم رأسك . قال : نعم فلما استمكن منه قال : دونكم فاقتلوه ، فقتلوه ثم أتوا النبي ﷺ فأخبروه .

وقال رسول الله ﷺ: ((من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه)) [١] فوثب عند ذلك محيِّصة بن مسعود الأوسي على ابن سُنَينة رجل من تجار يهود فقتله .

غزوة أحد :

خرجت قريش بحدها وحديدها وجَدِّها وأحابيشها ومن تابعها من بني كنانة وأهل تهامة ، وخرجوا معهم بالظعن حتى لا يفروا ، وخرج أبوسفيان صخر بن حرب وهو قائد الناس ومعه زوجته هند بنت عتبة ، وكان وحشي كلما مر بهند أو مرت به تقول : ويهًا أبا دسمة اشف واشتف ، تحرضه على قتل حمزة . فلما سمع بهم رسول الله ﷺ كان رأيه أن يقيم بالمدينة فيقاتلهم فيها ، فقال ناس لم يكونوا شهدوا بدراً : تخرج بنا يا رسول الله إليهم نقاتلهم بأحد ، ورجوا أن يصيبهم من الفضيلة ما أصاب أهل بدر ، وقال حمزة رضي الله عنه : والذي أنزل عليك الكتاب لنجالدنهم خارج المدينة . فما زالوا برسول الله ﷺ حتى لبس أداته ، ثم ندموا وقالوا : يا رسول الله أقم فالرأي رأيك . فقال لهم : ((ما ينبغي لنبي أن يضع أداته بعدما لبسها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه)) . فخرج رسول الله ﷺ والمسلمون وهم ألف رجل ، والمشركون ثلاثة آلاف ، ورجع عنه عبد الله بن أبي بن سلول في ثلاثمئة

---

(١) أخرجه أبو داوود في سننه برقم (٢٦٠٨) .

وقال : أطاعهم وعصاني . وكان على خيل المشركين خالد ابن الوليد وكان معه مئتا فرس ولم يكن مع المسلمين إلا فرس واحدة . وتعبأ رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمئة رجل وأمّر على الرماة عبد الله بن جبير وهو مُعْلَمٌ يومئذ بثياب بيض ، والرماة خمسون رجلاً فقال : ((انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قِبَلِك)) ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير رضي الله عنه . فاقتتل الناس حتى حميت الحرب قال أبو دجانة : رأيت إنساناً يخمش الناس خمشاً شديداً ، فصمدت له ، فلما حملت عليه السيف ولول ، فإذا امرأة فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة .

وقاتل حمزة حتى قتل أرطأة بن عبد شرحبيل حامل اللواء ، وكذلك قُتل عثمان بن أبي طلحة وهو حامل اللواء ثم مر به سباع بن عبد العزى الغبشاني فلما التقيا ضربه حمزة فقتله قال وحشي : والله إني لأنظر إلى حمزة يهد الناس بسيفه ما يُليق شيئاً ، مثل الجمل الأورق إذ تقدمني إليه سباع فضربه ضربة فكأنما أخطأ رأسه . وهززت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها إليه فوقعت في ثنته حتى خرجت من بين رجليه فأقبل نحوي فغلب فوقع ، وأمهلته حتى مات .

واشتد القتال والرسول ﷺ جالس تحت راية الأنصار ، وأرسل إلى علي أن قدم الراية ، فتقدم علي وهو

يقول : أنا أبو القصم ، فبارز أبا سعيد بن أبي طلحة حامل لواء المشركين فضربه علي فصرعه وبرز الزبير إلى طلحة ابن أبي طلحة حامل لواء المشركين ، فوثب حتى صار معه على جمله ثم اقتحم به الأرض فألقاه عنه وذبحه بسيفه فأثنى عليه رسول الله ﷺ قال : ((إن لكل نبي حوارياً وحواريَّ الزبير)) [1] ثم أنزل الله نصره على المسلمين فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر وكانت الهزيمة لا شك فيها .

قال الزبير : والله لقد رأتني أنظر إلى خدم هند وصواحبها مشمرات هوارب مادون أخذهن قليل ولا كثير إذ مالت الرماة على العسكر حين كشفنا القوم عنه ، وخلوا ظهورنا للخيل فأُتينا من خلفنا ، وصرخ صارخ : ألا إن محمداً قد قتل ، فانكفأنا وانكفأ القوم علينا بعد أن أصبنا أصحاب اللواء . وأقبل أُبيُّ بنُ خلف الجمحي وقد حلف ليقتلن النبي ﷺ فقال : ((بل أنا أقتله)) فحمل عليه فطعنه النبي ﷺ فجرح جرحاً خفيفاً فوقع يخور خوار الثور ثم مات .

واستشهد من المسلمين سبعون رجلاً . ولم يؤسر من المشركين غير أبي عزة الجمحي فقتله النبي ﷺ لأن أبا عزة أسر يوم بدر فمنَّ عليه رسول الله ﷺ دون فداء ، ولما

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحة برقم (٤٤٣٦) .

أسر في أحد قال : يا رسول الله أقلني فقال : ((لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تقول : خدعت محمداً مرتين ، اضرب عنقه يا زبير)) فضرب عنقه .

خروج النبي ﷺ إلى حمراء الأسد :

وقدم رجل من أهل مكة على رسول الله ﷺ فسأله عن أبي سفيان وأصحابه فقال : ((نازلتهم فسمعتهم يتلاومون يقول بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئاً ؛ أصبتم شوكة القوم وحدَّهم ثم تركتموهم ولم تبتروهم ، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه وبهم أشد القرح بطلب العدو ليسمعوا بذلك وقال : ((لا ينطلقن معي إلا من شهد القتال)) وطلب رسول الله ﷺ العدو حتى بلغ حمراء الأسد وهي من المدينة على ثمانية أميال . ومر معبد الخزاعي برسول الله ﷺ وهو مقيم بحمراء الأسد وكان مشركاً وكانت خزاعة عيبة نصح لرسول الله ﷺ مسلمهم وكافرهم فقال : يا محمد أما والله لقد عز علينا مصابك، ولوددنا أن الله عافاك فيهم ، ثم خرج ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد حتى لقي أبا سفيان ومن معه بالروحاء وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، فلما رأى أبو سفيان معبداً قال : ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد قد خرج في أصحابه . يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقاً . قال : ويلك ما تقول : قال : والله

ما أراك ترتحل حتى ترى نواصيَ الخيل ، قال : فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل شأفتهم . قال : فإني أنهاك عن ذلك ولقد قلت أبياتاً من شعر قال : وما قلت : قال : قلت :

كادت تُهَدُّ من الأصوات راحلتي
إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيلِ
فقلت : ويل ابن حرب من لقائكمُ
إذا تغطمطت البطحاء بالجيلِ
إني نذير لأهل البُسْل ضاحيةً
لكل ذي إربة منهم ومعقولِ
من جيش أحمد لا وخشٌ قنابلُهُ
وليس يوصف ما أنذرت بالقيلِ

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع من الهجرة النبوية

وفيها وقعة الرجيع ، فقد بعث رسول الله ﷺ سرية عيناً ، وأمّر عليهم عاصم بن ثابت وهو جد عاصم بن عمر ابن الخطاب فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة ذكروا الحي من هذيل يقال لهم : بنو لحيان فأحاطوا بهم، فقاتلوهم حتى قتلوا سبعة منهم وبقي ثلاثة خبيب وزيد

ورجل آخر ، أما الرجل فلما رأى من غدر القوم أبى أن يصحبهم بعدما أمنوهم فقتلوه . وأما خبيب فقتل بمكة وهو القائل :

ولستُ أبالي حين أُقتَلُ مسلماً
على أي جنب كان في الله مصرعي

أما زيد فقد أخرجه المشركون إلى التنعيم فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يازيد ، أتحب أن محمداً عندنا الآن مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك ؟ قال والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي . فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً . ثم قتله نسطاس .

سرية بئر معونة :

وبعث رسول الله ﷺ سبعين رجلاً يقال لهم القراء ، فعرض لهم حيان من بني سليم ـ رعل وذكوان ـ عند بئر يقال له معونة . فقتلوهم . فدعا النبي ﷺ شهراً في صلاة الغداة وذاك بدء القنوت .

غزوة بني النضير :

في صحيح البخاري عن ابن عباس أنه كان يسمي سورة (الحشر) سورة بني النضير . وسببها أن رسول الله

ﷺ خرج إلى بني النضير يستعينهم في دية قتيلين ، فلما أتاهم رسول الله ﷺ قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت ، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد ـ فمَن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة ويريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش فقال : أنا لذلك ، فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال ، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي ، فأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه ، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه فقال : رأيته داخلاً المدينة ، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به فبعث رسول الله ﷺ إليهم محمد بن مسلمة يأمرهم بالخروج من جواره وبلده ، فبعث إليهم أهل النفاق يثبتونهم ويحرضونهم على المقام ، ويعدونهم النصر ، فقويت عند ذلك نفوسهم ، وحمي حيي بن أخطب وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أنهم لا يخرجون ونابذوه بنقض العهود فعند ذلك أمر الناس بالخروج إليهم ، فحاصرهم ، وتحصنوا منه في الحصون ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل والتحريق فيها ، وقذف الله في قلوبهم الرعب ولم

ينصرهم المنافقون الذين وعدوهم ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ـ أي السلاح ـ ففعل فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام . ولم يُسلِم من بني النضير إلا رجلان وهما يامين بن عمير ابن عم عمرو بن جحاش وأبو سعيد بن وهب وقد قال رسول الله ﷺ ليامين : ((ألم تر ما لقينا من ابن عمك وما همَّ به من شأني ؟)) فجعل يامين لرجل جعلاً على أن يقتل عمرو بن جحاش فقتله . فأنزل الله فيهم سورة الحشر بكمالها .

قال ابن إسحاق : إن رجلاً من بني محارب يقال له غورث قال لقومه من غطفان : ألا أقتل لكم محمداً ؟ قالوا : بلى فجاء إلى النبي ﷺ حتى قام على رأسه بالسيف وقال : من يمنعك مني ؟ قال : ((الله)) فسقط السيف من يده ، فأخذ رسول الله ﷺ السيف وقال : ((من يمنعك مني ؟)) فقال : كن خير آخذ ، فخلّى سبيله فقال لقومه: جئتكم من عند خير الناس .

* * * *

غزوة بدر الآخرة

وهي بدر الموعد التي تواعدوا إليها من أحد .

خرج رسول الله ﷺ في شعبان إلى بدر لميعاد أبي سفيان ، فورد بدراً وأقام عليها ثمانياً ينتظر أبا سفيان ،

وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى بلغ عسفان ثم بدا له في الرجوع فقال : يا معشر قريش ، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن ، فإن عامكم هذا عام جدب وإني راجع فارجعوا ، فسماهم أهل مكة جيش السويق يقولون : إنما خرجتم تشربون السويق وقال عبد الله بن رواحة :

وعدنا أبا سفيان بدراً فلم نجد
لميعاده صدقاً وما كان وافيا
فأقسمُ لو لاقيتنا فلقيتنا
لأُبتَ ذميماً وافتقدت المواليا
تركنا به أوصال عتبة وابنه
وعمراً أباجهل تركناه ثاويا
فإني وإن عنفتموني لقائل :
فدىً لرسول الله أهلي وماليا

* * * *

ثم دخلت سنة خمس من الهجرة النبوية

غزوة الأحزاب أو الخندق :

وقد كان نفر من اليهود منهم سلاّم بن أبي الحُقيق، وحيي بن أخطب ، وكنانة بن الربيع ، وهوذة بن قيس

خرجوا حتى قدموا على قريش مكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا : إنا سنكون معكم حتى نستأصله . ثم خرجوا حتى جاؤوا غطفان فدعوهم إلى حرب النبي ﷺ وأخبروهم أنهم يكونون معهم عليه وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك .

فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن والحارث بن عوف ، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة ، ويقال : إن الذي أشار به سلمان قال الطبري : أول من حفر الخندق منو شهر بن إيرج بن أفريدون ، وكان في زمن موسى . فعمل المسلمون فيه حتى أحكموه . ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجمع الأسيال في عشرة آلاف ، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا إلى جانب أحد . وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى جبل سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هناك عسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذراري والنساء فجعلوا فوق الآطام .

وخرج حيي بن أخطب حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقدهم وعهدهم ، فلما سمع به كعب أغلق باب حصنه دون حيي ، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه : ويحك يا كعب ، افتح لي . قال : ويحك يا حيي

إنك امرؤ مشؤوم ، وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه ، ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً قال : والله إن أغلقت دوني إلا خوفاً على جشيشتك أن آكل معك منها ، فأحفظ الرجل ففتح له قال : جئتك بقريش عليها قادتها وسادتها وبغطفان قد عاهدوني وعاقدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه ، فقال كعب : جئتني والله بذل الدهر ، فلم يزل حيي بكعب يفتل في الذروة والغارب حتى نقض العهد . ولما تأكد ذلك لرسول الله ﷺ قال : ((الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين)) فلما أن أصبحوا دنا القوم بعضهم من بعض ، وكان بينهم رمي بالنبل والحجارة ، وأقام المشركون يحاصرونه بضعاً وعشرين ليلة ، فلما اشتد البلاء بعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، فقال سعد بن معاذ : والله لانعطيهم إلا السيف .

وقامت فوارس من قريش منهم عمرو بن ود العامري وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب وضرار بن الخطاب بن مرداس فاجتازوا الخندق بخيلهم ، وخرج علي ابن أبي طالب في نفر معه من المسلمين . وكان عمرو قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراح فلم يشهد أحداً فلما كان يوم الخندق خرج معلماً وصاح : من يبارز ؟ فبرز له علي رضي الله عنه فتنازلا وتجاولا وكان عمرو يرتجز :

ولقـــد بُحـحـــت مـــن النـــدا
ء بجمعكـــم : هـــل مـــن مبـــارز ؟
ووقفــــت إذ جـــبن المـــشجـ
ـــع موقـــف القِـــرن المنـــاجز
ولـــــذلك إنـــــيَ لم أزل
متـــسرعاً قِبَـــل الهزاهـــز
إن الــــشجاعة في الفتـــــى
والجـــودَ مـــن خـــير الغرائـــز

فمشى إليه علي وهو يقول :

لا تعجلـــــنَّ فقـــــد أتـــــا
ك مجيـــب صـــوتك غـــير عـــاجز
في نيـــــــة وبـــــــصيرة
والـــصدق منجـــى كـــل فـــائز
إنـــــي لأرجـــــو أن أقيـــــ
ـــم عليـــك نائحـــة الجنـــائز
مـــن ضـــربة نجـــلاء يبـــ
ـــقى ذكرهـــا عنـــد الهزاهـــز

فقتله علي رضي الله عنه وخرجت خيل عمرو منهزمة ورمي سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكحل .

حكى السهيلي عن بعضهم أنه قال : كان حسان جباناً شديد الجبن قال : وأنكر آخرون ذلك وطعنوا في

الخبر فقالوا : هو منقطع قالوا : وقد كان يهاجي المشركين من الشعراء كابن الزبعرى وضرار بن الخطاب وغيرهما فلم يعيره واحد منهم بالجبن قال : وممن أنكر ذلك ؛ الشيخ أبو عمر النمري قالوا : وبتقدير صحة هذا الخبر لعله كان منقطعاً في الآطام لعلة عارضة ، ومال إلى هذا السهيلي والله أعلم .

وقد دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال : ((اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم)) ثم إن نُعَيم بن مسعود أسلم فقال: يارسول الله : إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت فقال رسول الله ﷺ: ((إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة)) فخرج نعيم حتى أتى بني قريظة وكان لهم نديماً في الجاهلية فقال : يابني قريظة إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم ، فإن رأوا نُهزة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم قالوا : لقد أشرت بالرأي . ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال: اكتموا عني . قالوا : نفعل . قال : تعلّموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه أنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من

القبيلتين قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم أن : نعم . ثم خرج حتى أتى غطفان وقال لهم مثل ما قال لقريش ، وحذرهم ما حذرهم . وكان من صنع الله تعالى لرسوله ﷺ أن أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة في وفد من قريش وغطفان فقال لهم : أعدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه ، فأرسلوا إليهم : إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً ، فإنا نخشى أن تتشمروا إلى بلادكم وتتركونا ، والرجل في بلادنا ولا طاقة لنا بذلك منه . فقالت قريش وغطفان : صدق نعيم . وقالت يهود : صدق نعيم . وخذل الله بينهم . وبعث الله الريح في ليلة شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم ، فنادى أبو سفيان بالرحيل . ولما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ : ((لن تغزوكم قريش بعد عامهم هذا ولكنكم تغزونهم)) ، وقد قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى عن سفيان ، حدثني أبو إسحاق ، سمعت سليمان بن صُرَد رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ (الآن نغزوهم ولا يغزونا) . وهكذا رواه البخاري .

غزوة بني قريظة :

ولما أصبح رسول الله ﷺ انصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة والمسلمون ووضعوا السلاح ، فلما كان الظهر أتى جبريل رسول الله ﷺ فقال : أَوَ قد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم فقال جبريل : ما وضعت الملائكة السلاح بعد ، إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة فإني عامد إليهم فمزلزل بهم ، فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً فأذن في الناس : ((من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلينَّ العصر إلا في بني قريظة)) وقدَّم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ومعه رايته فانطلقوا إلى بني قريظة ، فحانت صلاة العصر وهم بالطريق فصلى منهم قوم وأخرت طائفة الصلاة حتى صلوها في بني قريظة بعد أن غابت الشمس فذكروا أن رسول الله ﷺ لم يعنف واحداً من الفريقين .

فلما نزل رسول الله ﷺ بحصنهم وكانوا في أعلاه نادى بأعلى صوته نفراً من أشرافهم حتى أسمعهم فقال : ((أجيبوا يا معشر يهود ، يا إخوة القردة قد نزل بكم خزي الله عز وجل)) . فحاصرهم بكتائب المسلمين بضع عشرة ليلة حتى جهدهم الحصار فلما أيقنوا بأن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال كعب بن أسد : يا معشر يهود إني أعرض عليكم ثلاث خلال فخذوا بما شئتم منها قالوا : وماهن ؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه

فو الله لقد تبين لكم أنه النبي المرسل الذي تجدونه في كتابكم . قالوا : لا نفارق حكم التوراه أبداً قال : فإن أبيتم علي هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين بالسيوف حتى يحكم الله بيننا وبين محمد . قالوا : أنقتل هؤلاء المساكين ؟ فما خير العيش بعدهم ؟ قال : فإن أبيتم علي هذه فإن الليلة ليلة السبت ، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة . قالوا : أنفسد سبتنا ؟ فقال : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً .

فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ. فتواثبت الأوس فقالوا : يا رسول الله إنهم موالينا دون الخزرج وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت ، يعنون عفوه عن بني قينقاع حين سأله فيهم عبد الله بن سلول فلما كلمته الأوس قال رسول الله ﷺ: ((يا معشر الأوس ، ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم)) قالوا : بلى . قال : ((فذلك سعد بن معاذ)) . وكان سعد في خيمة لامرأة من أسلم يقال لها : رُفَيْدةُ وكانت تداوي الجرحى ، وكان سعد قد أصيب في حصار الخندق بسهم في يده . فلما حكّمه في بني قريظة قال : قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم .

فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد، عن الكلمة التي سمعها منه . فلما انتهى سعد إلى رسول ﷺ والمسلمين قال رسول الله ﷺ ((قوموا إلى سيدكم)) فقاموا إليه .

فلما اجتمع سعد بالفريقين قال : عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لما حكمت ؟ قالوا : نعم قال . وعلى من ههنا؟ في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ وهو معرض عن الرسول ﷺ إجلالاً له . فقال رسول الله ﷺ: ((نعم)) . فقال سعد : فإنني أحكم فيهم أن يقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء فقال رسول الله ﷺ: ((لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة)) (١).

ثم استُنزلوا فحبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة في دار نسيبة بنت الحارث ثم خرج ﷺ إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق ، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق ، فخرج بهم أرسالاً وفيهم عدو الله حيي بن أخطب وكعب ابن أسد رأس القوم وهم ستمئة أو سبعمئة . وقد قالوا لكعب بن أسد وهم يُذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالاً : ياكعب ؛ ما تراه يصنع بنا ؟ قال : أفي كل موطن لا تعقلون ؟ هو والله القتل . وأتي بحيي بن أخطب وعليه حلة

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحة برقم (٢٣١٤) .

فقّاحيّة قد شقها عليه من كل ناحية قدر أُنملة لئلا يُسْلَبها، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك. ثم جلس فضربت عنقة.

مقتل الزبير بن باطا :

وكان شيخاً كبيراً، وكان قد مَنَّ يوم بعاث على ثابت بن قيس بن شماس، وجزَّ ناصيته فلما كان هذا اليوم أراد أن يكافئه فجاءه فقال: هل تعرفني ياأبا عبد الرحمن – وهي كنية ابن باطا – ؟ قال: وهل يجهل مثلي مثلك ؟ فقال له ثابت: أريد أن أكافئك فقال: إن الكريم يجزي الكريم، فذهب ثابت إلى رسول الله ﷺ فاستطلقه فأطلقه له.

فقال ابن باطا: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد، فما يصنع بالحياة ؟ فذهب إلى رسول الله ﷺ فا ستطلق له امرأته وولده فأطلقهم له. فقال ابن باطا: أهل بيت بالحجاز لا مال له فما بقاؤهم على ذلك ؟ فأتى ثابت إلى رسول الله ﷺ فاستطلق مال الزبير بن باطا، فأطلقه له. فقال له: ياثابت ما فعل الذي كأن وجهه مرآة صينية تتراءى فيها عذارى الحي ؟ يعني كعب بن أسد.

قال: قتل. قال: فما فعل سيد الحاضر والبادي حيي ابن أخطب ؟ قال: قتل.

قال : فما فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا قررنا عزال بن شموال ؟ قال : قتل .

قال : فما فعل المجلسان يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة . قال : ذهبوا فقتلوا .

قال ابن باطا : فإني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلا ألحقتني بالقوم حتى ألقى الأحبة .

فقدمه ثابت فضربت عنقه . فلما بلغ أبا بكر الصديق قوله : ألقى الأحبة . قال : يلقاهم والله في نار جهنم خالداً فيها مخلداً . ولم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحده .

عن عائشة قالت : والله إنها لعندي تحدث معي تضحك ظهراً وبطناً ورسول الله ﷺ يقتل رجالها في السوق . إذ هتف هاتف باسمها : أين فلانة ؟ قلت : أنا والله . قالت : قلت : ويلك مالك ؟ قالت : أُقتَل قلت : ولم ؟ قالت : لحدث أحدثته – ألقت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته – فانطلق بها فضربت عنقها .

وكان حبان بن العرقة لعنه الله رمى سعداً بسهم فأصاب أكحله فحسمه رسول الله ﷺ كياً بالنار فاستمسك الجرح وكان سعد قد دعا أن لا يميته حتى يقر عينه من بني قريظة وذلك حين نقضوا عهد رسول الله ﷺ فلما حكم في بني قريظة وأقر الله عينه وشفى صدره منهم

وعاد إلى خيمته ، انفجر جرحه من الليل فلم يزل يخرج منه الدم حتى مات رضي الله عنه .

مقتل سلام بن أبي الحُقيق :

وكان فيمن حزب الأحزاب على رسول الله ﷺ وكانت الأوس قد قتلت كعب بن الأشرف فاستأذن الخزرج رسول الله ﷺ في قتل سلام بن أبي الحقيق وهو بخيبر ، فأذن لهم .

فخرج إليه من الخزرج خمسة نفر : عبد الله بن عتيك على رأسهم . حتى إذا قدموا خيبر أتوا دار ابن أبي الحقيق ليلاً وكان في علية له إليها عجلة – وهي جذع النخلة ينقر في مواضع منها ويجعل كالسلم – فصعدوا حتى قاموا على بابه فاستأذنوا ، فخرجت إليهم امرأته فقالت : من أنتم ؟ قالوا : أناس من العرب نلتمس الميرة قالت : ذلكم صاحبكم فادخلوا عليه قال : فلما دخلنا أغلقنا علينا وعليه الحجرة تخوفاً أن يكون دونه مجاولة تحول بيننا وبينه قال: فصاحت امرأته فنوهت بنا فابتدرناه وهو على فراشه بأسيافنا وخرجنا ، فأوقدوا النيران ، ثم أكبت عليه امرأته تنظر في وجهه فقالت : فاظ وإله يهود . فما سمعت كلمة كانت ألذ على نفسي منها .

فقدموا على رسول الله ﷺ فقال : ((أفلحت الوجوه)) قالوا : أفلح وجهك يا رسول الله . وجرت في هذه

السنة حوادث منها : مقتل خالد بن سفيان بن نُبَيْحٍ الهذلي كان يجمع الجموع ليغزو رسول الله ﷺ قتله عبد الله بن أنيس رضي الله عنه .

ومنها أن عمرو بن العاص أسلم على يد النجاشي ، وفيها تزوج النبي ﷺ بأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان ، وهي بأرض الحبشة ، زوجها إياه النجاشي ومهرها أربعة آلاف درهم ، وكانت تحت عبيد الله بن جحش، وقد تنصر عبيد الله بن جحش استزله الشيطان فزين له دين النصارى ومات بالحبشة نصرانياً . وأما رملة رضي الله عنه فإن الذي ولي نكاحها ابن عمها خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه .

* * * *

ثم دخلت سنة ست من الهجرة النبوية

قصة الإفك :

قالت عائشة رضي الله عنها : فلما فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذلك – غزوة بني المصطلق – وجه قافلاً حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً فبات به بعض الليل ، ثم أذن في الناس بالرحيل ، فارتحل الناس ، وخرجت لبعض حاجتي وفي عنقي عقد لي فيه جزع ظفار فلما فرغت انسل من عنقي ولا أدري ، فلما رجعت إلى الرحل ذهبت التمسه في عنقي فلم أجده ، وقد أخذ الناس في

الرحيل ، فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته ، وجاء القوم خلافي الذي كانوا يرحلون لي البعير ، وقد كانوا فرغوا من رحلته ، فأخذوا الهودج وهم يظنون أني فيه كما كنت أصنع ولم يشكوا أني فيه فانطلقوا ، فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب قلت : فتلففت بجلبابي ثم اضطجعت في مكاني وعرفت أن لو افتقدت لرُجع إلي قالت : فو الله إني لمضطجعة إذ مر بي صفوان بن المعطّل السُّلَمي ، وكان تخلف عن العسكر لبعض حاجته فرأى سوادي فأقبل حتى وقف علي فلما رآني قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ظعينة رسول الله ﷺ وأنا متلففة في ثيابي قال: ما خلَّفك يرحمك الله ؟ قلت : فما كلمته ، ثم قرب إلي البعير واستأخر عني قالت : فركبته وأخذ برأس البعير فانطلق سريعاً يطلب الناس فو الله ما أدركنا الناس وما افتُقدت حتى أصبحت ، ونزل الناس ، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي فقال أهل الإفك ما قالوا . وارتج العسكر والله ما أعلم بشيء حتى قدمنا المدينة ، لم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة قالت : فانتقلت إلى أمي لتمرضني ، فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعي أم مِسطح ، قالت : فو الله إنها لتمشي معي إذ عثرت في مرطها فقالت : تعس مسطح ، قال : فقلت : بئس لعمرو الله ما قلت لرجل من المهاجرين وقد شهد بدراً قالت : أوَ ما بلغك الخبر يابنت أبي بكر الصديق ؟

قالت : قلت : وما الخبر ؟ فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك ، ورجعت فو الله مازلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي ، وكان كِبْر ذلك عند عبد الله بن أبي بن سلول في رجال من الخزرج مع الذي قال مسطح وحمنة بنت جحش وكنت أرجو أن يرى النبي ﷺ في نومه شيئاً يكذب به الله عني لما يعلم من براءتي أو يخبر خبراً وأما قرآناً ينزل فيَّ ، فو الله لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك قالت : فو الله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه فسُجِّيَ بثوبه ووضع وسادة من أدم تحت رأسه ثم سري عن رسول الله ﷺ فجلس وإنه ليتحدر من وجهه مثل الجمان في يوم شات فجعل يمسح العرق عن جبينه ويقول : أبشري يا عائشة قد أنزل الله عز وجل براءتك قلت : الحمد لله، ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله عز وجل من القرآن ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ ثم أمر بمسطح وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضُربوا حدهم . وقد قال من المسلمين في ضرب حسان وأصحابه :

لقد ذاق حسان الذي هو أهله
وحمنة إذ قالوا هجيراً ومسطح
تعاطَوا برجم الغيب زوج نبيه
وسخطة ذي العرش الكريم فأترحوا

وآذوا رســـول الله فيهـــا فجللـــوا
مخـــازي تبقـــى عمومهـــا وفُـــضّحوا
وُصـــبت علـــيهم محـــصدات كأنهـــا
شـــآبيب قطـــر مـــن ذرا المـــزن تـــسفح

واعترض صفوان بن المعطل حسان فضربه بالسيف وهو يقول :

تلـــقَّ ذبـــاب الـــسيف عـــني فـــإنني
غـــلام إذا هوجيـــت لـــست بـــشاعر

قال : وكانت عائشة تقول : سئل عن ابن المعطل فوجد رجلاً حصوراً ما يأتي النساء ثم قتل بعد ذلك شهيداً رضي الله عنه . ثم قال حسان يعتذر من الذي كان قال في شأن عائشة .

حَـــصان رزان مـــا تُـــزَنُّ بريبـــةٍ
وتـــصبح غرثـــى في لحـــوم الغوافـــلِ
مهذبـــة قـــد طيـــب الله خيمهـــا
وطهرهـــا مـــن كـــل ســـوء وباطـــل
فـإن كنـت قـد قلـت الـذي قـد زعمـتمُ
فـــلا رفعـــت ســـوطي إلـــيَّ أنـــاملي
وكيـــف وودي مـــا حييـــت ونـــصرتي
لآل رســـول الله زيـــن المحافـــل

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٧٤) .

غزوة الحديبية :

وخرج رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب وساق معه الهدي وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له . وكانوا ألفاً وأربعمئة . وخرجت قريش ومعهم العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمر وهذا خالد بن الوليد في خيلهم فقال رسول الله ﷺ : ((ياويح قريش لقد أكلتهم الحرب)) .

قال رسول الله ﷺ : ((قولوا : نستغفر الله ونتوب إليه)) فقالوا ذلك فقال : ((والله إنها للحطة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها)) . فلما اطمأن رسول الله أتاه بُدَيل بنُ ورقاء في رجال من خزاعة فكلموه وسألوه ما الذي جاء به فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً ، وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمته ثم قال لهم نحواً مما قال لبشر ابن سفيان فرجعوا إلى قريش ، فاتهموهم وجبهوهم وقالوا : وإن كان جاء ولا يريد قتالاً فو الله لا يدخلها علينا عَنوة أبداً .

فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائراً البيت ومعظماً لحرمته ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به فقالوا لعثمان : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف قال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ ، واحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل ، وحين بلغ الخبر رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل قال : ((لا نبرح حتى نناجز القوم)) ودعا رسول الله إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو وقالوا : ائت محمداً وصالحه ، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ثم جرى بينهما الصلح وكتب علي كتاب الصلح .

بسمك اللهم : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ؛ اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض .

على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه قال الزهري :

فما فُتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه ، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر ، وكان أبو جندل بن سهيل بن عمرو قد أسلم وأراد الانضمام إلى المسلمين فرده أبوه إلى قريش فجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يامعشر المسلمين أُردُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون في الفتح ، لرؤيا رآها الرسول ﷺ فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع دخل على الناس من ذلك أمر عظيم وزاد موقف أبي جندل ما بهم ، فلما فرغ رسول الله من قضية الكتاب قال لأصحابه: ((قوموا فانحروا ثم احلقوا)) فلم يقم أحد منهم ، فدخل على أم سلمة فقالت له: اخرج حتى تنحر بُدْنَك وتدعو حالقك فيحلق، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق لبعض .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع من الهجرة النبوية

غزوة خيبر :

عن سلمة بن الأكوع قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً ، فقال رجل من القوم لعامر : ياعامر ألا تسمعنا من هنيهاتك ؟ وكان عامر رجلاً شاعراً فنزل يحدو بالقوم يقول :

والله لـــــولا الله مـــــا اهتـــــدينا
ولا تـــــصدقنا ولا صـــــلينا
إنـــــا إذا قـــــوم بغـــــوا علينـــــا
وإن أرادوا فتنـــــة أبينـــــا
فـــــأنزلنْ ســـــكينة علينـــــا
وثبـــــت الأقـــــدام إن لاقينـــــا

فقال رسول ﷺ ((يرحمك ربك)) فقال عمر بن الخطاب: وجبت يارسول الله لو أمتعتنا به ، فقتل يوم خيبر شهيداً .

ولما أشرف رسول الله ﷺ على خيبر قال لأصحابه ((قفوا)) ثم قال : ((اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما أذرين ، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ، وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها ، اقدموا بسم الله)) .

وبعث النبي ﷺ أبا بكر رضي الله عنه فقاتل ثم رجع ولم يكن فتح ، وقد جهد ، وقد قتل محمود بن مسلمة عند حصن ناعم ألقيت عليه رحىً منه فقتلته .

ثم بعث عمر رضي الله عنه فقاتل ثم رجع ولم يكن فتح فقال رسول الله ﷺ ((لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله يفتح الله على يديه ، ليس

بفرار)) ؛ فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهو يومئذ أرمد فمسح على عينه فأتى مدينة خيبر .

وعن أنس بن مالك قال : صبحنا خيبر بكرة فخرج أهلها بالمساحي فلما بصروا بالنبي ﷺ قالوا : محمد والله، محمد والخميس . فقال رسول الله ﷺ : ((الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين)) [1] . وخرج مرحب صاحب الحصن وعليه مغفر يماني وحجر قد ثقبه مثل البيضة على رأسه وهو يرتجز :

قد علمت خيبر أني مرحب شاك سلاحي بطل مجرب
إذا الليوث أقبلت تلهب

فتقدم منه علي رضي الله عنه يقول :
أنا الذي سمتني أميَ حيدره كليث غابات شديد القسوره
أكيلكم بالصاع كيل السندره

فاختلفا ضربتين فبدره علي بضربة فقد الحجر والمغفر ورأسه . فبرز ياسر أخو مرحب وهو يقول : هل من مبارز ؟ فخرج إليه الزبير فالتقيا فقتله الزبير .

وكان أول حصونهم فتحاً حصن ناعم ثم القموص وأصاب رسول الله ﷺ منهم سبايا منهن صفية بنت حيي بن

(١) أخرجه الإمام النسائي برقم (٣٣٢٧) .

أخطب فاصطفى رسول الله ﷺ صفية لنفسه . عن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى عن نكاح المتعة يوم خيبر وعن لحوم الحمر الأهلية هذا لفظ (الصحيحين) وغدا الناس ففتح عليهم حصن الصعب وما بخيبر حصن كان أكثر طعاماً وودكاً منه . وانتهى المسلمون إلى حصن الوطيح وكان حصن السُّلالم آخر حصون خيبر افتتاحاً قال الواقدي : لما تحولت اليهود من حصن ناعم وحصن الصعب إلى قلعة الزبير حاصرهم رسول الله ﷺ ثلاثة أيام فجاء رجل من اليهود يقال له : غزّال فقال : ياأبا القاسم ، تؤمنني على أن أدلك على ما تستريح به من أهلِ النطاة وتخرج إلى أهل الشق فإن أهل الشق هلكوا رعباً منك ؟ قال : فأمنه على أهله وماله فقال له اليهودي : إنك لو أقمت شهراً تحاصرهم ما بالوا بك ، إن لهم تحت الأرض دبولاً - جداول ماء - يخرجون بالليل فيشربون منها ثم يرجعون إلى قلعتهم ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع دبولهم فخرجوا فقاتلوا أشد القتال وقتل منهم عشرة وافتتحه رسول الله ﷺ وكان آخر حصون النطاة وتحول إلى الشق وكان به حصون ذوات عدد فكان أول حصن بدأ به منها حصن أُبَيّ فقام رسول الله ﷺ على قلعة يقال لها : سُمْوان فقاتل عليها أهل الحصن أشد القتال فخرج منهم رجل يقال له : عَزْوَل فدعا إلى المبارزة فبرز إليه الحُباب بن المنذر فقطع يده اليمنى من نصف ذراعه ، وفر اليهودي فاتبعه الحباب فقطع عرقوبه

ثم دخلوا الحصن وأمامهم أبو دجانة ، وهرب من كان فيه حتى صاروا إلى حصن النزار بالشق فأخذ عليه الصلاة والسلام كفاً من الحصا فرمى حصنهم بها فرجف بهم حتى ساخ في الأرض وأخذهم المسلمون أخذاً باليد . ثم تحول رسول الله ﷺ إلى أهل الكتيبة والوطيح والسُّلالم فتحصنوا أشد التحصين وجاء إليهم كل من كان قد انهزم فتحصنوا معهم في القَموص وكان حصناً منيعاً حتى هَمَّ رسول الله ﷺ أن ينصب المنجنيق عليهم ، فلما أيقنوا بالهلاك نزلوا إليه فصالحوه فقال رسول الله ﷺ : ((برئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتم شيئاً)) فصالحوه على ذلك وأخفوا ذلك المَسْك - الجلد - الذي كان فيه أموال جزيلة بَيْدَ أنه لا عهد لهم ، فقُتل ابن أبي الحقيق وطائفة من أهله بسبب نقض العهود منهم والمواثيق .

فلما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر انصرف إلى وادي القرى فحاصر أهلها ليالي ثم انصرف راجعاً إلى المدينة فأقام بها شهري ربيع وجماديين ورجباً وشعبان وشهر رمضان وشوالاً ، يبعث فيما بين ذلك سراياه ، وقد عاد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه من الحبشة ، ثم خرج في ذي القعدة في الشهر الذي صده فيه المشركون معتمراً عمرة القضاء مكان عمرته التي صدوه عنها .

قال محمد بن إسحاق : فلما اطمأن رسول الله ﷺ بعد فتح خيبر أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم اليهودية شاة مصلية ... تناول منها الذراع ، ومعه بشر بن البراء بن معرور ، وقد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ، فمات بشر من أكلته التي أكل ، وبقي رسول الله ﷺ ثلاث سنين فتوفي رسول الله ﷺ شهيداً .

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان من الهجرة النبوية

إسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه :

قال خالد بن الوليد : لما أراد الله بي ما أراد من الخير قذف في قلبي الإسلام وحضرني رشدي ، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية ، خرجت في خيل من المشركين ، فلقيت رسول الله ﷺ في أصحابه بعسفان ، فقمت بإزائه وتعرضت له ، فصلى بأصحابه الظهر أمامنا فهممنا أن نغير عليهم ، ثم لم يعزم لنا – وكانت فيه خيرة – فاطلع على ما في أنفسنا من الهم به ، فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك منا موقعاً وقلت : الرجل ممنوع ، فلما صالح قريشاً بالحديبية قلت في نفسي : أي شيء بقي ؟ أين المذهب ؟ إلى النجاشي ؟ فقد اتبع محمداً ، إلى هرقل ؟ فأخرج من ديني إلى النصرانية أو اليهودية فأقيم مع عجم تابعاً ، أفأقيم في داري فيمن بقي ؟ وأنا في ذلك إذ

دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضية فتغيبت ولم أشهد دخوله ، وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي ﷺ في عمرة القضية فطلبني فلم يجدني ، فكتب إلي كتاباً يرغبني فيه بالإسلام فلما جاءني كتابه نشطت للخروج ، وزادني رغبة في الإسلام وسرني سؤال رسول الله ﷺ عني ، فخرجت إلى منزلي فأمرت براحلتي فخرجت بها إلى أن لقيت عثمان بن طلحة فأسرع الإجابة فوجدنا عمرو ابن العاص في الهدة فقال : مرحباً بالقوم فقلت : وبك فقال: إلى أين مسيركم ؟ فقلت : وما أخرجك ؟ فقال : وما أخرجكم ؟ قلنا : الدخول في الإسلام واتباع محمد قال : وذاك الذي أقدمني ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ فلقيني أخي فقال : أسرع فإن رسول الله ﷺ قد أُخبر بك ، فسر بقدومك ، وهو ينتظركم فأسرعنا المشي فاطلعت عليه ، فمازال يتبسم إلي حتى وقفت عليه فسلمت عليه بالنبوة فرد علي السلام بوجه طلق فقلت : إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . فقال : ((تعال ، الحمد لله الذي هداك قد كنت أرى لك عقلاً رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير)) قلت : يا رسول الله ، قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً للحق ، فادع الله أن يغفر لي . فقال رسول الله ﷺ: ((الإسلام يجبُّ ما كان قبله)) (١) .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٧١٠٩) .

وتقدم عثمان وعمرو فبايعا رسول الله ﷺ فو الله ما كان رسول الله ﷺ يعدل بي أحداً من أصحابه فيما حزبه .

غزوة مؤتة :

عن عروة بن الزبير قال : بعث رسول الله ﷺ بعثه إلى مؤتة في جمادى الأولى من سنة ثمان واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال : إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس فتجهز الناس ثم تهيؤوا للخروج وهم ثلاثة آلاف .

ثم خرج القوم وخرج رسول الله ﷺ يشيعهم ثم مضوا حتى نزلوا معان من أرض الشام فبلغ الناس أن هرقل نزل مآب من أرض البلقاء في مئة ألف من الروم ، وانضم إليه من لخم وجذام والقين وبهراء وبليّ مئة ألف منهم ، فلما بلغ المسلمين أقاموا على معان ليلتين ينظرون في أمرهم وقالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ نخبره بعدد عدونا ، قال : فشجع الناس عبد الله بن رواحة وقال : ياقوم ، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون . الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين ؛ إما ظهور وإما شهادة . فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة فمضى الناس . عن أبي هريرة قال : شهدت مؤتة فلما دنا

منا المشركون رأينا مالا قبل لأحد به من العدة والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب فبرق بصري فقال لي ثابت بن أقرم : ياأبا هريرة ، كأنك ترى جموعاً كثيرة قلت : نعم قال : إنك لم تشهد معنا بدراً ، إنا لم ننصر بالكثرة . ثم التقى الناس فاقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القوم ، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ، ثم قاتل القوم حتى قتل ، فكان جعفر أول رجل من المسلمين عقر في الإسلام قتل وهو يقول :

ياحبذا الجنة واقترابها
طيبةً وبارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها
كافرة بعيدة أنسابها
علي إذ لاقيتها ضرابها

فلما قتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد ثم قال :

يانفس إن لا تُقتَلي تموتي
هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت
إن تفعلي فعلهما هديت

ثم قاتل حتى قتل رضي الله عنه . ثم أخذ الراية ثابت ابن أقرم فقال : يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم قالوا : أنت . قال : ما أنا بفاعل . فاصطلح الناس على خالد بن الوليد فلما أخذ الراية دافع القوم وحاشى بهم، ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف بالناس . ولما أخذ خالد بن الوليد الراية قال رسول الله ﷺ: ((الآن حمي الوطيس))[1] .

قال الواقدي : لما قتل ابن رواحة مساء ، بات خالد بن الوليد فلما أصبح غدا وقد جعل مقدمته ساقته ، وساقته مقدمته وميمنته ميسرته ، قال : فأنكروا ماكانوا يعرفون من راياتهم وهيئتهم وقالوا : قد جاءهم مدد فرعبوا وانكشفوا منهزمين ، قال فقتلوا مقتلة لم يقتلها قوم .

وهذا يوافق ما ذكره موسى بن عقبة رحمه الله في مغازيه . قال ابن إسحاق : لما أقبل أصحاب مؤتة تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون معه قال : وجعل الناس يحثون عليهم التراب ويقولون : يافُرار فررتم في سبيل الله . فقال رسول الله ﷺ: ليسوا بالفرار ولكنهم الكُرار إن شاء الله تعالى .

وهذا مرسل من هذا الوجه وفيه غرابة .

وعندي – والقول لابن كثير – أن ابن إسحاق قد وهم في هذا السياق فظن أن هذا لجمهور الجيش ، وإنما

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٦٧٩) .

كان للذين فروا حين التقى الجمعان ، وأما بقيتهم فلم يفروا بل نصروا كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ وهو على المنبر في قوله : ((ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله ففتح الله على يديه)) .

فما كان المسلمون ليسموهم فراراً بعد ذلك ، وإنما تلقوهم إكراماً لهم وإعظاماً ، وإنما كان التأنيب وحثي التراب للذين فروا وتركوهم هنالك وقد كان فيهم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما . وقد استشهد يوم مؤتة من المسلمين أربعة من المهاجرين وهم ؛ جعفر أبي طالب وزيد ابن حارثة ومسعود بن الأسود ووهب بن سعد ، وأربعة من الأنصار وهم ؛ عبد الله بن رواحة وعباد بن قيس الخزرجيان والحارث بن النعمان النجاري وسراقة بن عمرو المازني . فمجموع من قتل من المسلمين يومئذ هؤلاء الثمانية على ما ذكره ابن إسحاق .

لكن قال ابن هشام : وممن استشهد يوم مؤتة فيما ذكره ابن شهاب الزهري : أبو كليب وجابر ابنا عمرو بن زيد المازنيان وهما شقيقان لأب وأم ، وعمرو وعامر ابنا سعد بن الحارث فهؤلاء أربعة من الأنصار أيضاً فالمجموع على القولين اثنا عشر رجلاً . وقد قتل من المشركين خلق كثير ؛ هذا خالد وحده يقول : لقد اندقت في يدي يومئذ تسعة أسياف ، وما ثبت في يدي إلا صفيحة يمانية . وبعد مؤتة بعث النبي ﷺ كتاباً إلى المنذر بن الحارث الغساني

صاحب دمشق يدعوه فيه إلى الإسلام ، كما بعث كتاباً آخر إلى كسرى ملك الفرس فلما قرأه كسرى مزقه فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يمزق ملكه ، كما أرسل كتاباً إلى قيصر وكتاباً إلى المقوقس صاحب مدينة الإسكندرية .

غزوة الفتح الأعظم :

في رمضان بعد هدنة الحديبية بسبعة أو ثمانية عشر شهراً ، وثبت بكر وهم حلف قريش ، على خزاعة حلف النبي ﷺ ليلاً بماء يقال له الوتير وهو قريب من مكة وقالت قريش : ما يعلم بنا محمد وهذا الليل وما يرانا أحد . فأعانوهم عليهم بالكراع والسلاح وقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله ﷺ فركب عمرو بن سالم حتى قدم على رسول الله ﷺ ليخبره الخبر وأنشده :

لا هـمَّ إنـي ناشـد محمـدا
حلـف أبيـه وأبينـا الأتلـدا
فانصـر رسـول الله نصراً أعتـدا
وادع عبـاد الله يـأتوا مـددا
في فيلـق كـالبحر يجـري مزيـدا
إن قريشـاً أخلفـوك الموعـدا
ونقضـوا ميثاقـك المؤكـدا
وجعلـوا لـي في كـداء رُصَّـدا

هـــــم بيتونـــــا بـــــالوتير هُجَّـــــدا
وقتّلونـــــا ركّعـــــاً وســـــجَّدا

فقال رسول الله ﷺ: ((نُصرت ياعمرو بن سالم)) .
وسار رسول الله ﷺ في عشرة آلاف وأخذ الله عنه العيون ، وأضرم الجيش حول مكة نيراناً لم يشاهد قبلها مثلها ، وخرج أبو سفيان ليلتمس الخبر فأُخذ وأتي به إلى رسول الله ﷺ فأسلم .

ودخل رسول الله ﷺ مكة وعليه عمامة سوداء من غير إحرام وكان لواء رسول الله ﷺ يوم دخل مكة أبيض .

ثم أقام عليه الصلاة والسلام بقية شهر رمضان يقصر الصلاة ويفطر . وهذا دليل من قال من العلماء : إن المسافر إذا لم يجمع الإقامة فله أن يقصر ويفطر إلى ثمانية عشر يوماً .

غزوة حنين :

لما خرج الرسول ﷺ إلى هوازن قال أبو بكر الصديق: لن نغلب اليوم من قلة .

ولما سمعت هوازن برسول الله ﷺ وما فتح الله عليه في مكة جمعها ملكها مالك بن عوف النصري فسبق رسول الله ﷺ إلى حنين فأعدوا وتهيؤوا في مضايق الوادي

وأنحائه . وأقبل رسول الله ﷺ حتى انحط بهم الوادي في عماية الصبح ، فلما انحط الناس ثارت في وجوههم الخيل وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين يقول : ((أين أيها الناس؟ هلموا ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد المطلب)) وركبت الإبل بعضها بعضاً ، واجتلد الناس فو الله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتفين عند رسول الله ﷺ فقال أبو سفيان - وكان إسلامه بعد مدخولاً وكانت الأزلام معه يومئذ - لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ، يعني المسلمين ، ثم قسم رسول الله ﷺ الغنائم بعد أن رد إليهم نساءهم وأطفالهم .

وقد آثر النبي ﷺ ناساً ؛ أعطى الأقرع بن حابس مئة من الإبل ، وأعطى عيينة بن حصن مثل ذلك وأعطى أبا سفيان وابنه معاوية وحكيم بن حزام والحارث بن كلدة وعلقمة بن علاثة والعلاء بن جارية ، والحارث بن هشام وجبير بن مطعم ومالك بن عوف النصري ، وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى وصفوان بن أمية . فقال الأنصار : لقي والله رسول الله ﷺ قومه وقال سعد بن عبادة : يارسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم ، فقال : فيم ؟ قال : فيما كان من قسمك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب ولم يكن فيهم - أي الأنصار - من ذلك شيء فقال رسول الله ﷺ: فأين أنت من ذلك ياسعد ؟ قال : ما أنا إلا واحد من قومي . فقال رسول

الله ﷺ : ((فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة)) فخرج رسول الله ﷺ فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : ((يا معشر الأنصار ؛ ما قالة بلغتني عنكم ؟ وجدة وجدتموها علي في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى . ثم قال : ألا تجيبونني يامعشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المنُّ والفضل . قال : أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصُدقتم ؛ جئتنا طريداً فآويناك وعائلاً فآسيناك، وخائفاً فأمناك ، ومخذولاً فنصرناك)) فقالوا : المن لله ورسوله . فقال : ((أوجدتم في أنفسكم يامعشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير وتذهبوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار)) فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا بالله ورسوله قسماً .

ومما قيل من الشعر يوم فتح مكة قول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

عدمنا خيلنا إن لم تروها

تثير النقع موعدها كداء

يبـــــارين الأســـــنة مـــــصعدات
علـــى أكتافهـــا الأســـل الظمـــاء
تظـــــل جيادنـــــا متمطـــــرات
تلطمهـــــن بـــــالخمُر النـــــساء
فإمـــا مـــا تعرضـــوا عنـــا اعتمرنـــا
وكـــان الفـــتح وانكـــشف الغطـــاء
وإلا فاصـــــبروا لجـــــلاد يـــــوم
يعـــز الله فيـــه مـــن يـــشاء
وجبريـــــل أمـــــين الله فينـــــا
وروح القـــدس لـــيس لـــه كفـــاء
ألا أبلـــغ أبـــا ســـفيان عـــني
مغلغلـــة فقـــد بـــرح الخفـــاء
بـــأن ســـيوفنا تركتـــك عبـــداً
وعبـــد الـــدار ســـادتها الإمـــاء
هجـــوت محمـــداً فأجبـــت عنـــه
وعنـــد الله في ذاك الجـــزاء
أتهجـــوه ولـــست لـــه بكـــفء؟
فـــشركما لخيركمـــا الفـــداء
فـــإن أبـــي ووالـــده وعرضـــي
لعـــرض محمـــد مـــنكم وقـــاء

لســـــاني صـــــارم لا عيـــب فيـــــه

وبحـــــري لا تكـــــدره الـــــدلاء

قال ابن هشام : قالها حسان قبل الفتح .

ثم أسلم كعب بن زهير رضي الله عنه وقد ألقى قصيدته بين يدي رسول الله ﷺ ومنها :

بانــت ســعاد مقلــبي اليــوم متبــول

متــيَّمٌ إثرهـــا لم يُفــدَ مكبـــول

وماســعاد غـــداة الــبين إذ بـــرزت

إلا أغــن غـضيض الطــرف مكحــول

فيالهـــا خلـــة لـــو أنهـــا صــدقت

بوعـــدها أو لـــو ان النــصح مقبـــول

كانــت مواعيــد عرقــوب لهــا مــثلاً

ومـــــا مواعيــــدها إلا الأباطيــــل

وقـــال كـــل خليـــل كنــت آملــه :

لا ألهينَّــك إنـــي عنـــك مـــشغول

فقلــت : خلــوا ســبيلي لا أبــا لكــمُ

فكــل مــا قــدر الــرحمن مفعــول

كــل ابــن أنثــى وإن طالــت ســلامته

يومـــاً علـــى آلـــة حــدباء محمـــول

نبئــــت أن رســــول الله أو عـــدني

والعفـــو عنـــد رســـول الله مـــأمول

مهــلاً هــداك الــذي أعطــاك نافلــة الــ
ــــقرآن فيهـــا مـــواعيظ وتفـــصيل
لا تأخـــــذنّي بـــأقوال الوشـــاة ولم
أذنــب ولــو كثــرت فــيَّ الأقاويــل
لقـــد أقـــوم مقامـــاً لـــو يقـــوم بـــه
أرى وأسمــع مــا قــد يــسمع الفيــل
لظـــل تُرعَـــد مـــن وجـــد بـــوادره
إن لم يكـــن مـــن رســول الله تنويــل
حتـــى وضـــعت يمـــيني لا أنازعهـــا
في كــف ذي نقمـــات قيلـــه القيــل

* * * *

ثم دخلت سنة تسع من الهجرة

غزوة تبوك :

كان رسول الله ﷺ قلّ ما يخرج في غزوة إلا كنّى عنها إلا ما كان من غزوة تبوك ، فإنه بينها للناس لبُعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذي يصمد إليه ليتأهب الناس لذلك أهبته ، فأمر بالجهاد وأخبرهم أنه يريد الروم، وحض أهل الغنى على النفقة في سبيل الله ، وأنفق عثمان بن عفان نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها فقال رسول الله ﷺ: ((اللهم ارض عن عثمان فإني راض عنه)) .

قال رسول الله ﷺ للجد بن قيس : ((ياجدُّ ، هل لك العام في جلاد بني الأصفر ؟)) فقال : يا رسول الله ، أو تأذن لي ولا تفتني ، فو الله لقد عرف قومي أنه ما رجل بأشد عجباً بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال : ((قد أذنت لك)) ففي الجد أنزل الله هذه الآية : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة : ٤٩] . وبلغ رسول الله ﷺ أن ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فبعث إليهم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه ، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ففعل طلحة .

وجاء من الصحابة إلى رسول الله ﷺ ليحملهم حتى يصحبوه في غزوته هذه فلم يجدوا عنده من الظهر ما يحملهم عليه ، فرجعوا وهم يبكون تأسفاً على ما فاتهم من الجهاد في سبيل الله والنفقة فيه .

ثم استتب برسول الله ﷺ سفره وأجمع السير فلما خرج يوم الخميس ضرب عسكره على ثنية الوداع ومعه زيادة على ثلاثين ألفاً من الناس وضرب عبد الله بن أبي عدو الله عسكره أسفل منه وما كان فيما يزعمون بأقل العسكرين ، فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه عبد الله

ابن أُبي في طائفة من المنافقين وأهل الريب . ثم إن أبا خيثمة رجع بعد ما سار رسول الله ﷺ أياماً إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبرَّدت له فيه ماء ، وهيأت له فيه طعاماً فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال : رسول الله ﷺ في الضِّحِّ - الشمس - والريح والحر ، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء ، في ماله مقيم ، ما هذا بالنصَف - العدل - ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ . ثم قدم ناضحه فارتحله ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك .

قال الإمام أحمد : خرجوا في حر شديد فأصابهم في يوم عطش حتى جعلوا ينحرون إبلهم ليعصروا أكراشها ويشربوا ماءها ، فكان ذلك عسراً في الماء وعسراً في النفقة وعسراً في الظهر . ونزل رسول ﷺ الحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا ونصبوا القدور باللحم ، فأمرهم رسول الله ﷺ فأهرقوا القدور وعلفوا العجين الإبل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة .

قال ابن إسحاق : ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك أتاه يحنة بن رؤبة صاحب أيلة فصالح رسول الله ﷺ

وأعطاه الجزية وأتاه أهل جرباء وأذرح فأعطوه الجزية ثم إن رسول الله ﷺ دعا خالداً فبعثه إلى أكيدر دومة وكان نصرانياً ، فلما خرج تلقته خيل النبي ﷺ فأخذته وقتلوا أخاه ، ثم إن خالد بن الوليد رضي الله عنه لما قدم بأكيدر على رسول الله ﷺ حقن دمه فصالحه على الجزية ثم خلى سبيله فرجع إلى قريته فقال رجل من بني طيء يقال له : بجير بن بجرة في ذلك :

تبارك سائق البقرات إني
رأيت الله يهدي كل هاد
فمن يك حائداً عن ذي تبوك
فإنا قد أُمرنا بالجهاد

وقد حكى البيهقي أن رسول الله ﷺ قال لهذا الشاعر ((لا يفضض الله فاك)) فأتت عليه تسعون سنة ما تحرك له فيها ضرس ولا سن .

وبعث رسول الله ﷺ دحية الكلبي إلى هرقل فلما جاءه كتاب رسول الله ﷺ دعا قسيسي الروم وبطارقتها فقال : قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم ، وقد أرسل يدعوني إلى ثلاث خصال : يدعوني إلى أن أتبعه على دينه أو على أن نعطيه مالنا على أرضنا والأرض أرضنا أو نلقي إليه الحرب، والله لقد عرفتم فيما تقرؤون من الكتب ليأخذنَّ ما تحت قدمي فهلم فلنتبعه على دينه أو نعطيه مالنا على

أرضنا . فنخروا نخرة رجل واحد حتى خرجوا من برانسهم[1] وقالوا : تدعونا إلى أن نذر النصرانية أو نكون عبيداً لأعرابي جاء من الحجاز ؟ قال : إنما قلت لكم لأعلم صلابتكم في أمركم . وأقام رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة بتبوك ثم انصرف قافلاً إلى المدينة . ولقي رسول الله ﷺ من المنافقين العنت كانوا يخالفونه في كل أمر حتى هموا به عند العقبة . عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به ، وعمار يسوق الناقة - حتى إذا كنا بالعقبة إذ أنا باثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها فأنبهتُ رسول الله ﷺ فصرخ بهم فولوا مدبرين فقال لنا رسول الله ﷺ: ((هل عرفتم القوم ؟)) قلنا : لا يا رسول الله قد كانوا متلثمين ولكنا قد عرفنا الركاب . قال : ((هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة وهل تدرون ما أرادوا ؟)) قلنا : لا .

قال : ((أرادوا أن يزحموا رسول الله ﷺ في العقبة فيلقوه منها)) قلنا : يا رسول الله أولا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم ؟ قال : ((لا . أكره أن تحدث العرب بينها أن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم)) .

---

(١) البرنس : كل ثوب رأسه منه ملتصق به .

وتخلف كعب بن مالك ومُرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية وقد أرجأ الله أمرهم حتى قضى فيهم بتوبته عليهم . قال خريم بن أوس : هاجرت إلى رسول الله ﷺ منصرفه من تبوك فسمعت العباس بن عبد المطلب يقول : يا رسول الله إني أريد أن أمتدحك فقال رسول الله ﷺ: ((قل ، لا يفضض الله فاك)) فقال :

من قبلها طبتَ في الظلال وفي
مستودعٍ حيث يُخصف الورقُ
وأنت لما ولدت أشرقت الأر
ض وضاءت بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء وفي النو
ر وسبْل الرشاد نخترق

قال البيهقي : ثم قال رسول الله ﷺ: ((هذه الحيرة البيضاء رفعت لي ، وهذه الشيماءُ بنت بُقَيلة الأزديةُ على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود)) فقال خريم بن أوس : يارسول الله ، إن نحن دخلنا الحيرة فوجدتها كما تصف فهي لي ؟ فقال : ((هي لك)) . قال : ثم كانت الردة فما ارتد أحد من طيء، وكنا نقاتل مَن يلينا من العرب على الإسلام ، فكنا نقاتل قيساً وفيها عيينة بن حصن ، وكنا نقاتل بني أسد وفيهم طليحة بن خويلد ، وكان خالد بن الوليد يمدحنا وكان فيما قال فينا :

جـــزى الله عنـــا طيئـــاً في ديارهـــا
بمعـــترَك الأبطـــال خـــير جـــزاء
هـــمُ أهـــل رايـــات الـــسماحة والنـــدى
إذا مـــا الـــصبا ألـــوت بكـــل خبـــاء
هـــمُ ضـــربوا قيـــساً علـــى الـــدين بعـــدما
أجـــابوا منـــادي ظلمـــة وعمـــاء

ثم سار خالد إلى مسيلمة الكذاب فسرنا معه فلما فرغنا من مسيلمة أقبلنا ناحية البصرة فلقينا هرمز بكاظمة في جيش هو أكبر من جمعنا ، ولم يكن أحد من الناس أعدى للعرب والإسلام من هُرمز ، فخرج إليه خالد ودعاه إلى المبارزة ، فبرز له فقتله خالد ، وكتب بخبره إلى الصديق فنفّله سلبه ، فبلغت قلنسوة هرمز مئة ألف درهم ، وكانت الفرس إذا شرف فيهم الرجل جُعلت قلنسوته بمئة ألف درهم ، ثم أقبلنا على طريق الطف إلى الحيرة فأول من تلقانا حين دخلناها الشيماء بنت بقيلة كما قال رسول الله ﷺ على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود ، فتعلقتُ بها وقلت : هذه وهبها لي رسول الله ﷺ فدعاني خالد عليها بالبينة فأتيته بها وكانت البينة محمد ابن مسلمة ومحمد بن بشير الأنصاري فسلمها إلي ، فنزل إلي أخوها عبد المسيح يريد الصلح فقال : بعنيها فقلت : لا أنقصها والله عن عشر مئة درهم ، فأعطاني ألف درهم وسلمتها إليه فقيل : لو قلت مئة ألف لدفعها إليك فقلت : ما كنت أحسب أن عدداً أكثر من عشر مئة .

قال محمد بن إسحاق : دخل رسول الله ﷺ على عبدالله بن أُبَيٍّ يعوده في مرضه الذي مات فيه فلما عرف فيه الموت قال رسول الله ﷺ: ((أما والله إن كنت لأنهاك عن حب يهود)) .

وعن عبد الله بن عمر قال : لما توفي عبد الله بن أبي سلول جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ يصلي عليه فقام عمر بن الخطاب فأخذ بثوبه فقال : يا رسول الله، تصلي عليه وقد نهاك الله عنه ؟ فقال رسول الله ﷺ: ((إن ربي خيرني فقال : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ﴾ (التوبة:٨٠) وسأزيد على السبعين)) فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ (التوبة : ٨٤) . وكانت غزوة تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ قال : حسان بن ثابت رضي الله عنه يعدد أيام الأنصار مع رسول الله ﷺ ويذكر مواطنهم معه في أيام غزوه قال ابن هشام : وتروى لابنه عبد الرحمن .

ألستُ خيرَ معدٍّ كلِّها نفراً
ومعشراً إن هم عُمّوا وإن حُصّلوا

قـــوم هــمُ شـــهدوا بـــدراً بـــأجمعهم
مــع الرســول فمــا آلــوا ومــا خــذلوا
ويــوم صــبحهم في الــشعب مــن أُحــد
ضــرب رصــين كحــر النــار مــشتعل
ويـــوم ذي قَـــرَدٍ يـــومَ اســـتثار بهـــم
علــى الجيــاد فمــا خــاموا ومــا نكلــوا
وذا العُـــشَيرة جاســـوها بخيلـــهم
مــع الرســول عليهــا البــيض والأســل
ويـــومَ ودّان أجلَـــوا أهلـــها رقَـــصاً
بالخيــل حتــى نهانــا الحَــزن والجبــل
وليلـــة بحُـــنين جالـــدوا معـــه
فيهــا يعُلُّهــم في الحــرب إذ نهلــوا
وغـــزوة الفـــتح كـــانوا في ســـريّته
مــرابطين فمــا طاشــوا ومــا عجلــوا
ويـــوم خيـــبر كـــانوا في كتيبتـــه
يمـــشون كلـــهمُ مستبـــسل بطـــل
ويـــوم ســـار رســـول الله محتـــسباً
إلى تبـــوك وهـــم راياتـــه الأول
أولئــك القــوم أنــصار الــنبي وهــم
قــومي أصــير إلــيهم حــين أتــصل

مـــاتوا كرامـــاً ولم تُنكـــث عهـــودهمُ
وقتلـــــهم في ســــبيل الله إذ قتلـــــوا

* * * *

سنة الوفود :

في هذه السنة بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الحج ، فلما خرج أبو بكر رضي الله عنه بمن معه من المسلمين وفصل عن المدينة أنزل الله عن وجل هذه الآيات من أول سورة التوبة : ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ﴾ (التوبة:١-٣) . إلى آخر القصة . قيل له : يارسول الله لو بعثت بها إلى أبي بكر فقال ﷺ: ((لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي)) ثم دعا علي بن أبي طالب فقال : ((اخرج بهذه القصة من صدر (براءة) وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى : ألا إنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته)) فأقام أبو بكر الحج للناس والعرب إذ ذاك

في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية ، حتى إذا كان يوم النحر قام علي فأذن فيهم .

قال محمد بن إسحاق : لما افتتح رسول الله ﷺ مكة وفرغ من تبوك وأسلمت ثقيف وبايعت ضربت إليه وفود العرب من كل وجه قال ابن هشام : حدثني أبو عبيدة أن ذلك في سنة تسع وأنها كانت تسمى سنة الوفود يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ (النصر:١ – ٣) .

الوفـــود :

قال محمد بن إسحاق : ولما قدمت على رسول الله ﷺ وفود العرب قدم عليه عطارد بن حاجب في أشراف تميم منهم ؛ الأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وقيس بن عاصم في وفد عظيم من بني تميم فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات أن اخرج إلينا يا محمد . فآذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم فخرج إليهم فقالوا : يا محمد جئنا نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا قال: ((قد أذنت لخطيبكم فليقل)) فقام خطيبهم عطارد بن حاجب فقال ما أراد ثم جلس . فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس الخزرجي : ((قم فأجب الرجل في خطبته)) فقام ثابت فقال . فقام الزبرقان ابن بدر فقال :

نحن الكرام فلا حيٌّ يعادلنا
منا الملوك وفينا تنصب البِيَعُ
وكم قسرنا من الأحياء كلهم
عند النهاب وفضل العز يُتَّبع
ونحن يطعم عند القحط مطعمنا
من الشواء إذا لم يؤنس القزع[1]
بما ترى الناس تأتينا سَراتهمُ
من كل أرض هوياً ثم نصطنع
فننحر الكوم عبطاً في أَرومتنا
للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا
فما ترانا إلى حيٍّ نفاخرهم
إلا استقادوا وكانوا الرأسَ يُقتطع
فمن يفاخرنا في ذاك نعرفه
فيرجع القوم والأخبار تُستمع
إنا أبينا ولا يأبى لنا أحد
إنا كذلك عند الفخر نرتفع

وكان حسان غائباً فبعث النبي ﷺ في طلبه فحضر، فلما فرغ الزبرقان قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: ((قم ياحسان فأجب الرجل فيما قال)) فقال حسان:

(١) القزع: السحاب الرقيق.

إن الذوائب من فهر وإخوتهم
قد بينوا سنة للناس تُتَّبَعُ
يرضى بها كل من كانت سريرته
تقوى الإله وكل الخير يُصطنع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهمُ
أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
إن كان في الناس سباقون بعدهمُ
فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم
لا يطمعون ولا يرديهمُ طمع
نسموا إذا الحرب نالتنا مخالبها
إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
لا يفخرون إذا نالوا عدوهمُ
وإن أصيبوا فلا خُور ولا هُلُع
كأنهم في الوغى والموت مكتنع
أسد ببيشة في أرساغها فدع
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم
إذا تفاوتت الأهواء والشيع

فلما فرغ حسان من قوله قال الأقرع بين حابس : وأبي إن هذا لمؤتّى له ؛ لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا ثم أسلموا ، وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم .

وكان عمرو بن الأهتم قد خلفه القوم في رحالهم وكان أصغرهم سناً فقال قيس بن عاصم وكان يبغض عمرو بن الأهتم : يا رسول الله إنه قد كان رجل منا في رحالنا وهو غلام حدث ، وأزرى به ، فأعطاه رسول الله ﷺ مثل ما أعطى القوم فقال عمرو بن الأهتم حين بلغه أن قيساً قال ذلك :

ظللتَ مفترشَ الهلباء تشتمني
عند الرسول فلم تصدق ولم تصب
سدناكمُ سؤدداً رَهواً وسؤددكم
باد نواجذه مقعٍ على الذنب[1]

وعن محمد بن الزبير الحنظلي قال : قدم إلى رسول الله ﷺ الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم وعمرو بن الأهتم، فقال ﷺ لعمرو بن الأهتم : ((أخبرني عن الزبرقان فأما هذا فلست أسألك عنه)) وأراه كان قد عرف قيساً . قال : فقال : مطاع في أدنيه ، شديد العارضة ، مانع لما وراء ظهره . فقال الزبرقان : قد قال ما قال وهو يعلم أني أفضل مما قال . فقال عمرو : والله ما علمتك إلا زمر المروءة[2]، ضيق العطن[3] أحمق الأب ، لئيم الخال . ثم

(١) الهلباء : شعر الذنب .
(٢) زمر : قليل .
(٣) ضيق العطن : كناية عن البخل .

قال: يا رسول الله قد صدقت فيهما جميعاً ، أرضاني فقلت بأحسن ما أعلم فيه ، وأسخطني فقلت بأسوأ ما أعلم فيه . فقال رسول الله ﷺ : ((**إن من البيان لسحراً**)) [1].

عن أبي هريرة قال : لا أزال أحب بني تميم بعد ثلاث سمعتهن من رسول الله ﷺ يقول فيهم ((هم أشد أمتي على الدجال)) وكانت فيهم سبيَّة عند عائشة فقال: ((**أعتقيها؛ فإنها من ولد اسماعيل**)) [2] وجاءت صدقاتهم فقال : ((هذه صدقات قوم ــ أو قومي)) وهذا الحديث يرد على ما ذكره صاحب الحماسة وغيره من شعر من ذمهم حيث يقول :

تميم بطرْق اللؤم أهدى من القطا
ولو سلكت طرق الرشاد لضلت
ولو أن برغوثاً على ظهر قملة
رأته تميم من بعيد لولت

قصة ثمامة بن أثال :

بعث رسول الله ﷺ خيلاً قِبَل نجد ، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له : ثمامة بن أثال . فربطوه بسارية من

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٩٠٩٠) ، وأخرجه الإمام مالك في مسنده برقم (١٥٦٤) .
(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحة برقم (٤٥٨٧) .

سواري المسجد ، فخرج إليه النبي ﷺ فقال : ((ما عندك ياثمامة ؟)) قال : عندي خير يامحمد ، إن تقتلني تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد مالاً فسل منه ما شئت . فتركه حتى كان من الغد ، ثم قال له : ((ما عندك ياثمامة ؟)) فقال : عندي ما قلت لك : إن تنعم تنعم على شاكر . فتركه حتى بعد الغد فقال : ((ما عندك ياثمامة ؟)) فقال : عندي ما قلت لك فقال : ((أطلقوا ثمامة)) فانطلق إلى نخل من المسجد ، فاغتسل ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، يامحمد ، والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلى من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي ، فلما قدم مكة معتمراً قال له قائل : صبأت . قال : لا ، ولكن أسلمت مع محمد ﷺ ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ . والظاهر أن هذه القصة قبيل الفتح .

قدوم عمرو بن معد يكرب :

قدم عمرو بن معد يكرب على رسول الله ﷺ فأسلم وصدقه وآمن به ، فلما بلغ ذلك قيس بن مكشوح أوعد عمراً وقال : خالفني وترك أمري ورأيي ؟ فقال عمرو في ذلك :

أمرتـــك يـــوم ذي صـــنعا

ء أمـــراً باديـــاً رشـــدُهْ

أمرتـــك باتقـــاء اللـــــ

ـــه والمعـــروف تتعـــده

خرجـت مـن المنـى مثـل الــ

ــحميِّر غـــره وتـــده

تمنـــاني علـــى فـــرس

عليـــه جالـــساً أســـده

فلـــو لاقيـــتني للقيـــ

ـــت ليثـــاً فوقـــه لبـــده

يـــسامي القـــرن إنْ قـــر

ن تيممـــه فيعتـــضده

فيأخـــذه فيرفعـــه

فيخفـــضه فيقتـــصده

فيدمغـــه فيحطمـــه

فيخـــضمه فيـــزدرده

ظلـــوم الـــشرك فيمـــا أحـــ

رزت أنيابـــه ويـــده

فلما توفي رسول الله ﷺ ارتد عمرو بن معد يكرب في من ارتد ثم رجع إلى الإسلام وحسن إسلامه وشهد فتوحات كثيرة في أيام الصديق وعمر الفاروق رضي الله

عنهما وكان من الشجعان المذكورين والأبطال المشهورين والشعراء المجيدين توفي سنة إحدى وعشرين بعدما شهد فتح نهاوند وقيل ببابل شهد القادسية وقتل يومئذ .

وقد قيل : إن عمرو بن معد يكرب لم يأت النبي ﷺ وقد قال في ذلك :

إنـــني بـــالنبي موقنـــة نفـــسـ

ـــي وإن لم أر الـــنبي عيانـــا

ســيد العـــالمين طـــراً وأدنـــا

هـــم إلى الله حـــين بـــان مكانـــا

حكمـــه بعـــد حكمـــة وضـــياء

فاهتـــدينا بنورهـــا مـــن عمانـــا

وعبـــدنا الإلـــه حقـــاً وكنـــا

للجهـــالات نعبـــد الأوثانـــا

وائتلفنـــا بـــه وكنـــا عـــدواً

فرجعنـــا بـــه معـــاً إخوانـــاً

فعليـــه الـــسلام والـــسلم منـــا

حيـــث كنـــا مـــن الـــبلاد وكانـــا

إن نكـــن لم نـــر الـــنبي فإنـــا

قـــد تبعنـــا ســـبيله إيمانـــا

* * * *

ثم دخلت سنة عشر من الهجرة النبوية

حجة الوداع :

ويقال لها : حَجة البلاغ ، وحجة الإسلام ، لأنه عليه الصلاة والسلام ودع الناس فيها ، ولم يحج بعدها ، وقد اعتمر رسول الله ﷺ ثلاث عمر . عن عائشة قالت : خرج رسول الله ﷺ إلى الحج لخمس ليال بقين من ذي القعدة ، انطلق ﷺ من المدينة بعدما ترجل وادهن ولبس إزاره ورداءه، خرج يوم الخميس وبات بذي الحليفة ليلة الجمعة وأصبح بها يوم الجمعة .

عن أنس أن النبي ﷺ حج على رحل رث وتحته قطيفة وقال : ((حجة لارياء فيها ولا سمعة)) .

قال الإمام أحمد : ثنا جعفر بن عون ، ثنا أبو الغُميس، عن قيس بن مسلم ، عن طارق بن شهاب قال :

جاء رجل من يهود إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين إنكم تقرؤون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً قال : وأي آية هي ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ (المائدة : ٣) . فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ ، نزلت عشية

عرفة في يوم جمعة . وعن عبد الله بن عمر قال : نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ بمنى وهو في أوسط أيام التشريق في حجة الوداع ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ (النصر:١) فعرف أنه الوداع فأمر ﷺ براحلته القصواء ، فرحلت له ، ثم ركب فوقف للناس بالعقبة فاجتمع إليه ما شاء الله من المسلمين فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : ((أيها الناس : اسمعوا مني أبين لكم لعلي لا ألقاكم بعد يومكم هذا في موقفي هذا . إن كل دم كان في الجاهلية فهو هدر وكل ربا في الجاهلية فهو موضوع وإن أول رباكم أضع ربا العباس ابن عبد المطلب . . . .

أيها الناس : أي يوم هذا ؟ قالوا : يوم حرام . قال : فأي بلد هذا قالوا : بلد حرام . قال : فأي شهر هذا . قالوا : شهر حرام قال : فإن الله حرم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا ألا ليبلغ الشاهد الغائب ، لا نبي بعدي ، ثم رفع يديه فقال : اللهم اشهد)) .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى عشرة من الهجرة

استهلت هذه السنة وقد استقر الركاب النبوي الشريف بالمدينة المنورة المطهرة ، مرجعه من حجة الوداع وقد وقعت في هذه السنة أمور عظام وأعظمها خطباً وفاة رسول الله ﷺ.

سأل عمر الصحابة وابن عباس حاضر عن تفسير هذه السورة ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ (النصر:١-٣) فقالوا : أمرنا إذا فتح لنا أن نذكر الله ونحمده ونستغفره . فقال : ما تقول يابن عباس ؟ فقال : هو أجل رسول الله ﷺ نُعِيَ إليه . فقال عمر : لا أعلم منها إلا ما تعلم .

ولكن هذا لا ينافي ما فسرها به الصحابة أيضاً رضي الله عنهم . ولما نزل قوله تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (المائدة:٣) الآية بكى عمر فقيل : ما يبكيك ؟ فقال: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان ، وكأنه استشعر وفاة النبي ﷺ .

ولما مرض رسول الله ﷺ مرضه الذي مات فيه ، خرج فجلس على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

((أيها الناس ؛ إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عند الله)) ففهمها أبو بكر رضي الله عنه من بين الناس فبكى وقال : نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا وأموالنا . ثم قال ﷺ : ((انظروا إلى هذه الأبواب الشارعة في المسجد فسدوها إلا ما كان من بيت أبي بكر فإنني لا أعلم أحداً عندي أفضل في الصحبة منه)) .

وقد قدم الرسول ﷺ أبا بكر إماماً للصحابة كلهم في الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام العملية .

قال عمر بن عبد العزيز : كان من آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ **((قاتل الله اليهود والنصارى ؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، لايبقين دينان بأرض العرب))** (١) وقد قال ﷺ : ((لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى ، وفي حديث آخر : يقول الله تعالى ((أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيراً)) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : أمرني رسول الله ﷺ أن آتيه بطبق يكتب فيه مالا تضل أمته من بعده قال : فخشيت أن تفوتني نفسه قال : قلت : إني أحفظ وأعي . قال : ((أوصي بالصلاة والزكاة وما ملكت أيمانكم)) وكان ﷺ يمسح وجهه بالماء ثم يقول : **((اللهم أعني على سكرات الموت))** (٢)

---

(١) موطأ الإمام مالك برقم (١٣٧٨) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٣٢٢٠) ، والإمام ابن ماجه برقم (١٦١٢) .

قالت عائشة رضي الله عنها : إن رسول الله ﷺ قُبض وهو في حجري .

وأصاب الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ذهول عظيم ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فوقف أبو بكر فتشهد فقال : أما بعد : فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت وتلا قوله تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ ﴾ (آل عمران:١٤٤) واجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ، وكادت تكون فتنة عظيمة فيمن يتولى الأمر بعد رسول الله ﷺ لكن الله سبحانه أراد بهذه الأمة خيراً بأن ألهم الفاروق أن يبايع أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، عن ابن عباس عن عمر أنه قال : قلت ـ يوم السقيفة ـ يا معشر المسلمين ، إن أولى الناس بأمر نبي الله ﷺ ثاني اثنين إذهما في الغار أبوبكر السباق المبين ثم أخذت بيده وبدرني رجل من الأنصار فضرب على يده قبل أن أضرب على يده ثم ضربت على يده وتتابع الناس وكان ذلك الرجل بشير بن سعد والد النعمان بن بشير رضي الله عنهم أجمعين .

وفاة رسول الله ﷺ :

توفي ﷺ يوم الاثنين ودفن يوم الثلاثاء حيث قبض .

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : بينا نحن مجتمعون نبكي لم ننم ورسول الله ﷺ في بيوتنا ونحن نتسلى برؤيته على السرير ، إذ سمعنا صوت الكرازين في السحر ـ الفؤوس لحفر القبر ـ قالت أم سلمة : فصحنا وصاح أهل المسجد فارتجت المدينة صيحة واحدة . وأذن بلال بالفجر فلما ذكر النبي ﷺ بكى فانتحب فزادنا حزناً وعالج الناس الدخول على قبره فغلق دونهم فيالها من مصيبة ما أصبنا بعدها بمصيبة إلا هانت إذا ذكرنا مصيبتنا به ﷺ . توفي رسول الله ﷺ وله ثلاث وستون سنة .

قال حسان بن ثابت رضي الله عنه يبكي رسول الله ﷺ :

بطيبة رسم للنبي ومعهدُ
منير وقد تعفو الرسوم وتَهْمُدُ
ولا تمتحي الآيات من دار حرمة
بها منبر الهادي الذي كان يصعد
وواضح آيات وباقي معالم
وربع له فيه مصلى ومسجد
بها حجرات كانْ ينزل وسطها
من الله نور يستضاء ويوقد
معارف لم تُطمَس على العهد آيها
أتاها البلى فالآي منها تجدد

عرفت بها رسم الرسول وعهده
وقبراً بها واراه في الترب ملحد
ظللت بها أبكي الرسول فأسعدت
عيون ومثلاها من الجفن تسعد
فبوركت ياقبر الرسول وبوركت
بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
إمام لهم يهديهمُ الحق جاهداً
معلّم صدق إن يطيعوه يسعدوا
عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى
حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
وما فقد الماضون مثل محمد
ولا مثله حتى القيامة يفقد

خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه :

بايع الناس أبا بكر بيعة عامة بعد بيعة السقيفة ثم قام فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله ثم قال : أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق له إن شاء الله ، أطيعوني ما أطلعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم .

ثم أنفذ جيش أسامة الذين كانوا قد أمرهم رسول الله ﷺ بالمسير إلى تخوم البلقاء من الشام حيث قتل زيد بن حارثة وجعفر وابن رواحة ، فخرجوا في الجرف فخيموا ، فلما ثقل رسول الله ﷺ أقاموا هناك ، فلما مات عظم الخطب واشتد الحال ونجم النفاق بالمدينة وارتد من ارتد من أحياء العرب حول المدينة وامتنع آخرون من أداء الزكاة إلى الصديق ، ولم تبق الجمعة تقام في بلد سوى مكة والمدينة . واشرأبت اليهودية والنصرانية . والمسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم وقلتهم وكثرة عدوهم ، حينئذ أشار كثير من الناس على الصديق أن لا ينفذ جيش أسامة وكان من جملة من أشار ذلك عمر بن الخطاب فقال الصديق : رضي الله عنه : والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ ولو أن الطير تخطفنا والسباع من حول المدينة ، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزن جيش أسامة .

فجهزه وأمر الحرس ليكونوا حول المدينة ، فكان خروجه في ذلك الوقت من أكبر المصالح للمسلمين فساروا لايمرون بحي من أحياء العرب إلا أرعبوا منهم وقالوا : ما خرج هؤلاء من قوم إلا وبهم منعة شديدة . فغابوا أربعين يوماً ثم آبوا سالمين غانمين فجهزهم حينئذ مع الأحياء الذين أخرجهم لقتال المرتدين ومانعي الزكاة .

وكان عدد هذا الجيش سبعمئة .

مقتل الأسود العنسي المتنبئ الكذاب :

واسمه عبهلة بن كعب بن غوث ،أخذ نجران ثم قصد إلى صنعاء فخرج إليه شهر بن باذام فتقاتلا فغلبه الأسود وقتله وكسر جيشه من الأبناء الذين هم أولاد الفرس الذين سكن أباؤهم اليمن وتزوجوا بها ، واحتل بلدة صنعاء وأصبحت اليمن كلها للأسود العنسي ، وارتد خلق من أهل اليمن وعامله المسلمون الذين هناك بالتقية لا يظهرون إسلامهم خوفاً منه ويظهرون أنهم يتابعونه ، وكان خليفته على مذحج عمرو بن معد يكرب وأسند أمر الجند إلى قيس بن عبد يغوث وأسند أمر الأبناء إلى فيروز الديلمي وداذويه .

وبعث رسول الله ﷺ كتابه حين بلغه خبر الأسود العنسي مع رجل يقال له : وبر الديلمي يأمر المسلمين باليمن بمقاتلة الأسود العنسي ، وقام معاذ بن جبل بهذا الكتاب أتم القيام ، وكان قد تزوج أمرأة من السَّكون يقال لها : رملة ، فحدبت عليه السكون واتفق اجتماعهم بقيس بن عبد يغوث أمير الجند ، وكان الأسود قد تغضب عليه واستخف به ، وهمَّ بقتله ، فلما أعلم وبرٌ قيسَ بن مكشوح كان كأنما نزل عليه من السماء ، ووافقهم على الفتك بالأسود ، وخرج قيس إلى أصحابه فيروز وداذويه فأخبرهم، قال قيس : وأدخلت على امرأته آزاذ وكانت امرأة مؤمنة بالله ورسوله ﷺ ومن الصالحات فقلت : يابنة

عمي ، قد عرفت بلاء هذا الرجل عند قومك ، قتل زوجك، وفضح النساء فهل عندك ممالأة عليه ؟ قالت : على أي أمره .؟ قلت : إخراجه . قالت : أو قتله ؟ قلت : أو قتله . قالت : نعم والله ما خلق الله شخصاً هو أبغض إلي منه ما يقوم لله على حق ، ولا ينتهي له عن حرمة فلما كان الليل نقبوا البيت فدخلوا فتقدم إليه فيروز الديلمي والأسود نائم وهو سكران ، فعاجله وهو مثل الجمل ، فاخذت المرأة بشعره، فاحتز فيروز رقبته ، فصار يخور كأشد خوار ثور سمع قط ، فابتدر الحرس إلى المقصورة فقالوا : ما هذا ؟ ! فقالت المرأة : النبي يوحي إليه ، فرجعوا حتى إذا كان الصباح نادى قيس بالأذان : أشهد أن محمداً رسول الله وأن عبهلة كذاب ، وألقى إليهم رأسه ، فانهزم أصحابه وتبعهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم ، وظهر الإسلام وأهله، واتفقوا على معاذ بن جبل يصلي بالناس في صنعاء .

وبعد ثلاثة أيام جاء خبر وفاة رسول الله ﷺ ، فارتد الناس وارتدت العرب عدا المسجدين مكة والمدينة والمنورة .

* * * *

حروب الردة

امتنع ناس من العرب من دفع الزكاة فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . وبعد ثلاث ليال أغار المرتدون على المدينة فخرج إليهم أبو بكر في أهل المدينة فردهم فهربوا .

ثم خرج أبو بكر رضي الله عنه وعلى الميمنة النعمان ابن مقرّن وعلى الميسرة أخوه عبد الله بن مقرن وعلى مؤخرة الجيش أخوهما سويد بن مقرن ، ولما لاقى هذا الجيش المرتدين فما طلعت الشمس حتى ولّوا الأدبار وقتل حبال بن طُليحة الأسدي وكان نصر الله تعالى ، ثم قدم أسامة بن زيد ، وعقد أبو بكر الصديق رضي الله عنه أحد عشر لواء وهي :

١- لواء لخالد بن الوليد وأمره بطليحة الأسدي .
٢- لواء لعكرمة بن أبي جهل وأمره بمسيلمة الكذاب .
٣- لواء لشرحبيل بن حسنة وأمره بمسيلمة الكذاب ثم بني قضاعة .
٤- لواء للمهاجر بن أمية وأمره بجنود العنسي .
٥- لواء لخالد بن سعيد بن العاص إلى مشارف الشام .
٦- لواء لعمرو بن العاص إلى جماعة قضاعة .
٧- لواء لحذيفة بن محصن إلى أهل دبا .
٨- لواء لعرفجة بن هرثمة إلى مهرة .
٩- لواء لطريفة بن حاجز إلى بني سُليم وهوازن .
١٠- لواء لسويد بن مقرن إلى تهامة اليمن .
١١- لواء للعلاء بن الحضرمي إلى البحرين .

وقعة بُزاخة :

تقدم خالد من طليحة الأسدي حتى نزل بين جبلي أجأ وسلمى ، والتقيا عند مكان يقال له بزاخة فانهزم المرتدون .

ثم اجتمع الفُلال من أصحاب طليحة من بني غطفان إلى امرأة يقال لها : أم زِمْلٍ سلمى بنت مالك ، وكانت من سيدات العرب وانضم إليها آخرون من بني سُليم وطيئ وهوازن وأسد فصاروا جيشاً كثيفاً .

فلما سمع خالد بهم سار إليهم واقتتلوا قتالاً شديداً وهي راكبة على جمل أمها الذي كان يقال : من نخس جملها فله مئة من الإبل وذلك لعزها ، فهزمهم خالد وعقر جملها وقتلها وبعث بالفتح إلى الصديق رضي الله عنه .

سجاح

وكانت سجاح بنت الحارث بن سويد التغلبية من الجزيرة في الشام من نصارى العرب قد ادعت النبوة ومعها جنود من قومها ومن التف بهم ، تقدمت إلى اليمامة بجنودها لتأخذها من مسيلمة الكذاب ، ثم اجتمع بها وقال لها : هل لك أن أتزوجك وأغلب بك وبقومي العرب ؟ قالت : نعم ، فتزوجها وأقامت عنده ثلاثة أيام فقال لها قومها : ماذا كان صداقك منه ؟ قالت : لا شيء . فقالوا : هذا عيب على مثلك أن تتزوج بغير صداق ، فبعثت إليه تسأله صداقها فقال : إن مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد ؛ صلاة الفجر وصلاة العشاء ، وأباح شرب الخمر والزنا .

وسار خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى البطاح فأسر مالك بن نويرة وصحبه ، وباتوا في ليلة باردة شديدة البرد ، فنادى منادي خالد : أن دافئوا أسراكم ، فظن القوم أنه أراد القتل فقتلوهم ، واصطفى خالد امرأة مالك فلما حلت تزوجها .

مقتل مسيلمة الكذاب

ثم سار خالد رضي الله عنه إلى مسيلمة الكذاب ، وكان الصديق بعث قبله إلى مسيلمة عكرمة بن أبي جهل وشرحبيل بن حسنة فلم يقاوما بني حنيفة ، فعجل عكرمة قبل شرحبيل فحاربهم فنُكِب ، وانتظر خالداً ، فلما سمع مسيلمة بمسير خالد عسكر بمكان يقال له : عقرباء ، وجعل على مجنبتي جيشه المحكَّم بن الطفيل والرَّجال بن عنفوة فكان هذا الملعون من أكبر ما أضل أهل اليمامة وقد كان الرجال قد وفد إلى الرسول ﷺ فارتد مع مسيلمة .

واقترب خالد من بني حنيفة وقد مرت المقدمة في الليل بنحو من أربعين مقاتلاً ، عليهم مُجّاعة بن مرارة ، فأسرهم خالد وضرب أعناقهم إلا مجاعة واستوصى به خيراً .

فلما تقابل الجيشان واصطدم المسلمون بالمرتدين انهزمت الأعراب ، وقد قُتِل الرّجال بن عنفوة لعنه الله في هذه الجولة قتله زيد بن الخطاب شقيق عمر بن الخطاب ، وقاتلت بنو حنيفة قتالاً لم يُعهدْ مثله ، وحفر ثابت بن قيس

لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقيه وهو حامل لواء الأنصار ، بعدما تحنط وتكفن فلم يزل ثابتاً حتى قتل ، واستشهد زيد بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان شعار المسلمين يومئذ : يا محمداه .

ورأى خالد أن الأعراب تفر وهم بين المهاجرين والأنصار فصاح : (**تميزوا**) ، فمال المهاجرون إلى المهاجرين ، والأنصار إلى الأنصار ، وصار كل أهل بيت يحافظون على مواقعهم في المعركة ، وصبر الصحابة في هذا الموطن صبراً لم يعهد مثله ، ولم يزالوا يتقدمون إلى نحور عدوهم حتى فتح الله عليهم ، وولى الكفار الأدبار واتبعهم المسلمون يقتلون فيهم حتى ألجؤوهم إلى الحديقة ، فدخلوها ، وأدرك عبد الرحمن بن أبي بكر محكّم بن الطفيل فرماه بسهم في عنقه وهو يخطب فقتله ، وأغلقت بنو حنيفة عليهم الحديقة وأحاط بهم الصحابة وقال البراء ابن مالك : يا معشر المسلمين ألقوني عليهم في الحديقة ، فحملوه فوق الترس ورفعوه بالرماح وألقَوْه عليهم من فوق السور ، فلم يزل يقاتلهم حتى ضرب سلسلة الباب ففتحه ، ودخل المسلمون يقتلون فيهم حتى خلصوا إلى مسيلمة الكذاب لعنه الله ، فتقدم إليه وحشي قاتل حمزة فرماه بحربته فخرجت من ظهره وسارع إليه أبو دجانة فضربه بالسيف .

وكان جملة من قتل في الحديقة قريباً من عشرة آلاف مقاتل ، وقتل من المسلمين ستمئة وسميت الحديقة حديقة الموت [١]

أما مجاعة ؛ فقد أطلقه خالد ثم خطب ابنته وألح عليه، فزوجه إياها .

ودعا خالد أهل اليمامة إلى الإسلام فأسلموا كلهم .

وجاء كتاب أبي بكر إلى خالد أن الحق بمن معك إلى العراق وقد تسرى علي بن أبي طالب بجارية منهم وهي أم ابنه محمد الذي يقال له : محمد بن الحنفية .

العلاء بن الحضرمي :

كان رسول الله ﷺ قد بعث العلاء بن الحضرمي إلى ملكها المنذر بن ساوى العبدي فأسلم على يديه ، وأقام فيهم الإسلام والعدل ، فلما توفي رسول الله ﷺ توفي المنذر بعده بقليل ، فارتد أهل البحرين ، وملّكوا عليهم الغَرور ، وهو المنذر بن النعمان بن المنذر .

وكان العلاء من سادات الصحابة العلماء العبّاد مجاب الدعوة ، ظهرت على يديه كرامات متعددة ، تقدم من البحرين وقد حشد المرتدون حشداً عظيماً ، وباتوا

---

(١) قلت : حديقة الموت ، هذه ، تقع جنوب الرياض ، وشمال شرق مدينة الخرج على بعد ٥ كم منها ، زرناها ، وهي مسورة من كل جهاتها ولا باب لها ، معروف عند أهل تلك المنطقة أنها هي الحديقة التي جرت فيها تلك المعركة والله أعلم .

متجاورين في المنازل ، فبينما المسلمون في الليل إذ سمع العلاء أصواتاً عالية في جيش المرتدين فقال . مَن رجل يكشف لنا خبر هؤلاء ؟ فقام عبد الله بن حَذَف فدخل فيهم فوجدهم سكارى لا يعقلون من الشراب ، فرجع إليه فأخبره ، فركب العلاء من فوره هو والجيش معه فكبسوا أولئك فقتلوهم قتلاً عظيماً ، ثم لحقوا بالمنهزمين يقتلونهم ، وذهب من فر منهم أو أكثرهم في البحر إلى جزيرة دارين ركبوا إليها السفن ، ولحق بهم العلاء فاقتحم البحر بفرسه وهو يقول : يا أرحم الراحمين ، يا حليم ، يا كريم ، يا أحد يا صمد ، يا حي ، يا محيي الموتى ، يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت يا ربنا ، وأمر الجيش أن يقولوا ذلك ويقتحموا ففعلوا ذلك ، فأجاز بهم الخليج بإذن الله يمشون لا يغمر أخفاف الإبل ، ولا يصل إلى رُكب الخيل فقطعه إلى الساحل الآخر فقاتل عدوه وقهره ، ثم رجع ولم يترك من العدو مخبراً ، وكتب إلى الصديق بذلك فبعث الصديق يشكره على ما صنع .

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتي عشرة من الهجرة النبوية

بعث خالد بن الوليد إلى العرق :

ولما فرغ خالد بن الوليد رضي الله عنه من مسيلمة الكذاب باليمامة بعث إليه الصديق أن يسير إلى العراق

فبعث كتاباً إلى أمراء كسرى بالمدائن ومرازبته ووزرائه وفيه : من خالد بن الوليد إلى مرازبة أهل فارس : سلام على من اتبع الهدى ؛ فالحمد لله الذي فض خدمتكم وسلب ملككم ووهن كيدكم أما بعد : فإذا جاءكم كتابي فابعثوا إلي بالرهن واعتقدوا مني الذمة ، وإلا فوالذي لا إله غيره لأبعثن إليكم قوماً يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة .

فلما قرؤوا الكتاب أخذوا يتعجبون . فلما تقابل الفريقان قتل خالد هرمز ، وانهزم أهل فارس وركب المسلمون أكتافهم إلى الليل ، واستحوذ خالد على أمتعتهم وأسلحتهم فبلغ وقر ألف بعير ، وسميت هذه الغزوة ذات السلاسل لكثرة من سُلسل فيها من فرسان فارس ، وبعث بالفتح والبشارة والخمس إلى الصديق ، وبعث معه بفيل فلما رآه نسوة أهل المدينة جعلن يقلن : أمن خلق الله هذا أم شيء مصنوع ؟ وبعث أبو بكر لما بلغه الخبر إلى خالد فنفله سلب هرمز وكانت قلنسوته بمئة ألف وكان هرمز قد استمد كسرى فبعث إليه المدد مع أمير يقال له قارن فالتقوا بمكان يقال له : المذار فقتل معقل بن الأعمش بن النباش قارن وقتل عدي بن حاتم قباذ وقتل عاصم أنوشجان وفرَّت الفرس ، وركب المسلمون ظهورهم فقتلوا منهم يومئذ ثلاثين ألفاً وغرق كثير منهم في الأنهار والمياه .

ولما انتهى الخبر بما كان بالمذار من قتل قارن وأصحابه إلى أردشير وهو ملك الفرس يومئذ بعث أميراً شجاعاً يقال له : الأندر زغر ، وأمده بجيش آخر مع أمير يقال له : بهمن جاذويه ، فساروا حتى بلغوا مكاناً يقال له: الولجة . فالتقى بهم خالد هناك واقتتلوا قتالاً شديداً هو أشد مما قبله ، حتى ظن الفريقان أن الصبر قد فرغ وكان خالد قد أرصد كمينين في موضعين ، فما كان إلا يسير حتى خرج الكمينان من ههنا وههنا ففرت صفوف الأعاجم، فأخذهم خالد من أمامهم والكمينان من ورائهم وهرب الأندر زغر من الوقعة فمات عطشاً .

قال سيف بن عمر عن عمرو عن الشعبي : بارز خالد يوم الولجة رجلاً من الأعاجم يعدل بألف رجل فقتله ، ثم اتكأ عليه وأتي بغدائه فأكله وهو متكئ عليه ، يعني بين الصفين .

ثم كانت وقعة أُلَّيْسَ في صفر أيضاً فقال خالد : اللهم لك علي إن منحتنا أكتافهم أن لا أستبقيَ منهم أحداً أقدر عليه حتى أجري نهرهم بدمائهم ، ثم إن الله عز وجل منح المسلمين أكتافهم ، فأقبلت الخيل بالأسرى أفواجاً تضرب أعناقهم في النهر فلذلك سمي نهر الدم إلى اليوم فدارت الطواحين بذلك الماء المختلط بالدم العبيط ثلاثة أيام وبلغ عدد القتلى سبعين ألفاً . وكان الفرس قد أعدوا

طعاماً ليأكلوه فباغتهم خالد بهجوم صاعق فشغلوا عن الطعام ، ولما هزم الله جيش الفرس عدل خالد مع جيشه إلى الطعام الذي كانوا قد وضعوه ليأكلوه ، فنزل جيش المسلمين فأكلوه عشاء ، وقد جعل الأعاجم على طعامهم جردقاً كثيراً[1] فجعل من يراه من أهل بادية من الأعراب يقولون : ما هذه الرقع ؟ يحسبونها ثياباً . فيقول لهم من يعرف ذلك من أهل الأرياف والمدن : أما سمعتم برقيق العيش ؟ قالوا : بلى . قالوا : فهذا رقيق العيش . فسموه يومئذ رقاقاً . وإنما كانت العرب تسميه القَرَنَ وفي تاريخ الطبري (القِرى) ، وبعث خالد بالبشارة إلى الصديق فقال : عجزت النساء أن تلد مثل خالد بن الوليد .

❊ ❊ ❊ ❊

فتح خالد للأنبار

وتُسمى هذه الغزوة ذات العيون ، فقد ركب خالد في جيوشه وسار حتى انتهى إلى الأنبار فأحاط خالد بخندقها فأمر خالد أصحابه فرشقوهم بالنبال حتى فقؤوا منهم ألف عين، ثم تقدم خالد إلى الخندق فاستدعى المهازيل من الإبل فذبحها حتى ردم الخندق وجاز هو وأصحابه فوقها فاستسلم شيرزاذ حاكم المدينة .

---

(١) الجردق : الرغيف ، لا أصل لها في كلام العرب .

وبعد غزوة ذات العيون توجه خالد إلى عين التمر وبها يومئذ مهران بن بهرام جوبين في جمع عظيم من العجم ، وحولهم من الأعراب طوائف من النمر وتغلب وإياد ومن لاقاهم وعليهم عقة بن أبي عقة . فلما دنا خالد قال عقة لمهران : إن العرب أعلم بقتال العرب فدعنا وخالداً ، فقال له : دونكم وإياهم ، وإن احتجتم إلينا أعنّاكم ، فلامت العجم أميرهم على هذا فقال : دعوهم فإن غلبوا خالداً فهو لكم وإن غُلبوا قاتلنا خالداً وقد ضعفوا ونحن أقوياء فاعترفوا له بالفضل والرأي ، وسار خالد وتلقاه عقة فلما تواجهوا قال خالد لمجنبتيه : احفظوا مكانكم فإني حامل عليه ، وأمر حُماته أن يكونوا من ورائه ، وحمل خالد على عقة وهو يسوي الصفوف فاحتضنه وأسره فانهزم جيش عقة من غير قتال ، وقصد خالد حصن عين التمر فلما بلغ مهران هزيمة عقة وجيشه نزل من الحصن وهرب وتركه .

ولما فرغ خالد من عين التمر قصد إلى دومة الجندل ، وجماع الناس بدومة إلى رجلين : أكيدر بن عبد الملك ، والجودي بن ربيعة فاختلفا فقال أكيدر : أنا أعلم الناس بخالد ، لا أحد أيمن طائراً منه في حرب ولا أحدٌ منه ، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلوا أم كثروا إلا انهزموا عنه ، فأطيعوني وصالحوا القوم ، فأبوا عليه فقال : لن أمالئكم على حرب خالد وفارقهم .

ثم توجه خالد إلى الجودي فهزمه وأسره وضرب عنقه وأعناق من كانوا معه من الأسارى ثم سار خالد بمن معه من المسلمين إلى الفرائض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة فأقام هنالك شهر رمضان مفطراً لشغله بالأعداء، ولما بلغ الروم أمر خالد ومصيره إلى قرب بلادهم جمعوا جموعاً كثيرة واستمدوا تغلب وإياداً والنمر ثم ناهدوا خالداً فحال الفرات بينهم فقالت الروم لخالد : اعبر إلينا ، وقال خالد للروم : بل اعبروا أنتم . فعبرت الروم إليهم فاقتتلوا هنالك قتالاً عظيماً بليغاً ثم هزم الله جموع الروم وتمكن المسلمون من أكتافهم فقتل في هذه المعركة مئة ألف من الروم .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة من الهجرة

وقعة اليرموك :

قالت الروم : والله لنشغلن أبابكر عن أن يورد الخيول إلى أرضنا وتقدموا بجيوشهم ، وجميع جيوش المسلمين أحد وعشرون ألفاً سوى جيش عكرمة وكان في ستة آلاف كان واقفاً في طرف الشام رِدْءاً للناس ، فكتب أمراء الجيوش إلى أبي بكر فكتب إليهم أن يجتمعوا فيكونوا جنداً واحداً ، والقوا جنود المشركين وقال الصديق : والله لأشغلن النصارى عن وساوس الشيطان

بخالد بن الوليد . وبعث إليه وهو بالعراق ليقدم إلى الشام فيكون الأمير على من به فإذا فرغ عاد إلى عمله بالعراق فجمع الروم جيوشهم في جيش واحد . كان صقلاب على الروم في مئة ألف وعلى المقدمة جرجة في اثني عشر ألفاً ومن المستعربة اثنا عشر ألفاً عليهم جبلة بن الأيهم والمسلمون في أربعة وعشرين فقاتلوا قتالاً شديداً حتى قاتلت النساء من ورائهم أشد قتال . واجتاز خالد مفازة السماوة في خمسة أيام وقال : عند الصباح يحمد القوم السرى . فأرسلها مثلاً وهو أول من قالها رضي الله عنه .

وعند وصول خالد ، أقبل باهان مدداً للروم فتكامل جيش الروم أربعين ومئتي ألف ، ثمانون ألفاً مسلسل بالحديد والحبال ، وثمانون ألف فارس وثمانون ألف راجل وقيل كان الذين تسلسلوا ثلاثين ألفاً . وقدم عكرمة بمن معه فتكامل جيش الصحابة ستة وثلاثين ألفاً إلى الأربعين ألفاً . فأمروا عليهم خالد بن الوليد . وكان قارئهم الذي يدور على الناس فيقرأ سورة (الأنفال) وآيات الجهاد المقداد بن الأسود . وساق خالد إلى النساء من وراء الجيش ومعهن عدد من السيوف وغيرها فقال لهن : من رأيتموه مولياً فاقتلنه . ثم رجع إلى موقفه رضي الله عنه . وتقابل الفريقان .

ثم إن باهان طلب خالداً ليبرز إليه فيما بين الصفين فيجتمعا في مصلحة لهم . فقال باهان : إنا قد علمنا أن الذي أخرجكم من بلادكم الجهد والجوع فهلموا إلى أن

أعطيَ كل رجل منكم عشرة دنانير وكسوة وطعاماً وترجعون إلى بلادكم ، فإذا كان العام المقبل بعثنا لكم مثلها . فقال خالد : إنه لم يخرجنا من بلادنا ما ذكرت ، غير أنا قوم نشرب الدماء ، وأنه بلغنا أنه لادم أطيب من دم الروم فجئنا لذلك . فقال أصحاب باهان : هذا والله ما كنا نحدث به عن العرب .

ونشب القتال ودخل الزبير في الصفوف يخترقها وجرح يومئذ جرحين بين كتفيه ثم نادى عكرمة بن أبي جهل : من يبايع على الموت ؟ فبايعه عمه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور في أربعمئة من المسلمين ، وثبت كل قوم على راياتهم وكانت الصفوف كراديس كل كردوس ألف فارس وأمام كل كردوس قائد ، وصارت الروم تدور كأنها الرحى فلم ير يوم اليرموك أكثر قحفاً ساقطاً ومعصماً نادراً ، وكفاً طائرة من ذلك الموطن ، ثم حمل خالد بمن معه من الخيالة على الميسرة التي حملت على ميمنة المسلمين فأزالوهم وقتل من الروم في هذه الحملة ستة آلاف .

وحمل خالد بمئة من فرسانه على مئة ألف من الروم فكشفوهم . وخرج جرجة واستدعى خالداً فجاء إليه حتى اختلفت أعناق فرسيهما فقال جرجة : يا خالد أخبرني فاصدقني ولا تكذبني فإن الحر لا يكذب ، ولا تخدعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله ، هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسله على أحد إلا

هـزمتهم ؟ قـال : لا . قـال : فـبم سميـت سـيـف الله ، فقـال خالد : قال لي رسـول الله ﷺ ((أنـت سـيف مـن سـيوف الله سله الله على المشركين)) ودعا لي بالنصر فسميت سيف الله بذلك . فأسلم جرجة ثم استشهد رحمه الله تعالى .

وتضعضعت الروم ثم نهد خالد بالقلب حتى صار في وسط خيول الروم فعند ذلك هربت خيالتهم واقتحم خالد خندق الروم وجاؤوا في الظلام إلى الواقوصة فجعل الذين تسلسلوا إذا سقط واحد منهم سقط الذين معه فسقط فيها وقتل عندها مئة ألف وعشرون ألفاً سوى من قتل في المعركة .

وقتل في هذا اليوم من المسلمين ثلاثة آلاف قال القعقاع بن عمرو يذكر وقعة اليرموك .

ألم ترنا على اليرموك فزنا
كما فزنا بأيام العراق
وعذراء المدائن قد فتحنا
ومرج الصُفَّرين على العتاق
فتلنا من أقام لنا وفينا
نهابهمُ بأسياف رقاق
قتلنا الروم حتى ما تساوي
على اليرموك ثفروق الوراق[1]

(١) الثفروق : قمع التمرة .

عن أبي إسحاق قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يثبت لهم العدو فواق ناقة عند اللقاء[1] ، فقال هرقل وهو على أنطاكية لما قدمت مهزومة الروم : ويلكم أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا هم بشراً مثلكم ؟ قالوا : بلى . قال : فأنتم أكثر أم هم ؟ . قالوا : بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كل موطن ، قال : فما بالكم تنهزمون كلما لقيتموهم ؟ فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل ، ويصومون النهار ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويتناصفون بينهم .

ومن أجل أنا نشرب الخمر ونزني ونركب الحرام وننقض العهد ونغصب ونأمر بما يسخط الله وننهى عما يرضي الله ونفسد في الأرض . فقال : أنت صدقتني .

ثم توفي أبو بكر الصديق رضي الله عنه وولي عمر فعزل خالداً وقاسمه أمواله ثم سار خالد مع أبي عبيدة إلى دمشق فنزل على الباب الشرقي وحاصروها حصاراً شديداً سبعين ليلة وأهل دمشق ممتنعون منهم غاية الامتناع ويرسلون إلى ملكهم هرقل وهو مقيم بحمص يطلبون منه المدد فلا يمكن وصول المدد إليهم من الجيش الذي أرصده أبو عبيدة بين دمشق وحمص . فلما أيقن أهل دمشق أنه لا

(١) فواق : حليب الضرع .

يصل إليهم مدد أبلسوا وفشلوا وضعفوا وقوي المسلمون .
واشتد حصارهم ، وجاء فصل الشتاء واشتد البرد فكان من قدر الله تعالى الكبير المتعال أن ولد لبطريق دمشق مولود في تلك الليالي فصنع لهم طعاماً وسقاهم بعده خمراً وباتوا عنده في وليمة قد أكلوا وشربوا وتعبوا فناموا عن مواقفهم واشتغلوا عن أماكنهم ، وفطن لذلك أمير الحرب خالد بن الوليد فإنه كان لا ينام ولا يترك أحداً ينام ، بل مراصد ليلاً ونهاراً ، وله عيون وقصاد يرفعون إليه أحوال المقاتلة صباحاً ومساءً فلما رأى خمدة تلك الليلة وأنه لا يقاتل على السور أحد كان قد أعد سلالم من حبال فجاء هو وأصحابه من الصناديد الأبطال مثل القعقاع ، ثم قطعوا الخندق سباحة بقُرَبٍ في أعناقهم ، ثم نصبوا تلك السلالم وأثبتوا أعاليها بالشرفات وأكدوا أسافلها خارج الخندق فصعدوا وكبروا وقتلوا حراس الباب وفتحوه فدخل الجيش الخالدي من الباب الشرقي ودخل البلد عنوة ودخلها أبو عبيدة صلحاً .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع عشرة من الهجرة

غزوة القادسية

بعث عمر كتابه إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يأمره بالمبادرة إلى القادسية وأن يأخذ الطريق والمسالك على فارس وأن يبدروهم بالضرب والشدة .

سار سعد فنزل القادسية . وأجمع رأي الفرس على إرسال رستم إليهم فبعث إليه يزدجرد فأمّره على الجيش ، وعبأ رستم فجعل على المقدمة وهي أربعون ألفاً الجالينوس والهرمزان وعلى الميسرة مهران بن بهران ، وذلك كله ستون ألفاً فالجيش كله ثمانون ألفاً . وكان معه ثلاثة وثلاثون فيلاً ، والمسلمون بين سبعة آلاف إلى ثمانية آلاف . اقتتلوا حتى كان الليل فتحاجزوا وقد قتل من الفريقين بشر كثير ، ثم أصبحوا إلى مواقفهم فاقتتلوا يومهم ذلك وعامة ليلتهم ثم أصبحوا كما أمسوا على مواقفهم فاقتتلوا حتى أمسوا ثم اقتتلوا في اليوم الثالث كذلك وأمست هذه الليلة تسمى ليلة الهرير ، فلما أصبح اليوم الرابع اقتتلوا قتالاً شديداً وكان عمرو بن معد يكرب يقول : كونوا أسوداً فإنما الفارسي تيس . وقد قاسوا من الفيلة بالنسبة إلى الخيول العربية بسبب نفرتها منها أمراً بليغاً وقد أباد الصحابة الفيلة ومن عليها وقلعوا عيونها ثم هبت ريح شديدة ألقت سرير رستم فبادر فركب بغلته وهرب فأدركه المسلمون فقتلوه ؛ قتله رجل يقال له : هلال بن عُلَّفة التيمي . وقتلوا الجالينوس مقدم الطلائع الفارسية وانهزمت الفرس ولله الحمد والمنة عن بكرة أبيهم ، فقتل يومئذ المسلسلون بكمالهم وكانوا ثلاثين ألفاً ، وقتل في المعركة عشرة آلاف وقتل قبل ذلك قريباً من ذلك ، وقتل من المسلمين في هذا اليوم وما قبله من الأيام ألفان

وخمسمئة رحمهم الله . وغنم المسلمون من وقعة القادسية هذه من الأموال والسلاح ما لا يحد ولا يوصف كثرة .

وكانت العرب من العذيب إلى عدن إلى أبين يتربصون وقعة القادسية هذه ، يرون أن ثبات ملكهم وزواله بها ، وقد بعث أهل كل بلدة قاصداً يكشف ما يكون من خبرهم .

قالوا : وسمع أهل اليمامة مجتازاً يغني بأبيات منها :

وجدنا الأكثرين بني تميم
غداة الروع أكثرهم رجالا
بُحورٌ للأكاسر من رجال
كأسد الغاب تحسبهم جبالا

قالوا : وسمع ذلك في سائر العرب .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس عشرة

فتح بيت المقدس :

لما فرغ أبو عبيدة من دمشق حاصر بيت المقدس وضيق عليهم حتى أجابوا إلى الصلح بشرط أن يتقدم إليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . فحضر عمر رضي الله عنه ودخل المسجد من الباب الذي دخل منه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء وصلى تحية المسجد بمحراب داود ثم أزالوا الأقذار

عـن الـصخرة حيـث جعلوهـا مزبلـة لأنهـا قبلـة اليهـود كمـا نظفوا كنيسة القمامة .

* * * *

ثم دخلت سنة ست عشرة

فتح المدائن :

اجتاز المسلمون نهر دجلة وكان الفرس إذا أعيا وهـو في المـاء يقـيض الله لـه مثـل النـشز المرتفـع فيقـف عليـه ويستريح وهذه معجزة لرسول الله ﷺ خلقها الله لأصحابه ، وكـان الـذي يسـاير سـعد بـن أبـي وقـاص في المـاء سلمان الفارسـي ولمـا استقل المسلمون على وجـه الأرض ، خرجت الخيـول تـنفض أعرافهـا صـاهلة فلمـا رآهـم الفـرس يطفـون على وجه المـاء قـالوا : ديوانـا ديوانـا أي : مجـانين مجـانين ، واتـبعهم المـسلمون ، فـساقوا وراء الأعـاجم حتـى دخلـوا المدائن، فلم يجدوا بها أحداً ، بل قد أخذ كسرى أهله وما قدروا عليه من الأموال . وكان في خزانة كسرى ثلاثة آلاف ألـف ألـف دينـار ، فأخـذوا مـن ذلـك مـا قـدروا عليه، وتركوا ما عجزوا عنه وهو مقدار النصف من ذلك أو ما يقاربه ، فكان أول من دخل المدائن كتيبة الأهوال، ثـم الـكتيبـة الخرسـاء فأخـذوا في مسلكها لا يلقـون أحـداً ولا يخشون غير القصر الأبيض ففيه مقاتلة وهو محصن ، فلما جاء سعد دعا أهل القصر الأبيض ثلاثة أيام على لسان

سلمان الفارسي ، فلما كان اليوم الثالث نزلوا منه ، وسكنه سعد واتخذ الإيوان مصلى . واستحوذ المسلمون على ما هنالك أجمع مما لم ير أحد في الدنيا أعجب منه وكان في جملة ذلك تاج كسرى ومنطقته وسيفه وسواره وبساط إيوانه ثم سار كسرى وهو يزدجرد بن شهريار من المدائن هارباً إلى حلوان شرع في أثناء الطريق في جمع رجال وأعوان وجند من البلدان التي هناك وأقام الجميع في جلولاء، واحتفروا خندقاً عظيماً حولها فبعث سعد مع ابن أخيه جيشاً يقارب اثني عشر ألفاً بعد فراغهم من أمر المدائن فساروا حتى انتهوا إلى المجوس وهم بجلولاء قد خندقوا عليهم فحاصرهم هاشم بن عتبة وكانوا يخرجون للقتال في كل وقت فيقاتلون قتالاً لم يسمع بمثله وجعل كسرى يبعث إليهم الأمداد وكذلك سعد يبعث المدد إلى ابن أخيه وقد تعاقدت الفرس وتعاهدت وحلفوا بالنار ألا يفروا أبداً حتى يفنوا العرب ، فلما كان الموقف الأخير وهو يوم الفيصل والفرقان تواقفوا في أول النهار فاقتتلوا قتالاً لم يعهد مثله حتى فني النشاب من الطرفين وتقصفت الرماح من هؤلاء وهؤلاء وصاروا إلى السيوف والفؤوس وأقبل الليل بظلامه ، ولم يعلموا بما صنعه القعقاع في ظلمة الليل ولم يشعروا بذلك لولا مناديه ينادي : أيها المسلمون هذا أميركم على باب الخندق ، فلما سمع المجوس ذلك فروا وحمل المسلمون نحو القعقاع فإذا هو على باب الخندق

قد ملكه عليهم وهربت الفرس كل مهرب فقتل منهم في ذلك الموقف مئة ألف حتى جللوا وجه الأرض بالقتلى فلذلك سميت جلولاء وغنموا قريباً مما غنموا من المدائن . وأُدرك مهران فقتل ثم فتح المسلمون تكريت والموصل .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع عشرة

وفي هذه السنة وقع طاعون عمواس الذي توفي فيه أبو عبيدة ومعاذ ويزيد بن أبي سفيان وغيرهم من أشراف الصحابة ، وفني خلق كثير حتى طمع العدو وتخوفت قلوب المسلمين لذلك .

وخرج الحارث بن هشام في سبعين من أهله إلى الشام فلم يرجع منهم إلا أربعة .

وفي هذه السنة سلك خالد درب الروم فغنم أموالاً عظيمة وسبياً كثيراً ، فدخل عليه الأشعث بن قيس يسترفده فأعطاه عشرة آلاف ، فلما بلغ عمر ذلك كتب إلى أبي عبيدة يأمره أن يقيل خالداً ويكشف عمامته وينزع عنه قلنسوته ويقيده بعمامته ، ويسأله عن هذه العشرة آلاف ، ثم أمره أن يعزله عن عمله ، ثم سار خالد إلى المدينة فلما دخل على عمر سأله : من أين لك هذا اليسار حتى تجيز منه بعشرة آلاف ؟ فقال : من الأنفال والسُّهمان قال عمر : والله إنك علي لكريم ، وإنك إلي لحبيب ، ولن

تعمل لي بعد اليوم على شيء . وكتب عمر إلى الأمصار .
إني لم أعزل خالداً عن سُخطة ولا خيانة ، ولكن الناس فتنوا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع .

فتح تستر

فتحت تستر في المرة الأولى صلحاً

ثم فتحت ثانية ، وكان سبب ذلك أن يزدجرد كان يحرض أهل فارس ويؤنبهم بملك العرب بلادهم فتحركوا قاصدين البصرة .

وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري وهو بالبصرة أن ابعث إلى الأهواز جنداً كثيفاً وأمّر عليهم سهيل بن عدي وليكن معهم البراء بن مالك وعاصم بن عمرو ومجزأة بن ثور .

وسار النعمان بن مقرّن بجيش أهل الكوفة فسبق البصريين فانتهى إلى رامهرمز وبها الهرمزان وقد نقض العهد فالتقى معه النعمان فاقتتلا قتالاً شديداً فهزم الهرمزان وفر إلى تستر ، ولحق بهم البصريون وكثر القتل من الفريقين ، وقتل البراء بن مالك أخو أنس بن مالك يومئذ مئةَ مبارزة سوى من قتل غير ذلك ، وكذلك فعل كعب بن سور ، ومجزأة بن ثور وأبو تميمة وغيرهم من أهل البصرة ، وكذلك أهل الكوفة قتل منهم جماعة مئة مبارزة كحبيب بن قُرَّة وربعي بن عامر ، وعامر بن عبد الله الأسود .

وقد تزاحفوا أياماً متعددة ، حتى كان في آخر زحف قال المسلمون للبراء بن مالك وكان مجاب الدعوة : يا براء أقسم على ربك ليهزمنهم فقال :

اللهم اهزمهم لنا واستشهدني . فهزمهم المسلمون حتى أدخلوهم خنادقهم ، ولجأ المشركون إلى البلد فتحصنوا به . وطلب رجل من أهل البلد الأمان من أبي موسى فأمنه فبعث يدل المسلمين على مكان يدخلون منه إلى البلد وهو من مدخل الماء إليها ، فانتدب لذلك رجالاً من الأبطال فدخلوا مع الماء إلى البلد في الليل فقتلوا البوابين وفتحوا الأبواب وكبر المسلمون فدخلوا البلد وقت الفجر .

لجأ الهرمزان إلى القلعة فتبعه جماعة من أبطال المسلمين ، فلما حصروه في مكان من القلعة قال لهم بعد ما قتل البراء بن مالك ومجزأة بن ثور رحمهما الله تعالى : إن معي جعبة فيها مئة سهم ، وإنه لا يتقدم إلي أحد منكم إلا رميته بسهم فقتلته ، ولا يسقط لي سهم إلا في رجل منكم فماذا ينفعكم إن أسرتموني بعد ما قتلت منكم مئة رجل ؟ قالوا : فماذا تريد ؟ قال : تؤمنونني حتى أسلمكم يدي فتذهبوا بي إلى عمر بن الخطاب فيحكم فيَّ بما شاء ، فأجابوه إلى ذلك ، فألقى قوسه ونشابه فأسروه .

ثم بعث أبو سبرة بالهرمزان وبالخمس مع وفد فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس ثم دخلوا المدينة وعمر نائم في المسجد ، فاستيقظ عمر ونظر إلى الهرمزان وما عليه

من الديباج والذهب المكلل بالياقوت واللآلئ فتأمله وتأمل ما عليه ثم قال : أعوذ بالله من النار وأستعين بالله ، الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشياعه ، ثم أمر عمر فألبسوا الهرمزان اللباس الخشن ثم طلب الأمان فقال عمر : أنا أُأَمّنُ قاتل مجزأة والبراء ؟ ثم أسلم الهرمزان وكان لا يفارق عمر حتى قتل عمر .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة ثماني عشرة

وفي هذه السنة كان عام الرمادة لأن الأرض اسودت من قلة المطر حتى عاد لونها شبيهاً بالرماد واستمرت هذه الحال تسعة أشهر وجفلت الأحياء إلى المدينة ولم يبق عند أحد منهم زاد فأنفق فيهم أمير المؤمنين من حواصل بيت المال مما فيه من الأطعمة والأموال حتى أنفده ، وعس المدينة ذات ليلة في عام الرمادة فلم يجد أحداً يضحك ، ولا يتحدث الناس في منازلهم على العادة ولم يجد سائلاً يسأل فسأل عن سبب ذلك فقيل له : يا أمير المؤمنين إن السؤَّال سألوا فلم يعطَوا فقطعوا السؤال ، والناس في هم وضيق ، فهم لا يتحدثون ولا يضحكون ، فكتب عمر إلى أبي موسى بالبصرة : أن ياغوثاه لأمة محمد وكتب إلى عمرو ابن العاص بمصر ، فبعث كل واحد منهما بقافلة عظيمة تحمل البر وسائر الأطعمات ، وقدم أبو عبيدة المدينة ومعه أربعة آلاف راحلة تحمل طعاماً فأمر عمر بتفريقها في الأحياء حول المدينة .

ثم دخلت سنة تسع عشرة

قال الواقدي : وفي هذه السنة ظهرت نار من حرة ليلى فأراد عمر أن يخرج بالرجال إليها ، ثم أمر المسلمين بالصدقة فطفئت .

وفي هذه السنة كانت وقعة أرمينية ، وأميرها عثمان ابن العاص ، وقد أصيب فيها صفوان بن المعطل بن رحضة السلمي ثم الذكواني ، وكان أحد الأمراء يومئذ . وقد قال فيه رسول الله ﷺ: ((ما علمت عليه إلا خيراً)) . وهو الذي ذكره المنافقون في قصة الإفك فبرأ الله ساحته ، وجنب أم المؤمنين زوجة رسول الله ﷺ مما قالوا . وقد كان إلى حين قالوا ما قالوا لم يتزوج . ولهذا قال : والله ما كشفت كنف أنثى قط . ثم تزوج بعد ذلك ، وكان كثير النوم ، وربما غلبه عن صلاة الصبح في وقتها ، كما جاء في سنن ابن داود وغيره .

وكان شاعراً ثم حصلت له شهادة في سبيل الله قيل: بهذا البلد : وقيل بالجزيرة وقيل : بسميساط .

وفيها كانت وقعة بأرض العراق قتل فيها أمير المجوس شهرك ، وكان أمير المسلمين يؤمئذ الحكم بن أبي العاص ، رضي الله عنه . قال ابن جرير : وفيها حج بالناس عمر ، ونوابه على البلاد وقضاته هم المذكورون قبلها . والله أعلم .

ومن توفي فيها من الأعيان :

أُبَيُّ بن كعب ، سيد القراء وهو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار ، أبو المنذر وأبو الطفيل ، الأنصاري النجاري ، شهد العقبة وبدراً جليل القدر ، وهو أحد القراء الأربعة الخزرجيين الذين جمعوا القرآن في حياة رسول الله ﷺ.

وفيها مات خبّاب مولى عتبة بن غزوان ؛ من المهاجرين، شهد بدراً وما بعدها ، وهو صحابي من السابقين . والله أعلم .

* * * *

ثم دخلت سنة عشرين من الهجرة

ولما استكمل المسلمون فتح الشام بعث عمر رضي الله عنه عمرو بن العاص وأردفه بالزبير بن العوام وحاصر المسلمون عين شمس من مصر وارتقى عليهم الزبير سور البلد فلما أحسوا بذلك خرجوا إلى عمرو من الباب الآخر فصالحوه ، فدخل في ذلك أهل مصر كلهم وقبلوا الصلح . وذكر سيف أن عمرو بن العاص لما التقى مع المقوقس جعل كثير من المسلمين يفر من الزحف ، فجعل عمرو يذمهم ويحثهم على الثبات ، فقال له رجل من أهل اليمن : إنا لم نخلق من حجارة ولا حديد . فقال له عمرو : اسكت فإنما

أنت كلب فقال له الرجل : فأنت إذاً أمير الكلاب ، فأعرض عنه عمرو ونادى يطلب أصحاب رسول الله ﷺ فلما اجتمع إليه من هناك من الصحابة قال لهم عمرو : تقدموا ، فبكم ينصر الله المسلمين ، فنهدوا إلى القوم ففتح الله عليهم وظفروا أتم الظفر .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين

وقعة نهاوند :

وفيها كانت وقعة نهاوند وفتحها على المشهور . وهي وقعة عظيمة جداً لها شأن رفيع ونبأ عجيب وكان المسلمون يسمونها فتح الفتوح .

اجتمع أهل فارس من كل فج عميق بأرض نهاوند حتى اجتمع منهم مئة ألف وخمسون ألف مقاتل وعليهم الفيرزان ، وجاء كتاب عبد الله بن عبد الله بن عتبان من الكوفة إلى عمر مع قريب بن ظفر العبدي بأنهم قد اجتمعوا وهم متحرقون متذامرون على الإسلام وأهله فقال عمر لحامل الكتاب : ما اسمك ؟ قال : قريب قال : ابن من؟ قال : ابن ظفر . فتفاءل عمر بذلك وقال : ظفر قريب . ثم أمر فنودي الصلاة جامعة . فاجتمع الناس ، وكان أول من دخل المسجد لذلك سعد بن أبي وقاص فتفاءل عمر

أيضاً بسعد . وعين النعمان بن مقرن أميراً على الجيش الذي سيحارب نهاوند ولما تراءى الجمعان كبر النعمان وكبر المسلمون ثلاث تكبيرات فزلزل العجم ورعبوا من ذلك رعباً شديداً ، فاقتتلوا ذلك اليوم والذي بعده والحرب سجال والمسلمون ثلاثون ألفاً . فلما طال على المسلمين هذا الحال جمع النعمان بن مقرن أهل الرأي من الجيش فتكلم عمرو بن أبي سلمى أولاً وهو أسن من كان هناك فقال : إن بقاءهم على ما هم عليه أضر عليهم من الذي يطلب منهم وأبقى على المسلمين . وتكلم عمرو بن معد يكرب فقال : ناهدهم ، وكاثرهم ، ولا تخفهم . وتكلم طليحة الأسدي فقال : إني أرى أن تبعث سرية فتحدق بهم ويناوشوهم فإذا استطردوا وراءهم وانتهوا إلينا عزمنا أيضاً على الفرار كلنا ، فإنهم حينئذ لا يشكون في الهزيمة فيخرجون من حصونهم عن بكرة أبيهم فإذا تكامل خروجهم رجعنا إليهم فجالدناهم حتى يقضي الله بيننا . فاستجاد الناس هذا الرأي ، وأمر النعمان القعقاع أن يحاصر البلد ففعل القعقاع ، فلما برزوا من حصونهم نكص القعقاع بمن معه فاغتنمها الأعاجم ففعلوا كما ظن طليحة .

فخرجوا بأجمعهم ، ثم إن النعمان رضي الله عنه كبر الأولى وهز الراية ، ثم كبر الثانية وهز الراية ثم كبر الثالثة وحمل الناس على المشركين ، وجعلت راية النعمان تنقض نحو الفرس كانقضاض العقاب على

الفريسة حتى تصافحوا بالسيوف فاقتتلوا قتالاً لم يعهد مثله في موقف من المواقف المتقدمة ولا سمع السامعون بوقعة مثلها وقتل من المشركين ما بين الزوال إلى الظلام ما طبق وجه الأرض دماً وزلق حصان الأمير النعمان بن مقرن في ذلك الدم فوقع ، وجاءه سهم في خاصرته فقتله ، وتسلم الراية حذيفة بن اليمان رضي الله عنه وأمر بكتم موت القائد النعمان رضي الله تعالى عنه ، فلما أظلم الليل انهزم المشركون فلما انهزموا وقعوا في الخندق وفي تلك الأودية فهلك منهم نحو مئة ألف وكان الفيرزان أميرهم قد صرع في المعركة .

ولما وصل الخبر إلى المدينة فرحوا بنصر الله ولما أخبر عمر بمقتل النعمان بكى وبكى أهل المدينة معه ، ولم تقم للأعاجم بعد هذه الوقعة قائمة وألحق عمر بالذين أبلوا في هذه الوقعة ألفين تشريفاً لهم وإظهاراً لشأنهم .

وفاة خالد بن الوليد رضي الله عنه :

هو أبو سليمان المخرومي سيف الله وسيف رسول الله ﷺ ، لم يقهر في جاهلية ولا في الإسلام ، أمه عصماء بنت الحارث أخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين رضي الله عنهما شهد مؤتة وانتهت إليه الإمارة يومئذ فقاتل قتالاً لم ير مثله اندقت في يده تسعة أسياف ولم تثبت في يده إلا صفحة يمانية .

وقد روي أن خالداً سقطت قلنسوته يوم اليرموك وهو في الحرب فجعل يستحث في طلبها ، فعوتب في ذلك ، فقال : إن فيها شيئاً من شعر ناصية رسول الله ﷺ وإنها ما كانت معي في موقف إلا نصرت بها .

وقد استعمله الصديق على قتال أهل الردة ومانعي الزكاة فشفى واشتفى ثم وجهه إلى العراق ثم إلى الشام فكانت له من المقامات ما تقر بها القلوب والعيون وتتشنف بها الأسماع ، ثم عزله عمر عنها وولى أبا عبيدة وأبقاه مستشاراً في الحرب ، ولم يزل بالشام حتى مات على فراشه .

قال خالد رضي الله عنه : ما ليلة تهدى إلي فيها عروس ، أو أبشر فيها بغلام ، بأحب إلي من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو . وعن خيثمة قال : أتي خالد برجل معه زق خمر فقال له خالد : ما هذا ؟ قال : خل . فقال : اللهم اجعله خلاً . فلما رجع إلى أصحابه قال : جئتكم بخمر لم تشرب مثله العرب ثم فتحه فإذا هو خل فقال : أصابته والله دعوة خالد رضي الله عنه .

وقد روى البخاري في (التاريخ) وغيره من طريق علي ابن رباح ، عن ناشرة بن سمي اليزني قال : سمعت عمر يعتذر إلى الناس بالجابية من عزل خالد فقال : أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين فأعطاه ذا البأس ،

وذا الشرف واللسان ، وأمّرت أبا عبيدة . فقال أبو عمر بن حفص بن المغيرة : ما اعتذرت ياعمر ، لقد نزعت عاملاً استعمله رسول الله ﷺ ، ووضعت لواء رفعه رسول الله ﷺ وأغمدت سيفاً سله الله ولقد قطعت الرحم وحسدت ابن العم .

قال الواقدي ومحمد بن سعد وغير واحد : مات سنة إحدى وعشرين بقرية على ميل حمص . قال الأصمعي عن مسلمة بن بلال عن مجالد عن الشعبي قال : اصطرع عمر وخالد وهما غلامان - وكان خالد ابن خال عمر - فكسر خالد ساق عمر فعولجت وجبرت وكان ذلك سبب العداوة بينهما رضي الله عنهما وأرضاهما .

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين

ولما فرغ المسلمون من نهاوند فتحوا حلوان وهمذان ثم إن أهل همذان نقضوا عهدهم الذي صالحهم عليه القعقاع ابن عمرو ، فسار نعيم بن مقرن إلى همذان ومعه اثنا عشر ألفاً من المسلمين وعلى الديلم ملكهم واسمه موتا وعلى أهل أَذْرَبَيْجان إسفندياذ أخو رستم فاقتتلوا قتالاً شديداً وكانت وقعة عظيمة تعدل نهاوند ، فقتل ملك الديلم وتمزق شملة فكان نعيم أول من قاتل الديلم من المسلمين ثم فتح نعيم الري وقومس وجرجان ثم بعث نعيم بين يديه

بكير بن عبد الله إلى أذربيجان وأردفعه بسماك بن خرشة فلقى إسفندياذ بكيراً وأصحابه قبل أن يقدم عليهم سماك فاقتتلوا فهزم الله المشركين وأسر بكير إسفندياذ ثم تم الصلح وعادت أذربيجان سلماً ، وكتب عتبة بن فرقد حين انتهت إليه إمرة أذربيجان لأهلها كتاب أمان وصلح .

أول غزو الترك :

قال رسول الله ﷺ: ((لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً عراض الوجوه ، ذُلْفَ الأنوف حمر الوجوه ، كأن وجوههم المجانُّ المطرَّقة))[1] . لما جاء كتاب عمر إلى عبد الرحمن بن ربيعة يأمره بغزو الترك سار حتى قطع (الباب) فقال له شهر براز ؛ أين تريد ؟ قال : أريد ملك الترك بلنجر فقال : إنا لنرضى منه بالموادعة ونحن من وراء الباب . فقال عبد الرحمن : إن الله بعث إلينا رسولاً ، ووعدنا على لسانه بالنصر والظفر ونحن لا نزال منصورين . فقاتل الترك وسار في بلاد بلنجر مئتي فرسخ وغزا مرات متعددة .

ولما دخل عليهم عبد الرحمن بن ربيعة بلادهم حال الله بين الترك والخروج عليه وقالوا : ما اجترأ علينا هذا الرجل إلا ومعه ملائكة تمنعهم من الموت فتحصنوا منه وهربوا وقال بعضهم لبعض : إنهم لا يموتون .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٠٤٤١) .

فاختفوا لهم في الغياض فرمى رجل منهم رجلاً من المسلمين على غرة فقتله وهرب عنه إلى أصحابه ، فخرجوا على المسلمين بعد ذلك حين عرفوا أن المسلمين يموتون . فاقتتلوا قتالا شديداً فقاتل عبد الرحمن حتى قتل وانكشف الناس وأخذ الراية سلمان بن ربيعة فقاتل بها ثم تحيز سلمان وأبو هريرة بالمسلمين وفروا من كثرة الترك ورميهم الشديد السديد إلى جيلان واجترأت الترك بعدها .

ومع هذا أخذت الترك عبد الرحمن بن ربيعة فدفنوه في بلادهم فهم يستسقون بقبره إلى اليوم .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين

ذكر سيف عن مشايخه أن سارية بن زنيم قصد الفرس والأكراد في جمع عظيم ، ودهم المسلمين منهم أمر جسيم ، فرأى عمر في تلك الليلة فيما يرى النائم معركتهم وعددهم في وقت من النهار وأنهم في صحراء ، وهناك جبل إن استندوا إليه لم يؤتوا إلا من وجه واحد فنادى من الغد : الصلاة جامعة حتى إذا كانت الساعة التي رأى أنهم اجتمعوا فيها خرج إلى الناس وصعد المنبر فخطب الناس وأخبرهم بصفة ما رأى ثم قال : ياسارية الجبل ثم أقبل عليهم وقال : إن لله جنوداً ولعل بعضها

أن يبلغهم قال : ففعلوا ما قال عمر فنصرهم الله على عدوهم ، وفتحوا البلد . قتله غيلة أبو لؤلؤة غلام للمغيرة ابن شعبة ، وقد قال ﷺ : ((أرحم أمتي أبو بكر وأشدها في دين الله عمر)) [1] وفي هذه السنة كانت وفاته رضي الله عنه وأرضاه .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وعشرين

خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه :

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد جعل الأمر بعده شورى بين ستة نفر وهم : عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم . جلسوا في بيت المسور بن مخرمة وقام أبو طلحة يحجبهم . وجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا وراء الباب ، فحصبهما سعد بن أبي وقاص وطردهما وقال : جئتما لتقولا : حضرنا أمر الشورى .

وتشاوروا في أمرهم وعلت الأصوات فقال أبو طلحة : إني كنت أظن أن تدافعوها ، ولم أكن أظن أن تنافسوها. وكان طلحة غائباً فحضر . ثم صار الأمر إلى أن فوض ثلاثة منهم مالهم في ذلك إلى ثلاثة .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٢٤٣٧) .

فوض الزبير ما يستحقه من الإمارة إلى علي وفوض سعد ماله في ذلك إلى عبد الرحمن بن عوف وترك طلحة حقه لعثمان بن عفان .

فقال عبد الرحمن لعلي وعثمان : أيكما يبرأ من هذا الأمر فنفوض الأمر إليه والله علي والإسلام أن أجتهد فأولي أولاكما بالحق . فقالا : نعم ثم تفرقوا . ثم نهض عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يستشير الناس فيهما ويجتمع برؤوس الناس وأجنادهم جميعاً وأشتاتاً مثنى وفرادى ومجتمعين سراً وجهراً حتى خلص إلى النساء المخدرات في حجابهن وحتى سأل الولدان في المكاتب وحتى سأل من يرد من الركبان والأعراب إلى المدينة في مدة ثلاثة أيام بلياليها فلم يجد اثنين يختلفان في تقديم عثمان . فلما كانت الليلة التي يسفر صباحها عن اليوم الرابع من موت عمر جاء إلى منزل ابن أخته المسور بن مخرمة فقال : اذهب فادع لي علياً وعثمان قال المسور : فقلت : بأيهما أبدأ ؟ فقال : بأيهما شئت . قال : فذهبت إلى علي فقلت : أجب خالي فقال : أمرك أن تدعو معي أحداً ؟ قلت : نعم قال : من ؟ قلت : عثمان بن عفان . قال : بأينا بدأ ؟ قلت : لم يأمرني بذلك بل قال : ادع أيهما شئت أولاً فجئت إليك . قال : فخرج معي ؛ فلما مررنا بدار عثمان بن عفان جلس علي حتى دخلت فوجدته يوتر مع الفجر فدعوته فقال لي كما قال لعلي سواء ثم خرج بهما إلى المسجد

ونودي في الناس عامة : الصلاة جامعة ، فامتلأ المسجد حتى غص بالناس ثم صعد عبد الرحمن بن عوف منبر رسول الله ﷺ فقال : أيها الناس إني قد سألتكم سراً وجهراً مثنى وفرادى فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين إما علي وإما عثمان فقم إلي يا علي فقام إليه فوقف تحت المنبر فأخذ عبد الرحمن بيده فقال : هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل أبي بكر وعمر ؟ قال : اللهم لا . ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي . قال : فأرسل يده وقال : قم يا عثمان . فأخذ بيده فقال : هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل أبي بكر وعمر ؟ قال : اللهم نعم . قال : فرفع رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان فقال : اللهم اسمع واشهد ، اللهم اسمع واشهد ، اللهم اسمع واشهد إني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان . قال : وازدحم الناس يبايعون عثمان وبايعه علي بن أبي طالب أولاً .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس وعشرين

فيها نقض أهل إسكندرية العهد ، وذلك أن ملك الروم بعث إليهم منويل الخصي في مراكب من البحر ، فطمعوا في النصرة ونقضوا ذمتهم ، فغزاهم عمرو بن العاص في ربيع الأول منها ، فافتتح الأرض عنوة وافتتح المدينة صلحاً وفيها حج بالناس عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وفيها عزل عثمان سعداً عن الكوفة وولى الوليد بن عقبة بن أبي معيط مكانه . فكان هذا مما نقم على عثمان .

وفيها وجه عمرو بن العاص عبد الله بن سعد بن أبي سرح لغزو بلاد المغرب .

ويقال : فيها عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح . وفيها فتح معاوية الحصون . وفيها ولد ابنه يزيد بن معاوية .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة ست وعشرين

وفيها وسع عثمان المسجد الحرام . وافتتح عثمان بن أبي العاص سابور صلحاً على ثلاثة آلاف ألف وثلاثمئة ألف .

وفيها حج بالناس عثمان بن عفان رضي الله عنه .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة سبع وعشرين

قال الواقدي وأبو معشر : وفيها عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وكان أخا عثمان لأمه ، وكان يكتب الوحي ثم

ارتد عن الإسلام ، وهو الذي شفع له يوم الفتح حين أهدر دمه رسول الله ﷺ.

غزوة إفريقية :

أمر عثمان عبد الله بن سعد بن أبي سرح أن يغزو بلاد إفريقية فإذا فتحها الله عليه فله خمس الخمس من الغنيمة نفلاً فسار إليها في عشرة آلاف فافتتحها ؛ سهلها وجبلها ، وقتل خلقًا كثيراً من أهلها ، ثم اجتمعوا على الطاعة والإسلام ، وأخذ عبد الله بن سعد خمس الخمس وقسم أربعة أخماس الغنيمة بين الجيش فأصاب الفارس ثلاثة آلاف دينار ، والراجل ألف دينار .

قال الواقدي : وصالحه بطريقها على ألفي ألف دينار وخمسمئة ألف دينار ، وعشرين ألف دينار ، فأطلقها كلها عثمان في يوم واحد لآل الحكم ويقال لآل مروان .

ولما افتتحت إفريقية بعث عثمان عبد الله بن نافع بن الحصين وعبد الله بن قيس من فورهما إلى الأندلس ، فأتياها من قبل البحر ، وكتب عثمان إلى الذين خرجوا إليها يقول : إن القسطنطينية إنما تفتح من قبل البحر ، وأنتم إذا فتحتم الأندلس فأنتم شركاء لمن يفتتح قسطنطينية في الأجر آخر الزمان ، والسلام . فساروا إليها فافتتحوها .

وقعة جرجير والبربر مع المسلمين :

لما قصد المسلمون إفريقية وعليهم عبد الله بن أبي سرح ، وفي جيشه عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو ابن العاص ، وعبد الله بن الزبير ، صمد إليهم ملك البربر جرجير في عشرين ومئة ألف .

فلما تراءى الجمعان أمر جيشه فأحاطوا بالمسلمين هالة ، فوقف المسلمون في موقف لم ير أشنع منه ولا أخوف عليهم منه .

قال عبد الله بن الزبير : فنظرت إلى الملك جرجير من وراء الصفوف وهو راكب على برذون ، وجاريتان تظلانه بريش الطواويس ، فذهبت إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، فسألته أن يبعث معي من يحمي ظهري وأقصد الملك ، فجهز معي جماعة من الشجعان ، قال : فأمَر بهم فحموا ظهري وذهبت حتى اخترقت الصفوف إليه ــ وهم يظنون أني في رسالة إلى الملك ــ فلما اقتربت منه أحس مني الشر ففر على برذونه ، فلحقته فطعنته برمحي ، وذففت عليه بسيفي ، وأخذت رأسه فنصبته على رأس الرمح وكبرت ، فلما رأى ذلك البربر تفرقوا وفروا كفرار القطا ، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، فغنموا غنائم جمة ، وأموالاً كثيرة ، وسبياً عظيماً . قال الواقدي : وفي هذه السنة افتتحت إصطخر ثانية على يدي عثمان بن أبي العاص .

وفي هذه السنة غزا معاوية قبرص .

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين

وفيها تم فتح قبرس وكان فتحها على يد معاوية بن أبي سفيان وفيها قبر أم حرام بنت ملحان زوجة عبادة بن الصامت رضي الله عنهما . فقبرها هنالك يعظمونه ويستقون به ويقولون : قبر المرأة الصالحة .

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وعشرين

وفيها عزل عثمان أبا موسى الأشعري عن البصرة وأمَّر عليها عبد الله بن عامر بن كريز وهو ابن خال عثمان ابن عفان ، وجمع له بين جند أبي موسى وجند عثمان بن العاص وله من العمر خمس وعشرون سنة .

وفيها وسع عثمان مسجد النبي ﷺ وبناه بالكلس وجعل عمده حجارة مرصصة وسقفه بالساج ، وجعل طوله ستين ومئة ذراع .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاثين من الهجرة النبوية

وفي هذه السنة عزل عثمان الوليد بن عقبة عن الكوفة وولى عليها سعيد بن العاص وكان سبب عزله أنه صلى بأهل الكوفة الصبح أربعاً ثم التفت فقال : أزيدكم ؟

فشكوه إلى عثمان وشهد بعضهم عليه أنه شرب الخمر فأمر عثمان بإحضارة وأمر بجلده .

وفي هذه السنة سقط خاتم النبي ﷺ من يد عثمان في بئر أريس فلم يدرك خبره بعد بذل مال جزيل والاجتهاد في طلبه وكان الخاتم في يد النبي ﷺ ثم في يد أبي بكر ثم في يد عمر ثم في يد عثمان ست سنين .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين

وفيها كانت غزوة ذات الصواري وسببها ؛ أنه لما أصاب عبد الله بن سعد بن أبي سرح من أصاب من الفرنج والبربر ببلاد إفريقية والأندلس حميت الروم واجتمعت على قسطنطين بن هرقل وساروا إلى المسلمين في جمع لم يُر مثله منذ كان الإسلام ، خرجوا في خمسمئة مركب ، وقصدوا عبد الله بن سعد بن أبي سرح في أصحابه من المسلمين الذين ببلاد المغرب ، فلما تراءى الجمعان بات الروم يقسقسون ويصلبون ، وبات المسلمون يقرؤون القرآن ويصلون فلما أصبحوا صف عبد الله بن سعد أصحابه صفوفاً في المراكب وأمرهم بذكر الله وتلاوة القرآن وكانت الريح للكفار على المسلمين ثم سكنت فدنت مراكب المسلمين وربطوها بمراكب العدو ، واجتلدوا بالسيوف والخناجر وصارت الجثث على الشاطئ مثل

الجبل العظيم وصبر المسلمون ثم أنزل الله نصره فهرب قسطنطين وجيشه وقد قلوا جداً وبه جراحات . وكان في هذه الغزوة محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر فأظهرا عيب عثمان وما غيروا وما خالف أبا بكر وعمر ويقولان : دمه حلال لأنه استعمل عبد الله بن سعد وكان قد ارتد وكفر بالقرآن العظيم وأباح رسول الله ﷺ دمه ، وأخرج رسول الله ﷺ أقواماً واستعملهم عثمان ونزع الصحابة واستعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر .

وفي هذه السنة قتل كسرى يزدجرد .

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين

وفيها غزا معاوية بلاد الروم حتى بلغ مضيق القسطنطينية وتوفي في هذه السنة العباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين

وفيها سير أمير المؤمنين جماعة من قراء أهل الكوفة إلى الشام ، وكان سبب ذلك أنهم تكلموا بكلام قبيح في مجلس سعيد بن عامر فلما أنزلهم معاوية وأكرمهم افتخر معاوية بوالده وشرفه في قومه ، وقال فيما قال : وأظن أبا

سفيان لو ولد الناس كلهم لم يلد إلا حازماً . فقال له صعصعة بن صُوحان : كذبت قد وُلد الناس كلهم لمن هو خير من أبي سفيان ، من خلقه الله بيديه ، ونفخ فيه من روحه وأمر الملائكة فسجدوا له فكان منهم البر والفاجر والأحمق والكيس ، فعند ذلك نفاهم عن الشام لئلا يشوشوا عقول الطغام ، فلما خرجوا من دمشق أووا إلى الجزيرة فاجتمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وكان نائباً على الجزيرة ثم ولي حمص بعد ذلك فاعتذروا إليه .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين

وفي هذه السنة تكالب المنحرفون عن طاعة عثمان رضي الله عنه ، وبعثوا إلى عثمان من يناظره فيما فعل وطلبوا منه أن يعزل عماله ويستبدل بهم غيرهم من الصحابة السابقين ، حتى شق ذلك عليه جداً ، وبعث إلى أمراء الأجناد يستشيرهم ، فعند ذلك قرر عثمان عماله على ما كانوا عليه ، وتألف قلوب أولئك بالمال وأمر أن يبعثوا في الغزو إلى الثغور .

ولما رجعت العمال إلى أقاليمها امتنع أهل الكوفة من أن يدخل عليهم سعيد بن العاص ولبسوا السلاح فرجع سعيد إلى المدينة وكسر الفتنة وكتب أهل الكوفة إلى

عثمان أن يولي عليهم أبا موسى الأشعري ، فأجابهم عثمان إلى ما سألوا . ونجم في مصر رجل يقال له : عبد الله بن سبأ كان يهودياً فأظهر الإسلام وكان يقول للرجل : أليس قد ثبت أن عيسى ابن مريم سيعود إلى هذه الدنيا ؟ فيقول الرجل : بلى . فيقول له : فرسول الله ﷺ أفضل منه ، فما تنكر أن يعود إلى هذه الدنيا وهو أشرف من عيسى ابن مريم عليه السلام . ثم يقول : وقد كان أوصى إلى علي بن أبي طالب فمحمد خاتم الأنبياء ، وعلي خاتم الأوصياء ثم يقول : فهو أحق بالإمرة من عثمان وعثمان معتمد في ولايته ما ليس له . فافتتن كثير من أهل مصر وكتبوا إلى جماعات من عوام أهل الكوفة والبصرة فتمالؤوا على ذلك. وتكاتبوا فيه . وفي مناظرة بين علي وعثمان رضي الله عنهما قال علي : أنشدك الله ، هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من (يرفأ) غلام عمر منه ؟ يعني كان معاوية يخاف عمر خوفاً عظيماً – قال عثمان : نعم . قال علي : فإن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت تعلمها ويقول للناس : هذا أمر عثمان، فيبلغك ولا تغير على معاوية .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين

ونشأ بمصر طائفة من أبناء الصحابة يؤلبون الناس على عثمان حتى استنفر نحو من ستمئة راكب يذهبون إلى

المدينة في صفة معتمرين لينكروا على عثمان ، فلما اقتربوا من المدينة أمر عثمان علياً بأن يخرج إليهم .

فانطلق علي وهم بالجحفة ، وكانوا يعظمونه ويبالغون في أمره ، فردهم وأنبهم وشتمهم فرجعوا على أنفسهم بالملامة .

وجاءه مروان بن الحكم فقال : أتكلم يا أمير المؤمنين أم أصمت ؟ فقالت أمرأة عثمان من وراء الحجاب : بل اصمت . ثم قالت بعد أن ولى مروان إنك متى أطعت مروان قتلك .

وتكاتب أهل مصر وأهل الكوفة وأهل البصرة ؛ أهل مصر مصرون على ولاية علي وأهل الكوفة عازمون على تأمير الزبير ، وأهل البصرة مصممون على تولية طلحة لا تشك كل فرقة في أن أمرها سيتم ، ورجع كل فريق منهم إلى قومهم . وكان المصريون لما رجعوا إلى بلادهم وجدوا في الطريق بريداً فأخذوه ففتشوه فإذا معه في إداوة كتاب على لسان عثمان فيه الأمر بقتل طائفة منهم وبصلب آخرين وبقطع أيدي آخرين منهم وأرجلهم ، وكان على الكتاب طابع بخاتم عثمان والبريد أحد غلمان عثمان وعلى جمل عثمان .

فقال عثمان : والله لا كتبت ولا أمليت ولا دريت بشيء من ذلك والخاتم قد يزور على الخاتم فصدقه بعضهم وكذبه آخرون ، وكانت الرسالة مع السلمي على جمل

عثمان . وكان عثمان على المنبر يخطب على عصا النبي ﷺ التي كان يخطب عليها أبو بكر وعمر فقال له جهجاه: قم نعثل – يهودي كان بالمدينة – فانزل عن هذا المنبر وأخذ العصا فكسرها على ركبته اليمنى فدخلت شظية منها فيها فبقي الجرح حتى أصابته الآكلة فنزل عثمان وحملوه وأمر بالعصا فشدوها فكانت مضببة وكان أول من اجترأ على عثمان بالمنطق السيء جبلة بن عمرو الساعدي . وأصبح عثمان يحدث الناس قال : رأيت النبي ﷺ في المنام فقال : ((ياعثمان أفطر عندنا الليلة)) فأصبح صائماً وقتل من يومه وكانت مدة الحصار أربعين يوماً رضي الله عنه وأرضاه .

خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

لما قتل عثمان عدل الناس إلى علي فبايعوه وقد امتنع علي من مبايعتهم وفر منهم إلى حائط بني عمرو بن مبذول وأغلق بابه ، فجاء الناس فطرقوا الباب وولجوا عليه وجاؤوا معهم بطلحة والزبير فقالوا له : إن هذا الأمر لا يمكن بقاؤه بلا أمير ، ولم يزالوا به حتى أجاب .

وهرب مروان بن الحكم والوليد بن عقبة وآخرون إلى الشام وخرج علي إلى المسجد فصعد المنبر يتوكأ على قوسه فبايعه عامة الناس .

* * * *

ثم دخلت سنة ست وثلاثين من الهجرة

وقعة الجمل :

بعث علي إلى معاوية كتباً كثيرة يدعوه فيها إلى الطاعة ، فلم يرد عليه ، فعزم علي على قتال أهل الشام وكانت عائشة بمكة ، فلما قتل عثمان قامت تخطب في الناس تحثهم على القيام بطلب دم عثمان فاستجاب الناس لها ، سارت عائشة إلى البصرة ومعها الزبير وابنه عبد الله ومروان بن الحكم وقد مروا في مسيرهم ليلاً بماء يقال له: (الحوأب) فنبحتهم كلاب عنده فلما سمعت ذلك عائشة قالت : ما اسم هذا الماء ؟ قالوا : الحوأب فقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ما أظنني إلا راجعة قالوا : ولم ؟ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول لنسائه : ((ليت شعري أيتكن التي تنبحها كلاب الحوأب)) ثم قالت : ردوني أنا والله صاحبة ماء الحوأب . فقال لها عبد الله بن الزبير : إن الذي أخبرك أن هذا ماء الحوأب قد كذب .

ولما خرج علي لقتال أهل الشام كان الزبير وطلحة في رفقة عائشة متجهة إلى البصرة . فحول علي دربه إلى البصرة. ولما أرادت عائشة أن ترجع صاح الناس : النجاء النجاء هذا جيش علي بن أبي طالب فارتحلوا نحو البصرة .

وعن ابن مسعود مرفوعاً ((تدور رحا الإسلام لخمس وثلاثين أوست وثلاثين)) .

وتقابل الجيشان وكانت عائشة في هودج على جمل . وقد كتبت عائشة إلى زيد بن صوحان تدعوه إلى نصرتها فقال : أنا في نصرتك ما دمت في منزلك . وقال : رحم الله أم المؤمنين ؛ أُمرت أن تلزم بيتها وأُمرنا أن نقاتل ، فخرجت من منزلها وأمرتنا بلزوم بيوتنا التي هي أحق منا بذلك . وبعث القعقاع فأصلح الأمر وبات الناس بخير ، وبات قتلة عثمان بشر وكانوا قريباً من ألفين ، وباتوا يتشاورون ، وأجمعوا أن يثيروا الحرب من الغلس ، فنهضوا قبل طلوع الفجر ، فانصرف كل فريق إلى قراباتهم فهجموا عليهم بالسيوف فثار كل طائفة إلى قومهم ليمنعوهم وقام الناس من منامهم إلى السلاح فقالوا : ما هذا ؟ قالوا : طرقنا أهل الكوفة ليلاً وبيتونا غدراً ، وظنوا أن هذا عن ملأ من أصحاب علي ، فثار كل فريق إلى سلاحهم وركبوا الخيول ولا يشعر أحد منهم بما وقع الأمر عليه في نفس الأمر فنشبت الحرب واجتمع مع علي عشرون ألفاً ومع عائشة نحو من ثلاثين ألفاً . والسبئية أصحاب عبد الله بن سبأ اليهودي لا يفترون عن القتل فقال علي : ياطلحة أجئت بعرس رسول الله ﷺ تقاتل بها وخبأت عرسك في البيت . ثم جاء طلحة سهم فقتل .

وعن أبي جبر المازني قال : شهدت علياً والزبير حين تواقفا – يعني يوم الجمل – فقال له علي : يازبير ، أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول : إنك تقاتلني وأنت لي

ظالم . قال : نعم ولم أذكره إلا في هذا الموقف . ثم انصرف . ثم سار حتى نزل وادياً يقال له وادي السباع فاتبعه عمرو بن جرموز فجاءه وهو نائم فقتله غيلة .

وجعلت الحرب تأخذ وتعطي فتارة لأهل البصرة وتارة لأهل الكوفة ولم تهدأ الحرب حتى عُقر الجمل بعد أن قتل من الطرفين عشرة آلاف خمسة من هؤلاء وخمسة من هؤلاء .

وقد سأل بعض أصحاب علي علياً أن يقسم فيهم أموال أصحاب طلحة والزبير فأبى عليهم فطعن فيه السبئية وقالوا : كيف تحل لنا دماؤهم ولا تحل لنا أموالهم ؟ فبلغ ذلك علياً فقال : أيكم يحب أن تصير أم المؤمنين في سهمه ؟ فسكت القوم . وقد علم من بين مكة والمدينة والبصرة بالوقعة يوم الوقعة ، وذلك مما كانت النسور تخطفه من الأيدي والأقدام فيسقط منها هنالك حتى إن أهل المدينة علموا بذلك يوم الجمل قبل أن تغرب الشمس وذلك أن نسراً مر بهم ومعه شيء فسقط منه فإذا هو كف فيه خاتم نقشه : عبد الرحمن بن عتّاب .

وقعة صفين :

لما فرغ علي رضي الله عنه من وقعة الجمل ، دخل البصرة وشيع أم المؤمنين عائشة لما أرادت الرجوع إلى مكة بعث إلى معاوية يدعوه إلى بيعته فأبى معاوية وخرج أمير المؤمنين علي من الكوفة عازماً على الدخول إلى الشام .

وتقابل الجمعان ـ بالله المستعان ـ وسار معاوية إلى مشارع المياه في مكان يقال له صفين فعطش أصحاب علي ، فبعث علي الأشعث بن قيس الكندي في جماعة ليصلوا إلى الماء فمنعهم أولئك وقالوا : موتوا عطشاً كما منعتم عثمان الماء . فترامو بالنبال ثم تطاعنوا بالرماح ثم تقاتلوا بالسيوف وأمد كل طائفة أصحابها حتى جاء الأشتر من ناحية العراقيين وجاء عمرو بن العاص من ناحية الشاميين فاشتدت الحرب بينهم ثم ما زال أهل العراق يكشفون الشاميين عن الماء حتى أزاحوهم عنه وخلوا بينهم وبينه .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين

استهلت هذه السنة وأمير المؤمنين علي رضي الله عنه متواقف هو ومعاوية كل منهما في جنوده في مكان يقال له صفين بالقرب من الفرات شرقي بلاد الشام وقد اقتتلوا في شهر ذي الحجة كل يوم ، ولما دخل شهر المحرم تحاجزوا عن القتال طلباً للصلح ، واستمروا على ذلك ثلاثة أشهر يتراسلون شهر ربيع الأول وجماديين ، فأقاموا في شهر ذي الحجة ولما انسلخ المحرم ولم يقع بينهم صلح نشب القتال : وكان مع علي مئة ألف من جند العراق أو يزيدون ومع معاوية مئة ألف وثلاثون ألفاً .

واقتتلوا من أول يوم من صفر قتالاً شديداً وقد انتصف بعضهم من بعض وتكافؤوا وأقبل معاوية وقد بايعه أهل الشام على الموت فواقف الناس في أمر مهول عظيم ثم زحف الناس بعضهم إلى بعض لا يفر أحد من أحد ولا يغلب أحد أحداً .

ثم إن علياً حمل على عمرو بن العاص يوماً فضربه بالرمح فألقاه إلى الأرض فبدت سوءته فرجع علي عنه فقال له أصحابه : مالك يا أمير المؤمنين رجعت عنه ؟ فقال : إنه تلقاني بسوءته .

قال الأشتر : رأيت هولاً عظيماً وكدت أفر فما ثبتني إلا قول عمرو بن الإطنابة ــ وهي أمه ــ :

أبت لي همتي وأبى أبائي
وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإعطائي على المكروه نفسي
وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت :
مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات
وأحمي بعدُ عن عرض صحيح

وبعث معاوية إلى خالد بن المعتمر وهو أمير الخيالة لعلي فقال له : اتبعني على ما أنت عليه ولك إمرة العراق ، فطمع فيها فلما ولي معاوية العراق لم يعطه شيئاً .

وقد قتل أهل الشام عمار بن ياسر وبان بذلك وظهر سر ما أخبر به الرسول ﷺ من أنه تقتله الفئة الباغية ، وبان بذلك أن علياً محق وأن معاوية باغ وما في ذلك من دلائل النبوة .

ثم دعا علي معاوية أن يبارزه ، فأشار عليه عمرو أن يبرز إليه فقال له معاوية : إنك لتعلم أنه لم يبارزه رجل قط إلا قتله ، ولكنك طمعت فيها بعدي . ولما قُتل عمار عرف أهل العراق أن أهل الشام بغاة ليس معهم حق . فاقتتلوا بالرماح حتى تقصفت وبالنبال حتى فنيت وبالسيوف حتى تحطمت ثم صاروا إلى أن تقاتلوا بالأيدي والرمي بالحجارة والتراب يعفرونه في الوجوه ، ثم تعاضوا بالأسنان لا يمكن أحدهما من الفرار فطارت أكف ومعاصم ورؤوس عن كواهلها ثم حانت صلاة المغرب فما صلى الناس إلا إيماء صلاتي العشاء واستمر القتال في هذه الليلة كلها وهي من أعظم الليالي شراً بين المسلمين وتسمى هذه الليلة ليلة الهرير وكانت ليلة الجمعة وصلى الناس الصبح إيماء وهم في القتال حتى تضاحى النهار وأقبل النصر وتوجه النصر لأهل العراق على أهل الشام ؛ وذلك أن الأشتر النخعي صارت إليه إمرة الميمنة وكان من الشجعان الأبطال الذين يعرفون الحرب ولا يهابون القتل فحمل بمن معه على أهل الشام وتبعه علي فانفضت غالب صفوف أهل الشام ولم يبق إلا الهزيمة والكسرة والفرار ، فعند ذلك رفع أهل الشام

المصاحف فوق الرماح وقالوا : هذا بيننا وبينكم قد فني الناس فمن للثغور ؟

ومن لجهاد المشركين والكفار ؟

وذكر ابن جرير وغيره من أهل التاريخ أن الذي أشار برفع المصاحف هو عمرو بن العاص وذلك لما رأى أن أهل العراق قد ظهروا وانتصروا . ثم تراوض الفريقان بعد مكاتبات ومراجعات عن التحكيم وقد قتل من أهل الشام خمسة وأربعون ألفاً ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً . وفي خدعة التحكيم خطب أبو موسى الأشعري وهو مندوب علي فقد قال : اتفقت أنا وعمرو أنا نخلع علياً ومعاوية ونترك الأمر شورى وتستقبل الأمة هذا الأمر فيولوا عليهم من أحبوه واختاروه . وإني قد خلعت عليا ومعاوية ، ثم تنحى وجاء عمرو فقال : إن هذا قال ما قد سمعتم ، وإنه قد خلع صاحبه وإني قد خلعته أيضاً كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولي عثمان بن عفان والطالب بدمه وهو أحق الناس بمقامه .

وخرج على علي من جيشه واشتد أمر الخوارج وبالغوا في النكير على علي وصرحوا بكفره فجاء إليه رجلان منهم وهما زرعة بن البرج الطائي وحرقوص بن زهير السعدي فقالا : لا حكم إلا لله . ثم ناظرهم فرجعت منهم طائفة في معركة النهروان .

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين

وفيها ولى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه الأشتر النخعي مصر بدل محمد بن أبي بكر فسار الأشتر إليها فلما بلغ القلزم استقبله الجايسار وهو مقدم علي على الخراج فقدم إليه طعاماً وسقاه شراباً من عسل فمات فلما بلغ ذلك معاوية وعمرو وأهل الشام قالوا : إن لله جنوداً منها العسل . ولما بلغ ذلك علياً تأسف على شجاعته .

وقد كان أهل الشام لما انقضت الحكومة بدومة الجندل بين أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص سلموا على معاوية بالخلافة وقوي أمرهم جدًا .

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين

وفيها بعث معاوية الجيوش الكثيرة في أطراف معاملات علي بن أبي طالب ، وفيها ولى علي بن أبي طالب زياد بن أبيه على أرض فارس وكرمان ، فسار إليها فدوخ أهلها وقهرهم حتى استقاموا ورجعوا إلى السمع والطاعة .

* * * *

ثم دخلت سنة أربعين من الهجرة النبوية

وفيها كان مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قتله ابن ملجم الخارجي في مسجد الكوفة

ودفن بدار الإمارة بالكوفة فلما فرغ من شأنه كان أول من تقدم إلى الحسن بن علي رضي الله عنه قيس بن سعد ابن عبادة فقال له : ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه فسكت الحسن فبايعه ثم بايعه الناس بعده وكان ذلك يوم مقتل علي . ثم تنازل الحسن لمعاوية فاصطلحا وسمي هذا العام عام الجماعة لاجتماع الكلمة فيه على معاوية .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين من الهجرة النبوية

جاء في الحديث أن الخلافة بعده عليه الصلاة والسلام ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً وقد انقضت الثلاثون سنة بخلافة الحسن بن علي فأيام معاوية أول الملك .

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين

وفيها غزا المسلمون اللاّن والروم فقتلوا من أمرائهم وبطارقتهم خلقاً كثيراً وغنموا وسلموا وفي هذه السنة تحركت الخوارج الذين كانوا قد عفا عنهم علي يوم النهروان ، وفي هذه السنة قدم زياد بن أبيه على معاوية .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين

وفيها مات عمرو بن العاص قال الحسن بن أبي الحسن : ما أفسد أمرَ الناس إلا اثنان ؛ عمرو بن العاص يوم أشار على معاوية برفع المصاحف يوم صفين . والمغيرة ابن شعبة حين هيأ البيعة ليزيد بن معاوية ، ولولا ذلك لكانت شورى بين المسلمين إلى يوم القيامة .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وأربعين

وفيها غزا عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بلاد الروم ومعه المسلمون ، وشتوا هنالك . وفيها غزا بسر بن أرطاة في البحر ، وفي هذه السنة استلحق معاوية زياد ابن أبيه فألحقه بأبي سفيان ، وذلك أن رجلاً شهد على إقرار أبي سفيان أنه عاهَرَ بسمية أم زياد في الجاهلية ، وأنها حملت بزياد هذا من أبي سفيان وقد كان الحسن البصري ينكر هذا الاستلحاق ويقول : قال رسول الله ﷺ : ((الولد للفراش وللعاهر الحجر)) .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس وأربعين

وفيها ولى معاوية زياداً البصرة وفيها توفي زيد بن ثابت الانصاري أحد كتاب الوحي وهو الذي كتب هذا المصحف الإمام الذي بالشام عن أمر عثمان بن عفان . وكان زيد بن ثابت من أفكه الناس في بيته ، وفيها غزا الحكم بن عمرو نائب زياد على خراسان جبل الأشلّ فقتل منهم خلقاً كثيرًا وغنم أموالاً جمة فكتب إليه زياد : إن أمير المؤمنين – معاوية – قد جاء كتابه أن يصطفي كل صفراء وبيضاء ؛ يعني الذهب والفضة . فكتب إليه الحكم : إن كتاب الله مقدم على كتاب أمير المؤمنين . فقسم الغنيمة كما أمر الله ورسوله .

* * * *

ثم دخلت سنة ست وأربعين

وفيها شتى المسلمون ببلاد الروم مع أميرهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وفي هذه السنة توفي وكان من الشجعان المعروفين والأبطال المشهورين كأبيه وكان قد عظم ببلاد الشام حتى خاف منه معاوية ومات وهو مسموم .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وأربعين

وفيها توفي قيس بن عاصم المنقري كان من سادات الناس في الجاهلية والإسلام وكان ممن حرم الخمر في الجاهلية وأنشد في ذلك :

رأيت الخمر مصلحة وفيها
مقابح تفضح الرجل الكريما
فلا والله أشربها حياتي
ولا أشفي بها أبداً سقيما

وكان إسلامه مع وفد بني تميم وفي بعض الأحاديث أن رسول الله ﷺ قال : ((هذا سيد أهل الوبر)) وكان جواداً ممدحاً كريماً وهو الذي يقول فيه الشاعر يوم مات:

فما كان قيس هُلْكُهُ هلك واحدٍ
ولكنه بنيان قوم تهدما

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين

فيها شتى أبو عبد الرحمن القيني بالمسلمين ببلاد أنطاكية وفيها غزا عقبة بن عامر بأهل مصر البحر ، وحج بالناس في هذه السنة مروان بن الحكم نائب المدينة[1] .

(١) قلت : وهذا كل ما كتبه ابن كثير يرحمه الله عن هذه السنة .

ثم دخلت سنة تسع وأربعين

فيها غزا يزيد بن معاوية بلاد الروم حتى بلغ القسطنطينية . وفيها مات الحسن بن علي رضي الله عنهما مسموماً ، قيل : كان معاوية قد تلطف لبعض خدمه أن يسقيه سماً . فالله أعلم .

* * * *

ثم دخلت سنة خمسين من الهجرة

وفيها افتتح عقبة بن نافع بلاد إفريقية واختط القيروان وكان مكانها غيضة تأوي اليها السباع والوحوش والحيات العظام فدعا الله تعالى فلم يبق شيء من ذلك فعند ذلك أسلم من البربر خلق كثير .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين

وفيها قُتِلَ حُجْرُ بن عدي وأصحابه ويقال له : حجر الخير، ولما دخل معاوية على عائشة فسلم عليها من وراء الحجاب قالت له : أين ذهب عنك حلمك يا معاوية حين قتلت حُجْراً وأصحابه ؟ فقال لها : فقدته حين غاب عني من قومي مثلك يا أمه فقالت له : أما خشيت أن أخبئ لك رجلاً يقتلك ؟

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين

وفيها غزا بلاد الروم وشتى بها سفيان بن عوف الأزدي فمات هنالك وفيها توفي من الصحابة عبد الله بن مغفل المزني وهو أول من دخل تُسْتَر وفتحها .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين

وفيها افتتح المسلمون وعليهم جنادة بن أبي أمية جزيرة رودس فأقام بها طائفة من المسلمين كانوا أشد شيء على الكفار يعترضون لهم في البحر ويقطعون سبيلهم.

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وخمسين

وفيها شتى محمد بن مالك بأرض الروم ، وغزا الصائفة معن بن يزيد السلمي وفيها توفي أسامة بن زيد مولى رسول الله ﷺ وابن مولاه وحبه وابن حبه . ولاه رسول الله ﷺ الإمرة بعد أبيه .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس وخمسين

وفيها توفي الأرقم بن أبي الأرقم ، أسلم قديماً يقال : سابع سبعة وكانت داره كهفاً للمسلمين يأوي إليها رسول الله ﷺ من قريش وكانت عند الصفا ثم صارت بعد ذلك للمهدي فوهبها لامرأته الخيزران أم موسى الهادي وهارون الرشيد ، فبنتها وجددتها فعرفت بها .

* * * *

ثم دخلت سنة ست وخمسين

وفيها دعا معاوية الناس إلى بيعة ليزيد ولده ليكون ولي عهده من بعده وكان هذا بإيحاء من المغيرة بن شعبة .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وخمسين

فيها كان شتى عبد الله بن قيس بأرض الروم ، وفيها توفي عثمان بن حُنَيْف الأنصاري ، استنابه عمر على الكوفة ، فلما قدم طلحة والزبير صحبة عائشة وامتنع من تسليم دار الإمارة نتفت لحيته وحواجبه وأشفار عينيه ومُثل به فلما جاء علي وسلمه البلد قال له : ياأمير المؤمنين ، فارقتك ذا الحية ، واجتمعت بك أمرد ، فتبسم علي رضي الله عنه وقال : لك أجر ذلك عند الله .

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى : تحت عنوان : (قصة غريبة) ذكرها ابن الجوزي في كتابه (المنتظم) بسنده وملخصها : أن معاوية بينما هو على السماط إذا شاب من بني عذرة قد مثل بين يديه ، فأنشده شعراً مضمونه التشوق إلى زوجته سعاد ، فاستدناه معاوية واستحكاه عن أمره فقال : يا أمير المؤمنين ، إني كنت مزوجاً بابنة عم لي، وكان لي إبل وغنم فأنفقت ذلك عليها ، فلما قل ما بيدي رغب عني أبوها وشكاني إلى عاملك بالكوفة ابن أم الحكم ، وبلغه جمالها فحبسني في الحديد وحملني على أن أطلقها ، فلما انقضت عدتها أعطاه عاملك عشرة آلاف درهم فزوجه إياها ، وقد أتيتك يا أمير المؤمنين ، وأنت غياث المحروب ، وسند المسلوب فهل من فرج ؟

ثم بكى وأنشد يقول :

في القلب مني نارُ
والنار فيها شرارُ
والجسم مني نحيل
واللون فيه اصفرار
والعين تبكي بشجو
فدمعها مدرار
والحب داء عسير
فيه الطبيب يحار

حملـــت فيـــه عظيمـــاً

فمـــا عليـــه اصـــطبار

فلـــيس ليلـــي بليـــل

ولا نهـــاري نهـــار

قال : فرقّ له معاوية وكتب إلى ابن أم الحكم يؤنبه على ذلك ويعيبه عليه ويأمره بطلاقها قولاً واحداً ، فلما جاءه كتاب معاوية تنفس الصعداء وقال : وددت أن أمير المؤمنين خلى بيني وبينها سنة ، ثم عرضني على السيف وجعل يؤامر نفسه على طلاقها فلا يقدر على ذلك ، ولا تجيبه نفسه وجعل البريد الذي ورد عليه بالكتاب يستحثه، فطلقها وأخرجها عنه وسيرها مع الوفد إلى معاوية ، فلما وقفت بين يديه رأى منظراً جميلاً ، فلما استنطقها ، فإذا هي أفصح العرب وأحلاهم كلاماً ، وأكملهم جمالاً ودلالاً . فقال لابن عمها : يا أعرابي ، هل من سلو عنها بأفضل الرغبة ؟ قال : نعم إذا فرقت بين رأسي وجسدي ثم أنشأ يقول :

لا تجعلنّـــيَ والأمثـــال تُـــضرب بـــي

كالمـــستغيث مـــن الرمـــضاء بالنـــار

اردد ســـعاد علـــى حـــيران مكتئـــب

يمـــسي ويـــصبح في هـــم وتـــذكار

قـــد شـــفه قلـــق مـــا مثلـــه قلـــق

وأســـعر القلـــب منـــه أي إســـعار

والله والله لا أنسى محبتها
حتى أغيب في رمس وأحجار
كيف السلو وقد هام الفؤاد بها
وأصبح القلب عنها غير صبار ؟

فقال معاوية : فإنا نخيرها بيني وبينك وبين ابن أم الحكم فأنشأت تقول :

هذا وإن أصبح في أطمارِ
وكان في نقص من اليسار
أكثر عندي من أبي وجاري
وصاحب الدرهم والدينار
أخشى إذا غدرت حر النار

قال : فضحك معاوية ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ومركب ووطاء ، ولما انقضت عدتها زوجه بها وسلمها إليه.

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وخمسين

وفيها شتى عمرو بن مرة الجهني في أرض الروم في البر ، وكان يزيد بن مفرغ الحميري مع عباد بن زياد ابن أبيه وكان يزيد يكره عباداً فقال :

ألا أبلغ معاوية بن حرب
مغلغلة من الرجل اليماني

أتغضب أن يقال : أبوك عفٌّ
وترضى أن يقال : أبوك زاني؟
فأشهد أن رَحْمَك من زياد
كرحْم الفيل من ولد الأتان

* * * *

ثم دخلت سنة ستين من الهجرة النبوية

وفي هذه السنة مات معاوية وتولى بعده ابنه يزيد ، والسُّنَّةُ أن يقال لمعاوية : ملك . ولا يقال له خليفة لحديث سفينة أن رسول الله ﷺ قال : ((الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً عضوضاً)) .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وستين

استهلت هذه السنة والحسين بن علي سائر إلى الكوفة فيما بين مكة والعراق ومعه أصحابه وقرابته فقتل في يوم عاشوراء من شهر المحرم من هذه السنة على المشهور رضي الله عنه وأرضاه .

ذكر الحافظ ابن عساكر في (تاريخه) أن يزيد حين وضع رأس الحسين بين يديه تمثل بشعر ابن الزبعرى يعني قوله :

ليت أشياخي ببدر شهدوا
جزع الخزرج من وقع الأسل

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وستين

وفيها قدم وفد أهل المدينة على يزيد بن معاوية فأكرمهم وأجازهم بجوائز سنية ثم عادوا من عنده بالجوائز فخلعوه وولوا عليهم عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وستين

ففيها كانت وقعة الحرة ، وكان سببها أن أهل المدينة خلعوا يزيد فأرسل إليهم جيشاً قتل بالحرة منهم سبعة آلاف ثم أباح مسلم بن عقبة الذي يقول فيه السلف : مسرف بن عقبة قبحه الله ، المدينة ثلاثة أيام كما أمره يزيد لا جزاه الله خيراً .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وستين

في هذه السنة مات مسلم بن عقبة بعد فراغه من حرب أهل المدينة إلى مكة قاصداً قتال ابن الزبير وفي أثناء

الحصار جاء الناسَ نعيُ يزيد بن معاوية ثم ولي الملك بعده معاوية ابن يزيد وكان في مدة ولايته مريضاً لم يخرج إلى الناس ولم تطل مدته قيل : إنه مكث في الملك أربعين يوماً وقيل عشرين .

إمارة عبد الله بن الزبير :

عند ابن حزم وطائفة أنه أمير المؤمنين آنذاك . لما مات يزيد أقلع الجيش عن مكة وهم الذين كانوا يحاصرون ابن الزبير وهو عائذ بالبيت ثم بعث أهل البصرة إلى ابن الزبير وهو بمكة يجلبونه إلى أنفسهم ، واجتمعت بنو أمية إلى مروان بن الحكم بعد موت معاوية بن يزيد فبايعه بنو أمية ثم وقعت معركة مرج راهط قتل فيها مروان بن الحكم الضحاك بن قيس الفهري . ولما هدمت الكعبة أصلحها ابن الزبير على ما كانت عليه .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس وستين

وبها قُتل سليمان بن صرد في وقعة عين الوردة خرج ثائراً لدم الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وكان جيش سليمان بن صرد وأصحابه يسمى بجيش التوابين وكان الخليفة مروان بن الحكم وكان سبب موته أنه تزوج بأم خالد امرأة يزيد بن معاوية ، ثم إن مروان رقد عندها فلما أخذه النوم عمدت إلى وسادة فوضعتها على وجهه وتحاملت عليه هي وجواريها حتى مات غماً .

وكان أبوه الحكم من أكبر أعداء النبي ﷺ وإنما أسلم يوم الفتح وقدم الحكم المدينة ثم طرده النبي ﷺ إلى الطائف ومات بها ، ومروان كان أكبر الأسباب في حصار عثمان لأنه زور على لسانه كتاباً إلى مصر بقتل أولئك الوفد ولما كان متولياً على المدينة لمعاوية كان يسب علياً كل جمعة على المنبر فقال له الحسن بن علي : لقد لعن الله أباك الحكم وأنت في صلبه على لسان نبيه فقال : ((لعن الله الحكم وما ولد)) . وكان مروان بن الحكم يلقب : خيط باطل .

بويع بالخلافة لعبد الملك بن مروان في خلافة أبيه . وفي هذه السنة كان الطاعون الجارف بالبصره .

* * * *

ثم دخلت سنة ست وستين

وفيها وثب المختار بن عبيد الثقفي الكذاب بالكوفة ليأخذ بثأر الحسين بن علي – فيما يزعم – وأخرج منها عاملها عبد الله بن مطيع ، واجتمعت الشيعة عليه ، وكثر أصحابه وبايعوه في السر ، فلما كان المحرم عزم المختار على الخروج لطلب ثأر الحسين فيما يزعم ثم نهض المختار فجعل يلبس درعه وسلاحه وهو يقول :

قد علمت بيضاء حسناءُ الطلل

واضحة الخدين عجزاء الكفل

أني غداة الروع مقدام بطل

وخرج بين يديه إبراهيم بن الأشتر ونادى : يالثارات الحسين وسار شمر بن ذي الجوشن – الذي قتل الحسين – في ألفين فبعث إليه المختار سعيد بن منقد الهمذاني ثم شرع المختار يتتبع قتلة الحسين من شريف ووضيع فيقتله وهرب أشراف الكوفة إلى البصرة إلى مصعب بن الزبير ، وكان ممن هرب لقصده شمر بن ذي الجوشن قبحه الله فأرسل إليه المختار من قتله .

وكان المختار قد أسر سراقة بن مرداس فناداه بأعلى صوته وهو في الأسرى فناداه المختار فأقبل وهو يقول :

ألا أخبر أبا إسحاق أنا
نزونا نزوة كانت علينا
خرجنا لا نرى الضعفاء شيئاً
وهم مثل الدبا حين التقينا
رأينا منهم ضرباً وطعناً
وطعناً صائباً حتى انثنينا
نصرت على عدوك كل يوم
بكل كتيبة تنعى حسينا
كنصر محمد في يوم بدر
ويوم الشعب إذ لاقى حنينا

فأســـجح إذ ملكــت فلـــو ملكنـــا
لجرنـــا في الحكومـــة واعتـــدينا
تقبـــــل توبـــــة مـــــني فــــإني
سأشــكر إذ جعلــت النقــد دَيْنــا

وجعل سراقة بن مرداس يحلف أنه رأى الملائكة تقاتل على الخيول البلق بين السماء والأرض وأنه لم يأسره إلا واحد من أولئك الملائكة . فخلاه المختار فقال له : إني قد عرفت أنك لم تر الملائكة وإنما أردت بقولك هذا أني لا أقتلك ، ولست أقتلك فاذهب حيث شئت لا تفسد علي أصحابي . فذهب سراقة إلى البصرة إلى مصعب وجعل يقول :

الا أبلـــغ أبـــا إســـحاق أنــــي
رأيـــت البلـــق دهمـــاً مـــصمتات
كفـــرت بـــوحيكم وجعلـــت نـــذراً
علـــيٌ قتـــالكم حتـــى الممـــات
أُري عـــــيني مـــــالم ترايـــــاه
كلانـــا عـــالم بالترهـــات

ثم جعل المختار يتتبع من الكوفة منهم ، فأتوه بمالك ابن بشير فقال له المختار : أنت الذي نزعت برنس الحسين عنه ؟ اقطعوا يديه ورجليه . ثم تركوه يضطرب حتى مات .

وبعث المختار أبا عمرة صاحب حرسه فكبس بيت خولي بن يزيد الأصبحي الذي احتز رأس الحسين فخرجت

إليهم امرأته ، فسألوها عنه فقالت : لا أدري أين هو . وأشارت بيدها إلى المكان الذي هو مختف فيه وكانت تبغضه من ليلة قدم برأس الحسين معه إليها واسمها العيوف بنت مالك الحضرمي فحملوه إلى المختار فأمر بقتله وأن يحرق بعد ذلك .

وقتل المختار حكيم بن فضيل السنبسي وكان قد سلب العباس بن علي بن أبي طالب يوم قتل الحسين كما قتل عمر بن سعد بن أبي وقاص أمير الجيش الذين قتلوا الحسين ، وكان سعد مستجاب الدعوة فدعا على ولده عمر وقال : اللهم اقتله وأسل دمه .

كان المختار يدعي أنه يوحى إليه فصار بدعواه هذه كافراً وهذا هو الكذاب الذي قال فيه رسول الله ﷺ: ((إنه سيكون من ثقيف كذاب ومبير)) فهذا هو الكذاب وأما المبير فهو الحجاج بن يوسف الثقفي وكان الحجاج عكس هذا كان ناصبياً ، والناصبية المتدينون ببغضة علي ، لأنهم نصبوا له الخلاف ومبدؤهم عمرو بن العاص في التحكيم .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وستين

ففيها كان مقتل عبيد الله بن زياد على يدي إبراهيم ابن الأشتر النخعي فكان يقول : هذا قاتل ابن بنت رسول

الله ﷺ فعل ما لم يفعله فرعون في بني إسرائيل هذا ابن زياد قاتل الحسين الذي حال بينه وبين الفرات أن يشرب منه هو وأولاده ونساؤه ، ومنعه أن ينصرف إلى بلده أو يأتي يزيد بن معاوية حتى قتله . ولما اشتجر القتال ضربه إبراهيم ابن الأشتر فقطعه نصفين فاحتزوا رأسه وبعثوه إلى المختار .

أما عبيد الله بن زياد هذا المعروف بابن زياد بن أبي سفيان ويقال له : زياد بن أبيه وابن سمية أمير العراق بعد أبيه ويقال له : عبيد الله ابن مرجانة وهي أمه وكانت مجوسية . وقد قتل مصعب المختار الثقفي ، وسأل مصعب امرأة المختار وهي عمرة بنت النعمان بن بشير فقال لها : ما تقولين فيه ؟ فقالت : رحمه الله لقد كان عبداً من عباد الله الصالحين ، فسجنها وكتب إلى أخيه إنها تقول إنه نبي . فكتب إليه أن أخرجها فاقتلها ، فأخرجها إلى ظاهر البلد فضربت ضربات حتى ماتت فقال في ذلك عمر بن أبي ربيعة :

إن من أعجب العجائب عندي
قتل بيضاء حرة عطبول
قتلت هكذا على غير جرم
إن لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا
وعلى الغانيات جر الذيول

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وستين

وفيها هلك ملك الروم قسطنطين ببلده لعنه الله وفيها توفي عبد الله بن عباس ترجمان القرآن رضي الله عنه وفيها توفي حُميد بن ثور الهلالي الشاعر المشهور وهو من فحول الشعراء .

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وستين

وفيها كان مقتل عمرو بن سعيد الأشدق قتله عبد الملك بن مروان بعد أن قال له : ارجع إلى بيعتك ولك علي عهد الله وميثاقه ، وحلف له بالإيمان المؤكدة أنك ولي عهدي من بعدي فانخدع عمرو ثم قتله عبد الملك بن مروان بيده .

* * * *

ثم دخلت سنة سبعين من الهجرة

فيها ثارت الروم واستجاشوا على من بالشام واستضعفوهم لما يرون من الاختلاف الواقع بين عبد الملك ابن مروان وعبد الله بن الزبير فصالح عبد الملك بن مروان ملك الروم وهادنه على أن يدفع إليه عبد الملك في كل جمعة ألف دينار خوفاً منه على الشام .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين

وفيها كان مقتل مصعب بن الزبير ، سار إليه عبد الملك بن مروان في جيش كثيف وعلى الأجناد وجوه البيت الأموي بينما كان رؤوس أجناد مصعب من لا يطمأن إليه . تواجه الجيشان بدير الجاثليق ، وأثخن مصعب بالرمي ، وطعنه زائدة بن قدامة وقتله وحز رأسه عبيد الله بن زياد بن ظبيان التميمي . ولما وضع رأس مصعب بين يدي عبد الملك بكى وقال : والله ما كنت أقدر أن أصبر عليه ساعة واحدة من حبي له حتى دخل السيف بيننا ، ولكن الملك عقيم .

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين

فيها كانت وقعة عظيمة بين المهلب بن أبي صفرة وبين الأزارقة من الخوارج ، وممن توفي في هذه السنة الأحنف بن قيس والأحنف لقبه واسمه الضحاك وجاء في حديث أن الرسول ﷺ دعا له كان أعور أحنف الرجلين دميماً قصيراً كوسجاً - لا شعر على عارضيه - وكان كريماً حليماً لو علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين

فيها كان مقتل عبد الله بن الزبير رضي الله عنه على يد الحجاج بن يوسف الثقفي المبير قبحه الله وأخزاه . دفن بالحجون وذكروا أنه كان يُشتمُّ من عند قبره ريح المسك .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة أربع وسبعين

قال الواقدي : إن الحجاج لما قدم المدينة صعد منبر رسول الله ﷺ فخطب الناس وقال : يا أهل خبيثة ـ يعني طيبة ـ أنتم شر أمة وأخس ، ولولا أن أمير المؤمنين أوصاني بكم لجعلتها مثل جوف حمار ، يا أهل خبيثة ، تمنَّون هل تعوذون إلا بأعواد يابسة ـ يعني المنبر ـ ورمة بالية ، وأشار إلى قبر رسول الله ﷺ ثم نزل . وفي هذه السنة توفي عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة خمس وسبعين

وفيها غزا محمد بن مروان أخو عبد الملك بن مروان وهو والد مروان الحمار ، صائفة الروم . وفيها ولى عبد الملك الحجاج بن يوسف نيابة العراق البصرة والكوفة .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة ست وسبعين

توجه الحارث بن جعونة في ألف وخمسمئة ومثلها مع خالد بن جزء السلمي إلى الخوارج وهم في نحو من مئة نفس وعشرة أنفس ، فقتلوا منهم مقتله عظيمة ، واحتاز شبيب الخارجي وأصحابه ما في معسكرهم ، ثم دخل شبيب الكوفة ومعه زوجته غزالة .

فلما وصل الفل إلى الحجاج جهز جيشاً أربعة آلاف مقاتل إلى شبيب وإن ما معه مئة وستون فارساً وهذا من أعجب العجب .

فقيل له : قد جاءك الجند فأدرك نفسك فخرج الجيش بكماله إلى السبخة لقتاله وبلغه ذلك فلم يبال بهم ثم لبس درعه وتقلد سيفين وأخذ عمود حديد ثم قال : أسرجوا لي البغلة فقال له أخوه مصاد : أفي هذا اليوم تركب البغلة وقد أحاط بك الأعداء من كل جانب ؟ قال : نعم فركبها ثم تقدم إلى أمير الجيش الذي تقدموا إليه فضربه بالعمود الحديد فقتله وهو سعيد بن المجالد ، وحمل على الجيش الكثيف فصرع أميره وهرب الناس بين يديه ودخل الكوفة وكان معه امرأته غزالة وكانت معروفة بالشجاعة .

فجهز الحجاج في إثره ستة آلاف مقاتل فساروا وراءه فجعل شبيب يكر عليهم ويقتل منهم حتى قتل من جيش

الحجاج خلقاً كثيراً وقتل جماعة من الأمراء واستفحل أمر شبيب وتزلزل له عبد الملك بن مروان والحجاج وخاف منه عبد الملك خوفاً شديداً .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وسبعين

فيها أخرج الحجاج مقاتلة أهل الكوفة وكانوا أربعين ألفاً وانضاف إليهم عشرة آلاف وأمرهم أن يقصدوا لشبيب ومعه ألف رجل .

ولما بلغ شبيباً ما بعث به الحجاج إليه من الجنود لم يعبأ بهم ، فالتقيا في آخر النهار عند غروب الشمس ، انتظر شبيب حتى طلع القمر وأضاء ثم حمل على أصحاب رايات عتاب وهو يقول : أنا شبيب أبو المدله فهزمهم وقتل أميرهم قبيصة بن والق وجماعة من الأمراء معه ثم كر على الميمنة وعلى الميسرة ففرق شمل كل واحد منهما ثم قصد القلب فما زال حتى قتل الأمير عتاب بين ورقاء وولى عامة الجيش مدبرين .

ثم غرق شبيب ولما نعي إلى أمه قالت : صدقتم إذ كنت رأيت في المنام وأنا حامل به أنه قد خرج مني شهاب من نار ، فعلمت أنه لا يطفئه إلا الماء .

ذكر القاضي ابن خلكان أن أمه قتلت أيضاً وزوجته غزالة وكانت شديدة البأس خارجية وكان الحجاج مع هيبته يخاف منها أشد خوف حتى قال فيه بعض الشعراء :

أسـد علـي وفي الحـروب نعامـة
فتخـاء تنفـر مـن صـفير الـصافر
هلابـرزت إلى غزالـة في الـوغى
بـل كـان قلبـك في جنـاحي طـائر

وكان شبيب يتسمى بأمير المؤمنين ، ولولا أن الله تعالى قهره بما قهره من الغرق لنال الخلافة ولما قدر عليه أحد .

وقد أمسك رجل من أصحابه فحمل إلى عبد الملك بن مروان فقال : ألست القائل :

فـإن يـك مـنكم كـان مـروان وابنـه
وعمـرو ومـنكم هاشـم وحبيـب
فمنـا حـصين والـبطين وقعنـب
ومنـا أمـيرُ المـؤمنين شـبيب

فقال : إنما قلت : ومنا أميرَ المؤمنين شبيب فأعجبه اعتذاره وأطلقه .

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين

وفيها ولى عبد الملك موسى بن نصير غزو بلاد المغرب جميعه فسار إلى طنجة وقدم على مقدمته طارق بن زياد .

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وسبعين

ففيها وقع طاعون عظيم بالشام حتى كادوا يفنون من شدته ، ولم يغز أحد من أهل الشام لضعفهم وقلتهم ووصلت الروم فيها إلى أنطاكية فأصابوا خلقاً كثيراً من أهلها لعلمهم بضعف الجنود والمقاتلة . وفي هذه السنة قتل قطري بن الفجاءة الخارجي وكان من الشجعان المشاهير .

* * * *

ثم دخلت سنة ثمانين من الهجرة النبوية

فيها كان السيل الجحاف بمكة لأنه جحف على كل شيء مر به وحمل الحجاج من بطن مكة والجمال عليها والرجال والنساء لا يستطيع أحد أن ينقذهن منه وبلغ الماء إلى الحجون وغرق خلق كثير وقيل : إنه ارتفع حتى كاد يغطي البيت والله أعلم .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين

وفيها خرج ابن الأشعث على الحجاج ثم خلع الحجاج وعبد الملك بن مروان وجعل الناس يلتفون حوله من كل جانب حتى بلغوا ثلاثة وثلاثين ألف فارس ومئة وعشرين ألف راجل وخرج الحجاج في جنود الشام من البصرة نحو ابن الأشعث فانتهوا إلى دجيل فإذا مقدمة ابن الأشعث في

ثلاثمئة فارس فالتقوا في يوم الأضحى عند نهر دجيل فهزمت مقدمة الحجاج وقتل أصحاب ابن الأشعث منهم نحواً من ألف وخمسمئة واحتازوا ما في معسكرهم من خيول وأموال وجاء الخبر الحجاج بهزيمة أصحابه فقال : أيها الناس ارجعوا إلى البصرة .

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين

ففي المحرم منها كانت وقعة الزاوية بين ابن الأشعث والحجاج في آخره ، وكان أول يوم لأهل العراق على أهل الشام ثم تواقعوا يوماً فكان لأهل الشام على أهل العراق .

ثم كانت وقعة دير الجماجم :

وكانت جملة من اجتمع مع ابن الاشعث مئة ألف مقاتل ممن يأخذون العطاء ومعهم مثلهم من مواليهم وخندق كل فريق على نفسه فكان يبرز بعضهم لبعض في كل يوم فيقتتلون قتالاً شديداً .

وفي هذه السنة توفي المهلب بن أبي صفرة . وتوفي في هذه السنة جميل بن معمر صاحب بثينة كان قد خطبها فمنعت منه ، فتغزل بها واشتهر بها وكان أحد عشاق العرب . كانت إقامته بوادي القرى وما حولها وكان عفيفاً صيناً ديناً ، شاعراً إسلامياً من أفصح الشعراء في زمانه .

وكـان كثيِّـر عـزة راويتـه وهـو يـروي عـن هدبـة ابن خشرم عن الحطيئة عن زهير بن أبي سلمى وابنه كعب، كان كثير يقول : كان جميل أشعر العرب حيث يقول :

وخبرتمـــاني أن تيمـــاء منـــزل
لليلـى إذا مـا الـصيف ألقـى المراسـيا
فهـذي شـهور الـصيف عنـا قـد انقـضت
فمـا للنـوى ترمـي بليلـى المراميـا ؟

وكانت وفاته بمصر ، لأنه كان قدم على عبد العزيز ابن مروان فأكرمه واستنشده من أشعاره ومدائحه فأنشده فوعده أن يجمع بينه وبين بثينة فعاجلته المنية رحمه الله آمين .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين

استهلت هـذه السنة والنـاس متواقفون لقتـال الحجـاج وأصحابه بدير قرة وابن الأشعث وأصحابه بدير الجماجم والمبارزة في كل يوم بينهم واقعة ، وفي غالب الأيام تكـون لأهل العراق على أهل الشام ثم حمل الحجاج على كتيبة القراء وما انفك حتى قتل منهم خلقاً كثيراً فانهزم أصحاب ابن الأشعث وذهبوا في كل وجه وانصرف ابن الأشعث إلى صاحبه رتبيل . وفي هـذه السنة بنـى الحجاج مدينة واسط وفيها كانت غزوة عطاء بن رافع صقلية .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وثمانين

وفيها كتب الحجاج إلى رتبيل ملك الترك الذي لجأ إليه عبد الرحمن بن الأشعث يقول : لئن لم تبعث إلي بابن الأشعث لأبعثن إلى بلادك ألف ألف مقاتل ولأخربنها . والمشهور أن رتبيل قبض عليه وعلى ثلاثين من أقربائه فقيدهم في الأصفاد وبعث بهم إلى الحجاج وفي بعض الطريق صعد ابن الأشعث ومعه رجل موكل به لئلا يفر منه وألقى بنفسه من ذلك القصر وسقط معه الموكل به فماتا جميعاً . فاحتز رأس ابن الأشعث وبعث به وبرؤوس من معه إلى الحجاج ، فأمر فطيف برأسه في العراق والشام ومصر .

والعجب كل العجب من هؤلاء الذين بايعوه بالإمارة وهو ليس من قريش ، إنما هو كندي من اليمن ، وقد أجمع الصحابة يوم السقيفة على أن الإمارة لا تكون إلا في قريش واحتج عليهم الصديق بالحديث في ذلك .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس وثمانين

وفيها بايع عبد الملك من بعده لولده الوليد ثم من بعده لأخيه سليمان بن عبد الملك ، بايع له في سائر الأقاليم .

ولما انتهت البيعة إلى المدينة امتنع سعيد بن المسيب أن يبايع في حياة عبد الملك لأحد فأمر به هشام بن إسماعيل نائب المدينة فضرب ستين سوطاً .

ثم دخلت سنة ست وثمانين

وفيها كان طاعون بالشام والبصرة وواسط ويسمى طاعون الفتيات ، وفي هذه السنة مات عبد الملك بن مروان . وبويع الوليد ويقال : إنه لا تعرف له صبوة وكان لحاناً وهو الذي بنى جامع دمشق في مدة عشر سنين فلما انتهى بناؤه انتهت أيام خلافته .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وثمانين

وفيها عزل الوليد هشام بن إسماعيل عن إمرة المدينة وولى عليها ابن عمه وزوج أخته ـ فاطمة بنت عبد الملك ـ عمر بن عبد العزيز .

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين

فيها أمر الوليد بهدم المسجد النبوي وإضافة حجر أزواج رسول الله ﷺ فيه وأن يوسعه من قبلته وسائر نواحيه حتى يكون مئتي ذراع في مئتي ذراع .

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وثمانين

فيها غزا مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد بلاد الروم فقتلا خلقاً كثيراً وفتحا عمورية وهرقلة وقمودية وغنما شيئاً وأسرا جماً غفيراً .

ثم دخلت سنة تسعين من الهجرة

وفيها قتل محمد بن القاسم الثقفي ملك السند داهر ابن حصه .

وفيها توفي محمد بن يوسف الثقفي أخو الحجاج وكان أميراً على اليمن وكان يلعن علياً على المنابر وقيل : إنه أمر حجراً المدري أن يلعن علياً فقال : بل لعن الله من يلعن علياً ولعنة الله على من لعنه الله .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين

وفيها غزا مسلمة بلاد الترك حتى بلغ الباب من ناحية أذربيجان ، وكان الوليد قد عزل عمه محمد بن مروان وولاهما أخاه مسلمة بن عبد الملك .

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين

وفيها غزا طارق بن زياد مولى موسى بن نصير بلاد الأندلس في اثني عشر ألفاً فخرج إليها لذريق في جحافله فقاتله طارق فهزمه وغنم ما في معسكره .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين

وفيها فتح قتيبة سمرقند واستخلف عليها أخاه عبدالله بن مسلم وقال له : لاتدعن مشركاً يدخل باب سمرقند إلا مختوم اليد ، ثم لا تدعنه بها إلا بمقدار ما تجف طينة ختمه فإن جفت وهو بها فاقتله ، ومن رأيته منهم ومعه حديدة أو سكينة فاقتله بها ، وإذا أغلقت الباب فوجدت بها أحداً منهم فاقتله . فقال في ذلك كعب الأشقري :

كل يوم يحوي قتيبة نهباً
ويزيد الأموال مالاً جديدا
باهلي قد ألبس التاج حتى
شاب منه مفارق كن سودا
دوخ الصغد بالكتائب حتى
ترك الصغد بالعراء قعودا

وفي هذه السنة عزل موسى بن نصير مولاه طارقاً عن الأندلس ، وكان قد بعثه إلى مدينة طليطلة ففتحها فوجد فيها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام وفيها من الذهب والجواهر شيء كثير جداً فبعثوا بها إلى الوليد بن عبد الملك فما وصلت إليه حتى مات .

وفيها توفي أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ وصاحبه ، سكن البصرة وناله من الحجاج أذى وختمه

الحجاج في عنقه ((هذا عتيق الحجاج)) وقد شكاه أنس رضي الله عنه إلى عبد الملك بن مروان فكتب يعنفه ففزع الحجاج من ذلك وصالح أنساً رضي الله عنه وأرضاه . وفيها توفي الشاعر عمر بن أبي ربيعة ، يقال : إنه ولد يوم مقتل عمر ابن الخطاب ، وختن يوم مقتل عثمان ، وتزوج يوم مقتل علي فالله أعلم . وكان مشهوراً بالغزل كان يتغزل بامرأة يقال لها : الثريا بنت علي بن عبد الله الأموية وقد تزوجها سهل بن عبد الرحمن بن عوف فقال في ذلك عمر بن أبي ربيعة :

أيها المنكح الثريا سهيلاً
عمرك الله كيف يلتقيان ؟
هي شامية إذا ما استقلت
وسهيل إذا استقل يماني

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وتسعين

وفيها افتتح القاسم بن محمد الثقفي أرض الهند وغنم أموالاً لا تعد وفيها غزا قتيبة فرغانة حتى بلغ خجنده وكابل حتى قال الشاعر يمدحه :

فسل الفوارس في خجنـ
ـدة تحت مرهفة العوالي
هل كنت أجمعهم إذا
هزموا وأقدم في قتالي

أم كنـــت أضــــرب هامـــــة الــــــ
ـــــعاني وأصـــــبر للنـــــزال
هـــــذا وأنـــــت قريـــــع قيـــــ
ـــــس كلـــها ضـــخم النـــوال
وفـــــضلت قيـــــساً في النــــــدى
وأبـــــوك في الحجـــــج الخـــــوالي
ولقـــــد تـــــبين عـــــدل حكمـــــ
ـــــمك فـــيهم في كــــل مــــال

وفي هـذه السنة قتـل الحجـاج سـعيد بـن جـبير فلمـا ضربت عنقـه التبس الحجـاج في عقلـه ولم يسلط علـى أحـد بعده ، وكان يقال لهذه السنة سنة الفقهاء لأنـه مـات فيهـا عامة فقهاء المدينة وأولها علي بن الحسين زين العابدين .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس وتسعين

وفيها مات الحجاج وهـو المبير الـذي ذكـر رسـول الله ﷺ . ومـن الطامـات مـا رواه بزيـع بـن خالـد الـضبي قـال : سمعت الحجاج يخطب فقال في خطبته : رسـول أحـدكم في حاجتــه ، أكــرم عليــه أم خليفتــه في أهلــه ؟ فقلــت في نفسي : لله علي أن لا أصلي خلفك صلاة أبداً ، وإن وجـدت قومـاً يجاهـدونك لأجاهـدنك معهـم ، فقاتـل في الجمـاجم حتى قتل .

فإن صح هذا عنه فظاهره كفر ، وإن أراد تفضيل منصب الخلافة على الرسالة أو أراد أن الخليفة من بني أمية أفضل من الرسول ﷺ.

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة ست وتسعين

وفيها مات الوليد باني جامع دمشق وبويع بالخلافة لأخيه سليمان بن عبد الملك وفيها قتل سليمان قتيبة بن مسلم الباهلي ، لأن الوليد قد عزم قبل موته على خلع سليمان أخيه وأن يجعل ولاية العهد من بعده لولده عبد العزيز وكان قتيبة بن مسلم طاوعه في ذلك فلم ينتظم ذلك له حتى مات .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة سبع وتسعين

وفيها توفي الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب قيل : إن الوليد بن عبد الملك كتب إلى عامله بالمدينة : إن الحسن بن الحسن كاتب أهل العراق فإذا جاءك كتابي هذا فاجلده مئة ضربة وقفه للناس ، ولا أراني إلا قاتله . فأرسل خلفه . فعلمه علي بن الحسين كلمات الكرب وهي ((لا إله إلا الله الحكيم الكريم ، لا إله إلا الله العلي العظيم ، لا إله إلا الله رب السماوات السبع ورب الأرض رب العرش العظيم)) فنجاه الله منهم .

توفي بالمدينة . وتوفي أيضاً هذه السنة موسى بن نصير ويقال : إنه كان أعرج ، وكان ذا رأي وتدبير وحزم وخبرة بالحرب وقال : لو انقاد الناس لي حتى أفتتح بهم مدينة رومية . مات بالمدينة .

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين

في هذه السنة بعث سليمان أخاه مسلمة لغزو القسطنطينية وراء الجيش الذين هم بها ، وفي هذه السنة بايع سليمان لابن عمه عمر بن عبد العزيز أن يكون خليفة من بعده .

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وتسعين

فيها كانت وفاة سليمان بن عبد الملك روى أبو بكر الصولي : أن عبد الملك جمع بنيه الوليد وسليمان ومسلمة بين يديه ، فاستقرأهم القرآن فأجادوا القراءة ، ثم استنشدهم الشعر فأجادوا ، غير أنهم لم يكملوا أو يحكموا شعر الأعشى ، فلامهم على ذلك ، ثم قال : لينشدني كل رجل منكم أرق بيت قالته العرب ولا يفحش، هات يا وليد : فقال الوليد :

مـا مركـب ، وركـوب الخيـل يعجـبني

كمركـــب بـــين دملـــوج وخلخـــال

فقـال عبـد الملك : وهـل يكـون مـن الـشعر أرفـث مـن هـذا ؟ هـات يا سليمان فقال :

حبـــذا رجعهـــا يـــديها إليهـــا

في يـــدي درعهـــا تحـــل الإزارا

فقـال : لم تصب . هـات يا مسلمة فأنشد قـول امـرئ القيس :

ومـــا ذرفـــت عينـــاك إلا لتـــضربي

بـــسهميك في أعـــشار قلـــب مقتـــل

فقـال : كـذب امـرؤ القـيس ولم يـصب إذا ذرفـت عيناهـا بالوجـد فمـا بقـي إلا اللقـاء وإنمـا ينبغـي للعاشـق أن يقتضي منها الجفاء ويكسوها المودة ثم قال : أنا مؤجلكم في هـذا البيـت ثلاثـة أيـام فمـن أتـاني بـه فلـه حكمـه ــ أي مهما طلب أعطيته ـ فنهضوا من عنده ، فبينمـا سليمان في موكب إذا هو بأعرابي يسوق إبله وهو يقول :

لـــوحز بالـــسيف راســـي في مودتهـــا

لمـــال يهـــوي ســـريعاً نحوهـــا راســـي

فأمر سليمان الأعرابي فاعتقل ثم جاء إلى أبيه فقال : قد جئتك بما سألت فقال : هات .

فأنشده البيت فقال : أحسنت . وأنى لك هذا ؟ فأخبره خبر الأعرابي . فقال : سل حاجتك ولا تنس صاحبك. فقال : يا أمير المؤمنين إنك قد عهدت بالأمر من بعدك للوليد وإني أحب أن أكون ولي العهد من بعده ، فأجابه إلى ذلك وأطلق له مئة ألف درهم فأعطاها سليمان لذلك الأعرابي ، ثم صار الأمر من بعده إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

استهل عمر حكمه بأن أمر برجوع الجيش الذي يحاصر القسطنطينية وقد فشا فيهم المرض . ففرح الناس بذلك ورد المظالم إلى أهلها .

* * * *

ثم دخلت سنة مئة من الهجرة

قال رسول الله كما جاء في الصحيحين : ((. . وإنما رخاء هذه الأمة وفرجها بعد المئة)) . وفيها توفي عبد الملك ابن عمر بن عبد العزيز .

وفي هذه السنة كان بدوُّ دعوة بني العباس .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى ومئة

ولم يزل المرض يتزايد بعمر بن عبد العزيز حتى مات وهو بخناصرة من دير سمعان بين حماة وحلب . وقيل : سبب

وفاته أن مولى له سمه في طعام أو شراب . قال الراوي : رأينا بعض أولاد عمر بن عبد العزيز يحمل على ثمانين فرساً في سبيل الله ، وكان بعض أولاد سليمان بن عبد الملك يسأل من أولاد عمر بن عبد العزيز .

وتولى الخلافة بعده يزيد بن عبد الملك وفيها كانت وقعة بين الخواج وهم أصحاب بسطام الخارجي وبين جند الكوفة ، وكانت الخوارج جماعة قليلة ، وكان جيش الكوفة نحواً من عشرة آلاف فارس فكادت الخوارج تكسرهم فتذامروا فيما بينهم فطحنوا الخوارج طحناً عظيماً وقتلوهم .

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين ومئة

وفي هذه السنة قتل يزيد بن المهلب ، هزمه جند الشام وقتلوه .

وفيها توفي عدي بن أرطاة نائب عمر بن عبد العزيز على البصرة .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث ومئة

وفيها توفي عطاء بن يسار . ومات مجاهد وهو ساجد .

وفيها تولى سعيد بن عمرو الحرشي إمرة خراسان وكان سعيد هذا من الأبطال المشهورين خافه الترك خوفاً شديداً وتقهقروا من بلاد الصغد إلى ما وراء ذلك من بلاد الصين .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع ومئة

وفي هذه السنة ولد أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو الملقب بالسفاح أول خلفاء بني العباس ، وقد بايع أباه في الباطن جماعة من أهل العراق .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس ومئة

وفيها توفي يزيد بن عبد الملك بن مروان بأريد من أرض البلقاء . وكان يزيد هذا عزم على أن يتأسى بعمر بن عبد العزيز فما تركه قرناء السوء ، وكان يحب حظية من حظاياه يقال لها حبابة ، فبينما هو في بستان القصر إذ رماها بحبة رمان أو عنبة في فمها وهي تضحك فشرقت بها فماتت ، فلما دفنها بعد أن جيفت أقام أياماً على قبرها هائماً ثم رجع فما خرج من منزله حتى خرج نعشه وكان مرضه بالسل .

وبويع بعده بالخلافة لهشام بن عبد الملك بن مروان وفيها قوي أمر دعوى بني العباس في السر بأرض العراق وحصل لدعاتهم أموال جزيلة .

ثم دخلت سنة ست ومئة

وفيها توفي سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أحد الفقهاء . وطاوس بن كيسان اليماني من أكبر أصحاب ابن عباس .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة سبع ومئة

وفيها ظفر أسد بن عبد الله القسري بجماعة من دعاة بني العباس بخراسان فصلبهم وأشهرهم .
وفيها توفي كثير عزة الشاعر المشهور .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة ثمان ومئة

وفيها غزا أسد بن عبد الله القسري أمير خراسان فكسر الأتراك كسرة فاضحة .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة تسع ومئة

وفيها عزل هشام أسد بن عبد الله القسري عن إمرة خراسان .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة عشر ومئة

وفيها توفي جرير الشاعر ، دخل على عبد الملك بن مروان مع وفد أهل العراق من جهة الحجاج فأنشده مديحه الذي يقول فيه :

ألستم خير من ركب المطايا
وأندى العالمين بطون راح

فأطلق له مئة ناقة . وكان في عصره من الشعراء الذي يقارنون ؛ الفرزدق والاخطل وكان جرير أشعرهم وأخيرهم .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة إحدى عشرة ومئة

وفيها غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى وغزا سعيد ابن هشام الصائفة اليمنى حتى بلغ قيسارية من بلاد الروم.

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة ثنتي عشرة ومئة

وفيها توفي رجاء بن حيوة ، وهو تابعي جليل ، وفيها غزا معاوية بن هشام الصائفة ، وفيها لحق سعيد بن عمر الحرشي الترك وهم يسيرون بأسارى المسلمين فاستنقذهم منهم وقتل في الترك مقتلة عظيمة جداً وأسر منهم خلقاً كثيراً .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومئة

وفيها صار جماعة من دعاة بني العباس إلى خراسان، وانتشروا فيها وقد أخذ أميرها رجلاً منهم فقتله وتوعد غيره بمثل ذلك .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع عشرة ومئة

فيها التقى عبد الله البطال وملك الروم المسمى فيهم قسطنطين وهو ابن هرقل الأول الذي كتب إليه النبي ﷺ فأسره البطال وأرسله إلى سليمان بن هشام فسار به إلى أبيه .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس عشرة ومئة

وفيها وقع طاعون بالشام وممن توفي فيها أبو جعفر الباقر وهو محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

* * * *

ثم دخلت سنة ست عشرة ومئة

وفيها توفي الجنيد بن عبد الرحمن المري أمير خراسان من مرض أصابه في بطنه وقد قال فيه أبو الجويرية عيسى بن عقبة يرثيه :

هلــــك الجــــود والجنيـــــد جميعـــــاً
فعلـــى الجـــود والجنيـــــد الـــــسلام
أصــــبحا ثـــــاوين في بطـــــن مـــــروٍ
مـــا تغنـــى علـــى الغـــصون الحمـــام
كنتمـــــا نزهـــــة الكـــــرام فلمـــــا
مـــت مـــات النـــدى ومـــات الكـــرام

* * * *

ثم دخلت سنة سبع عشرة ومئة

وفيها توفي ذو الرمة الشاعر واسمة غيلان بن عقبة أحد فحول الشعراء ، كان يتغزل في مية بنت مقاتل وكانت جميلة وهو دميم الخلق أسود اللون ولم يكن رآها قط ولا رأته وإنما كان يسمع بها وتسمع به ويقال : إنها كانت تنذر إن هي رأته أن تذبح جزوراً فلما رأته قالت : واسوأتاه .

* * * *

ثم دخلت سنة ثماني عشرة ومئة

وفيها توفي علي بن عبد الله بن عباس كانت وفاته بالحميمة من أرض البلقاء وقد ذكر ابن خلكان أنه تزوج لبابة بنت عبد الله بن جعفر وكانت تحت عبد الملك بن مروان وطلقها عبد الملك وكان سبب طلاقها أنه عض

تفاحة ثم رمى بها إليها فأخذت السكين فقطعت من التفاحة ماأمس فمه منها فقال : ولم تفعلين هذا ؟ فقالت : أزيل الأذى عنها ، وذلك لأن عبد الملك كان أبخر - منتن رائحة الفم - فطلقها فلما تزوجها علي بن عبد الله بن عباس نقم عليه الوليد بن عبد الملك فضربه بالسياط وقال: إنما أردت أن تذل بنيها من الخلفاء ، وضربه مرة ثانية لأنه اشتهر عنه أنه قال : إن الخلافة صائرة إلى بنيه .

فوقع الأمر كذلك ، وكان علي في غاية الجمال وتمام القامة ، كان بين الناس كأنه راكب وكان إلى منكب أبيه عبد الله وكان عبد الله إلى منكب أبيه العباس وكان العباس إلى منكب أبيه عبد المطلب ، وقد بايع كثير من الناس لابنه محمد بالخلافة قبل هذه بسنوات ولكن لم يظهر أمره حتى مات ، فقام بالأمر من بعده ولده عبد الله أبو العباس السفاح .

* * * *

ثم دخلت سنة تسع عشرة ومئة

وفيها قتل أسد بن عبد الله القسري ملك الترك الأعظم خاقان .غير أن خاقان كان قد ضرب امرأته بخنجر فقتلها .

* * * *

ثم دخلت سنة عشرين ومئة

وفيها غزا مروان بن محمد الحمار بلاد الترك وفيها كانت وفاة أسد بن عبد الله القسري أمير خراسان .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين ومئة

وفيها غزا مسلمة بن هشام بن عبد الملك الروم فافتتح بها المطامير وغزا مروان بن محمد بلاد صاحب الذهب فافتتح قلاعه وخرب أرضه .

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين ومئة

ففيها كان مقتل زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . وكان سبب ذلك أنه لما أخذ البيعة ممن بايعه من أهل الكوفة أمرهم بالخروج والتأهب له ، واجتمعت الشيعة عند زيد فقالوا له : ما قولك يرحمك الله في أبي بكر وعمر ؟ فقال : غفر الله لهما ، ما سمعت أحداً من أهل بيتي تبرأ منهما وأنا لا أقول فيهما إلا خيراً . قالوا : فلم تطلب إذاً بدم أهل البيت ؟ فقال : إنا كنا أحق الناس بهذا الأمر ، ولكن القوم استأثروا علينا به ودفعوه عنا ولم يبلغ ذلك عندنا بهم الكفر .

وقد وُلّوا فعدلوا وعملوا بالكتاب والسنة قالوا : فلم تقاتل هؤلاء إذاً ؟ قال : إن هؤلاء ليسوا كأولئك ، إن هؤلاء ظلموا الناس وظلموا أنفسهم وإني أدعو إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وإحياء السنن وإماتة البدع فإن تسمعوا يكن خيراً لكم وإن تأبوا فلست عليكم بوكيل . فرفضوا وانصرفوا عنه ونقضوا بيعته وتركوه فلهذا سموا الرافضة من يومئذ ، ومن تابعه من الناس سموا الزيدية ، وغالب أهل الكوفة منهم رافضة وغالب أهل مكة اليوم على مذهب الزيدية ، وكلام زيد فيه ما يلي :

فيه حق وهو تعديل الشيخين وباطل وهو تقديم علي عليهما وليس علي مقدماً عليهما بل ولا على عثمان على أصح قولي أهل السنة والآثار الصحيحة الثابتة .

ثم إن زيداً عزم على الخروج بمن بقي معه من أصحابه فبلغ ذلك يوسف بن عمر ونشب القتال وأصيب زيد بسهم في جبهته فقتله ، فأمر يوسف بن عمر به فصلب وأما جثته فلم تزل تحفظ ليلاً ونهاراً حتى انقضت دولة هشام وقام من بعده الوليد ابن يزيد فأمر به فأنزل وأحرق في أيامه قبح الله الوليد هذا .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومئة

وتوفي في هذه السنة إياس الذكي قال إياس : ما خاصمت أحداً من أهل الأهواء بعقلي كله إلا القدرية قلت لهم :

أخبروني عن الظلم ما هو ؟ قالوا : أخذ الإنسان ما ليس له .

قال : قلت : فإن الله له كل شيء .

وقال سفيان بن حسين : ذكرت رجلاً بسوء عند إياس بن معاوية ، فنظر في وجهي وقال : أغزوت الروم ؟ قلت : لا ، قال : فالسند والهند والترك ؟ قلت : لا ، قال : أفسلم منك الروم والسند والهند والترك ولم يسلم منك أخوك المسلم ؟ قال : فلم أعد بعدها .

وقال مالك عن الزهري : شهد رجل عند إياس فقال له : ما اسمك ؟ فقال : أبو العنقز ـ والعنقز ذكر الحمار ـ فلم يقبل شهادته بسبب كنيته القبيحة هذه .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومئة

وفيها قدم جماعة من دعاة بني العباس من بلاد خراسان قاصدين إلى مكة ، فمروا بالكوفة ، فبلغهم أن في السجن جماعة من الأمراء من نواب خالد بن عبد الله القسري قد حبسهم يوسف بن عمر ، فاجتمعوا له في السجن ، فدعوهم إلى البيعة لبني العباس فقبلوا منهم ، ووجدوا عندهم في السجن أبامسلم الخرساني وهو إذ ذاك غلام يخدم عيسى بن معقل العجلي وكان محبوساً

فأعجبهم شهامته وقوته واستجابته مع مولاه إلى هذا الأمر، فاشتراه بكير بن ماهان منه بأربعمئة درهم وخرجوا به معهم ، فاستدبوه لهذا الأمر فكانوا لا يوجهونه إلى مكان إلا ذهب ونتج ما يوجهونه إليه .

وفيها قتل الجعد بن درهم وهو أول من قال بخلق القرآن وهو الذي ينسب إليه مروان الجعدي وهو مروان الحمار آخر خلفاء بني أمية كان شيخه الجعد بن درهم أصله من حران ، وقد أخذ بدعته عن بيان بن سمعان وأخذها بيان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم الساحر اليهودي لعنه الله وأخذ عن الجعد بن صفوان الخزري ثم قتل الجهم بأصبهان ؛ قتلة نائبها تسلم بن أحوز رحمه الله وجزاه عن المسلمين خيراً .

وأخذ المريسي عن الجهم وأخذ أحمد بن أبي دؤاد عن بشر . وأما الجعد لعنه الله فأقام بدمشق حتى أظهر القول بخلق القرآن فتطلبه بنو أمية فهرب منهم فسكن الكوفة ثم قتله خالد بن عبد الله القسري يوم الأضحى بالكوفة ذلك أن خالداً خطب الناس فقال في خطبته تلك : أيها الناس ، ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم ، ثم نزل فذبحه في أصل المنبر بيده أثابه الله تعالى وتقبل منه .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومئة

وفيها توفي هشام بن عبد الملك بن مروان وتولى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك الفاسق قبحه الله وأبعده .

وفيها توفي محمد بن علي أبو السفاح والمنصور .

وفيها قتل يحيى بن زيد بن علي فكان سائراً في بعض الطريق ومعه سبعون رجلاً ، بعث نصر بن سيار جيشاً فيه عشرة آلاف فكسرهم يحيى بن زيد وقتل أميرهم واستلب منهم أموالاً كثيرة ، ثم جاء جيش آخر فقتلوه واحتزوا رأسه وقتلوا جميع أصحابه رحمهم الله تعالى .

* * * *

ثم دخلت سنة ست وعشرين ومئة

فيها كان مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك قتل لفسقه وزندقته وقيل : إن رأسه لم يزل معلقاً بحائط جامع دمشق الشرقي مما يلي الصحن حتى انقضت دولة بني أمية ثم بويع بالخلافة ليزيد الناقص وفي هذه السنة كانت وفاة يزيد هذا .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومئة

استهلت هذه السنة والخليفة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بوصيته أخيه الناقص إليه ومبايعة الأمراء له

بالملك ثم قتل وصار الملك إلى إبراهيم بن الوليد ثم خلع بمجيء مروان بن محمد الذي بويع بالخلافة ، وفي هذه السنة اجتمعت جماعة من الدعاة إلى بني العباس عند إبراهيم بن محمد الإمام ومعهم أبو مسلم الخراساني ، فدفعوا إليه نفقات كثيرة وأعطوه خمس أموالهم ، ولم ينتظم لهم أمر في هذه السنة لكثرة الشرور المنتشرة والفتن الواقعة بين الناس .



ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ومئة

وفي هذه السنة بعث إبراهيم بن محمد بن علي أبا مسلم إلى خراسان وكتب معه كتاباً إلى شيعتهم بها وقال له : إن استطعت ألا تدع بتلك البلاد لساناً عربياً فافعل ومن بلغ من أبنائهم خمسة أشبار واتهمته فاقتله .

❋ ❋ ❋ ❋

ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومئة

وفيها أول ظهور أبي مسلم الخراساني بخراسان حيث أظهر دعوته بأمر الإمام فدفع أبو مسلم الكتاب إلى سليمان بن بكير وفيه أن أظهر دعوتك ولا تتربص وأمير خراسان نصر بن سيار مشغول بقتال الكرماني وشيبان بن سلمة الحروري .

مقتل الكرماني

ونشبت الحرب بين نصر بن سيار وبين الكرماني ، وهو جديع بن علي الكرماني ، فقتل بينهما من الفريقين خلق كثير ، وجعل أبو مسلم يكاتب كلاً من الطائفتين ، ويستميلهم إليه ، يكتب إلى نصر وإلى الكرماني : إن الإمام قد أوصاني بكم خيراً ، ولست أعدو رأيه فيكم . وكتب إلى بني العباس ، فاستجاب له خلق كثير وجم غفير ، وانتقل أبو مسلم ، فنزل بين خندق نصر بن سيار جديع الكرماني فهابه الفريقان جميعاً .

وكتب نصر بن سيار إلى الخليفة مروان بن محمد بن مروان الملقب بالحمار ، يعلمه بأمر أبي مسلم ، وكثرة من معه ، وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد ، وكتب في كتابه :

أرى خلل الرماد وميض جمر
فأحر بأن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكى
وإن الحرب مبدؤها الكلام
فقلت من التعجب : ليت شعري
أأيقاظ أمية أم نيام ؟

فكتب إليه مروان : الشاهد يرى مالا يرى الغائب . فقال نصر : إن صاحبكم قد أعلمكم أن لا نصرة عنده .

فبعث ابن هبيرة بكتاب نصر إلى مروان ، واتفق في وصوله إليه أن وجدوا رسولاً من جهة إبراهيم بن محمد ، ومعه كتاب منه إلى أبي مسلم ، وهو يشتمه ويسبه ، ويأمره أن يناهض نصر بن سيار والكرماني ، ولا يترك هناك من يحسن الكلام بالعربية . فعند ذلك بعث مروان وهو مقيم بحران إلى نائبه بدمشق ، وهو الوليد بن معاوية بن عبد الملك ، يأمره أن يرسل كتاباً إلى نائبه بالبلقاء ، ويأمره فيه أن يذهب إلى الحميمة البلدة التي فيها إبراهيم بن محمد الملقب بالإمام ، فيقيده ويرسله إليه ، فبعث نائب دمشق إلى نائب البلقاء ، فذهب إلى مسجد البلدة ، فوجد إبراهيم بن محمد جالساً فيه ، فقيده وأرسل به إلى دمشق، فبعثه نائب دمشق من فوره إلى مروان بن محمد أمير المؤمنين ، فأمر به فسجن ، وكان من أمره ما سيأتي في السنة الآتية .

وأما أبو مسلم فإنه لما توسط بين جيش نصر والكرماني ، كاتب الكرماني : إني معك . فمال إليه ، فكتب إليه نصر : ويحك ! لا تغتر ، فإنه إنما يريد قتلك وقتل أصحابك معك ، فهلم حتى نكتب كتاباً بيننا بالموادعة . فدخل الكرماني داره ، ثم خرج إلى الرحبه في مائه فارس ، وبعث إلى نصر أن هلم حتى نتكاتب ، فأبصر نصر غرة من الكرماني ، فنهض إليه في خلق كثير ، فحملوا عليهم فقتلوا منهم جماعة ،

وقتل الكرماني في المعركة ، طعنه رجل في خاصرته ؛ فخر عن دابته ، ثم أمر نصر بصلبه ، فصلب وانضاف ولده إلى أبي مسلم الخراساني ومعه طوائف من الناس من أصحاب أبيه، فصاروا كتفاً واحدة على نصر بن سيار .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة وافى الموسم أبو حمزة الخارجي ، فأظهر التهكم والمخالفة لمروان بن محمد بن مروان ، والتبرؤ منه ، فراسلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان وهو يؤمئذ أمير مكة والمدينة والطائف وإليه أمر الحجيج في هذه السنة ، ثم صالحهم على الأمان إلى يوم النفر ، فلما كان يوم النفر الأول تعجل عبد الواحد وترك مكة ، فدخلها الخارجي بغير قتال ، فقال بعض الشعراء في ذلك :

زار الحجيج عصابة قد خالفوا
دين الإله ففر عبد الواحد
ترك الحلائل والإمارة هارباً
ومضى يخبط كالبعير الشارد
لو كان والده تنصل عرقه
لصفت مشاربه بعرق الوالد

ولما رجع عبد الواحد إلى المدينة شرع في تجهيز السرايا إلى الخارجي ، وبذل النفقات ، وزاد في أعطية الأجناد ، وسيرهم إليه سريعاً .

وكانت إمرة العراق إلى يزيد بن عمر بن هبيرة ، وإمرة خراسان إلى نصر بن سيار ، وكان قد استحوذ على بعض بلاده أبو مسلم الخراساني .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاثين ومئة

في يوم الخميس لتسع خلون من جمادي الأولى منها دخل أبو مسلم الخراساني مدينة مرو ، ونزل دار الإمارة بها وانتزعها من يد نصر بن سيار ، وذلك بمساعدة علي بن الكرماني ، وهرب نصر بن سيار في شرذمة قليلة من الناس نحو من ثلاثة آلاف ، ومعه امرأته المرزبانة ، ثم عجل الهرب حتى لحق بسرخس ، وترك امرأته وراءه ، ونجا بنفسه ، واستفحل أمر أبي مسلم بخراسان جداً ، والتفت عليه الطوائف من الناس ، وجماعة من أحياء العرب .

* * * *

مقتل شيبان بن سلمة الحروري

ولما هرب نصر بن سيار بقي شيبان الحروري ، وكان ممالئاً له على أبي مسلم ، فبعث إليه أبو مسلم رسلاً ، فحبسهم شيبان ، فأرسل أبو مسلم إلى بسام بن إبراهيم مولى بني ليث يأمره أن يركب إلى شيبان فيقاتله ، فسار إليه ، فاقتتلا فهزمه بسام وقتله ، واتبع أصحابه يقتلهم ويأسرهم . ثم قتل أبو مسلم علياً وعثمان ابني الكرماني .

وفي هذه السنة توجه قحطبة بن شبيب إلى نيسابور لقتال نصر بن سيار ، ومع قحطبة جماعة من كبراء الأمراء ، منهم خالد بن برمك وخلق منهم ، فالتقوا مع تميم بن نصر بن سيار ، وقد وجهه أبوه لقتالهم بطوس ، فقتل قحطبة من أصحاب نصر نحواً من سبعة عشر ألفاً في المعركة ، وقد كان أبو مسلم بعث إلى قحطبة مدداً في عشرة آلاف فارس عليهم علي بن معقل ، ولما التقوا قتلوا من أصحاب نصر خلقاً ، وقتلوا تميم بن نصر ، وغنموا أموالاً جزيلة جداً ، ثم إن يزيد بن عمر بن هبيرة نائب مروان على العراق بعث سرية لنصر بن سيار على أبي مسلم، فأرسل أبو مسلم من جهته قحطبة بن شبيب ، فالتقى معهم في مستهل ذي الحجة من هذه السنة بجرجان وذلك يوم الجمعة ، فقام قحطبة في الناس خطيباً ، فحثهم على الجهاد والقتال وذمرهم وأمرهم بالمصابرة ، ووعدهم عن الإمام أنهم ينصرون في هذا اليوم فقاتلوا قتالاً شديداً ، فانهزم جند بني أمية ، وقتل من أهل الشام وغيرهم عشرة آلاف ، منهم أمير المدد نباتة بن حنظلة عامل جرجان ورساتيقها لابن هبيرة فبعث قحطبة برأسه إلى إبي مسلم .

* * * *

دخول أبي حمزة الخارجي المدينة النبوية

قال ابن جرير : وفي هذه السنة كانت وقعة بقديد من أرض الحجاز بين أبي حمزة الخارجي ـ الذي كان

حكم في أيام الموسم ـ وبين أهل المدينة فقتل الخارجي خلقاً كثيراً من قريش وغيرهم ، ثم دخل الخارجي المدينة ، وهرب نائبها عبد الواحد بن سليمان ، فقتل الخارجي من أهلها خلقاً ، وذلك لتسع عشرة ليلة خلت من صفر من هذه السنة ، وقد خطب الخارجي أهل المدينة على المنبر النبوي فوبخهم وأنبهم ، وكان فيما وبخهم به أن قال : يا أهل المدينة ، بلغني أنكم تنتقصون أصحابي ؛ شباب أحداث ، وأعراب جفاة ، ويحكم ! يا أهل المدينة ، وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شباباً أحداثاً ؟! شباب والله مكتهلون في شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أقدامهم ، قد باعوا الله أنفساً تموت بأنفس لا تموت ، قد خالطوا كلالهم بكلالهم ، وقيام ليلهم بصيام نهارهم ، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مروا بآية خوف شهقوا خوفاً من النار ، وإذا مروا بآية شوق شهقوا شوقاً إلى الجنة ، فلما نظروا إلى السيوف قد انتضيت ، وإلى الرماح قد شرعت ، وإلى السهام قد فوّقت، وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت ، استخفوا وعيد الكتيبة لوعيد الله ولم يستخفوا وعيد الله لوعيد الكتيبة، فطوبى لهم وحسن مآب ، فكم من عين في منقار طائر طالما فاضت في جوف الليل من خوف الله تعالى، وكم من يد زالت عن مفصلها طالما اعتمد بها صاحبها في طاعة الله . أقول قولي هذا ، وأستغفر الله من تقصيرنا وما توفيقي إلا الله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

ثم روى المدائني عن العباس ، عن هارون ، عن جده قال : كان أبو حمزة قد أحسن السيرة في أهل المدينة حتى استمال الناس حين سمعوه على منبر رسول الله ﷺ وسمعوه وهو يقول : برح الخلفاء أين مابك يذهب ؟! من زنى فهو كافر، ومن سرق فهو كافر . فأبغضه الناس ، ورجعوا عن محبته. وأقام بالمدينة حتى بعث مروان الحمار عبد الملك ابن محمد بن عطية أحد بني سعد في خيول أهل الشام، أربعة آلاف ، قد انتخبها من جيشه ، وأعطى كل رجل منهم مائة دينار وفرساً عربية وبغلاً لثقله ، وأمره أن يقاتل، ولو لم يلحقه إلا باليمن فليتبعه إليه ، وليقاتل نائب صنعاء عبد الله بن يحيى ، فسار ابن عطية حتى بلغ وادي القرى ، فتلقاه أبو حمزة الخارجي قاصداً مروان ، فاقتتلوا هنالك إلى الليل ، فقالوا : ويحك يابن عطية ! إن الله قد جعل الليل سكناً . فأبى أن يقلع عن القتال ، وما زال يقاتلهم حتى غلبهم وكسرهم ورجع فلّهم إلى المدينة ، فنهض إليهم أهل المدينة فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، ودخل ابن عطية المدينة وقد انهزم جيش أبي حمزة عنها ، فيقال : إنه أقام بها شهراً ، ثم سار إلى مكة وقد استخلف على المدينة ، ثم استخلف على مكة ، وسار إلى اليمن ، فخرج إليه عبد الله بن يحيى من صنعاء ، فاقتتلا فقتل ابن عطية عبد الله ابن يحيى ، وبعث برأسه إلى مروان .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومئة

في المحرم منها وجه قحطبة بن شبيب ولده الحسن إلى قومس لقتال نصر بن سيار ، وأردفه بالأمداد ، فخامر بعضهم إلى نصر ، وارتحل نصر ، فنزل الري ، فأقام بها يومين ، ثم مرض ، فسار منها إلى همذان ، فلما كان بساوة قريباً من همذان توفي لمضي اثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من هذه السنة ، عن خمس وثمانين سنة فلما مات نصر تمكن أبو مسلم الخراساني وأصحابه من بلاد خراسان ، وقويت شوكتهم جداً ، فسار قحطبة من جرجان ، وقدم أمامه زياد بن زرارة القشيري ، وكان قد ندم على اتباع أبي مسلم ، فترك الجيش ، وأخذ جماعة معه ، وسلك طريق أصبهان ليأتي ابن ضبارة ، فبعث قحطبة وراءه جيشاً ، فقتلوا عامة أصحابه ، وأقبل قحطبة وراءه ، فقدم قومس وقد افتتحها ابنه الحسن فأقام بها ، وبعث ابنه بين يديه إلى الري ، ثم ساق وراءه ، فوجده قد افتتحها ، فأقام بها وكتب إلى أبي مسلم بذلك ، وارتحل أبو مسلم من مرو ، فنزل نيسابور ، واستفحل أمره جداً ، وبعث قحطبة بعد دخوله الري بثلاث ، ابنه الحسن بين يديه إلى همذان ، فلما اقترب منها خرج منها مالك بن أدهم وجماعة من أجناد الشام وخراسان ، فنزلوا نهاوند ، فافتتح الحسن همذان ، ثم سار وراءهم إلى نهاوند ،

وبعث إليه أبوه بالمدد وراءه ، فجاء فحاصرهم بها حتى افتتحها .

وفي هذه السنة مات عامر بن ضبارة ، وكان سبب ذلك أن ابن هبيرة كان قد كتب إليه أن يسير إلى قحطبة ، وأمده بالعساكر ، فسار ابن ضبارة حتى التقى مع قحطبة ، وابن ضبارة في مئة وخمسين ألفاً ، وكان يقال له : عسكر العساكر ، وقحطبة في عشرين ألفًا ، فلما تواجه الفريقان رفع قحطبة وأصحابه المصاحف ، ونادى المنادي : يا أهل الشام ، إنا ندعوكم إلى ما في هذا المصحف ، فشتموا المنادي ، وشتموا قحطبة ، فأمر قحطبة أصحابه أن يحملوا عليهم ، فلم يكن بينهم كثير قتال حتى انهزم أصحاب ابن ضبارة ، واتبعهم أصحاب قحطبة ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وقتلوا ابن ضبارة في العسكر وأخذوا من عسكرهم مالا يحد ولا يوصف .

وفيها حاصر قحطبة نهاوند حصاراً شديداً ، حتى سأله أهل الشام الذين بها أن يشغل أهلها حتى يفتحوا له الباب ، ففتحوا الباب ، وأخذوا لهم منه أماناً ، فقال لهم من بها من أهل خراسان : ما فعلتم ؟ فقالوا : أخذنا لنا ولكم أماناً . فخرجوا ظانين أنهم في أمان ، فقال قحطبة للأمراء الذين معه : كل من حصل عنده أسير من الخراسانيين فليضرب عنقه وليأتنا برأسه . ففعلوا ذلك ،

ولم يبق ممن كان هرب من أبي مسلم منهم أحد ، وأطلق الشاميين ، وأوفى لهم عهدهم ، وأخذ عليهم الميثاق أن لا يمالئوا عليه عدواً ، ثم بعث قحطبة عن أمر أبي مسلم أبا عون إلى شهرزور في ثلاثين ألفاً ، فحاصرها حتى افتتحها ، وقتل نائبها عثمان بن سفيان . وقيل : لم يقتل بل تحول إلى الموصل والجزيرة وبعث إلى قحطبة بذلك . ولما بلغ مروان خبر قحطبة وأبي مسلم ، وما وقع من أمرهما ، تحول من حران ، فنزل بمكان يقال له : الزاب الأكبر .

وفيها قصد قحطبة في جيش كثيف نائب العراق يزيد بن عمر بن هبيرة ، فلما اقترب منه تقهقر ابن هبيرة إلى ورائه ، ومازال يتقهقر إلى أن جاوز الفرات ، وجاء قحطبة ، فجازه وراءه وكان من أمرهما ما سنذكره في السنة الآتية إن شاء الله تعالى.

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين ومئة

القضاء على الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية [1]

في المحرم منها جاز قحطبة بن شبيب الفرات ، ومعه الجنود والفرسان ، وابن هبيرة مخيم على فم الفرات مما يلي الفلوجة ، في خلق كثير وجم غفير ، وقد أمده مروان

(١) هذا العنوان من وضعنا .

بجنود كثيرة ، وانضاف إليه كل من انهزم من جيش ابن ضبارة ، ثم إن قحطبة عدل إلى الكوفة ليأخذها ، فاتبعه ابن هبيرة ، فلما كانت ليلة الأربعاء لثمان مضين من المحرم اقتتلوا قتالاً شديداً ، وكثر القتل في الفريقين ، وولى أهل الشام منهزمين ، واتبعهم أهل خراسان ، وفقد قحطبة من الناس ، فأخبرهم رجل أنه قتل ، وأنه أوصى أن يكون أمير الناس من بعده ولده الحسن ، ولم يكن الحسن حاضراً ، فبايعوا حميد بن قحطبة لأخيه الحسن ، وذهب البريد إليه ليحضر ، وقتل في هذه الليلة جماعة من سادات الأمراء ، والذي قتل قحطبة ، معن بن زائدة ، ويحيى بن حضين . وقيل : بل قتله رجل ممن كان معه آخذاً بثأر بني نصر بن سيار . فالله أعلم . ووجد قحطبة في القتلى ، فدفن هنالك ، وسار الحسن بن قحطبة نحو الكوفة ، وقد خرج بها محمد بن خالد بن عبد الله القسري ، ودعا إلى بني العباس وسود ، وكان خروجه ليلة عاشوراء في المحرم من هذه السنة ، وأخرج عاملها من جهة ابن هبيرة ، وهو زياد بن صالح الحارثي ، وتحول محمد بن خالد إلى قصر الإمارة ، فقصده حوثره في عشرين ألفاً من جهة ابن هبيرة ، فلما اقترب حوثرة من الكوفة جعل أصحابه يذهبون إلى محمد بن خالد ، فيبايعونه لبني العباس ، فلما رأى حوثرة ذلك ارتحل إلى واسط . ويقال : بل دخل الحسن بن قحطبة الكوفة ، وكان قحطبة قد

جعل في وصيته أن تكون وزارة الخلافة إلى أبي سلمة حفص بن سليمان مولى السبيع الكوفي الخلال ، وهو بالكوفة ، فلما قدموا عليه أشار أن يذهب الحسن بن قحطبه في جماعة من الأمراء إلى قتال ابن هبيرة بواسط ، وأن يذهب أخوه حميد إلى المدائن ، وبعث البعوث إلى كل جانب من تلك النواحي يفتتحونها ، وفتحوا البصرة ، افتتحها سلم بن قتيبة لابن هبيرة ، فلما قتل ابن هبيرة جاء أبو مالك عبد الله بن أسيد الخزاعي ، فأخذ البصرة لأبي مسلم الخراساني .

وفي هذه السنة ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر منها ، أخذت البيعة لأبي العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الملقب بالسفاح . قاله أبو معشر وهشام بن الكلبي . وقال الواقدي : في جمادى الأولى من هذه السنة كانت خلافة السفاح . فالله أعلم .

* * * *

مقتل إبراهيم بن محمد الإمام

قد ذكرنا في سنة تسع وعشرين ومئة أن مروان اطلع على كتاب من إبراهيم الإمام على أبي مسلم الخراساني ، يأمره فيه بأن لا يبقي أحداً بأرض خراسان ممن يتكلم بالعربية إلا أباده ، فلما وقف مروان على ذلك سأل عن إبراهيم ، فقيل له : هو بالبلقاء . فكتب إلى نائب

دمشق أن يحضره ، وبعث رسولاً في ذلك ومعه صفته ونعته، فذهب الرسول فوجد أخاه أبا العباس السفاح ، فاعتقد أنه هو ، فأخذه فقيل له : إنه ليس هو ، وإنما هو أخوه . فدل على إبراهيم ، فأخذه وذهب معه بأم ولد له يحبها ، وأوصى إلى أهله أن يكون الخليفةَ من بعده أخوه أبو العباس السفاح ، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة ، فارتحلوا من فورهم إليها ، وكانوا جماعة ، منهم أعمامه الستة ، وهم ؛ عبد الله ، وداود ، وعيسى ، وصالح ، وإسماعيل ، وعبد الصمد ، بنو علي ، وأخواه أبو العباس عبد الله ويحي ابنا محمد بن علي ، وابناه محمد وعبد الوهاب ابنا إبراهيم الإمام المسوك ، وخلق سواهم ، فلما دخلوا الكوفة أنزلهم أبو سلمة الخلال دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم في بني أَوْدٍ ، وكتم أمرهم نحواً من أربعين ليلة عن القواد والأمراء ، ثم ارتحل بهم بعد ذلك إلى موضع آخر، حتى فتحت البلاد ثم بويع للسفاح . وأما إبراهيم بن محمد الإمام فإنه سير به إلى أمير المؤمنين في ذلك الزمان مروان بن محمد وهو بحرَّان ، فحبسه كما قدمنا ومازال في السجن إلى هذه السنة ، فمات في صفر منها في السجن، عن ثمان وأربعين سنة . وقيل : إنه غم بمرفقة وضعت على وجهه حتى مات عن إحدى وخمسين سنة ، وصلى عليه رجل يقال له : مهلهل بن صفوان . وقيل : إنه هدم عليه بيت حتى مات.

وقيل : بل سقي لبناً مسموماً فمات . وقيل : إن إبراهيم الإمام شهد الموسم عام إحدى وثلاثين ، واشتهر أمره هنالك ؛ لأنه وقف في أبهة عظيمة ، ونجائب كثيرة ، وحرمة وافرة ، فأنهي أمره إلى مروان ، وقيل له : إن أبا مسلم إنما يدعو الناس إلى هذا ، ويسمونه الخليفة . فبعث إليه في المحرم من سنة ثنتين وثلاثين ، وقتله في صفر من هذه السنة . وهذا أصح مما تقدم . وقيل : إنه إنما أخذ من الكوفة لا من حميمة البلقاء . فالله أعلم .

وقد كان إبراهيم هذا كريماً جواداً ممدحاً ، له فضائل وفواضل ، روى الحديث عن أبيه وجده ، وأبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وعنه أخواه عبد الله أبو العباس السفاح ، وأبو جعفر عبد الله المنصور ، وأبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراساني ، ومالك بن الهيثم. ومن كلامه الحسن قوله : الكامل المروءة من أحرز دينه ووصل رحمه ، واجتنب ما يلام عليه .

* * * *

خلافة أبي العباس السفاح

لما بلغ أهل الكوفة مقتل إبراهيم بن محمد ، أراد أبو سلمة الخلال أن يحول الخلافة إلى آل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فغلبه بقية النقباء والأمراء على

أمره، وأحضروا أبا العباس السفاح، وسلموا عليه بالخلافة، وذلك بالكوفة ، وكان عمره إذ ذاك ستاً وعشرين سنة ، وكان أول من سلم عليه بالخلافة أبو سلمة الخلال ، وذلك ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر من هذه السنة ، فلما كان وقت صلاة الجمعة خرج أبو العباس السفاح على برذون أبلق ، والجنود ملبسة معه ، حتى دخل دار الإمارة ، ثم خرج إلى المسجد ، فصلى بالناس ، ثم صعد المنبر، وبايعه الناس يؤمئذ وهو على المنبر في أعلاه ، وعمه داود بن علي واقف دونه بثلاث درج، وتكلم السفاح، وكان أول ما نطق به أن قال : الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه فكرمه وشرفه وعظمه ، واختاره لنا ، وأيده بنا، وجعلنا أهله وكهفه والقُوَّامَ به والذابين عنه والناصرين له، وألزمنا كلمة التقوى ، وجعلنا أحق بها وأهلها، خصنا برحم رسول الله ﷺ وقرابته واشتقنا من نبعته ، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع ، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً ، يتلى عليهم فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب:٣٣] وقال : ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى:٢٣] وقال : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤] وقال : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾

[الحشر:٧] فأعلمهم الله عز وجل فضلنا، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا ؛ تكرمة لنا ، وفضلة علينا ، والله ذو الفضل العظيم ، وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة فشاهت وجوههم، بم ولم أيها الناس ؟! وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم، وبصرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق ، وأدحض بنا الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً ورفع بنا الخسيسة ، وأتم النقيصة وجمع الفرقة ، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة في دنياهم، وإخواناً على سرر متقابلين في أخراهم، فتح الله ذلك منة ومنحة لمحمد ﷺ ، فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمر من بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم ، فحووا مواريث الأمم، فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها ، وأعطوها أهلها ، وخرجوا خماصاً منها ، ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها وتداولوها ، فجاروا فيها ، واستأثروا بها، وظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه ، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ، ورد علينا حقنا ، وتدارك بنا أمتنا ، وولي نصرنا والقيام بأمرنا ؛ ليمنَّ بنا على الذين استضعفوا في الأرض ، وختم بنا كما افتتح بنا ، وإني لأرجو أن لا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح ، وما توفيقي إلا بالله ، يا أهل الكوفة ، أنتم محل محبتنا ومنزل

مودتنا، وأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا، وقد زدتكم في أعطياتكم مئة درهم، فاستعدوا ، فأنا السفاح الهائج ، والثائر المبير.

وكان به وعك ، فاشتد عليه حتى جلس على المنبر ، ونهض عنه داود فقال : الحمد لله شكراً شكراً شكراً الذي أهلك عدونا ، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا ، أيها الناس الآن انقشعت حنادس الظلمات ، وانكشف غطاؤها ، وأشرقت أرضها وسماؤها ، وطلعت الشمس من مطلعها ، وبزغ القمر من مبزغه ، ورجع الحق إلى نصابه في أهل بيت نبيكم ؛ أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم ، أيها الناس إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لنكثر لجيناً ولا عقياناً ، ولا لنحفر نهراً ، ولا لنبني قصراً ، وإنما أخرجتنا الأنفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبني عمنا ، ولسوء سيرة بني أمية فيكم ، واستذلالهم لكم ، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ، فلكم علينا ذمة الله وذمة رسوله وذمة العباس ، أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل بكتاب الله ، ونسير في العامة منك والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ ، تباً تباً لبني أمية وبني مروان ؛ آثروا العاجلة على الآجلة ، والدار الفانية على الدار الباقية ، فركبوا في الآثام وظلموا في الأنام ، وارتكبوا المحارم ، وغشوا الجرائم ، وجازوا في سيرتهم في العباد وسنتهم في البلاد التي بها ، استلذوا تسربل الأوزار ،

وتجلبب الآصار ، ومرحوا في أعنة المعاصي ، وركضوا في ميادين الغي ؛ جهلاً باستدراج الله ، أمناً لمكر الله ، فأتاهم بأس الله بياتاً وهم نائمون ، فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق ، فبعداً للقوم الظالمين ، وأدالنا الله من مروان ، وقد غره بالله الغرور ، وأرسل لعدو الله في عنانه حتى عثر في فضل خطامه ، أظنَّ عدو الله أن لن نقدر عليه ؟! فنادى حزبه وجمع مكايده ورمى بكتائبه ، فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وعن شماله ممن مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ومحق ضلاله وجعل دائرة السوء به ، وأحيا شرفنا وعزنا ، ورد إلينا حقنا وإرثنا ، أيها الناس ، أن أمير المؤمنين إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة لأنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعه عن استتمام الكلام بعد أن اسحنفر[1] فيه ، شدة الوعك فادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية ، فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان المتبع للسفلة الذين أفسدوا في الأرض بعد صلاحها ، الشاب المتكهل المقتدي بسلفه الأبرار الأخيار الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بمعامل الهدى ومناهج التقى . قال : فعج الناس له بالدعاء ، ثم قال: واعلموا يا أهل الكوفة أنه لم يصعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد ـــ وأشار بيده إلى

(١) اسحنفر الرجل في منطقة : مضى فيه ولم يتمكث .

السفاح ـ واعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى ابن مريم ، عليه السلام والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا . ثم نزل أبو العباس وداود حتى دخلا القصر ، ثم دخل الناس يبايعون إلى العصر ، ثم من بعد العصر إلى الليل . ثم إن أبا العباس خرج فعسكر بظاهر الكوفة ، واستخلف عليها عمه داود بن علي ، وبعث عمه عبد الله بن علي إلى أبي عون بن يزيد ، وبعث ابن أخيه عيسى بن موسى إلى الحسن بن قحطبة ، وهو يؤمئذ بواسط يحاصر ابن هبيرة ، وبعث يحيى بن جعفر بن تمام بن العباس إلى حميد بن قحطبة بالمدائن ، وبعث أبا اليقظان عثمان بن عروة بن محمد بن عمار بن ياسر إلى بسام بن إبراهيم بن بسام بالأهواز ، وبعث سلمة بن عمرو ابن عثمان إلى مالك بن الطواف . وأقام هو بالعسكر أشهراً ، ثم ارتحل فنزل المدينة الهاشمية في قصر الإمارة ، وقد تنكر لأبي سلمة الخلال ، وذلك لما كان بلغه عنه من العدول بالخلافة عن بني العباس إلى آل علي بن أبي طالب . والله سبحانه وتعالى أعلم .

* * * *

مقتل مروان بن محمد بن مروان

آخر خلفاء بني أمية، وتحول الخلافة إلى بني العباس، وذلك من قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي

ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦] قد ذكرنا أن مروان لما بلغه ما جرى بأرض خراسان من أمر أبي مسلم وأتباعه تحول من حران فنزل على نهر قريب من الموصل يقال له : الزاب ، من أرض الجزيرة ، ثم لما بلغه أنَّ السفاح قد بويع له بالكوفة ، والتفت عليه الجنود واجتمع له أمره، اشتد عليه ذلك جداً ، وجمع جنوده فتقدم إليه أبو عون بن يزيد في جيش كثيف ، فنازله على الزاب وجاءته الأمداد من جهة السفاح ثم ندب السفاح الناس من يلي القتال من أهل بيته ، فانتدب عمه عبد الله بن علي ، فقال: سر على بركة الله . فسار في جنود كثيرة ، فقدم على أبي عون ، فتحول له أبو عون عن سرادقه وخلاه له وما فيه ، وجعل عبد الله بن علي على شرطته حياش بن حبيب الطائي ، وعلى حرسه نصير بن المحتفز ، ووجه أبو العباس موسى بن كعب في ثلاثين رجلاً على البريد إلى عبد الله بن علي يحثه على مناجزة مروان والمبادرة إلى قتاله ونزاله ، فتقدم عبد الله بن علي بمن معه حتى واجه جيش مروان ، ونهض مروان في جنوده وأصحابه وتصاف الفريقان في أول النهار ، ويقال : إنه كان مع مروان يؤمئذ مئة ألف وخمسون ألفاً . وقيل : مئة وعشرون ألفاً ، وكان عبد الله ابن علي في عشرين ألفاً . فقال مروان لعبد العزيز بن عمر ابن عبد العزيز : إن زالت الشمس يومئذ ولم يقاتلونا ،

كنا الذين ندفعها إلى عيسى ابن مريم ، وإن قاتلونا قبل الزوال فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم أرسل مروان إلى عبد الله بن علي يسأله عن الموادعة ، فقال عبد الله : كذب ابن زريق ، لا تزول الشمس حتى أوطئه الخيل إن شاء الله . وكان ذلك يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة من هذه السنة ، فقال مروان لأهل الشام : قفوا ، لا تبدؤوهم بقتال. وجعل ينظر إلى الشمس فخالفه الوليد بن معاوية بن مروان - وهو ختن مروان على ابنته - فحمل ، فغضب مروان وشتمه ، فقاتل أهل الميمنة ، فانحاز أبو عون إلى عبد الله بن علي فقال موسى بن كعب لعبد الله بن علي : مر الناس فلينزلوا . فنودي : الأرض . فنزل الناس وأشرعوا الرماح ، وجثوا على الركب وقاتلوهم ، وجعل أهل الشام يتأخرون كأنما يدفعون ، وجعل عبد الله يمشي قدماً وهو يقول : يارب حتى متى نقتل فيك ؟ ونادى : يا أهل خراسان ، يالثارات إبراهيم ، يامحمد ، يامنصور ، واشتد القتال بين الناس جداً ، فأرسل مروان إلى قضاعة يأمرهم بالنزول ، فقالوا : قل لبني سليم فلينزلوا . وأرسل إلى السكاسك أن احملوا . فقالوا : قل لبني عامر فليحملوا . فأرسل إلى السكون أن احملوا . فقالوا : قل لغطفان فليحملوا . فقال لابن هبيرة : لا والله لا أجعل نفسي غرضاً . قال : أما والله لأسوأنك قال: وددت والله أنك قدرت على ذلك .

قالوا : ثم انهزم أهل الشام واتبعهم أهل خراسان في أدبارهم يقتلون ويأسرون ، وكان من غرق من أهل الشام أكثر ممن قتل، وكان في جملة من غرق إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك المخلوع، وقد أمر عبد الله بن علي بعقد الجسر ، واستخراج من هلك من الغرقى وجعل يتلو قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة : ٥٠] وأقام عبد الله بن علي في موضع المعركة سبعة أيام ، وقد قال رجل من ولد سعيد ابن العاص في مروان وفراره يومئذ :

لج الفـــرار بمـــروان فقلـــت لـــه :
عـــاد الظلـــوم ظليمـــاً همـــه الهـــرب
أيـــن الفـــرار وتـــرك الملـــك إذ ذهبـــت
عنـــك الهـــوينى فـــلا ديـــن ولا حـــسب
فراشـــة الحلـــم فرعـــون العقـــاب وإن
تطلـــب نـــداه فكلـــب دونـــه كَلِـــبُ

واحتاز عبد الله ما كان في معسكر مروان من الأموال والأمتعة والحواصل ، ولم يجد فيه امرأة سوى جارية كانت لعبد الله بن مروان ، وكتب إلى أمير المؤمنين أبي العباس السفاح يخبره بما فتح الله عليه من النصر ، وما حصل لهم من الأموال ؛ فصلى السفاح ركعتين شكراً لله عز وجل ، وأطلق لكل من حضر الواقعة خمسمئة ،

ورفع في أرزاقهم إلى ثمانين ، وجعل يتلو قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ ﴾ [البقرة:٢٤٩] .

* * * *

صفة مقتل مروان الحمار

لما انهزم مروان من المعركة سار لا يلوي على أحد ، فأقام عبد الله بن علي في مكان المعركة سبعة أيام ، ثم سار في طلبه بمن معه من الجنود ، وذلك عن أمر السفاح له بذاك ، فلما مر مروان بحران اجتاز بها ، وأخرج أبا محمد السفياني من سجنه ، واستخلف عليها أبان بن يزيد ، وهو ابن أخيه وزوج ابنته ، فلما قدم عبد الله بن علي حران خرج إليه أبان بن يزيد مسوداً ، فأمنه عبد الله بن علي ، وأقره على عمله وهدم الدار التي سجن فيها إبراهيم بن محمد الإمام ، واجتاز مروان بقنسرين قاصداً إلى حمص ، فلما جاءها خرج إليه أهلها بالأسواق ، فأقام بها يومين أو ثلاثة ، ثم شخص منها ، فلما رأوا قلة من معه اتبعوه ؛ طمعاً فيه ، وقالوا : مرعوب منهزم . فأدركوه بواد عند حمص ، فأكمن لهم أميرين ، فلما تلاحقوا بمروان عطف عليهم ، فناشدهم أن يرجعوا ، فأبوا إلا مقاتلته فثار القتال بينهم وثار الكمينان من ورائهم ، فانهزم الحمصيون، وجاء مروان إلى دمشق وعلى نيابتها من جهته زوج ابنته أم الوليد ،

وهو الوليد بن معاوية بن مروان، فتركه بها واجتاز عنها قاصداً إلى الديار المصرية وجعل عبد الله بن علي لا يمر ببلد إلا خرجوا وقد سودوا ، فيبايعونه ويعطيهم الأمان ، ولما وصل إلى قنسرين وصل إليه أخوه عبد الصمد بن علي في أربعة آلاف قد بعثهم السفاح مدداً ، ثم سار عبد الله حتى أتى حمص ، ثم سار منها إلى بعلبك ، وجاء دمشق من ناحية المزة ، فنزل بها يومين ثم جاءه أخوه صالح ابن علي في ثمانية آلاف مدداً من السفاح فنزل صالح بمرج عذراء ، ولما جاء عبد الله بن علي دمشق نزل على الباب الشرقي ، ونزل صالح بن علي على باب الجابية ، ونزل أبو عون باب كيسان ، وبسام على باب الصغير ، وحميد بن قحطبة على باب توما ، وعبد الصمد ويحيى بن صفوان والعباس بن يزيد على باب الفراديس ، فحاصروها أياماً ، ثم افتتحها يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان هذه السنة ، فقتل من أهلها خلقاً كثيراً وأباحها ثلاث ساعات وهدم سورها ، ويقال : إن أهلها لما حاصرهم عبد الله بن علي اختلفوا فيما بينهم ، ما بين عباسي وأموي ، حتى اقتتلوا فقتل بعضهم بعضاً وقتلوا نائبهم ثم سلموا البلد وكان أول من صعد السور من ناحية الباب الشرقي رجل يقال له : عبد الله الطائي . ومن ناحية باب الصغير بسام بن إبراهيم ، ثم أبيحت دمشق ثلاث ساعات حتى قيل : إنه قتل بها في هذه المدة نحواً من خمسين ألفاً .

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبيد الله بن الحسن الأعرج من ولد جعفر بن أبي طالب ، وكان أميراً على خمسة آلاف مع عبد الله بن علي في حصار دمشق ، أنهم أقاموا محاصريها خمسة أشهر ، وقيل : مئة يوم . وقيل : شهراً ونصفاً. وأن البلد كان قد حصنه نائب مروان تحصيناً عظيماً ولكن اختلف أهلها فيما بينهم بسبب اليمانية والمضرية ، وكان ذلك سبب الفتح ، حتى إنهم جعلوا في كل مسجد محرابين للقبلتين ، حتى في المسجد الجامع منبرين وإمامين يخطبان يوم الجمعة على المنبرين ، وهذا من عجيب ما وقع .

وذكر في ترجمة محمد بن سليمان بن عبد الله النوفلي قال : كنت مع عبد الله بن علي أول ما دخل دمشق، دخلها بالسيف ثلاث ساعات من النهار ، وجعل مسجد جامعها سبعين يوماً إصطبلاً لدوابه وجماله ، ثم نبش قبور بني أمية فلم يجد في قبر معاوية إلا خيطاً أسود مثل الهباء ، ونبش قبر عبد الملك بن مروان ، فوجد جمجمة وكان يوجد في القبر العضو بعد العضو ، غير هشام بن عبد الملك فإنه وجده صحيحاً لم يبل منه غير أرنبة أنفه ، فضربه بالسياط وهو ميت وصلبه أياماً ثم أحرقه بالنار ودق رماده ثم ذراه في الريح ، وذلك أن هشاماً كان قد ضرب أخاه محمد بن علي – حين كان قد اتهمه بقتل ولد له صغير – سبعمئه سوط ، ثم نفاه إلى الحميمة بالبلقاء . قال:

ثم تتبع عبد الله بن علي بني أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم فقتل منهم في يوم واحد اثنين وتسعين نفساً عند نهر بالرملة وبسط عليهم الأنطاع ، ومد عليهم سماطاً ، فأكل وهم يختلجون تحته ، وأرسل امرأة هشام بن عبد الملك وهي عبدة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية صاحبة الخال ، مع نفر من الخراسانية إلى البريد ماشية حافية حاسرة فمازالوا يزنون بها ،ثم قتلوها .

وقد استدعي بالأوزاعي ، فأوقف بين يديه ، فقال له: يا أبا عمرو ، ما تقول في هذا الذي صنعنا ؟ فقلت له : لا أدري ، غير أنه حدثني يحيى بن سعيد الأنصاري عن محمد بن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عمر قال : قال رسول الله ﷺ (إنما الأعمال بالنيات) فذكر الحديث . قال الأوزاعي : وانتظرت رأسي يسقط بين رجلي ، ثم أخرجت وبعث إلي بمئة دينار .

وأقام بها عبد الله بن علي خمسة عشر يوماً ثم سار وراء مروان فنزل على نهر الكسوة ، ووجه يحيى بن جعفر الهاشمي نائباً على دمشق ، ثم ارتحل إلى الأردن ، فأتوه وقد سودوا ثم سار إلى بيسان ، ثم سار فنزل مرج الروم ، ثم أتى نهر أبي فطرس ، فوجد مروان قد هرب فدخل الديار المصرية ، وجاءه كتاب السفاح أن وجه صالح بن علي في طلب مروان ، ويقيم هو بالشام نائباً عليها ، فسار صالح في طلب مروان في ذي القعدة من هذه السنة ، ومعه

أبو عون وعامر بن إسماعيل ، فنزل على ساحل البحر وجمع ما هناك من السفن ، وبلغه أن مروان قد نزل الفَرَما ، فجعل يسير على الساحل والسفن تقاد معه في البحر حتى أتى العريش ، ثم سار حتى نزل على النيل ، ثم سار إلى الصعيد ، فعبر مروان النيل ، وقطع الجسر وحرق ما حوله من العلف والطعام ومضى صالح في طلبه ، فالتقى بخيل لمروان فهزمهم ، ثم جعلوا كلما التقوا مع خيل لمروان يهزمونهم ، حتى سألوا بعض من أسروا عن مروان ، فدلوهم عليه وإذا به في كنيسة بوصير ، فوافوه من آخر الليل ، فانهزم من معه من الجند وخرج إليهم مروان في نفر يسير ، فأحاطوا به حتى قتلوه ؛ طعنه رجُل من أهل البصرة يقال له : مغود . ولا يعرفه ، حتى قال رجل : صرع أمير المؤمنين فابتدر إليه رجل من أهل الكوفة كان يبيع الرمان فاحتز رأسه ، فبعث به عامر بن إسماعيل أمير هذه السرية إلى أبي عون ، فبعث به أبو عون إلى صالح بن علي ، فبعث به صالح مع رجل يقال له : خزيمة بن يزيد بن هانىء . كان على شرطته ، إلى أمير المؤمنين السفاح .

وكان مقتل مروان يوم الأحد لثلاث بقين من ذي الحجة ، وقيل : يوم الخميس لست بقين منها سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، فكانت خلافته خمس سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام ، على المشهور ، واختلفوا في سنه يوم قتل ، فقيل : أربعون سنة ، وقيل : ست – وقيل : ثمان – وخمسون

سنة . وقيل : ستون . وقيل : اثنتان – وقيل : ثلاث . وقيل : تسع – وستون سنة . وقيل ثمانون . فالله أعلم .

* * * *

شيء من ترجمة مروان الحمار

وهو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ، القرشي الأموي ، أبو عبد الملك أمير المؤمنين ، آخر خلفاء بني أمية ، وأمه كردية يقال لها : لبابة . وكانت لإبراهيم بن الأشتر النخعي ، أخذها محمد ابن مروان يوم قتله ، فاستولدها مروان هذا ، ويقال : إنها كانت أولاً لمصعب بن الزبير . وقد كانت دار مروان هذا في سوق الأكافين . قاله الحافظ بن عساكر .

بويع له بالخلافة بعد قتل الوليد بن يزيد ، وبعد موت يزيد بن الوليد ، ثم قدم دمشق كما ذكرنا ، وخلع إبراهيم بن الوليد ، واستتب له الأمر في النصف من صفر سنة سبع وعشرين ومئة .

وقال أبو معشر : بويع له بالخلافة في ربيع الأول ، سنة سبع وعشرين ومئة ، وكان يقال له : مروان الجعدي . نسبة إلى رأي الجعد بن درهم ، ويلقب بالحمار ، وهو آخر من ملك من بني أمية ، وكانت خلافته منذ سلم إليه إبراهيم بن الوليد إلى أن بويع للسفاح خمس سنين وشهراً وبقي مروان بعد بيعة السفاح تسعة أشهر .

وكان أبيض مشرباً ، أزرق العينين ، كبير اللحية ، ضخم الهامة ، ربعة ولم يكن يخضب ، ولاه هشام نيابة أذربيجان وأرمينية والجزيرة ، في سنة أربع عشر ومئة ، ففتح بلاداً كثيرة وحصوناً متعددة في سنين كثيرة ، وكان لا يفارق الغزو ، قاتل طوائف من الناس والترك والخزر واللان وغيرهم ، فقهرهم ، وكان شجاعاً بطلاً مقداماً ، حازم الرأي ، ولكن من يخذل الله يخذل .

قال الزبير بن بكار عن عمه مصعب بن عبد الله : كان بنو أمية يرون أنه تذهب منهم الخلافة إذا وليها مَنْ أمه أمة ، فلما وليها مروان بن محمد كانت أمه أمة ، فأخذت الخلافة من يده في سنة ثنتين وثلاثين ومئة ، لأبي العباس السفاح .

وقد قال الحافظ ابن عساكر : أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي الحسن ، نا سهل بن بشر ، نا الخليل هبة الله بن الخليل ، نا عبد الوهاب الكلابي ، حدثنا أبو الجهم أحمد بن الحسين ، نا العباس بن الوليد بن صبح ، ثنا عباس بن نجيح أبو الحارث ، حدثني الهيثم بن حمد ، حدثني راشد بن داود ، عن أبي أسماء ، عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ ((لا تزال الخلافة في بني أمية يتلقفونها تلقف الغلمان الأكرة ، فإذا خرجت منهم فلا خير في عيش)) هكذا أورده ابن عساكر ، وسكت عليه ، وهو

منكر جداً . وقد سأل الرشيد أبا بكر بن عياش من خير الخلفاء ؛ نحن أم بنو أمية ؟ فقال : هم كانوا أنفع للناس ، وأنتم أقوم بالصلاة . فأعطاه ستة آلاف .

قالوا : وقد كان مروان كثير المروءة ، كثير العجب ، يعجبه اللهو والطرب ، ولكنه كان يشتغل عن ذلك بالحرب .

وقال ابن عسكر : قرأت بخط أبي الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الأمير في مجموعة له : كتب مروان ابن محمد إلى جارية له تركها بالرملة عند انزعاجه إلى مصر منهزماً :

وما زال يدعوني إلى الصبر ما أرى
فآبى ويدنيني الذي لك في صدري
وكان عزيزاً أن تبيني وبيننا
حجاب فقد أمسيت مني على عشر
وأنكاهما والله للقلب فاعلمي
إذا زدتُ مثليها فصرتُ على شهر
وأعظم من هذين والله أنني
أخاف بأن لا نلتقي آخر الدهر
سأبكيك لا مستبقياً فيض عبرة
ولا طالباً بالصبر عاقبة الصبر

وقال بعضهم : اجتاز مروان وهو هارب براهب ، فاطلع عليه الراهب ، فسلم عليه ، فقال له ، ياراهب ، هل عندك علم بالزمان ؟ قال : نعم ، عندي من تلونه ألوان . قال : هل تبلغ الدنيا من الإنسان أن تجعله مملوكاً ؟ قال : نعم . قال : كيف ؟ قال تحبها ؟ قال : نعم . قال : فأنت مملكوك لها . قال : فما السبيل في العتق ؟ قال بغضها والتخلي عنها . قال : هذا مالا يكون . قال الراهب : أما تخليها منك فسيكون ، فبادر بالهرب منها قبل أن تبادرك . قال : هل تعرفني ؟ قال : نعم ، أنت ملك العرب مروان ، تقتل في بلاد السودان ، تدفن بلا أكفان ، ولولا أن الموت في طلبك ، لدللتك على موضع هربك .

قال بعض أهل ذلك الزمان : كان يقال : يقتل ع ابن ع ابن ع ابن ع ابن ع ، م ابن م ابن م . يعنون عبد الله بن علي ابن عبد الله بن عباس مروان بن محمد بن مروان .

وقال بعضهم : جلس مروان يوماً وقد أحيط به ، وعلى رأسه خادم له قائم ، فقال مروان يوماً لبعض من يخاطبه : ألا ترى ما نحن فيه ؟ لهفي على أيد ما ذكرت ، ونعم ما شكرت، ودولة ما نصرت فقال له الخادم : يا أمير المؤمنين، من ترك القليل حتى يكثر ، والصغير حتى يكبر ، والخفي حتى يظهر وأخر فعل اليوم لغد حل به أكثر من هذا . فقال مروان : هذا القول أشد علي من

فقد الخلافة . وقد قيل : إن مروان قتل يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة ، سنة ثنتين وثلاثين ومئة ، وقد جاوز الستين ، وبلغ الثمانين . وقيل : إنما عاش أربعين سنة والصحيح الأول ، وهو آخر خلفاء بني أمية .

* * * *

ذكر ماورد في انقضاء دولة بني أمية وابتداء دولة بني العباس من الأخبار النبوية وغيرها

قال العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ((إذا بلغ بنو أبي العاص أربعين رجلاً اتخذوا دين الله دغلاً ، وعباد الله خولاً ، ومال الله دولا)) [1] ورواه الأعمش عن عطية ، عن أبي سعيد مرفوعاً بنحوه وروى ابن لهيعة ، عن أبي قبيل ، عن ابن موهب ، أنه كان عند معاوية ، فدخل عليه مروان بن الحكم ، فكلمه في حاجة فقال : اقض حاجتي فإني لأبو عشرة ، وعم عشرة وأخو عشرة ، فلما أدبر مروان قال معاوية لابن عباس وهو معه على السرير : أما تعلم أن رسول الله ﷺ قال ((إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله بينهم دولاً ، وعباد الله خولاً ، وكتاب الله دغلاً ، فإذا بلغوا سبعة وتسعين وأربعمئة ، كان هلاكهم أسرع

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسندة برقم (١١٣٣٤) .

مـن لـوك تمـرة)) ؟ فقـال ابـن عبـاس : اللـهم نعـم . قـال : وذكـر مـروان حاجـة لـه فـرد مـروان عبـد الملـك إلى معاويـة فكلمـه فيهـا ، فلمـا أدبـر عبـد الملك قـال معاويـة : أنشدك بالله يابن عباس ، أما تعلم أن رسول الله ذكر هـذا فقـال : ((أبو الجبابرة الأربعة)) ؟ فقال ابن عباس : اللهم نعم .

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا القاسم بن الفضل ، ثنا يوسف بن مازن الراسي قال : قام رجل إلى الحسن بن علي بعدما بايع معاوية فقال : يامسود وجود المؤمنين فقال الحسن : لا تؤنبني رحمك الله ، فإن رسول الله رأى بني أمية يخطبون على منبره رجلاً رجلاً ، فساءه ذلك ، فنزلت ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ (الكوثر:١) وهو نهر في الجنة ونزلت ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ (القدر : ١ – ٣) يملكه بنو أمية . قال : فحسبنا ذلك ، فإذا هو كما قال لا يزيد يوماً ولا ينقص . وقد رواه الترمذي ، عن محمود بن غيلان ، عن أبي داود الطيالسي ، ثم قال : غريب لا نعرفه إلا من حديث القاسم بن الفضل ، وهو ثقة ، وثقه يحيى القطان وابن مهدي . قال : وشيخه يوسف بن سعد ، ويقال : يوسف بن مازن . رجل مجهول ، ولا يعرف هذا بهذا اللفظ إلا من هذا الوجه . وأخرجه الحاكم في ((مستدركه)) من حديث القاسم بن الفضل الحُداني ، وقد تكلمت على نكارة

هذا الحديث في ((التفسير)) بكلام مبسط ، ولله الحمد والمنة ، وإنما يتجه أن يكون دولة بني أمية ألف شهر ، إذا أسقط منها أيام عبد الله بن الزبير ، وذلك أن معاوية بويع له مستقلاً بالملك في سنة أربعين ، وهي عام الجماعة حين سلم إليه الحسن بن علي الأمر بعد ستة أشهر من قتل علي، ثم زالت الخلافة عن بني أمية في هذه السنة ، أعني سنة ثنتين وثلاثين ومئة ، وذلك ثنتان وتسعون سنة ، وإذا أسقط منها تسع سنين بقي ثلاث وثمانون سنة ، وهي مقاربة لما ورد في هذا الحديث ، ولكن ليس هذا مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه فسر هذه الآية بهذا ، وإنما هذا من بعض الرواة ، والله أعلم .

وقال علي بن المديني ، عن يحيى بن سعيد عن سفيان الثوري ، عن علي بن زيد ، عن سعيد بن المسيب ، أن رسول الله ﷺ قال ((رأيت بني أمية يصعدون منبري ، فشق ذلك علي)) ، فأنزلت ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴾ فيه ضعف وإرسال .

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة : ثنا يحيى بن معين ، ثنا عبد الله بن نمير ، عن سفيان الثوري ، عن علي بن زيد ، عن سعيد بن المسيب في قوله ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ ﴾ (الإسراء : ٦٠) قال : رأى ناساً من

بني أمية على المنابر ، فساءه ذلك ، فقيل له ، إنما هي دنيا يعطونها . فسري عنه .

وقال أبو جعفر الرازي ، عن الربيع قال : لما أسري برسول الله ﷺ رأى فلاناً ، وهو بعض بني أمية ، على المنبر يخطب الناس ، فشق ذلك عليه ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (الأنبياء : ١١) يقول : هذا الملك فتنة لكم ومتاع إلى حين ،

وقال مالك بن دينار : سمعت أبا الجوزاء يقول : والله ليغيرن الله ملك بني أمية ، كما غير ملك من كان قبلهم، ثم قرأ قوله تعالى ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (آل عمران : ١٤٠) فيه ضعف وإرسال .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني إبراهيم بن سعيد ، ثنا أبو أسامة ثنا عمر بن حمزة ، أخبرني عمر بن سيف ، مولى لعثمان بن عفان ، قال : سمعت سعيد بن المسيب وهو يقول لأبي بكر بن عبد الرحمن ولأبي بكر بن سليمان بن أبي حثمة – وذكروا بني أمية – فقال : لا يكون هلاكهم إلا بينهم . قالوا : كيف ؟ قال : يهلك خلفاؤهم . ويبقى شرارهم، فيتنافسونها ، ثم يكثر الناس عليهم فيهلكونهم .

وقال يعقوب بن سفيان : ثنا أحمد بن محمد الأزرقي، ثنا الزنجي ، عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ((رأيت في النوم بني الحكم – أو بني أبي العاص – ينزون على منبري كما تنزو القردة)) قال : فما رئي رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى توفي .

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي : حدثنا مسلم بن إبراهيم ، ثنا سعيد بن زيد أخو حماد بن زيد ، عن علي بن الحكم البناني ، عن أبي الحسن هو الحمصي عن عمرو بن مروة وكانت له صحبة ، قال : جاء الحكم بن أبي العاص يستأذن على رسول الله ﷺ فعرف كلامه فقال : ((ائذنوا له ، حية أو ولد حية ، عليه لعنة الله وعلى من يخرج من صلبه إلا المؤمنين ، وقليل ماهم ، يشرفون في الدنيا ويوضعون في الآخرة ، ذوو مكر وخديعة ، يطعمون في الدنيا ، ومالهم في الآخرة من خلاق)) .

وقال أبو بكر الخطيب البغدادي : ثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن محمد ، ثنا محمد بن المظفر الحافظ ، ثنا أبو القاسم عامر بن خريم بن محمد بن مروان الدمشقي ، ثنا أحمد بن إبراهيم بن هشام بن ملاس، ثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم بن يزيد مولى أم الحكم بنت عبد العزيز ،أخت عمر بن عبد العزيز ، حدثنا يزيد بن ربيعة ، حدثنا أبو الأشعث الصنعاني ، عن ثوبان قال : كان رسول الله ﷺ نائماً واضعاً رأسه على

فخذ أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فنحب ثم تبسم ، فقالوا : يارسول الله ، رأيناك نحبت ثم تبسمت . فقال : ((رأيت بني مروان يتعاورون على منبري ، فساءني ذلك ، ثم رأيت بني العباس يتعاورون على منبري فسرني ذلك)) .

وقال يعقوب بن سفيان : حدثني محمد بن خالد بن العباس ، ثنا الوليد بن مسلم ، حدثني أبو عبد الله ، عن الوليد بن هشام المعيطي ، عن أبان بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط قال : قدم ابن عباس على معاوية وأنا حاضر ، فأجازه فأحسن جائزته ، ثم قال : ياأبا العباس ، هل تكون لكم دولة ؟ فقال أعفني ياأمير المؤمنين . فقال : لتخبرني . قال : نعم قال : فمن أنصاركم ؟ قال : أهل خراسان، ولبني أمية من بني هاشم نطحات .

وقال المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، سمعت ابن عباس يقول : يكون منا ثلاثة أهل البيت ؛ السفاح ، والمنصور ، والمهدي رواه البيهقي من غير وجه ورواه الأعمش عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً .

وروى ابن أبي خيثمة عن ابن معين عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي معبد عن ابن عباس قال : كما افتتح الله بأولنا فأرجو أن يختمه بنا . وهذا إسناد صحيح إليه وكذلك وقع ويقع إن شاء الله .

وروى البيهقي عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن أبي معاوية عن الأعمش عن عطية عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ ((يخرج رجل من أهل بيتي عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتن يقال له : السفاح . يعطي المال حثياً)) .

وقال عبد الرزاق : حدثنا الثوري عن خالد الحذاء عن أبي قِلابة عن أبي أسماء عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ ((يقتتل عند كنزكم هذه ثلاثة ، كلهم ولد خليفة ، لا تصير إلى واحد منهم ، ثم تقبل الرايات السود من خراسان ، فيقتلونكم مقتلة لم ير مثلها – ثم ذكر شيئاً – فإذا كان فأتوه ولو حبواً على الثلج ، فإنه خليفة الله المهدي)) ، ورواه بعضهم عن ثوبان ، فوقفه ، وهو أشبه والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن غيلان وقتيبة بن سعيد قالا : ثنا رشدين بن سعد ، حدثني يونس بن يزيد عن ابن شهاب عن قبيصة هو ابن ذؤيب عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : ((يخرج من خراسان رايات سود ، لا يردها شيء حتى تنصب بإيلياء)) رواه البيهقي ، وهو ضعيف .

ثم قال من طريق يعقوب بن سفيان : حدثنا محدث ، عن أبي المغيرة عبد القدوس عن ابن عياش عمن حدثه عن كعب الأحبار قال : ((تظهر رايات سود لبني العباس

حتى ينزلوا الشام ويقتل الله على أيديهم كل جبار وعدو لهم)) .

قال إبراهيم بن الحسين بن ديزيل عن ابن أبي أويس عن ابن أبي فُدَيْكٍ عن محمد بن عبد الرحمن العامري عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال للعباس: ((فيكم النبوة وفيكم المملكة)) .

وقال عبد الله بن أحمد عن ابن معين عن عبيد بن أبي قرة عن الليث عن أبي قبيل عن أبي ميسرة مولى العباس قال : سمعت العباس يقول : كنت عند رسول الله ﷺ ذات ليلة فقال : ((انظر هل ترى في السماء من شيء)) ؟ قلت : نعم قال : ((ما ترى ؟)) قلت : الثريا . قال : ((أما إنه سيملك هذه الأمة بعددها من صلبك)) . قال البخاري : عبيد بن أبي قرة لا يتابع على حديثه .

وروى ابن عدي من طريق سويد بن سعيد عن حجاج ابن تميم عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال : مررت برسول الله ﷺ ومعه جبريل ، وأنا أظنه دحية الكلبي ، فقال جبريل لرسول الله ﷺ: إنه لَوسِخ الثياب وسيلبس ولده من بعده السواد . وهذا منكر من هذا الوجه ، ولا شك أن شعار بني العباس كان السواد ، وأخذوا ذلك من دخول رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وعلى رأسه عمامة سوداء ، فتيمنوا بذلك ، وجعلوه شعارهم في الجمع والخطب

والأعياد والمحافل ، وكذلك كان جندهم لابد أن يكون على أحدهم شيء من السواد ، ومن ذلك ما يلبسه الملوك للأمراء حين يخلع عليهم بالإمرة ، لا بد وأن يلبس شيئاً من السواد وهو الشربوش ، وكذلك دخل عبد الله بن علي يوم دخل دمشق وهو لابس السواد فجعل النساء والصبيان يعجبون من لباسه ، وقد خطب بالناس يوم الجمعة وصلى بهم وعليه السواد .

وقد روى الحافظ ابن عساكر عن بعض الخراسانيين قال : لما خطب بالناس عبد الله بن علي بدمشق وتقدم بالناس فصلى ؛ صلى رجل إلى جانبي فقال : الله أكبر ، سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك . ثم قال ، ونظر إلى عبد الله ابن علي : ما أقبح وجهك وأشنع سوادك ! ومازال السواد شعارهم إلى هذا اليوم .

* * * *

ذكر استقلال أبي العباس الملقب بالسفاح . وما اعتمده في أيامه من السيرة الحسنة والعدالة التامة

في هذه السنة خرج على السفاح طوائف ، فمنهم أهل قنسرين بعدما بايعوه على يدي عبد الله بن علي وأقر عليهم أميرهم وهو أبو الورد مجزأة بن الكوثر بن زُفر بن الحارث الكلابي ، وكان من أصحاب مروان وأمرائه فخلع السواد

ولبس البياض ، وحمل أهل البلد على ذلك فوافقوه ، وكان السفاح يومئذ بالحيرة وعبد الله بن علي مشغول بالبلقاء يقاتل بها خبيب بن مرة المري ومن وافقه من أهل البلقاء والبثنية وحوران على خلع السفاح وبيض ، فلما بلغه عن أهل قنسرين مافعلوا صالح حبيب بن مُرَّة وركب نحو قنسرين ، فلما اجتاز بدمشق ابن ربعي الطائي في أربعة آلاف ، فلما جاوز البلد ، وانتهى إلى حمص نهض أهل دمشق مع رجل يقال له : عثمان بن عبد الأعلى بن سراقة فخلعوا السفاح وبيضوا وقاتلوا أبا غانم فهزموه ، وقتلوا جماعة من أصحابه ، وانتهبوا ثقل عبد الله بن علي وحواصله ، ولم يتعرضوا لأهله ، وتفاقم الأمر على عبد الله بن علي ؛ وذلك أن أهل قنسرين تراسلوا مع أهل حمص وتدمُر ، واجتمعوا على أبي محمد السفياني ، وهو أبو محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، فبايعوه عليهم بالخلافة ، وقام معه نحو من أربعين ألفاً فقصدهم عبد الله بن علي ، فالتقوا بمرج الأخرم ، فقدم عبد الله بن علي أخاه عبد الصمد بن علي في عشرة آلاف من الفرسان بين يديه ، فاقتتلوا مع مقدمة السفياني وعليها أبو الورد ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وهزموا عبد الصمد ، وقتل من الفريقين أولوف ، فتقدم إليهم عبد الله بن علي ومعه حميد بن قحطبة بمن معه فاقتتلوا قتالاً شديداً وجعل أصحاب عبد الله يفرون وهو ثابت هو وحميد ، ومازال

حتى هزم أصحاب أبي الورد ، وثبت أبو الورد في خمسمئة من أهل بيته وقومه ، فقتلوا جميعاً ، وهرب أبو محمد السفياني ومن معه ورجعوا إلى الطاعة ، ثم كر راجعاً إلى أهل دمشق ، وقد بلغه ما صنعوا ، فلما دنا منها تفرقوا عنها وهربوا منها ، ولم يكن بينهم وبينه قتال ، فأمنهم ودخلوا في الطاعه وسودوا ؛ موافقة للخليفة ، وكان ذلك شعار السمع والطاعة وأما أبو محمد السفياني فإنه مازال متغيباً مشتتاً من بلد إلى بلد حتى لحق بأرض الحجاز ، فقاتله نائب أبي جعفر المنصور في أيامه فقتله وبعث برأسه وبابنَين له أخذهما أسيرين فأطلقهما أبو جعفر المنصور وخلى سبيلهما .

وقد قيل : إن وقعة أبي محمد السفياني كانت يوم الثلاثاء آخر يوم من ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين ومئة . فالله أعلم .

وممن خلع السفاح أيضاً أهل الجزيرة ؛ حين بلغهم أن أهل قنسرين خلعوا ، وافقوهم وبيضوا ، وركبوا إلى نائب حران من جهة السفاح – وهو موسى بن كعب – وكان في ثلاثة آلاف فارس قد اعتصم بالبلد ، فحاصروهم قريباً من شهرين ، ثم بعث السفاح أخاه أبا جعفر المنصور فيمن كان بواسط مُحاصري ابن هبيرة فمر في مسيره إلى حران بقرقيسياء ، وقد بيضوا ، فغلقوا أبوابها دونه ، ثم مر بالرقة وعليها بكار بن مسلم ، وهم كذلك ، ثم جاء

حـران وعليهـا إسـحاق ومنهـا إلى الرهـا ، وخـرج موسـى بـن كعب فيمن معه من جند حـران ، فتلقـوا أبـا جعفـر ودخلـوا في جيشه ، وقـدم بكـار بـن مـسلم علـى أخيـه إسـحاق بـن مـسلم بالرهـا ، فوجـه إلى جماعـة ربيعـة بـدارا ومـاردين ، ورئيسهم حروري يقـال لـه : بُريكـة فقصد إليهم أبـو جعفـر فقاتلـهم قتـالاً شـديداً فقتـل بريكـة في المعركـة ، وهـرب بكـار إلى أخيـه بالرهـا ، ومـضى في عظـم العـسكر إلى سميـساط ، وأقبـل أبـو جعفـر فحاصـر بكـاراً بالرهـا ، وكتـب الـسفاح إلى عمـه عبـد الله بـن علـي أن يـسير إلى سميساط ، وقد اجتمع على إسحاق بن مسلم ستون ألفاً مـن أهل الجزيرة ، فسار إليهم عبد الله بن علي واجتمع إليه أبو جعفـر المنـصور ، فكـاتبهم إسـحاق ، وطلـب منـهم الأمـان فأجـابوه إلى ذلـك عـن إذن أمـير المـؤمنين الـسفاح ، وولى السفاح أخـاه أبـا جعفـر الجزيـرة وأذربيجـان وأرمينيـة ، فلـم يزل عليها حتى وَليَ الخلافـة بعد أخيـه . ويقـال : إن إسـحاق ابن مسلم العُقيلي إنمـا طلب الأمـان لمـا تحقـق أن مـروان بـن محمد قُتل ، وذلـك بعد مُضي سبعة أشهر وهـو محاصـر ، وقد كـان صاحباً لأبي جعفر المنصور ، فأمنه .

وفي هذه السنة ذهب أبو جعفر المنصور عن أمـر أخيـه السفاح إلى أبي مسلم الخراساني ، وهو أميرهـا ، ليستطلع رأيه في قتل أبـي سـلمة حفـص بـن سليمان الـوزير ، وكـان سبب ذلك أن السفاح سمـر ليلـة مـع أهـل بيتـه فتذاكـروا مـا

كان من أمر أبي سلمة حين كان أراد أن يصرف الخلافة عن بني العباس ، فسأل سائل : هل كان ذلك عن ممالأة أبي مسلم له في ذلك أم لا ؟ فسكت القوم ، فقال السفاح: لئن كان هذا عن رأيه إنا ببعض بلاء ، إلا أن يدفعه الله عنا . قال أبو جعفر : فقال لي أخي : ما ترى ؟ فقلت : الرأي رأيك : ليس أحد أخص بأبي مسلم منك ، فاذهب إليه فاعلم علمه ، فإن كان عن رأيه احتلنا له ، وإن لم يكن عن رأيه طابت أنفسنا . قال أبو جعفر : فخرجت إليه قاصداً على وجل ، فلما وصلت إلى الري إذا كتاب أبي مسلم إلى نائبها يستحثني أيضاً ، وقال لنائبها : لا تدعه يقيم ساعة واحدة ؛ فإن أرضك بها خوارج . فانشرحت لذلك، فلما صرت من مرو على فرسخين ، أتى يتلقاني ومعه الناس ، فلما واجهني ترجَّل وجاء فقبل يدي ، فأمرته فركب ، فلما دخلت مرو نزلت في دار ، فمكث ثلاثاً لا يسألني عن شيء ، فلما كان في اليوم الرابع سألني : ما أقدمك ؟ فأخبرته فقال : أفعَلَه أبو سلمه ؟! أنا أكفيكموه .

فدعا مرَّار بن أنس الضبِّي فقال : اذهب إلى الكوفة فحيث لقيت أبا سلمة فاقتله ، وانتهى في ذلك إلى رأي الإمام . فقدم مرَّار الكوفة الهاشمية ، وكان أبو سلمة يسمر عند السفاح خرج فقتله مرار ، وشاع أن الخوارج قتلوه ، وغلقت البلد ، ثم صلى عليه يحيى بن محمد بن

علي أخو أمير المؤمنين ودفن بالهاشمية ، وكان يقال له : وزير آل محمد . ويقال لأبي مسلم : أمير آل محمد .

ويقال : إنه إنما سار أبو جعفر إلى أبي مسلم بعد مقتل أبي سلمة ، وإن أبا جعفر كان معه ثلاثون رجلاً ، منهم ؛ الحجاج بن أرطأة ، وإسحاق بن الفضل الهاشمي في جماعة من السادات .

ولما رجع أبو جعفر من خراسان قال لأخيه السفاح : لست بخليفة مادام أبو مسلم حياً حتى تقتله . لما رأى من طاعة الجيش والأمراء له ، فقال له السفاح : اكتمها . فسكت .

ولما رجع أبو جعفر من خراسان بعثه أخوه إلى حصر ابن هبيرة بواسط ، فلما اجتاز بالحسن بن قحطبة أخذه معه ، فلما أحيط بابن هبيرة كتب إلى محمد بن عبد الله ابن حسن ليبايع له بالخلافة ، فأبطأ عليه جوابه ، فمال إلى مصالحة أبي جعفر ، فاستأذن أبو جعفر أخاه السفاح في ذلك ، فأذن له في المصالحة فكتب له أبو جعفر كتاباً بالصلح ، فمكث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء أربعة أيام . ثم خرج يزيد بن عمر بن هبيرة إلى أبي جعفر في ألف وثلاثمئة من البهارية ، فلما دنا من سرادق أبي جعفر هم أن يدخل بفرسه فقال الحاجب سلام : انزل أبا خالد . فنزل، وكان حول السرادق عشرة آلاف من أهل خراسان، ثم أذن له في الدخول فقال : أنا ومن معي ؟ قال : لا ، بل أنت

وحدك . فدخل ووضعت له وسادة ، فجلس عليها ، فحادثه ساعة ، ثم خرج من عنده فأتبعه أبو جعفر بصره ، ثم جعل يأتيه يوماً بعد يوم في خمسمئة فارس وثلاثمئة راجل ، فشكوا ذلك إلى أبي جعفر ، فقال أبو جعفر للحاجب : مُره فليأت في حاشية . فكانت يأتي في ثلاثين نفساً ، فقال الحاجب : كأنك تأتي متأهباً ؟ فقال : لو أمرتمونا بالمشي لمشينا إليكم .

ثم كان يأتيه في ثلاثة أنفس . وقد خاطب ابن هبيرة يوماً أبا جعفر فقال له في غُبون كلامه : ياهناه . أو قال : ياأيها المرء . ثم اعتذر إليه بأنه قد سبق لسانه إلى ذلك ، فأعذره .

وقد كان السفاح كتب إلى أبي مسلم يستشيره في مصالحة ابن هبيرة ، فنهاه عن ذلك ، وكان السفاح لا يقطع رأيا دون مراجعة أبي مسلم ، فلما وقع الصلح على يدي أبي جعفر لم يُعجب السفاح ذلك ، وكتب إلى أبي جعفر يأمره بقتله ، فراجعه أبو جعفر مراراً لا يفيد شيئاً ، حتى جاء كتاب السفاح إليه أن اقتله لا محالة ، وأقسم عليه في ذلك . فأرسل إليه أبو جعفر طائفة فدخلوا عليه وعنده ابنه داود ، وفي حجره صبي له صغير ، وحوله مواليه وحاجبه ، فدافع عنه ابنه حتى قُتل خلق من مواليه وخلصوا إليه فألقى الصبي من حجره وخر ساجداً فقتل وهو ساجد واضطرب الناس ، فنادى أبو جعفر في الناس بالأمان إلا

الحكم بن عبد الملك بن بشر وخالد بن سملة المخزومي وعمر بن ذر ، فسكن الناس ، ثم استؤمن لبعض هؤلاء وقُتل بعضهم .

وفي هذه السنة بعث أبو مسلم محمد بن الأشعث إلى فارس ، وأمره أن يأخذ عمال أبي سلمة فيضرب أعناقهم ، ففعل ذلك . وفيها ولى السفاح أخاه يحي بن محمد الموصل وأعمالها ، وولى عمه داود بن علي مكة والمدينة واليمن واليمامة ، وعزله عن الكوفة ، وولى مكانه عليها عيسى ابن موسى ، فولى قضاءه ابن أبي ليلى ، وكان على نيابة البصرة سفيان بن معاوية المهلبي ، وعلى قضائها الحجاج ابن أرطأة ، وعلى السند منصور بن جُمهور ، وعلى فارس محمد بن الأشعث ، وعلى أرمينية وأذربيجان والجزيرة أبو جعفر المنصور وعلى الشام وأعماله عبد الله بن علي عمّ السفاح وعلى مصر أبو عون عبد الملك بن يزيد ، وعلى خراسان وأعمالها أبو مسلم الخراساني ، وعلى ديوان الخراج خالد بن برمك . وحج بالناس في هذه السنة داود بن علي .

* * * *

ذكر من توفي من الأعيان

مروان بن محمد بن الحكم أبو عبد الملك الأموي آخر خلفاء بني أمية ، قتل في العشر الأخير من ذي الحجة من هذه السنة ، ووزيره عبد الحميد بن يحيى بن سعد مولى

بني عامر بن لؤي ، الكاتب البليغ الذي يُضرب به المثل ، فيقال : فتحت الرسائل بعبد الحميد ، وخُتمت بابن العميد ، وكان إماماً في الكتابة وجميع فنونها ، وهو القدوة فيها ، وله رسائل في ألف ورقة ، وأصله من الأنبار ، ثم سكن الشام ، وتعلم هذا الشأن من سالم مولى هشام ابن عبد الملك ، وكان يعقوب بن داود وزير المهدي يكتب بين يديه ، وعليه تخرج ، وكان ابنه إسماعيل بن عبد الحميد ماهراً في الكتابة أيضاً ، وقد كان أولاً يعلم الصبيان ، ثم تقلبت به الأحوال حتى وزر لمروان الجعدي آخر خلفاء بني أمية ، وأُخذ بعده فقتله السفاح ومثل به ، وكان اللائق بمثله العفو عنه .

ومن مُستجاد كلامه : العلم شجرة ، ثمرتها الألفاظ ، والفِكرُ بحْر لؤلؤه الحكمة .

ومن كلامه ، ورأى رجلاً يكتب خطاً رديئاً : أطِلْ جفلة قلمك وأسمنها ، وحرِّر قطك وأيمنها . قال الرجل : ففعلت ذلك ، فجاد خطي .

وسأله رجل أن يكتب له كتاباً إلى بعض الأكابر يوصيه به ، فكتب إليه : حق موصل كتابي إليك كحقه علي ؛ إذ رآك موضعاً لأمله ورآني أهلاً لحاجته وقد قضيت حاجته ، فصدق أمله .

وكان كثيراً ما ينشد هذا البيت :

إذا جـــرح الكُتّـــاب كانـــت دويهـــم
قـــسياً وأقـــلام الـــدُّوِيِّ لهـــا نـــبلا

وأبـو سـلمة حفـص بـن سـليمان ، أول مـن وزر لآل العبـاس ، قتلـه أبـو مـسلم عـن أمـر الـسفاح ، تقـدر ولايتـه بأربعـة أشـهر وكانـت بيعـة الـسفاح ليلـة الجمعـة وهـي ليلـة الثالث عشر من ربيع الآخر من هـذه الـسنة ، فكـان مقتلـه في رجب منها .

وكـان داهيـة فاضـلاً حـسن المفاكهـة ، وكـان الـسفاح يـأنس إليـه ويحـب مـسامرته لطيـب محاضـرته ، ولكنه توهم ميله لآل علي ، فدس عليه أبـو مـسلم مـن قتلـه غيلة ، فأنشد السفاح عند ذلك :

إلى النـــار فليـــذهب ومـــن كـــان مثلـــه
علـــى أي شـــيء فاتنـــا منـــه نأســـف ؟

كـان يقـال لـه : وزيـر آل محمـد . ويعـرف بـالخلاّل ؛ لسـكناه في درب الخلالـين بالـكوفـة ، وجلوسـه إلـيهم وهـو أول من سمي بالوزير .

وقـد حـكـى ابـن خلـكـان عـن ابـن قتيبـة أن اشـتقاق الوزير من الوِزْرِ ، وهو الحمل ، فكأن السلطان حمله ثقلاً لاستناده إلى رأيه ، وقال الزجاج : هـو مشتق مـن الـوَزَرِ وهـو الجبل ، فكأن السلطان لجأ إلى رأيـه كمـا يلجـأ الخـائف إلى جبل يعتصم به ، والله أعلم .

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومئة

وفيها قتل داود بن علي مَن بمكة والمدينة من بني أمية . وفيها توفي داود هذا . وفيها خرج شُريك بن شيح المَهْري ببخارى على أبي مسلم وقال : ما على هذا بايعنا آل محمد ، على سفك الدماء ؟ واتبعه على ذلك نحو من ثلاثين ألفاً فبعث إليه أبو مسلم زياد بن صالح الخزاعي فقاتله فقتله .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومئة

وفيها بعث الخليفة السفاح موسى بن كعب إلى منصور بن جُمهور وهو بالهند في اثني عشر ألفاً فتلقاه موسى بن كعب في ثلاثة آلاف فهزمه واستباح عسكره .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومئة

فيها خرج زياد بن صالح من وراء نهر بلخ على أبي مسلم الخراساني فأظفره الله بهم فبدد شملهم واستأصل خضراءهم .

* * * *

ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومئة

فيها قدم أبو مسلم من خراسان على السفاح بالعراق وذلك بعد استئذانه الخليفة في القدوم ، وكان ما بين أبي مسلم وأبي جعفر خراباً ، وذلك لما رأى من الجفوة منه حين قدم عليه نيسابور من البيعة للسفاح وللمنصور من بعده فحقد عليه أبو جعفر وأشار على السفاح بقتله وقال : إنك إن لم تتغد به تعش بك هو فمرض بالجدري ومات ، فولي بعده أخوه أبو جعفر المنصور وبايعه أبو مسلم الخراساني وكان معه قافلين من الحج .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومئة

وفيها قام عبد الله بن علي عم السفاح والمنصور وذكر أن السفاح كان عهد إليه حين بعثه إلى مروان أن يكون الأمر إليه من بعده . وحين بلغ أبا جعفر المنصور خبر عمه بعث إليه أبا مسلم الخراساني فهزمه . وفي هذه السنة قتل المنصور أبا مسلم الخراساني وقد كان أبو مسلم ذا هيبة وصرامة وإقدام وتسرع ؛ روى ابن عساكر من طريق مصعب بن بشر عن أبيه قال : قام رجل إلى أبي مسلم وهو يخطب فقال : ما هذا السواد الذي أرى عليك ؟ فقال : حدثني أبو الزبير ، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ

دخل مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء وهذه ثياب الهيبة، وثياب الدولة ، ياغلام اضرب عنقه .

سئل عبد الله بن المبارك عن أبي مسلم أكان خيراً أم الحجاج ؟ فقال : لا أقول إن أبا مسلم كان خيراً من أحد ولكن كان الحجاج شراً منه . وهو القائل :

ومن رعى غنماً في أرض مَسْبَعَة
ونام عنها تولى رعيها الأسد

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين ومئة

وفي هذه السنة خرج سُنباذ يطالب بدم أبي مسلم الخراساني وقد كان سنباذ هذا مجوسياً تغلب على أصبهان والري وتسمى بفيروز إصبهبذ فبعث إليه أبو جعفر المنصور جيشاً قوامه عشرة آلاف فارس عليهم جهور بن مَرّار العجلي فالتقوا بين همذان والري على طرف المفازة فهزم جهور سنباذ وقتل من أصحابه ستين ألفاً ، وسبى ذراريهم ونساءهم وقتل سنباذ بعد ذلك .

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين ومئة

عبد الرحمن الداخل :

وفيها دخل عبد الرحمن الداخل إلى بلاد الأندلس وكانت هذه السنة خصبة جداً ، فكان يقال لها : سنة الخصب . وفيها عزل المنصور عمه سليمان بن علي عن إمرة البصرة فاختفى عبد الله بن علي وأصحابه خوفاً على أنفسهم .

* * * *

ثم دخلت سنة أربعين ومئة

وفيها حج بالناس الخليفة أبو جعفر المنصور ، أحرم من الحيرة ورجع بعد انقضاء الحج إلى المدينة ثم رحل إلى بيت المقدس فزاره وصلى فيه ثم سلك إلى الشام فالرقة فالكوفة .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومئة

فيها خرجت طائفة يقال لهم الراوندية على المنصور أصلهم من خراسان وهم على رأي أبي مسلم الخراساني كانوا يقولون بالتناسخ ، ويزعمون أن روح آدم انتقلت إلى عثمان بن نُهيك ، وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم أبو جعفر المنصور وأن الهيثم بن معاوية جبريل . قبحهم الله تعالى ، فحصدهم المنصور ولم يبق منهم بقية . وفي هذه السنة ولى المنصور ابنه محمداً المهدي ولي عهده من بعده بلاد خراسان .

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين ومئة

وفيها توفي سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس عم الخليفة ونائب البصرة وكان قد شاب وهو ابن عشرين سنة وخضب لحيته وكان كريماً جواداً ممدحاً بلغت صِلاتُه لبني هاشم وسائر قريش والأنصار خمسة آلاف ألف .

واطلع يوماً من قصره ، فرأى نسوة يغزلن في دار من دور البصرة فاتفق أن قالت إحداهن : ليت الأمير اطلع علينا فأغنانا عن الغزْل ، فنهض فجعل يدور في قصره ويجمع من حلي نسائه من الذهب والجواهر وغير ذلك ماملأبه منديلاً ثم دلّاه إليهن ونثره عليهن فماتت إحداهن من شدة الفرح.

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومئة

فيها ندب المنصور الناس إلى غزو الديلم ، لأنهم قتلوا من المسلمين خلقاً ، وأمر أهل البصرة والكوفة من كان منهم يقدر على عشرة آلاف فصاعداً أن يذهب مع الجيش إلى الديلم ، فانتدب لذلك خلق كثير ، وجم غفير.

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومئة

وفيها حج أبو جعفر المنصور ، وتلقى الناس فكان من جملة من تلقاه ، عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ، فأجلسه المنصور على السماط ، وسأله عن ابنيه إبراهيم ومحمد لم لا جاءاني مع الناس ؟ فحلف أنه لا يدري أين صارا وصدق في ذلك ، وما ذاك إلا لأن محمد بن عبد الله كان قد بايعه جماعة من أهل الحجاز في أواخر دولة مروان الحمار بالخلافة وخلع مروان وكان في جملة

من بايعه على ذلك أبو جعفر المنصور وذلك قبل تحويل الدولة إلى بني العباس ، فلما صارت الخلافة إلى أبي جعفر المنصور خاف محمد بن عبد الله وأخوه إبراهيم منه خوفاً شديداً وذلك لأنه توهم منهما أن يخرجا عليه ، والذي خاف منه وقع فيه .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومئة

وفيها خرج محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينة وأخوه إبراهيم بالبصرة .

خرج محمد في مئتين وخمسين فارساً فمر بالسجن فأخرج من فيه وجاء دار الإمارة فافتتحها واستظهر على المدينة ولما بلغ الخبر المنصور قال : هلك والله وأهلك مَن اتبعه. ثم بعث محمد رسلاً إلى أهل الشام يدعونهم إلى بيعته وخلافته فأبوا ذلك وقال بعضهم : كيف نبايعك وقد ظهرت في بلد ليس فيها مال تستعين به على استخدام الرجال ؟ .

وظهر بالبصرة أخوه إبراهيم واستبشر بخروج أخيه . وكان محمد وأصحابه على عدة أهل بدر واقتتل الفريقان فقتل محمد واحتز حميد بن قحطبة رأسه .

وأقبل إبراهيم قاصداً من البصرة إلى الكوفة في مئة ألف مقاتل فأرسل إليه المنصور عيسى بن موسى في خمسة

عشر ألفاً على مقدمتهم حميد بن قحطبة في ثلاثة آلاف وجاء إبراهيم في جحافل عظيمة فقال بعض الأمراء : إنك قد اقتربت من المنصور فلو أنك سرت إليه بطائفة من جيشك هذا لأخذت بقفاه فإنه ليس عنده من الجيوش أحد يردون عنه ، فقال آخرون منهم : إن الأولى أن نناجز هؤلاء الذين بإزائنا ثم هو في قبضتنا فثناهم ذلك عن الرأي الأول ولو فعلوه لتم لهم الأمر . وأقبل الجيش فتصافوا فهزم جيش إبراهيم وقتل .

وممن توفي في هذه السنة عبد الله بن المقفع ، أسلم على يد عيسى بن علي عم السفاح والمنصور قال المهدي بن المنصور : ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله من ابن المقفع . وكان قتله على يد سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب نائب البصرة .

* * * *

ثم دخلت سنة ست وأربعين ومئة

وفيها تكامل بناء مدينة السلام بغداد ، بناها مدورة ، ولا يعرف في أقطار الدنيا مدينة كلها مدينة مدورة سواها .

قال الخطيب البغدادي : وحكي عن بعضهم أنه قال: أنفق عليها ثمانية عشر ألف ألف فالله أعلم .

وذكر ابن جرير أن المنصور ناقص أحد المهندسين الذي بنى له بيتاً حسناً في قصر الإمارة فنقصه درهماً عما ساومه ، وأنه حاسب بعض المستحثين على الذي كان عنده ففضَل عنه خمسة عشر درهماً فحبسه حتى أحضرها .

قال بعضهم : من محاسن الإسلام يوم الجمعة ببغداد وصلاة التراويح بمكة ويوم العيد بطرسوس .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومئة

في هذه السنة كان مهلك عبد الله بن علي عم المنصور، دعا إلى نفسه فبعث إليه المنصور أبا مسلم الخراساني فهزمه وهرب واطلع المنصور على مكانه فسجنه في دار جدرانها مبنية على الملح فلما كان من الليل أرسل على جدرانها الماء فسقط عليه البناء فمات رحمه الله .

ثم إن المنصور خلع عيسى بن موسى عن ولاية العهد وقدم عليه ابنه المهدي وأعطى عيسى نحواً من اثني عشر ألف ألف درهم وسارت بيعة المهدي في الآفاق ، واستقرت الخلافة في ذريته ، فلم يكن خليفة من بني العباس إلا من سلالته ذلك تقرير العزيز العليم .

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومئة

فيها بعث المنصور حميد بن قحطبة لغزو الترك الذين كانوا قد عاثوا ببلاد تفليس . وفيها كانت وفاة جعفر بن محمد الصادق المنسوب إليه كتاب ((اختلاج الأعضاء)) وهو مكذوب عليه .

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وأربعين ومئة

فيها غزا بالصائفة العباس بن محمد فدخل بلاد الروم ومعه الحسن بن قحطبة . وفيها توفي عيسى بن عمر وكان يغرب ويتقعر في عبارته جداً وقد حكى الجوهري عنه في الصحاح أنه سقط يوماً عن حماره ، فاجتمع عليه الناس فقال : ما لكم تكأكأتم علي تكأكؤكم على ذي جنة ، افرنقعوا عني . وذكر القاضي ابن خلكان أنه كان صاحباً لأبي عمرو بن العلاء وأن عيسى بن عمر قال يوماً لأبي عمرو بن العلاء : أنا أفصح من معد بن عدنان فقال له أبو عمرو : كيف تنشد هذا البيت ؟

قد كنَّ يخبأن الوجوه تستراً
فاليوم حين بدأن للنظار

(بدأن) أو (بدين) ؟ فقال : (بدين) فقال أبو عمرو : أخطأت . ولو قال : بدأن لأخطأ أيضاً ، وإنما أراد أبو عمرو تغليطه وإنما الصواب : بدونَ من بدا يبدو إذا ظهر .

ثم دخلت سنة خمسين ومئة من الهجرة

فيها خرج رجل من الكفرة يقال له : أستاذ سيس في بلاد خراسان والتف معه نحو من ثلاث مئة ألف وقتلوا من المسلمين خلقاً كثيراً وهزموا الجيوش التي في تلك البلاد وسبوا خلقاً واستحكم الفساد بسببهم ، فنهض المهدي في ذلك نهضة رجل هاشمي وجمع لخازم بن خزيمة الإمرة على تلك الجيوش وبعثه في نحو أربعين ألفاً فسار إليهم ومازال يراوغهم ويماكرهم حتى فاجأهم بالحرب فقتل منهم نحواً من سبعين ألفاً وأسر أربعة عشر ألفاً وهرب ملكهم أستاذ سيس فتحرز في جبل ، فجاء خازم إلى تحت الجبل وقتل أولئك الأسرى كلهم ، ولم يزل يحاصره حتى نزل على حكم بعض الأمراء ، فحكم أن يقيد بالحديد هو وأهل بيته وأن يعتق من الأجناد وكانوا ثلاثين ألفاً . وفي هذه السنة توفي أبو حنيفة النعمان بن ثابت التيمي فقيه العراق ، وأحد أئمة الإسلام .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ومئة

وفيها شرع المنصور في بناء الرصافة لابنه المهدي والرصافة في الجانب الشرقي من بغداد وولى المنصور معن ابن زائدة سجستان . وغزا الصائفة في هذه السنة عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد .

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين ومئة

فيها عزل المنصور عن إمرة مصر يزيد بن حاتم ، وولاها محمد بن سعيد ، وفيها قتلت الخوارج معن بن زائدة بسجستان ، وفيها توفي عبّاد بن منصور ، ويونس بن منصور الأيلي .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين ومئة

وفيها خرجت الخوارج من الصفرية وغيرهم ببلاد إفريقية فاجتمع منهم ثلاثمة ألف وخمسون ألفاً ما بين فارس وراجل وعليهم أبو حاتم الإباضي وأبو عبّاد وانضم إليهم أبو قرة الصفري في أربعين ألفاً فقاتلوا نائب إفريقية فهزموا جيشه وقتلوه وهو عمر بن حفص . وفي هذه السنة ألزم المنصور الناس بلبس قلانس سود طوال جداً ، حتى كانوا يستعينون على رفعها من داخلها بالقصب فقال أبو دلامة في ذلك :

وكنا نرجّي من إمام زيادة
فزاد الإمام المصطفى في القلانس
تراها على هام الرجال كأنها
دنان يهود جللت بالبرانس

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وخمسين ومئة

وفيها توفي أشعب وكان ظريفاً ماجناً يحبه أهل زمانه لخلاعته وطمعه وكان يجيد الغناء وروي عنه أنه سئل يوماً أن يحدّث فقال : حدثني عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : ((خصلتان من عمل بهما دخل الجنة)) [1] ثم سكت فقيل له : وما هما ؟ فقال : نسي عكرمة واحدة ونسيت أنا الأُخرى .

وتوفي في هذه السنة أبو عمرو بن العلاء كان علامة زمانه في اللغة والنحو وعلم القرآن ، ومن كبار العلماء العاملين .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومئة

فيها دخل يزيد بن حاتم بلاد إفريقية وقتل من كان تغلب عليها من الخوارج وقتل أبا حاتم وأبا عباد الخارجيين وفيها توفي حماد الراوية كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها ولغاتها وهو الذي جمع السبع المعلقات الطوال .

---

(١) لم نجده في الصحاح .

وفيها قتل حماد عجرد على الزندقة ، ولما قتل بشار على الزندقة أيضاً دفن معه في قبره .

* * * *

ثم دخلت سنة ست وخمسين ومئة

وفيها توفي حمزة الزيات وهو أحد القراء المشهورين والعُباد المذكورين وإليه تنسب المدود الطويلة في القراءة .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وخمسين ومئة

وفيها توفي الإمام أبو عمرو عبد الرحمن بن عمر الأوزاعي فقيه أهل الشام ، وقد بقي أهل الشام وما حولها من البلاد على مذهبه نحواً من مئتي عام .

والأوزاع محلة خارج باب الفراديس من دمشق . قال سفيان بن عيينة وغيره : كان إمام أهل زمانه .

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين ومئة

فيها مات أبو جعفر المنصور وكان أكبر من أخيه أبي العباس السفاح ، وأمه أم ولد – أعجمية – اسمها سلامة .

وذكر ابن جرير عن الهيثم أن المنصور أطلق في يوم واحد لبعض أعمامه ألف ألف درهم وفي هذا اليوم فرّق في أهل بيته عشرة آلاف درهم ولا يعلم خليفة فرق مثل هذه في يوم واحد .

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وخمسين ومئة

وفيها وقع حريق عظيم في السفن التي بدجلة بغداد وحمل المهدي عيسى بن موسى على خلع نفسه عن ولاية العهد فتوعده ووعده فأجابه إلى ذلك فأعطاه إقطاعات عظيمة وجمع له من المال عشرة آلاف ألف درهم وقيل عشرين ألف ألف وبايع المهدي لولديه موسى الهادي ثم لهارون الرشيد .

* * * *

ثم دخلت سنة ستين ومئة من الهجرة

فيها خرج رجل بخراسان على المهدي منكراً عليه أحواله وسيرته يقال له : يوسف البَرْمُ فتوجه إليه يزيد بن مزيد فأسره وبعثه إلى المهدي فقتله المهدي وصلبه على جسر دجلة .

* * * *

ثم خلت سنة إحدى وستين ومئة

وممن توفي في هذه السنة أبو دلامة زَنْدُ بن الجون الشاعر الماجن ، أصله من الكوفة وأقام ببغداد ، وحظي عند أبي جعفر المنصور لأنه كان يضحكه وينشده ويمدحه .

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وستين ومئة

وممن توفي في هذه السنة إبراهيم بن أدهم وقيل : كان أكثر دعائه : اللهم انقلني من ذل معصيتك إلى عز طاعتك .

وركب مرة سفينة ، فأخذهم الموج ذات يوم من كل مكان ، فلف إبراهيم رأسه بكسائه واضطجع ، وعج أصحاب السفينة بالضجيج وأيقظوه فقالوا : ألا ترى ما نحن فيه من الشدة ؟ فقال : ليس هذا بشدة ، إنما الشدة الحاجة إلى الناس . ثم قال : اللهم أريتنا قدرتك فأرنا عفوك . فصار البحر كأنه قدح زيت .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومئة

فيها حصر المقنع الزنديق الذي كان قد نبغ بخراسان وقال بالتناسخ واتبعه على جهالته خلق كثر من

الطّغام وسفهاء الأنام والسّفْلة من العوام ، حاصره سعيد الحرشي ، فلما أحس بالغلبة تحسى سماً وسم نساءه فماتوا جميعاً عليه لعائن الله ، ودخل الجيش الإسلامي قلعة كَشّ فاحتزوا رأسه وبعثوه إلى المهدي .

قال ابن خلكان : كان أولاً قصّاراً ثم ادعى الربوبية مع أنه كان أعور قبيح المنظر وكان يتخذ له وجهاً من ذهب .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وستين ومئة

فيها غزا عبد الكبير بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب بلاد الروم ، فأقبل إليه ميخائيل البطريق في نحو تسعين ألفاً ففشل عنه عبد الكبير ومنع المسلمين من القتال ، وانصرف ، فأراد المهدي ضرب عنقه ، فكلم فيه ، فحبسه في المُطبق .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس وستين ومئة

فيها جهز المهدي ولده هارون الرشيد لغزو الصائفة وأنفذ معه من الجيوش حوالي مئة ألف مقاتل .

قال ابن جرير : فبلغ بجنوده خليج البحر الذي على القسطنطينية ، وصاحب الروم يومئذ أُغَسْطةُ امرأة أليون

فطلبت الصلح من الرشيد على أن تدفع له سبعين ألف دينار في كل سنة فقبل ذلك منها وذلك بعدما قتل من الروم في الوقائع أربعة وخمسين ألفاً وأسر من الذراري خمسة آلاف وقتل من الأسرى ألفي أسير صبراً .

* * * *

ثم دخلت سنة ست وستين ومئة

وفيها أخذ المهدي البيعة لولده هارون من بعد موسى الهادي ولقّب هارون بالرشيد وفيها سخط المهدي على يعقوب بن داود وكان قد حظي عنده حتى استوزره وفوض إليه جميع أمر الخلافة .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وستين ومئة

وفيها أمر المهدي بزيادة كبيرة في المسجد الحرام ، فدخل في ذلك دور كثيرة وولى ذلك يقطين بن موسى المتوكل بأمر الحرمين ومصالحهما . وممن توفي في هذه السنة بشار بن بُرد ، ولد أعمى وله من التشبيهات ما لم يهتد إليها البصراء ، له ثلاثة عشر ألف بيت من الشعر الجيد ، فلما بلغ المهدي أنه هجاه وشهد عليه قوم أنه زنديق أمر به فضرب حتى مات . ومن شعره البيت المشهور :

هـــل تعلمـــين وراء الحـــب منزلـــة
تـــدني إليـــك فـــإن الحـــب أقـــصاني

وقوله :

أنـــا والله أشـــتهي ســـحر عينيـــ
ـــك وأخـــشى مـــصارع العـــشاق

وله أيضاً :

يـــا قـــوم أذنـــي لـــبعض الحـــي عاشـــقة
والأذن تعـــشق قبـــل العـــين أحيانـــا

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وستين ومئة

فيها اتخذ المهدي دواوين الأزمَّة ، ولم يكن بنو أمية يعرفون ذلك . وممن توفي فيها الحسن بن زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب ولاه المنصور المدينة خمس سنين ، ثم غضب عليه ، فعزله ، وحبسه ، وأخذ جميع ماله . وحماد عجرد ، كان ظريفاً ماجناً شاعراً . قال ابن قتيبة في ((طبقات الشعراء)) ثلاثة حمادون بالكوفة يرمون بالزندقة، حماد الراوية وحماد عجرد ، وحماد بن الزبرقان النحوي .

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وستين ومئة

وفيها توفي المهدي . ومن أخباره أنه دخل عليه رجل يوماً ومعه نعل فقال : هذه نعل رسول الله ﷺ قد أهديتها إليك ، فقال : هاتها . فناوله إياها . فقبلها ووضعها على عينيه ، وأمر له بعشرة آلاف درهم . فلما انصرف الرجل قال المهدي : والله إني لأعلم أن رسول الله ﷺ لم ير هذه النعل فضلاً عن أن يلبسها ، ولكن لو رددته لذهب يقول للناس : أعطيته نعل رسول الله ﷺ فردها علي فيصدقه أكثر الناس ؛ لأن العامة تميل إلى أمثالها ، ومن شأنهم نصر الضعيف على القوي وإن كان ظالماً . وقدم المهدي مرة البصرة فخرج ليصلي بالناس فجاء أعرابي فقال : يا أمير المؤمنين مُر هؤلاء فلينتظروني حتى أتوضأ . فوقف المهدي في المحراب حتى قيل له : هذا الأعرابي قد جاء . فكبر فتعجب الناس من سماحته وأخلاقه . وبويع بالخلافة لموسى الهادي فشرع في تطلب الزنادقة من الآفاق فقتل منهم طائفة كبيرة .

* * * *

ثم دخلت سنة سبعين ومئة من الهجرة

وفيها توفي الهادي ، وذكر عيسى بن دأْبٍ قال : كنت يوماً عند الهادي ، إذ جيء بطست فيه رأسا جاريتين لم أر أحسن منهما ، ولا مثل شعورهما وفي شعورهما

اللآلئ والجواهر منضدة ، ولا مثل طيب ريحهما فقال : أتدرون ما شأن هاتين ؟ قلنا : لا ، فقال : إنه ذكر لي عنهما أنهما ترتكبان الفاحشة فأمرت الخادم فرصدهما ثم جاءني فقال : إنهما مجتمعتان فجئت فوجدتهما في لحاف واحد وهما على الفاحشة فأمرت بحز رقابهما ، وكان الهادي شهماً خبيراً بالملك كريماً . وبويع بالخلافة بعده لهارون الرشيد ، فبعث إلى يحيى بن خالد بن برمك فأخرجه من السجن ، وقد كان الهادي عزم في تلك الليلة على قتله وقتل هارون الرشيد .

وممن توفي هذه السنة الخليل بن أحمد الفراهيدي شيخ النحاة وعنه أخذ سيبويه وهو الذي اخترع علم العروض ، وله كتاب (العين) في اللغة .

وقد كان الخليل رجلاً صالحاً عاقلاً كاملاً حليماً وقوراً وكان ظريفاً حسن الخلق ، ويقال إنه لم يُسَمَّ أحد بعد النبي ﷺ بأحمد سوى أبيه وفيها توفي الربيع بن سليمان ومن شعره :

صبراً جميلاً ، ما أسرع الفرجا!
من صدق الله في الأمور نجا
من خشي الله لم ينله أذى
ومن رجا الله كان حيث رجا

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين ومئة

فيها خرج الفضل بن سعيد الحروري فقُتل ، وفيها أضاف الرشيد الخاتم إلى يحيى بن خالد مع الوزارة ، وفيها قتل الرشيد أبا هريرة محمد بن فروخ نائب الجزيرة صبراً في قصر الخلد بين يديه .

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين ومئة

وفيها غزا بالصائفة إسحاق بن سليمان بن علي . وفيها وضع الرشيد عن أهل العراق العشر الذي كان يؤخذ منهم بعد النصف ، وفيها حج بالناس يعقوب بن أبي جعفر المنصور عم الرشيد .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومئة

فيها توفي محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، وكان من رجالات قريش وشجعانهم جمع له المنصور بين البصرة والكوفة وزوجه المهدي ابنته العباسة ، وكان له من الأموال شيء كثير ، وكان دخله كل يوم مئة ألف أمر الرشيد بالاحتياط على حواصله من الذهب والفضة وغيرها .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وسبعين ومئة

وفيها غزا بالصائفة عبد الملك بن صالح فدخل بلاد الروم. وفيها استقضى الرشيد يوسف ابن القاضي أبي يوسف وأبوه حي وفيها حج بالناس أمير المؤمنين الرشيد .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس وسبعين ومئة

فيها أخذ الرشيد البيعة بولاية العهد من بعده لولده محمد ابن زبيدة وسماه الأمين وعمره إذ ذاك خمس سنين وقد كان الرشيد يتوسم النجابة والرجاحة في عبد الله المأمون ويقول : والله إن فيه حزم المنصور ، ونسك المهدي ، وعزة نفس الهادي ، ولو شئت أن أقول الرابعة مني لقلت . وممن توفي في هذه السنة الليث بن سعد قال الشافعي : كان الليث أفقه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه . كان كريماً ومناقبه كثيرة .

* * * *

ثم دخلت سنة ست وسبعين ومئة

وممن توفي فيها إبراهيم بن هرمة الشاعر وفد على المنصور فأمر له بعشرة آلاف درهم وخلعة وعفا عنه ، وكان من جملة ما ينقمه المنصور عليه قوله :

ومهمـــــا ألام علـــــى حــــبهم
فـــإني أحـــب بـــني فاطمــــه
بـــني بنـــت مـــن جـــاء بالمحكمـــا
ت وبالـــدين والـــسنة القائمـــه
فلـــست أبـــالي بحـــبي لهـــم
ســـواهم مـــن الـــنَّعم الـــسائمه

قال الأصمعي : ختم الشعراء بابن هرمة وهو آخر من يحتج بشعره على اللغة والنحو .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وسبعين ومئة

فيها توفي شريك القاضي ، كان مشهوراً في حكمه وتنفيذه وتضمينه . وفيها عزل الرشيد جعفر بن يحيى البرمكي عن مصر .

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين ومئة

وفيها خرج الوليد بن طريف بالجزيرة وحكم بها وقتل خلقاً من أهلها ثم مضى منها إلى أرمينية . وفيها فوض الرشيد أمور الخلافة كلها إلى يحيى بن خالد بن برمك .

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وسبعين ومئة

وفيها رجع الوليد بن طريف الشاري إلى الجزيرة وكثر أتباعه فبعث إليه الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني فراوغه حتى قتله وتفرق أصحابه فقالت الفارعة أخت الوليد ترثيه :

أيا شجر الخابور مالك مورقاً
كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لايحب الزاد إلا من التقى
ولا المال إلا من قناً وسيوف

وفيها توفي السيد الحميري الشاعر وكان من الشعراء المشهورين ولكنه كان رافضياً خبيثاً وشيعياً عتيقاً كان ممن يشرب الخمر ويقول بالرجعة قال يوماً لرجل : أقرضني ديناراً ولك عندي مئة دينار إذا عدنا إلى الدنيا فقال له الرجل : إني أخشى أن تعود كلباً أو خنزيراً فيذهب مالي وقد أسود وجهه قبل موته ولما مات لم يدفنوه لأنه كان يسب الصحابة رضي الله عنهم .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة ثمانين ومئة

فيها هاجت الفتنة بالشام بين النزارية واليمانية فندب الرشيد جعفراً البرمكي فدخل الشام فلم يدع فرساً ولا سيفاً ولا رمحاً إلا استلبه من الناس وأطفأ الله نار تلك الفتنة .

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين ومئة

وفيها أمر الرشيد أن يكتب في صدور الرسائل الصلاة على رسول الله ﷺ بعد الثناء على الله عز وجل .

وفيها توفي عبد الله بن المبارك المروزي . قال إسماعيل بن عياش : ما على وجه الأرض مثله . وما أعلم خصلة من الخير إلا وقد جعلها الله في ابن المبارك .

وخرج مرة إلى الحج فاجتاز ببعض البلاد فمات طائر معهم ، فأمر بإلقائه على مزبلة ، وسار أصحابه أمامه وتخلف هو وراءهم ، فلما مر بالمزبلة إذا جارية قد خرجت من دار قريبة منها ، فأخذت ذلك الطائر الميت ، فكشف عن أمرها حتى سألها فقالت : أنا وأختي ههنا ، ليس لنا شيء إلا هذا الإزار وليس لنا قوت إلا ما يلقى على هذه المزبلة ، وقد حلت لنا الميتة ، وكان أبونا له مال عظيم ، فظُلم وأُخذ ماله وقُتِل .

فأمر ابن المبارك بردِّ الأحمال ، وقال لوكيله : كم معك من النفقة ؟ فقال : ألف دينار . فقال : عُدَّ منها عشرين ديناراً تكفينا إلى مرو وأعطها الباقي فهذا أفضل من حجنا هذا العام ثم رجع .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانية ومئة

وفيها أخذ الرشيد لولده عبد الله المأمون البيعة بولاية العهد من بعد أخيه محمد بن زبيدة .

وممن توفي فيها مروان بن أبي حفصة الشاعر المشهور كان يمدح الخلفاء والبرامكة ومعن بن زائدة ، وحصل له من الأموال شيء كثير جداً وكان مع ذلك من أبخل الناس، خرج يوماً إلى المهدي فقالت امرأة من أهله : إن أطلق لك الخليفة شيئاً فاجعل لي منه شيئاً فقال : إن أعطاني مئة ألف درهم فلك درهم . فأعطاه ستين ألفاً فأعطاها أربعة دوانيق .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين ومئة

وفيها توفي موسى الكاظم ، كان كثير العبادة والمروءة ، إذا بلغه عن أحد يؤذيه أرسل إليه بالتحف والذهب .

وقد استدعاه المهدي إلى بغداد فحبسه ، فرأى المهدي في بعض الليالي علي بن أبي طالب وهو يقول له : (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم) فاستيقظ مذعوراً وأطلقه .

ولما كانت خلافة الرشيد حج الرشيد فدخل ليسلم على قبر النبي ﷺ ومعه موسى الكاظم فقال الرشيد : السلام عليك يا رسول الله يا بن عم . فقال موسى : السلام عليك يا أبه . فقال الرشيد هذا هو الفخر يا أبا الحسن .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وثمانين ومئة

وممن توفي فيها أحمد بن أمير المؤمنين الرشيد كان زاهداً عابداً وكان لا يأكل إلا من عمل يديه يعمل في الطين وليس يملك إلا مجرفة وقفة .

وكان أجرته في كل يوم يعمل فيه من الجمعة إلى الجمعة درهماً ودانقاً وكان لا يعمل إلا في يوم السبت فقط ثم يُقبل على العبادة بقية أيام الجمعة . رحمه الله تعالى .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس وثمانين ومئة

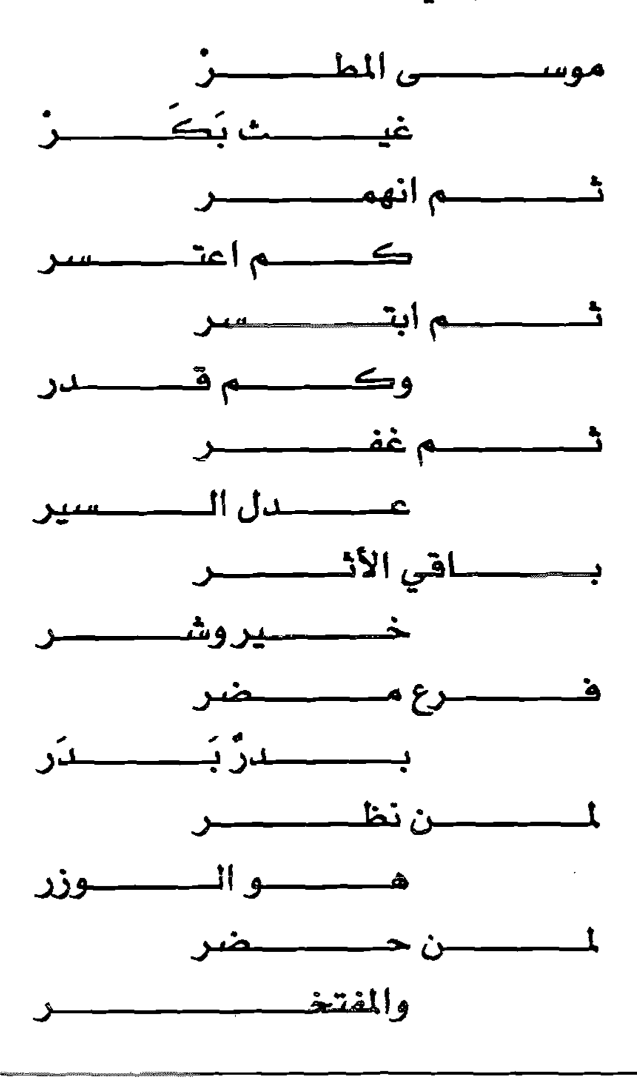
وفيها عاث حمزة الشاري بباذغيس من خراسان فنهض عيسى بن علي بن عيسى إلى عشرة آلاف من جيش حمزة فقتلهم .

وفي هذه السنة توفيت رابعة العدوية .

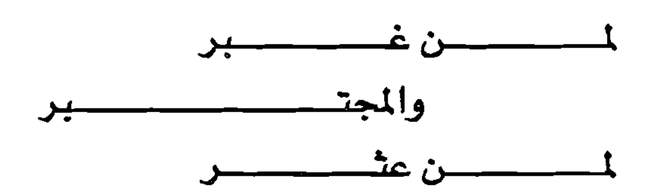
* * * *

ثم دخلت سنة ست وثمانين ومئة

وفيها توفي سَلمٌ الخاسر الشاعر ، وإنما قيل له الخاسر لأنه باع مصحفاً واشترى به ديوان شعر ، وكان شاعراً مطبِّقا له قدرة على الإنشاء على حرف واحد فمن ذلك قوله لموسى الهادي :



موسى المطر
غيث بَكَر
ثم انهمر
كم اعتسر
ثم ابتسر
وكم قدر
ثم غفر
عدل السير
باقي الأثر
خير وشر
فرع مضر
بدرٌ بَدَر
لمن نظر
هو الوزر
لمن حضر
والمفتخر



وذكـر الخطيب البغـدادي أنـه كـان علـى طريقـة غـير مُرْضية من المجون والفسق وأنه كان من تلاميذ بشار بن برد وأن نظمه أحسن من نظم بشار فما غلب فيه بشاراً قول بشار :

مـن راقـب النـاس لم يظفـر بحاجتـه
وفـاز بالطيبـات الفاتـك اللـهج

فقال سلم :

مـن راقـب النـاس مـات غمـاً
وفـاز باللـذة الجـسور

فغضب بشار وقال : أخذ معانيَّ فكساها ألفاظاً أخف من ألفاظي .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وثمانين ومئة

وفيها كان مقتل الرشيد جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي ودمار ديارهم ومما قيل في سبب ذلك أن الرشيد كان قد سلّم يحيى بن عبد الله بن حسن إلى جعفر

البرمكي فسجنه عنده فمازال يحيى يترقق له حتى أطلقه جعفر ، فتغيّظ عليه الرشيد وحلف ليقتلنه ، وكره البرامكة ومقتهم وقلاهم بعد ذلك . وبنى جعفر داراً غرم عليها عشرين ألف ألف درهم وكان ذلك من جملة ما نقمه عليه الرشيد .

وقيل : إن البرامكة كانوا يريدون إبطال خلافة الرشيد وإظهار الزندقة .

وممن توفي فيها الفضيل بن عياض ، ذكروا أنه كان شاطراً يقطع الطريق ، وكان يتعشق جارية فبينما هو ذات ليلة يتسور عليها جداراً إذ سمع قارئاً يقرأ : ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الحديد : ١٦) فقال : بلى يا رب وأقلع عما هو فيه ورجع إلى خرِبة فبات بها .

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومئة

قال الفضل بن الربيع الحاجب . حججت مع الرشيد فمررنا بالكوفة فإذا بهلول المجنون يهذي فقلت : اسكت فقد أقبل أمير المؤمنين فسكت فلما حاذاه الهودج قال : يا أمير المؤمنين فقال :

فهــب أن قــد ملكــت الأرض طــراً
ودان لــك العبــاد فكــان مــاذا ؟
ألــيس غــداً مــصيرك جــوف قــبر
ويحثــو الــترب هــذا ثــم هــذا ؟

قال : أجدت يا بهلول أفغيره ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين من رزقه الله جمالاً ومالاً فعف في جماله وواسى في ماله كتب في ديوان الأبرار قال : فظن أنه يريد شيئاً فقال: إنا أمرنا بقضاء دينك . قال : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، لا تقض دَيناً بدين ، اردد الحق إلى أهله واقض دين نفسك من نفسك قال : إنا قد أمرنا أن يجري عليك رزق قال : لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنه لا يعطيك وينساني ، لا حاجة لي في جرايتك .

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وثمانين ومئة

توفي في هذه السنة علي بن حمزة المعروف بالكسائي أدب الرشيد وولده الأمين .

وكان الكسائي أخذ عن الخليل صناعة النحو فسأله يوماً عمن أخذت هذا ؟ قال : من بوادي الحجاز فرحل الكسائي إلى هناك . وفي هذه السنة فادى الرشيد كل الأُسارى من المسلمين الذين كانوا ببلاد الروم .

* * * *

سنة تسعين ومئة من الهجرة

توفي يحيى بن خالد بن برمك قال بعض الشعراء في يحيى هذا :

سألت الندى هل أنت حر ؟ فقال : لا
ولكنني عبد ليحيى بن خالد
فقلت شراء ؟ قال : لا بل وراثة
توارثني عن والد بعد والد

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين ومئة

وفيها توفي مَخْلَد بن الحسين ، أحد الزهاد الثقات قال : لم أتكلم بكلمة أحتاج إلى الاعتذار منها منذ خمسين سنة . وفيها أمر الرشيد بهدم الكنائس بالثغور وألزم أهل الذمة بتمييز لباسهم وهيئاتهم في بغداد وغيرها من البلاد وفيها فتح الرشيد هرقلة وسبى أهلها ؟

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين ومئة

وفيها خرجت الخُرَّميّة بالجبل وبلاد أذربيجان فوجه إليهم الرشيد عبد الله بن مالك الخزاعي في عشرة آلاف فارس فقتل منهم خلقاً كثيراً وأسر وسبى ذراريهم .

وممن توفي فيها العباس بن الأحنف الشاعر المشهور وقد طلبه لرشيد ذات ليلة في أثناء الليل فخاف نساؤه فلما وقف بين يدي الرشيد قال له : ويحك إنه قد عنّ لي بيت في جارية لي فأحببت أن تشفعه بمثله ، فقال : يا أمير المؤمنين ما خفت قط أعظم من هذه الليلة .

فقال : ولمَ ؟ فذكر له دخول الحرس عليه في الليل ثم جلس حتى سكن روعه ثم قال : ما قلت يا أمير المؤمنين ؟ فقال:

جَنانٌ قد رأيناها
فلم نر مثلها بشرا

فقال العباس :

يزيدك وجهها حسناً
إذا مازدته نظرا
إذا ماالليل مال علي
ك بالإظلام واعتكرا
ودجٌ فلم ترى قمراً
فأبرزها تر القمرا

فأمر له بعشرة آلاف درهم .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين ومئة

وفاة هارون الرشيد :

وفيها توفي هارون الرشيد ومن أخباره أنه استدعى إليه أبا معاوية الضرير محمد بن خازم ليسمع منه الحديث قال أبو معاوية : وأكلت عنده يوماً ثم قمت لأغسل يدي فصب الماء علي وأنا لا أراه ثم قال : يا أبا معاوية ، أتدري من يصب عليك ؟ قلت : لا . قال : أنا . فدعا له أبو معاوية الضرير فقال : إنما أردت تعظيم العلم . وقال بعضهم : دخلت على هارون الرشيد وبين يديه رجل مضروب العنق والسياف يمسح سيفه في قفا الرجل المقتول فقال هارون . قتلته لأنه قال : القرآن مخلوق فقتلته قربة إلى الله عز وجل. وقال الرياشي : سمعت الأصمعي يقول : دخلت على الرشيد وهو يقلم أظفاره يوم الجمعة ، فقلت له في ذلك ، فقال : أخذ الأظفار يوم الخميس من السنة ، وبلغني أن أخذها يوم الجمعة ينفي الفقر .

وخرج الرشيد يوماً من عند زبيدة وهو يضحك فقيل له : مم تضحك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : دخلت على هذه المرأة ، فأكلت عندها ونمت فما استيقظت إلا بصوت ذهب يُصيب ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : هذه ثلاثمئة ألف دينار قدمت من مصر فقالت : هبها لي يابن عم . فقلت : هي لك . ثم ما خرجت حتى عربدت علي وقالت : أي خير

رأيت منك ؟ وذكر أبو هِفان أنه كان في دار الرشيد من الجواري والحظايا وخدمهن وخدم زوجته وأخواته أربعة آلاف جارية ، وأنهن حضرن كلهن يوماً بين يديه وغنته المطربيات فطرب جداً ، وأمر بمال فنثر عليهن فكان مبلغه ستة آلاف ألف درهم في ذلك اليوم . وكان مرضه بالدم وقيل : بالسل[1] .

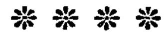
وولي ابنه محمد الأمين الخلافة وكان الرشيد لما وصل إلى أول بلاد خراسان وهب جميع ما كان معه لولده المأمون وجدد له البيعة ، وكان الأمين قد بعث بكر بن المعتمر بكتب في خفية ليوصلها إلى الأمراء إذا مات الرشيد ، فلما توفي الرشيد نفذت الكتب إلى الأمراء وإلى صالح بن الرشيد وفيها كتاب إلى المأمون يأمره بالسمع والطاعة فأخذ صالح البيعة من الناس للأمين وارتحل الفضل بن الربيع – الحاجب – بالجيش إلى بغداد وقد بقي في نفوسهم تحرج من البيعة التي أخذت منهم للمأمون وكتب عليهم المأمون يدعوهم إلى بيعته فلم يجيبوه ، ووقعت الوحشة بين الأخوين ولكن تحول عامة الجيش إلى الأمين فعند ذلك كتب المأمون إلى أخيه بالسمع والطاعة والتعظيم وبعث إليه من هدايا خراسان وتحفها وهو نائب عليها . وأقر الأمين أخاه المأمون على ما تحت يده من خراسان .

---

(١) وأقول : في دراسة لمجلة السكري عن حياة الرشيد ومرضه أن مرضه كان بالسكري وبه مات والله أعلم .

ثم دخلت سنة أربع وتسعين ومئة

وفيها أمر الأمين بالدعاء لولده موسى على المنابر في سائر الأمصار وبالإمرة من بعده ، فلما بلغ ذلك المأمون قطع البريد عنه وترك ضرب اسمه على السكة والطرز وتنكر لأخيه المأمون ، ولما بلغ الأمين أن الجنود قد التفت على أخيه المأمون ساءه ذلك وأنكره ، وكتب إلى المأمون كتاباً يسأله أن يجيبه إلى تقديم ولده موسى عليه فأظهر المأمون الامتناع .



ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومئة

وفيها أمر الأمين أن لا يُتعامل بالدراهم والدنانير التي عليها اسم المأمون ونهى أن يدعى له على المنابر ، وفيها تسمى بإمام المؤمنين ، وفيها عقد الأمين لعلي بن عيسى بن ماهان الإمارة على الجبل وهمذان وأصبهان وقم وتلك البلاد وأمره بحرب المأمون وجهز معه جيشاً كبيراً ، وخرج علي بن عيسى بن ماهان من بغداد في أربعين ألف فارس ومعه قيد من فضة ليأتي بالمأمون فيه فسار حتى وصل إلى الري فتلقاه الأمير طاهر في أربعة آلاف فكانت بينهم أمور آل الحال فيها إلى أن اقتتلوا فقتل علي بن عيسى وانهزم أصحابه . وانتهى الخبر إلى الأمين وهو يصيد السمك من

دجلة فقال لمن نقل إليه الخبر : ويحك دعني من هذا فإن كوثراً قد صاد سمكتين ولم أصد بعد شيئاً .

وندم محمد الأمين على ما كان منه من نكث العهد وخلع أخيه المأمون . ثم جهز الأمين عبد الرحمن بن جبلة في عشرين ألفاً من المقاتلة إلى همذان ليقاتلوا طاهر بن الحسين ومن معه من الخراسانية فلما اقتربوا منه تواجهوا فقاتلوا قتالاً شديداً فكثرت القتلى بينهم من الفريقين ثم انهزم أصحاب عبد الرحمن بن جبلة فلجؤوا إلى همذان فحاصرهم فيها طاهر حتى اضطرهم إلى أن دعوا للصلح فصالحهم وأمنهم ووفى لهم وانصرف عبد الرحمن بن جبلة ثم غدروا بأصحاب طاهر وحملوا عليهم وهم غافلون وصبر لهم أولئك ثم نهضوا إليهم فحملوا عليهم فهزموهم وقتلوا أميرهم ابن جبلة وفر أصحابه .

وفيها توفي أبو نواس : قال ابن الأعرابي : أشعر الناس أبو نواس في قوله :

تغطيت من دهري بظل جناحه
فعيني ترى دهري وليس يراني
فلو تسأل الأيامُ ما اسمي لما درت
وأين مكاني ما عرفن مكاني

* * * *

ثم دخلت سنة ست وتسعين ومئة

فيها حبس محمد الأمين أسد بن يزيد لأجل أنه نقم على الأمين لعبه وتهاونه في أمر الرعية وارتكابه اللعب والصيد في هذا الوقت .

وقام الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان خطيباً في الناس وألبهم على الأمين وأنه لا تصلح الخلافة لمن هذا حاله وحثهم على القيام عليه والنهوض إليه فالتف عليه خلق كثير وجم غفير ، وبعث محمد الأمين إليه خيلاً فاقتتلوا ملياً فانهزم جيش الأمين وخلع محمداً الأمين وأخذ البيعة للمأمون وصار أهل بغداد فرقتين ؛ فرقة مع الخليفة وفرقة عليه فاقتتلوا قتالاً شديداً فغلب حزب الخليفة أولئك وقُتل الحسين ابن علي بن عيسى بن ماهان وجدد الناس بيعة الأمين وخلعت أكثر الأقاليم الأمين وبايعوا المأمون ، وأرسل الأمين جيشاً كثيفاً لقتال طاهر فهزمهم واقترب من بغداد فحاصرها .

وفيها توفي أبو شِيص الشاعر محمد بن رزين بن سليمان كان إنشاد الشعر وإنشاؤه ونظمه أسهل عليه من شرب الماء ومن جيد شعره قوله :

وقف الهوى بي حيث أنتِ فليس بي
متأخَّر عنه ولا متقدَّم
أجد الملامة في هواك لذيذة
حباً لذكرك فليلمني اللوَّم

أشـــبهت أعـــدائي فـــصرت أحـــبهم
إذ كـان حظـيَ منـك حظـيَ مـنهم
وأهنـــتني فأهنـــت نفـــسيَ جاهـــداً
مـــا من يهـــون عليـــك ممـــن يُكـــرَم

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وتسعين ومئة

وفيها حاصر طاهر بغداد فغلت الأسعار وقتل من أهل البلاد خلق كثير. وهرب القاسم بن الرشيد وعمه المنصور ابن المهدي إلى المأمون فأكرمهما وضعف أمر الأمين وتفرق عنه أكثر أصحابه.

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومئة

مقتل الأمين:

ودع الأمين ولديه ومسح دموعه بطرف كمه فلما كان في الحراقة يقطع بها نهر دجلة أبصره الجنود فقتلوه.

ولما قتل الأمين هدأت الفتن وأمن الناس وطابت النفوس. ولذلك استوسقت البيعة شرقاً وغرباً للمأمون.

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومئة

وفي هذه السنة خرج بالكوفة محمد بن إبراهيم يدعو إلى الرضا من آل محمد وهو الذي يقال له : ابن طباطبا أمير الشيعة توفي فجأة ، يقال : إن أبا السرايا سمه وأقام مكانه غلاماً أمرد يقال له : محمد بن محمد بن زيد ابن علي .

* * * *

ثم دخلت سنة مئتين من الهجرة

وفيها قُتل أبو السرايا . وفيها أيضاً قتل المأمون يحيى ابن عامر بن إسماعيل ، وذلك لأنه قال للمأمون : يا أمير الكافرين فقتل صبراً بين يديه وفيها حج بالناس محمد المعتصم بن هارون الرشيد .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى ومئتين

وفيها بايع المأمون لعلي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن الحسين الشهيد أن يكون ولياً للعهد من بعده . وطرح السواد ولبس الخضرة .

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين ومئتين

في أول يوم منها بويع لإبراهيم بن المهدي بالخلافة ببغداد وخلع المأمون فلما كان يوم الجمعة خامس المحرم صعد إبراهيم بن المهدي المنبر فبايعه الناس ولقب بالمبارك – وكان أسود اللون – وفي هذه السنة تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل وزوج علي الرضا بابنته أم حبيب .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث ومئتين

فيها أكل علي بن موسى الرضا عنباً فمات فجأة . كان المأمون قد هم أن ينزل له عن الخلافة فأبى عليه ذلك فجعله ولي عهده من بعده ومن شعره .

كلنا يأمل مداً في الأجل
والمنايا هن آفات العمل
إنما الدنيا كظل زائل
حل فيها راكب ثم ارتحل

* * * *

ثم دخلت سنة أربع ومئتين

فيها عفا المأمون عن عمه إبراهيم المهدي . وفيها واقع يحيى بن معاذ بابك الخرمي فلم يظفر به ،وفيها توفي الشافعي رحمه الله تعالى .

ثم دخلت سنة خمس ومئتين

وفيها ولى المأمون عيسى بن يزيد الجلودي مقاتلة الزُّط وولى عيسى بن محمد بن أبي خالد أذربيجان وأرمينية وأمره بمحاربة بابك الخرمي ، وفيها توفي أبو سليمان الأرني عبد الرحمن بن أحمد بن عطية . وقال أبو سليمان هذا : أفضل الأعمال مخالفة هوى النفس وقال : لكل شيء علم وعلم الخذلان ترك البكاء من خشية الله .

وقال : كل ما شغلك عن الله ؛ من أهل أو مال أو ولد فهو عليك مشؤوم . وقال : بينا أنا قد غفوت في محرابي إذ وقفت علي جارية تفوق الدنيا حسناً وبيدها ورقة وهي تقول : أتنام ياشيخ ؟ فقلت من غلبته عينه نام فقالت : كلا إن طالب الجنة لا ينام ثم قالت : أتقرأ ؟ فأخذت الورقة من يدها فإذا فيها مكتوب :

لهت بك لذة عن حسن عيش
مع الخيرات في غرف الجنان
تعيش مخلداً لا موت فيها
وتنعم في الجنان مع الحسان
تيقظ من منامك إن خيراً
من النوم التهجد بالقران

وقال : أما يستحي أحدهم أن يلبس عباءة بثلاثة دراهم وفي قلبه شهوة بخمسة دراهم ؟ وقد دفن في قرية داريّا .

ثم دخلت سنة ست ومئتين

وفيها ولى المأمون داود بن ماسجوز بلاد البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين وأمره بمحاربة الزط .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع ومئتين

وفيها توفي طاهر بن الحسين نائب العراق بكاملها وخراسان وقد دخل طاهر يوماً على المأمون فسأله حاجة فقضاها له ، ثم نظر إليه المأمون واغرورقت عيناه فقال له طاهر : مايبكيك يا أمير المؤمنين ؟ فلم يخبره فأعطى طاهر حسيناً الخادم مئتي ألف درهم حتى استعلم له ما كان خبر بكائه فقال له : لا تخبر به أحداً أقتلك ، ذكرت مقتل أخي ومانالـه من الإهانة على يدي طاهر ، والله لا تفوته مني ، فلما تحقق طاهر ذلك سعى في النقلة من بين يديه ، ولم يزل حتى ولاه خراسان ، وأطلق له خادماً من خدامه وعهد إلى الخادم إن رأى منه ما يريبه أنْ يَسُمَّه ، فلما خطب يوم الجمعة طاهر ولم يَدْعُ للمأمون سمه الخادم في كامخ فمات من ليلته وكان طاهر بن الحسين هذا يقال له : ذو اليمينين وكان بفرد عين فقال فيه عمرو ابن بانة :

يـــاذا اليمـــنين وعـــين واحـــده
نقـــصان عـــين ويمـــين زائـــده

ثم دخلت سنة ثمان ومئتين

وفيها كانت وفاة السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد ابن الحسن بن علي بن أبي طالب .

* * * *

ثم دخلت سنة تسع ومئتين

وفيها جرت حروب مع بابك الخرمي فأسر بابكُ بعض أمراء الإسلام وأحد مقدمي العساكر فاشتد ذلك على المسلمين .

* * * *

ثم دخلت سنة عشر ومئتين

بنى المأمون ببوران وأنفق الحسن بن سهل والد بوران على المأمون ما يعادل خمسين ألف ألف درهم .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى عشرة ومئتين

وفيها توفي أبو العتاهية وقد اتفق أن المهدي استدعى الشعراء فاجتمعوا وكان فيهم أبو العتاهية وبشار بن برد الأعمى فسمع صوت أبي العتاهية فقال بشار لجليسه : أههنا أبو العتاهية ؟ قال : نعم .

فوجم لها بشار ثم استنشد المهدي أبا العتاهية فانطلق ينشده قصيدته فيها التي أولها :

ألا مـــــا لـــــسيدتي مالهـــــا
أدلَّـــــت فأحمـــــل إدلالهـــــا

فقال بشار لجليسه : ما رأيت أجسر من هذا حتى انتهى أبو العتاهية إلى قوله :

أتتـــــه الخلافـــــة منقـــــادة
إليـــــه تجـــــرر أذيالهـــــا
فلـــــم تـــــك تـــــصلح إلا لـــــه
ولم يـــــك يـــــصلح إلا لهـــــا
ولـــــو رامهـــــا أحـــــد غـــــيره
لزلزلـــــت الأرض زلزالهـــــا
ولـــــو لم تطعـــــه بنـــــات القلـــــوب
لمـــــا قبـــــل الله أعمالهـــــا

فقال بشار لجليسه : انظر ويحك أطار الخليفة عن فراشه أم لا ؟ قال : فو الله ما خرج أحد من الشعراء بجائزة غيره .

* * * *

ثم دخلت سنة اثنتي عشرة ومئتين

وفيها أظهر المأمون في الناس بدعتين فظيعتين إحداهما أطمُّ من الأخرى وهي القول بخلق القرآن والأخرى تفضيل علي بن أبي طالب على الناس بعد رسول الله ﷺ وقد أخطأ في كل من هذين المذهبين خطأً كبيراً فاحشاً وأثم إثماً عظيماً ، ومن العلماء من يكفر من يقول بخلق القرآن .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومئتين

وفيها توفي العَكَوَّك الشاعر علي بن جبلة الخراساني وهو القائل في أبي دُلَفٍ العجلي يمتدحه :

إنما الدنيا أبو دلف
بين مغزاه ومحتضره

فإذا ولى أبو دلف
ولت الدنيا على أثره

كل من في الأرض من عرب
بين باديه إلى حضره

مستعير منك مكرمه
يلبسها يوم مفتخره

ولما بلغ المأمون هذه الأبيات قال : ومع هذا فلا أستحل قتلك بهذا ولكن بكفرك حيث تقول في عبد ذليل :

أنــت الــذي تُنْــزِلُ الأيــامَ منزلَهــا
وتنقــل الــدهر مــن حــال إلى حــال
ومــا مــددت مــدى طــرف إلى أحــد
إلا قـــضيت بـــأرزاق وآجـــال

ذاك يفعله الله فاخرجوا لسانه من قفاه .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع عشر ومئتين

وفيها التقى محمد بن حميد - الطوسي - وبابك الخرّمي لعنه الله فقتل الخرمي خلقاً كثيراً من جيشه وقتله أيضاً وانهزم بقية أصحاب ابن حميد فإنا لله وإنا إليه راجعون .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس عشرة ومئتين

وفيها توفي أبو زيد الأنصاري سعيد بن أوس بن ثابت البصري اللغوي أحد الثقات الأثبات .

قال أبو عثمان المازني رأيت الأصمعي جاء إلى مجلس أبي زيد الأنصاري فقبل رأسه وجلس بين يديه ، وقال : أنت رئيسنا وسيدنا منذ خمسين سنة .

* * * *

ثم دخلت سنة ست عشرة ومئتين

وفيها توفيت ابنة جعفر أمة العزيز الملقبة بزبيدة ، امرأة هارون الرشيد وأحب الناس إليه في زمانها مع ما كان معه من الحظايا والزوجات ، إنما لقبت زبيدة لأن جدها أبا جعفر المنصور كان يلاعبها ويرقصها وهي صغيرة ويقول : إنما أنت زبيدة لبياضها فغلب ذلك عليها فلا تعرف إلا به وروى الخطيب أنها حجت فبلغت نفقتها في ستين يوماً أربعة وخمسين ألف ألف درهم وذكر القاضي ابن خلكان أنه كان لها مئة جارية كلهن يحفظن القرآن العظيم ، وورد كل واحدة منهن عشر القرآن ، وكان يسمع لهن دوي في القصر كدوي النحل .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع عشرة ومئتين

فيها دخل المأمون الديار المصرية وظفر بعبدوس الفهري - وكان قد خرج عليه - فأمر المأمون فضربت عنقه .

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان عشرة ومئتين

في هذه السنة كتب المأمون إلى نائبه ببغداد إسحاق ابن إبراهيم يأمره أن يمتحن القضاة والمحدثين بالقول بخلق

القرآن ومضمونها أن القرآن محدث وليس بقديم . والقرآن الكريم كلام الله تعالى القائم بذاته المقدسة وما كان قائماً بذاته لا يكون مخلوقاً .

وامتحن العلماء وقامت الفتنة ، وأصر أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح الجند سابوري على الامتناع عن ذلك فقيدا وأرسلا إلى المأمون وهو بطرسوس فسارا مقيدين في محارة على جمل متعادلين وجعل الإمام أحمد يدعو الله عز وجل ألا يجمع بينهما وبين المأمون . فلما كانوا ببعض الطرق بلغهم موت المأمون .

كان المأمون يحب العلم ولم يكن له بصيرة نافذة فيه فدخل عليه بسبب ذلك الباطل وحمل الناس عليه قهراً ولم يتب من ذلك حتى أدركه أجله . بويع بعده بالخلافة أخوه المعتصم . وفي هذه السنة دخل خلق كثير من أهل همذان وأصبهان وما سبذان ومهرجان في دين الخرمية ، فجهز إليهم المعتصم جيوشاً كثيرة . وعلى يدي المعتصم جرت فتنه الإمام أحمد بن حنبل وضرب بين يديه .

وممن توفي في هذه السنة بشر المريسي المتكلم شيخ المعتزلة وأحد من أضل المأمون ، ثم غلب عليه علم الكلام وقد نهاه الشافعي من تعلمه وتعاطيه فلم يقبل وقال الشافعي : لأن يلقى الله العبد بكل ذنب ما عدا الشرك بالله أحب إلي من أن يلقاه بعلم الكلام ، ويقال إن أبا بشر كان يهودياً صباغاً بالكوفة .

ثم دخلت سنة تسع عشرة ومئتين

وفيها قتل إسحاق بن إبراهيم من الخرمية مئة ألف مقاتل ولله الحمد والمنة وفيها بعث المعتصم عجيفاً في جيش كثيف لقتال الزط الذين عاثوا في البصرة .

* * * *

ثم دخلت سنة عشرين ومئتين

دخل عجيف في السفن إلى بغداد ومعه من الزط سبعة وعشرون ألفاً قد جاؤوا بالأمان إلى الخليفة فأنزلوا في الجانب الشرقي ثم نفاهم الخليفة إلى عين زربة – من الثغور الشامية – فأغارت الروم عليها فاجتاجوهم عن آخرهم فلم يفت منهم أحد فكان آخر العهد بهم .

وقويت شوكة بابك الخرمي ، فسار الأفشين إليه وجرت بينهما حروب وهرب بابك إلى مدينته فأوى إليها مكسوراً .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين ومئتين

فيها كانت وقعة هائلة بين بُغا الكبير وبابك الخرمي فهزمه بابك ثم اقتتل الأفشين وبابك فهزمه الأفشين .

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين ومئتين

فيها افتتح الأفشين البذَّ – مدينة بابك – واستباح ما فيها ولله الحمد . ثم أسر الأفشين بابك .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومئتين

في يوم الخميس ثالث صفر من هذه السنة دخل الأفشين على المعتصم سامراء ومعه بابك الخرمي ولما أحضر بين يدي المعتصم أمر بقطع يديه ورجليه وحز رأسه وشق بطنه ثم أمر بحمل رأسه إلى خراسان وصلب جثته على خشبة بسامراء .

وكان بابك الخرمي قد قتل من المسلمين في مدى ظهوره لعنه الله وهي عشرون سنة مئتي ألف وخمسة وخمسين ألفاً وخمسمئة إنسان . قاله ابن جرير .

وأسر خلقاً لا يحصون كثرة ، وكان من جملة من استنقذه الأفشين من أسره نحو من سبعة آلاف وستمئة إنسان .

ولما قتله المعتصم توج الأفشين وقلده وشاحين من جوهر وأطلق له عشرين ألف ألف درهم وكتب له بولاية السند وكان الأفشين قد كتب إلى ملك الروم : إن كنت أردت الغنيمة فانهض سريعاً إلى ما حولك من بلاده فخذها

فإنك لا تجد أحداً يمانعك عنها ، فلما قدم ملك الروم قتلوا من رجالها خلقاً كثيراً وأسروا من حريمها أمة كثيرة .

ولما تفرغ المعتصم من شأن بابك – لعنه الله – تجهز جهازاً لم يتجهزه أحد كان قبله من الخلفاء وأخذ معه من آلات الحرب والنفط شيئاً لم يُسمع بمثله وعبأ الخليفة جيشه تعبئة لم يسمع بمثلها .

وقد ركب ملك الروم في جيشه ثم فرق المعتصم جيشه ثلاث فرق ؛ فالميمنة عليها الأفشين ، والميسرة عليها أشناس والمعتصم في القلب ، وبين كل عسكرين فرسخان وسار بهم كذلك قاصداً إلى عمورية وبينها وبين أنقرة سبع مراحل وقد فر أهل أنقرة منها ، فأول من وصل إليها أشناس فدار حولها دورة ثم نزل قريباً منها ، وقد تحصن أهلها وملؤوا أبراجها بالرجال والسلاح ، وهي مدينة عظيمة جداً ذات سور منيع وأبراج عالية كبيرة . وقد أرشده بعض من كان فيها من المسلمين الأسراء وكان قد تنصر إلى مكان في السور قد هدمه السيل وُبني بناء فاسداً ، ورجع هذا إلى الإسلام لما رأى المعتصم . فنصب المعتصم المجانيق حول عمورية فكان أول موضع انهدم هو ذلك الموضع الذي نصح فيه ذلك الأسير، فبادر أهل البلد فسدوه بالخشب الكبار المتلاصقة فألح عليه المنجنيق فكسرها ثم تكاثر الجنود المسلمون ودخلوا البلد قهراً والمسلمون يكبرون .

وكان العباس بن المأمون مع عمه المعتصم في غزاة عمورية ، وكان عجيف بن عنبسة قد ندَّمه إذ لم يأخذ الخلافة بعد أبيه المأمون ، ولم يزل حتى أجابه إلى قتل عمه المعتصم وأخذ البيعة سراً من الأمراء له وليقتل كل واحد منهم من يقدر عليه من رؤوس أصحاب المعتصم كالأفشين وأشناس وغيرهم من الكبار ، فلما كانوا بدرب الروم وهم قاصدون إلى أنقرة ومنها إلى عمورية أشار عجيف على العباس أن يقتل عمه في هذا المضيق وأن يرجع إلى بغداد فقال العباس : إني أكره أن أعطل على الناس هذه الغزوة ، فلما فتحوا عمورية واشتغل الناس بالغنائم أشار عليه أن يفتك به فوعده مضيق الدرب إذا رجعوا ، فلما رجعوا فطن المعتصم بالخبر ، وأخذ بالحزم ثم أمر المعتصم حينئذ بابن أخيه العباس فقيده وسلمه إلى الأفشين وأمر بعجيف وبقية من ذكر من الأمراء فقتل كل إنسان منهم بنوع من القتلات ، ومات العباس بن المأمون بمنبج فدفن هناك وكان سبب موته أنه جاع جوعاً شديداً ثم جيء بأكل كثير فأكل وطلب الماء فمنع منه حتى مات .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومئتين

فيها خرج رجل من آمل طبرستان يقال له : ما زيار بن قارن بن ونداهُرمز وكان ممن يكاتب بابك الخرمي ويعده

بالنصر ، ويقال : إن الذي قوى رأس مازيار هو الأفشين ليعجز عبد الله بن طاهر فيوليه المعتصم بلاد خراسان مكانه .

فأسر مازيار وحمل إلى عبد الله بن طاهر فاستقره على الكتب التي بعثها إليه الأفشين فأقربها فضربه المعتصم حتى مات وصلب إلى جانب بابك الحزمي .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومئتين

وفيها غضب المعتصم على الأفشين وأمر بسجنه فبنى له مكاناً كالمنارة من دار الخلافة يسمى الكوة إنما يسعه فقط وذلك حين تحقق أنه كان يريد مخالفته والخروج عليه وأنه يعزم على الذهاب إلى بلاد الخزر ليستجيش على المسلمين ، وعقد له المعتصم مجلساً فيه قاضيه أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي فاتهم الأفشين في هذا المجلس بأشياء تدل على أنه باق على دين أجداده من الفرس منها أنه ضرب رجلين إماماً ومؤذناً كل واحد ألف سوط لأنهما هدما بيت أصنام فاتخذاه مسجداً. واتهم بأن الأعاجم يكاتبونه فتقول : إلى إله الآلهة من عبيده . وأنه يقرهم على ذلك فقال له الوزير إسحاق بن إبراهيم : ويحك ماذا أبقيت لفرعون ؟ وأنه كان يكاتب مازيار وأنه كان يستطيب المنخنقة على المذبوحة ، وأنه في كل يوم أربعاء يستدعي بشاة سوداء فيضربها بالسيف نصفين ويمشي بينهما ثم يأكلها .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة ست وعشرين ومئتين

وفيها توفي الأفشين في الحبس فأمر به المعتصم ثم أحرق وجدوا في أمواله أصناماً مكللة بذهب وجوهر ، وكتباً في فضل دين المجوس وأشياء كثيرة كان يتهم بها تدل على كفره وزندقته ويتحقق بها ما ذكر عنه من الانتماء إلى دين آبائه المجوس لعنهم الله .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومئتين

وفيها كانت وفاة المعتصم يقال له المثمن لوجوه منها :

أنه ثامن ولد العباس .

وأنه ثامن الخلفاء من ذريته .

وأنه فتح ثمانية فتوحات .

وأنه قتل ثمانية أعداء .

وأنه أقام في الخلافة ثماني سنين وثمانية أشهر .

وأنه ولد سنة ثمانين ومئة في شعبان وهو الشهر الثامن . وأنه توفي وله من العمر ثمان وأربعون سنة .

وأنه خلف ثمانية بنين وثماني بنات .

وأنه دخل بغداد من الشام وهو خليفة في مستهل رمضان سنة ثماني عشرة ومئتين . وكان أمياً .

مرَّ يوماً في خلافة أخيه بمخيم الجند فإذا امرأة تقول : ابني ابني فقال لها : ما شأنك ؟ فقالت : ابني أخذه صاحب

هذه الخيمة فجاء اليه المعتصم فقال له : أطلق هذا الصبي فامتنع عليه فقبض على جسده بيده فسمع صوت عظامه من تحت يده ثم أرسله فسقط ميتاً وأمر بإخراج الصبي إلى أمه . قال القاضي أحمد بن أبي دؤاد : تصدق المعتصم على يدي ووهب ما قيمته مئة ألف ألف درهم . وقال غيره : كان المعتصم إذا غضب لا يبالي مَن قتل ولا ما فعل .

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : دخلت يوماً على المعتصم وعنده قينة له تغنيه فقال لي : كيف تراها ؟ فقلت : ياأمير المؤمنين ، أراها تقهره بحذق ، وتختله برفق ، ، ولا تخرج من شيء إلا إلى أحسن منه ، وفي صوتها قطع شذور أحسن من نظم الدر على النحور .

فقال : والله لصفتك لها أحسن منها ومن غنائها .

ثم قال لا بنه هارون الواثق ولي عهده من بعده : اسمع هذا الكلام . وقد استخدم المعتصم من الأتراك خلقاً عظيماً ، كان له من المماليك الترك قريب من عشرين ألفاً . كان المعتصم أبيض أصهب اللحية طويلها مربوعاً ومشرب اللون وهو أحد أولاد ستة من أولاد الرشيد كل منهم اسمه محمد وهم : أبو إسحاق المعتصم ، وأبو العباس الأمين ، وأبو عيسى وأبو أحمد وأبو يعقوب وأبو أيوب قاله هشام بن الكلبي. وقد قام من بعده ولده هارون الواثق . وممن توفي في هذه السنة بشر الحافي .

قال الإمام أحمد يوم بلغه موته : لم يكن له نظير إلا عامر بن عبد قيس ، ولو تزوج لكان قد تم أمره .

قال إبراهيم الحربي : ما أخرجت بغداد أتم منه عقلاً ، ولا أحفظ للسانه منه ، ما عرف به غيبة مسلم ، وكان في كل شعرة منه عقل ، ولو قسم عقله على أهل بغداد لصاروا عقلاء وما نقص من عقله شيء . وكان يتمثل بهذه الابيات :

تعاف القذى في الماء لا تستطيعه
وتكرع في حوض الذنوب فتشرب
وتؤثر من كل الطعام ألذه
ولا تذكر المختار من أين يكسب
فحتى متى لا تستفيق جهالة
وأنت ابن سبعين بدينك تلعب ؟

وكان بشر شاطراً في بدء أمره وأن سبب توبته أنه وجد رقعة فيها بسم الله عز وجل في أتون حمام فرفعها ورفع طرفه إلى السماء وقال : سيدي اسمك ههنا ملقى يداس . ثم ذهب إلى عطار فاشترى بدرهم غالية وضمخ تلك الرقعة منها ووضعها حيث لا تنال ، فأحيا الله قلبه وألهمه رشده . وحين مات اجتمع في جنازته أهل بغداد على بكرة أبيهم فأخرج من بعد صلاة الفجر فلم يستقر في قبره إلا بعد العتمة .

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ومئتين

وفيها مات أبو تمام الطائي الشاعر صاحب الحماسة وكان فطناً فهماً يحب الشعر ، وكان موصوفاً بالظرف

وحسن الأخلاق وكرم النفس كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة غير القصائد . وقد كان الشعراء في زمانه جماعة فمن مشاهيرهم أبو الشيص ودعبل الخزاعي وكان أبو تمام من خيارهم ديناً وأدباً وأخلاقاً . رثاه بعضهم فقال :

فجـع القـريض بخـاتم الـشعراء
وغـدير روضـتها حبيـب الطـائي

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومئتين

في هذه السنة أمر الواثق بضرب الدوّاوين – الكتاب – واستخلاص الأموال منهم فمنهم من ضرب ألف سوط ، ومنهم من أخذ منه ألف ألف دينار .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاثين ومئتين

في هذه السنة توفي عبد الله بن طاهر نائب خراسان وما والاها من البلدان وكان خراج ما تحت يده ثمانية وأربعين ألف ألف درهم .

من شعره قوله :

نحـن قـوم تليننـا الحـدق النجـ
ـل على أننـا نلـين الحديـدا

طـــوع أيـــدي الظبـــاء تقتادنـــا العيـــ
ـــــن ونقتـــاد بالطعـــان الأســـودا
نملـــك الـــصيد ثـــم تملكنـــا البيـــ
ـــــض المـــصونات أعينـــاً وخـــدودا
تتقـــي ســـخطنا الأســـود ونخـــشى
سـخط الخـشف حـين يبـدي الـصدودا
فترانـــا يـــوم الكريهـــة أحـــرا
ـــــراً وفي الـــسلم للغـــواني عبيـــدا

ولاه المأمون نيابة بلاد الشام وديار مصر لما صار إليها ، نظـر إليهـا فاحتقرهـا وقـال : قـبح الله فرعـون ماكـان أخـسه وأضـعف همتـه حـين ملـك هـذه القريـة وقـال : أنـا ربكم الأعلى .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومئتين

وفيها كان مقتل أحمد بن نصر الخزاعي رحمه الله وأكرم مثواه .

قام يدعو إلى الله تعالى وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق قتله الواثق بصمصامة عمرو بن معد يكرب الزبيدي .

وكان أحمد بن نصر هذا رحمه الله تعالى رحمة واسعة من أكابر العلماء العاملين وممن كان قائماً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ذكره الإمام أحمد بن حنبل يوماً فقال : رحمه الله ما كان أسخاه ، لقد جاد بنفسه لله عز وجل .

قال جعفر بن محمد الصائغ : ضربت عنقه ويقول رأسه : لا إلاله إلا الله .

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين ومئتين

فيها مات الواثق وكان قد جمع أصحاب النجوم لينظروا كم تدوم أيام دولته فأجمعوا أنه يعيش دهراً طويلاً وقدروا له خمسين سنة مستقبلة فلم يلبث بعد قولهم إلا عشرة أيام حتى مات ، وبويع بعده للمتوكل .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومئتين

وفيها أمر الخليفة المتوكل على الله بالقبض على محمد ابن عبد الملك الزيات وزير الواثق الذي قتل أحمد بن نصر الخزاعي بشهادة ابن الزيات أنه كافر فأمر أن يعذب فمنع من الطعام وجعلوا يساهرونه كلما أراد الرقاد نخس بالحديد ثم وضع بعد ذلك كله في تنور من خشب فيه مسامير قائمة في أسفله فأقيم عليها كذلك أياماً يمنع من الرقاد حتى مات وهو كذلك ثم دفعت جثته إلى أولاده فدفنوه فنبشت عليه الكلاب فأكلت جلده ولحمه .

وكان قيمة ما وجد له من الحواصل نحواً من تسعين ألف ألف دينار . وقد فلج أحمد بن أبي دؤاد الذي أشار أيضاً بكفر أحمد بن نصر الخزاعي رحمه الله .

* * * *

ثم دخلت سنة اربع وثلاين ومئتين

وفيها خرج محمد بن البعيث عن الطاعة في بلاده من أذربيجان فقدم بغا الشاربي فلم يزل به حتى أسره .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومئتين

فيها أمر المتوكل أهل الذمة أن يتميزوا عن المسلمين في لباسهم وعمائمهم وثيابهم وأن يتطيلسوا بالمصبوغ بالعسلي وأن يكون على غلمانهم رقاع مخالفة للون ثيابهم من خلفهم ومن بين أيديهم وأن يلزموا بالزنانير الخاصة لثيابهم ، وأن يحملوا في رقابهم كرات من خشب كثيرة وأن لا يركبوا خيلاً ولتكن ركبهم من خشب وأن لا يستعملوا في شيء من الدواوين ، وأمر بتخريب كنائسهم المحدثة وبتضييق منازلهم المتسعة ، وأن يعمل ما كان متسعاً كبيراً مسجداً .

* * * *

ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومئتين

وفيها أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي بن أبي طالب وما حوله من المنازل والدور .

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومئتين

قال أبو العتاهية يهجو ابن أبي دؤاد :

لـو كنـت في الـرأي منـسوباً إلى رشـد
وكـان عزمـك عزمـاً فيـه توفيـق
لكـان في الفقـه شـغل لـو قنعـت بـه
عـن أن تقـول : كتـاب الله مخلـوق

وفيها غضب المتوكل على أحمد بن أبي دؤاد القاضي المعتزلي فحبسه وأمر بمصادرته ثم كتب في الآفاق الكف عن القول بخلق القرآن ، وأظهر إكرام الإمام أحمد بن حنبل وارتفع شأن السنة جداً في أيام المتوكل – عفا الله عنه – وكان لا يولي أحداً إلا بعد مشورة الإمام أحمد بن حنبل .

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين مئتين

وفيها جاء الفرنج في نحو ثلاثمئة مركب قاصدين ديار مصر من ناحية دمياط فدخلوها فجأة فقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً وحرقوا المسجد الجامع والمنبر وأسروا من النساء نحواً من ستمئة امرأة ؛ من المسلمات مئة وخمس وعشرون والباقيات من نساء القبط . ثم رجعلوا ولم يعرض لهم أحد .

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين ومئتين

فيها نفى المتوكل علي بن الجهم إلى خراسان .

وفيها توفي أحمد بن عاصم الأنطاكي الواعظ الزاهد كان من طبقة الحارث المحاسبي وبشر الحافي وكان أبو سليمان الداراني يسميه جاسوس القلوب لحدة فراسته ، ومن مستجاد كلامه قوله : من الغنيمة الباردة أن تصلح ما بقي من عمرك فيغفر الله لك ما مضى منه .

وقال : من كان بالله أعرف كان له أخوف .

* * * *

ثم دخلت سنة أربعين ومئتين من الهجرة

وفيها توفي أحمد بن أبي دؤاد ، من أخباره أن شيخاً دخل على الواثق فسلم فقال : لا سلم الله عليك . فقال : ياأمير المؤمنين بئس ما أدبك معلمك قال الله تعالى ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ (النساء : ٨٦) ، فقال ابن أبي دؤاد : ياأمير المؤمنين الرجل متكلم ، فقال : ناظره . فقال ابن أبي دؤاد : ما تقول ياشيخ في القرآن أمخلوق هو ؟ فقال الشيخ : لم تنصفني . المسألة لي .

فقال : قل فقال : هذا الذي تقوله ، علمه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، أو ما علموه ؟

فقال : لم يعلموه . قال : فأنت علمت مالم يعلموا ؟ فخجل وسكت . ثم قال : أقلني ، بل علموه . قال : فلم لا دعوا الناس

إليه كما دعوتهم أنت ، أما وسعك ما وسعهم ؟ فسكت ابن أبي دؤاد . وأمر الواثق له بجائزة نحو من أربعمئة دينار . قال المهتدي بن الواثق : فدخل أبي المنزل واستلقى على ظهره وجعل يكرر قول الشيخ على نفسه ويقول: أما وسعك ما وسعهم ؟

وسقط من عينه ابن أبي دؤاد ولم يمتحن بعده أحداً . وقد أنشد ثعلب عن أبي الحجاج الأعرابي أنه قال في ابن أبي دؤاد :

نكست الدين يا ابن أبي دؤاد
فأصبح من أطاعك في ارتداد
زعمت كلام ربك كان خلقاً
أما لك عند ربك من معاد ؟

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومئتين

وفيها توفي الإمام أحمد بن حنبل

قال حرملة : سمعت الشافعي يقول : خرجت من العراق فما خلفت بها رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أورع ولا أتقى من أحمد بن حنبل .

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين ومئتين

فيها كانت زلازل هائل بمدينة قوس تهدمت منها دور كثيرة ، ومات من أهلها نحو من خمسة وأربعين ألفاً وكانت باليمن وخراسان وفارس والشام وغيرها من البلاد زلازل منكرة .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومئتين

وفيها توجه المتوكل من العراق قاصداً مدينة دمشق ، ليجعلها دار إقامته ومحلة إمامته ، فأدركه عيد الأضحى وهو بمدينة بلد فضحى بها وتأسف أهل العراق على ذلك فقال في ذلك يزيد بن محمد المهلبي :

أظن الشام تشمت بالعراق
إذا عزم الإمام على انطلاق
فإن تدع العراق وساكنيها
فقد تبلى المليحة بالطلاق

وفيها توفي إبراهيم بن العباس الصولي الشاعر المشهور وهو القائل :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى
ذرعاً وعند الله منها مخرج
ضاقت ، فلما استحكمت حلقاتها
فرجت وكنت أظنها لا تفرج

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومئتين

في صفر منها دخل الخليفة المتوكل إلى مدينة دمشق في أبهة الخلافة ، وأمر ببناء القصور فبنيت بطريق داريا وأقام بها مدة ثم استوخمها ، ورأى أن هواءها بارد ندي ،

وماءها ثقيل بالنسبة إلى هواء العراق ومائه ، ورأى الهواء يتحرك من بعد الزوال في زمن الصيف ، فلا يزال في اشتداد وغبار إلى قريب من ثلث الليل ، ورأى كثرة البراغيث بها ، ودخل عليه فصل الشتاء فرأى من كثرة الأمطار والثلوج أمراً عجيباً .

فضجر منها ثم رجع في آخر السنة إلى سامراء بعدما أقام بدمشق شهرين وعشرة أيام .

وفي هذه السنة أتي المتوكل بالحربة التي كانت تحمل بين يدي رسول الله ﷺ يوم العيد وغيره ، وقدكانت للنجاشي فوهبها للزبير بن العوام فوهبها الزبير للنبي ﷺ .

فلما صارت للمتوكل فرح بها فرحاً شديداً وأمر صاحب الشرطة أن يحملها بين يديه كما كانت تحمل بين يدي رسول الله ﷺ .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومئتين

فيها أمر المتوكل ببناء مدينة الماحوز وحفر نهر لها فيقال : إنه أنفق على بنائها وبناء قصر للخلافة فيها يقال له : اللؤلؤ ألفي ألف دينار ، وفيها وقعت زلازل كثير في

بلاد شتى فمن ذلك بمدينة أنطاكية سقط منها ألف وخمسمئة دار ، وسقط الجبل الذي إلى جانبها الذي يقال له الأقرع فساح في البحر فهاج البحر عندئذ وارتفع منه دخان أسود مظلم منتن ، وسمع أهل تنّيس ضجة دائمة طويلة مات منها خلق كثير وزلزلت فيها بالس والرقة وحران ورأس العين وحمص ودمشق والرها وطرسوس والمصيصة وأذنة وسواحل الشام ورجفت اللاذقية فما بقي منها منزل إلا انهدم وذهبت جبلة بأهلها .

* * * *

ثم دخلت سنة ست وأربعين ومئتين

وفي شعبان منها مطرت بغداد مطراً عظيماً استمر نحواً من أحد وعشرين يوماً ووقع بأرض بلخ مطر ماؤه دم عبيط – طري –

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومئتين

وفيها كان مقتل المتوكل على يدي ولده المنتصر حيث بويع له بالخلافة كما قتل مع الخليفة المتوكل وزيره الفتح بن خاقان .

وفيها توفي أبو عثمان المازني النحوي روى عنه المبرد أن رجلاً من أهل الذمة طلب منه أن يقرأ عليه كتاب

سيبويه ويعطيه مئة دينار ، فامتنع من ذلك ، فلامه بعض الناس في ذلك فقال : إنما تركت هذا لما فيه من آيات الله تعالى فاتفق بعد هذا أن جارية غنت بحضرة الواثق :

أظلوم إن مصابكم رجلاً

رد السلام تحية ظلم

فاختلف من بحضرة الوائق في إعراب هذا البيت ، وهل يكون (رجلاً) مرفوعاً أو منصوباً وبم نصب ؟ وأصرت الجارية على أن المازني حفظها هذا هكذا قال : فأرسل الخليفة إليه ، فلما مثل بين يديه قال : أنت المازني ؟ قال : نعم فقال : علام تنصب رجلاً ؟ فقلت : لأنه معمول المصدر (مصابكم) فأخذ اليزيدي يعارضه ، فعلاه المازني بالحجة ، فأطلق له الخليفة ألف دينار ورده إلى أهله مكرماً ، فعوضه الله عن المئة دينار لما تركها لله سبحانه وتعالى .

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومئتين

ذكر ابن جرير عن بعض أصحابه أنه لم يزل يسمع الناس يقولون : إنه لا يمكث في الخلافة سوى ستة أشهر ، كما مكث شيرويه بن كسرى حين قتل أباه لأجل الملك ، وكذلك وقع سواء بسواء .

قيل : فصده الحجام بمفصد مسموم فمات من يومه ولما رجع هذا الحجام وهو محموم دعا تلميذاً له ليفصده ، فأخذ مباضع أستاذه وهو لا يشعر فاختار منها أجودها فإذا به ذلك المبضع المسموم الذي فصد به الخليفة فتحكم فيه السم فأوصى عند ذلك ومات من يومه .

وبويع بعده المستعين أحمد بن محمد بن المعتصم .

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وأربعين ومئتين

وفيها نهض عامة أهل سامراء إلى السجن فأخرجوا من فيه ، وجاءهم قوم من الجيش فهزمتهم العامة ، فركب عند ذلك وصيف وبغا الصغير وعامة الأتراك فقتلوا من العامة خلقاً كثيراً .

ثم وقعت الفتنة بين الأتراك أنفسهم فقتل شاهك الخادم أتامش التركي .

* * * *

سنة خمسين ومئتين من الهجرة

وفيها كان ظهور يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين ابن زيد فلما استفحل أمره قتل وحمل رأسه إلى بغداد .

ثم خرج من أهل البيت أيضاً الحسن بن زيد واستفحل أمره .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ومئتين

في هذه السنة وقعت فتنة شنعاء بين جند بغداد وجند سامراء ، دعا أهل سامراء إلى بيعة المعتز واستقر أهل بغداد على المستعين ، واستمرت الفتنة وقتل من الفريقين خلق كثير.

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين ومئتين

استهلت هذه السنة وقد استقرت الخلافة باسم أبي عبد الله المعتز بن جعفر المتوكل وذلك بعد أن خلع المستعين نفسه ثم قتل المعتز المستعين .

ودخلت سنة ثلاث وخمسين ومئتين

وفيه خرج عبد العزيز بن أبي دلف بناحية همذان فهزمه موسى بن بُغا الكبير وأسروا عبد العزيز هذا وبعثوا إلى الخليفة بسبعين حملاً من الرؤوس .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وخمسين ومئتين

وفيها أمر الخليفة المعتز بقتل بغا الشرابي ونصب رأسه بسامراء ثم ببغداد وحرقت جثته وأخذت أمواله .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومئتين

وفيها قتل المعتز إذ طالبه الجند بأرزاقهم فلم يكن عنده ما يعطيهم فتناولوه بالدبابيس وأمه – واسمها قبيحة – كانت تحوز من الأموال على ما يقارب من ألفي ألف دينار وكانت مختفيه عند صالح بن وصيف ثم نزحت عنه فكانت تدعو عليه تقول : اللهم أخز صالح بن وصيف كما هتك ستري وقتل ولدي وبدد شملي وأخذ مالي وغربني عن بلدي وركب الفاحشة مني .

وقد كان الأتراك قد طلبوا من ابنها المعتز خمسين ألف دينار تصرف في أرزاقهم ، وضمنوا له أن يقتلوا صالح ابن وصيف فلم يكن عنده من ذلك شيء فطلب من أمه قبيحة – قبحها الله – أن تقرضه ذلك فأظهرت له أنه لا شيء عندها ثم لما قتل ابنها ظهر ما كان عندها من المال والزمرد والجواهر والياقوت الأحمر مالم ير مثله .

وفيها توفي الجاحظ ، وكان شنيع المنظر ، سيء المخبر ، رديء الاعتقاد .

ثم دخلت سنة ست وخمسين ومئتين

وفيها قتل صالح بن وصيف ، وفيها قتل المهتدي وبويع بالخلافة المعتمد على الله أحمد بن المتوكل وفيها توفي البخاري . وقد أثنى عليه علماء زمانه من شيوخه وأقرانه فقال الإمام أحمد : ما أخرجت خراسان مثله . وقال مسلم : أشهد أنه ليس في الدنيا مثلك .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وخمسين ومئتين

وفيها هاجم الزنج البصرة فقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً ثم نادى فيها أحد أصحاب الخبيث صاحب الزنج : من أراد الأمان فليحضر ، فاجتمع خلق كثير من أهلها فغدر بهم وأمر بقتلهم . وفيها قتل العباس بن الفرج الرياشي النحوي اللغوي قتله الزنج بالبصرة فيمن قتلوا ، وقد ادعى صاحب الزنج أنه منتسب إلى يحيى بن زيد ، وهو كاذب في ذلك بالإجماع لأن يحيى بن زيد لم يعقب إلا بنتاً ماتت وهي ترضع فقبح الله هذا اللعين ما أكذبه !

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين ومئتين

وفيها أسر يحيى بن محمد البحراني أحد أمراء صاحب الزنج الكبار فقطعت يداه ورجلاه من خلاف ثم

ذبح وأحرق وكان صاحب الزنج المدعي إلى غير أبيه ، يقول لأصحابه : لقد عرضت علي النبوة فخفت ألا أقوم بأعبائها فلم أقبلها .

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وخمسين ومئتين

وفيها دخل يعقوب بن الليث إلى نيسابور ، فظفر بالخارجي الذي كان بهراة ينتحل الخلافة منذ ثلاثين سنة فقتله ، وحمل رأسه على رمح ، وطيف به في الآفاق .

* * * *

ثم دخلت سنة ستين ومئتين

وفيها قتل صاحبُ الزنج المستحوذ على البصرة عليَّ ابن زيد صاحب الكوفة . وفيها توفي حنين بن إسحاق الطبيب المشهور .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وستين ومئتين

وفيها توفي مسلم بن الحجاج صاحب (الصحيح) وهو تلو الصحيح البخاري ، وذهب المغاربة إلى تفضيل صحيح مسلم على صحيح البخاري لكونه ليس فيه شيء

من التعليقات إلا القليل وأنه يسوق الأحاديث بتمامها في موضع واحد ، ولا يقطعها كتقطيع البخاري لها في الأبواب. وهذا القدر لا يوازي قوة أسانيد البخاري .

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وستين ومئتين

فيها قدم يعقوب بن الليث في جحافل فدخل واسط قهراً ، فخرج الخليفة المعتمد بنفسه من سامراء لقتاله ، فاقتتلوا في رجب قتالاً عظيماً هائلاً ثم كانت الغلبة على يعقوب وأصحابه .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومئتين

فيها جرت مقتلة عظيمة في الزنج قبحهم الله ، وفيها سلمت الصقالبة حصن لؤلؤة إلى طاغية الروم لعنه الله .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وستين ومئتين

وفيها توفي أبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم الرازي أحد الحفاظ المشهورين قيل : إنه كان يحفظ سبعمئة ألف حديث .

وفيها كانت وفاة قبيحة أم المعتز إحدى حظايا المتوكل جمعت من الجواهر واللالئ والذهب والمصاغ مالم يعهد لمثلها ثم سلبت ذلك كله ، وقُتل ولدها المعتز لأجل نفقات الجند وشحت عليه بخمسين ألف دينار تداري بها عنه .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة خمس وستين ومئتين

وفي المحرم من هذه السنة حاصر أحمد بن طولون نائب الديار المصرية مدينة أنطاكية وفيها سيما الطويل فلم يزل حتى فتحها وقتل سيما الطويل وأقام بها حتى جاءته هدايا ملك الروم وفي جملتها أسارى من المسلمين مع كل أسير مصحف .

وفيها توفي أحمد بن منصور الرمادي ، وقد صحب الإمام أحمد وكان يعد من الأبدال .

وفيها توفي يعقوب بن الليث أحد الملوك العقلاء الأبطال ، ولكن كان قد خرج عن طاعة الخليفة وقاتله أبو أحمد الموفق ولما مات ولّوا أخاه عمرو بن الليث ما كان يليه أخوه يعقوب مع شرطة بغداد وسامرا .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة ست وستين ومئتين

وفيها وقعت الفتنة بالمدينة ونواحيها بين الجعفرية والعلوية وفيها عمل محمد بن عبد الرحمن الداخل خليفة الأندلس وبلاد المغرب مراكب في نهر قرطبة ليدخل بها إلى البحر المحيط لتسير الجيوش في أطرافه إلى بعض البلدان ليقاتلوهم فلما دخلت المراكب البحر المحيط تكسرت وتقطعت ولم ينج من أهلها إلى اليسير وغرق أكثرهم .

وفيها التقى أسطول المسلمين وأسطول الروم ببلاد صقلية فاقتتلوا فقُتل من المسلمين خلق كثير فإنا لله وإنا إليه راجعون .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة سبع وستين ومئتين

فيها وجه أبو أحمد الموفق ولده أبا العباس في نحو من عشرة آلاف فارس وراجل لقتال الزنج ، فكان بينهم وقعات مشهورة واستحوذ أبو العباس بن الموفق ما كان استولى عليه الزنج ببلاد واسط وأراضي دجلة ، هذا وهو شاب حدث لا خبرة له بالحرب ولكن فتح الله على يديه ثم سار الموفق إلى المدينة التي يقال لها : المنصورة من إنشاء الزنج أيضاً وبها سليمان بن جامع محاصرها وقاتلوه دونها فقتل خلق كثير الفريقين ورمى أبو العباس بن الموفق أحمد

ابن مهدي بسهم فأصابه في دماغه فقتله وكان من أكابر أمراء صاحب الزنج فشق ذلك عليه جداً .

وتقدم الموفق فصلى وابتهل إلى الله في الدعاء واجتهد في حصارها فهزم الله مقاتلتها وانتهى إلى خندقها فإذا هو حصِّن غاية التحصين ، وإذا هم قد جعلوا حول البلد خمسة خنادق وخمسة أسوار فقهرهم حتى انتهى إلى البلد فقتل منهم خلقاً كثيراً وهرب بقيتهم وأسر من نساء الزنج ومن حلائل سليمان بن جامع وذويه نساء كثيرة وصبياناً واستنقذ من أيديهم النساء المسلمات والصبيان من أهل البصرة والكوفة وواسط نحواً من عشرة آلاف نسمة فسيرهم إلى أهليهم جزاه الله خيراً .

وكتب الموفق إلى صاحب الزنج قبحه الله كتاباً يدعوه فيه إلى التوبة والإنابة مما ارتكبه من المآثم والمظالم والمحارم ودعوى النبوة والرسالة وببذل الأمان إن هو رجع إلى الحق . فلم يرد عليه صاحب الزنج جواباً .

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وستين ومئتين

في المحرم استأمن جعفر بن إبراهيم المعروف بالسجان — وكان من أكابر أمراء صاحب الزنج — الموفق فأمنه وفرح به وخلع عليه ، فنادى في الناس وأعلمهم

بكذب صاحب الزنج وفجوره ، فاستأمن بسبب ذلك بشر كثير منهم .

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وستين ومئتين

في هذه السنة اجتهد الموفق في تخريب سور مدينة صاحب الزنج وتمكن الجيوش من العبور إلى البلد ، ولكن جاءه سهم في صدره كاد يقتله وخاف الناس جداً من صاحب الزنج ثم مَنّ الله عليه بالعافية ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً فتابع الحصار وقد رمم الخبيث كثيراً مما خربه الموفق وما انفك حتى خرب المدينة واستلب من أموالهم شيئاً كثيراً وغنم مالا يحد ولا يوصف كثرة وأسر خلقاً من نساء الزنج واستنقذ من نساء المسلمين وصبيانهم خلقاً كثيراً .

* * * *

ثم دخلت سنة سبعين ومئتين من الهجرة النبوية

فيها قدم على الموفق لؤلؤة غلام أحمد بن طولون منابذاً لسيده سميعاً مطيعاً للموفق ، فأكرمه وعظمه وأعطاه وخلع عليه وبعثه طليعة بين يديه لقتال صاحب الزنج فقصدوا الخبيث وقد تحصن ببلدة أخرى فلم يزل محاصراً حتى قتل واستحوذ على ما كان بها من الأموال وأسروا

عامة من كان معه ، منهم سليمان بن جامع ، وأتي برأس الخبيث مع غلام لؤلؤة فخر الموفق لله ساجداً وانتهت أيام صاحب الزنج المدعي الكذاب قبحه الله .

وفيها توفي أحمد بن طولون وكان أبوه من الأتراك وحكى ابن خلكان أن طولون لم يكن أباه ، وإنما تبناه وقد كان ظاهر النجابة . وكانت أمه جارية اسمها هاشم . واتفق أنه بعثه طولون في حاجة ليأتيه بها من قصر الإمارة فذهب فإذا حظية من حظايا أبيه مع بعض الخدم في فاحشة فأخذ حاجته التي أمره بها وكر راجعاً إليه سريعاً ولم يخبره بشيء مما رأى من ذلك . فتوهمت الحظية أن يكون أحمد قد أخبر طولون فجاءت إلى طولون فقالت : إن أحمد جاءني الآن إلى المكان الفلاني وراودني عن نفسي وانصرفت إلى قصرها ، فاستدعى أحمد وكتب معه كتاباً وختمه إلى بعض الأمراء أن إذا وصل إليك حامل هذا الكتاب فاضرب عنقه وابعث برأسه سريعاً إلي .

فذهب أحمد ولا يدري ما في الكتاب فاجتاز في طريقه بقصر تلك الحظية فاستدعته إليها فقال : إني مشغول بهذا الكتاب لأوصله إلى فلان فقالت : هلم فلي إليك حاجة ، وأرادت أن تحبسه عندها ليكتب لها كتاباً لتحقق في ذهن الملك ما ذكرته من أمره ، وأرسلت بذلك الكتاب مع الخادم الذي كانت هي وإياه على الفاحشة ، وجلس أحمد يكتب لها الكتاب ، وذهب ذلك الخادم إلى

الأمير بالكتاب فلما قرأه أمر بضرب عنقه وأرسل برأسه إلى الملك طولون فتعجب الملك وقال : أين أحمد ؟ فطلب له فقال : ويحك أخبرني كيف صنعت منذ خرجت بين يدي ؟ فأخبره بما جرى من الأمر ، ولما سمعت تلك الحظية بأن رأس الخادم قد أُتي به إلى الملك سقط في يدها وتوهمت أن الملك قد تحقق الحال فقامت إليه معتذرة واعترفت بالحق وبرأت ساحة أحمد فحظي عنده أوصى له بالملك من بعده .

ثم ولي نيابة الديار المصرية للمعتز ، وكان من أحفظ الناس لتلاوة القرآن ومن أطيبهم صوتاً به ، وكان له صدقات كثيرة جداً وإحسان زائد .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين ومئتين

وفيها توفيت بوران بنت الحسن بن سهل زوجة المأمون، عقد عليها المأمون ولها عشر سنين وأنفق والدها على المأمون وعسكره في أيام زواج المأمون خمسين ألف ألف درهم .

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين ومئتين

وفيها دخل حمدان بن حمدون وهارون الشاري مدينة الموصل وصلى بهم الشاري في جامعها الأعظم.

وفيها تحركت بقية الزنج في أرض البصرة ونادوا : يا أنكلاي يا منصور وكان أنكلاي ابن صاحب الزنج وسليمان بن جامع وأبان بن علي المهلبي وجماعة من وجوه أمرائهم في حبس الموفق فبعث إليهم فقتلوا وحملت رؤوسهم إليه وصلبت أبدانهم ببغداد وسكنت الشرور .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومئتين

فيها عدا أولاد ملك الروم على أبيهم فقتلوه وتملك بعده أحد أولاده .

وفيها توفي محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الأموي صاحب الأندلس .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وسبعين ومئتين

وفيها دخل صدّيق الفرغاني سامرا ، فنهب دور التجار بها وكر راجعاً وقد كان هذا الرجل ممن يحرس الطرقات فترك ذلك وأقبل يقطعها وضعف الجند بسامرا عن مقاومته .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس وسبعين ومئتين

في هذه السنة سجن أبو أحمد الموفق ابنه أبا العباس المعتضد في دار الإمارة وكان سبب ذلك أنه أمره بالمسير إلى بعض الوجوه فامتنع أن يسير إلا إلى الشام التي كان عمه المعتمد ولاه إياها فغضب عليه وأمره بسجنه ثم أطلقه .

* * * *

ثم دخلت سنة ست وسبعين ومئتين

في هذه السنة لما رجع حجاج اليمن نزلوا في بعض الأماكن فجاءهم سيل فلم يشعروا به حتى غرقهم كلهم فلم يفلت منهم أحد .

وفيها انفرج تل في أرض البصرة يعرف بتل بني شقيق عن سبعة أقبر في مثل الحوض وفيه سبعة أبدانهم صحيحة وأكفانهم يفوح منها ريح المسك . أحدهم شاب به ضربة في خاصرته .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وسبعين ومئتين

توفيت عُريب المأمونية . قال بعضهم إنها ابنة جعفر بن يحيى البرمكي سرقت وهي صغيرة عند ذهاب دولة البرامكة وبيعت فاشتراها المأمون بن الرشيد ثم روى عن

حماد بن إسحاق عن أبيه أنه قال : ما رأيت امرأة قط أحسن وجهاً وأدباً وغناء وضرباً وشعراً ولعباً بالشطرنج والنرد منها ، وقد كانت شاعرة مُطبقة فصيحة بليغة وكان المأمون يتعشقها ثم أحبها بعده المعتصم ، وكانت هي تتعشق لرجل يقال له : محمد بن حامد ، وربما أدخلته إليها في دار الخلافة قبحها الله ، ثم تعشقت صالحاً المنذري وتزوجته سراً ، وكانت تقول فيه الشعر وربما غنته بين يدي المتوكل ولا يشعر فيمن هو فتضحك جواريه من ذلك فتقول : ياسحاقات هذا خير من عملكن .

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين ومئتين

في هذه السنة تحركت القرامطة وهم فرقة من الزنادقة الملاحدة يعتقدون نبوة زرادشت ومزدك وكانا يبيحان المحرمات ويقال لهم الإسماعيلية ويقال لهم : الباطنية لأنهم يظهرون الرفض ويبطنون الكفر المحض والخرمية والبابكية نسبة إلى بابك الخرمي .

قال ابن الجوزي : وقد بقي من البابكية جماعة يقال: إنهم يجتمعون في كل سنة ليلة هم ونساؤهم ، ثم يطفئون المصباح فمن وقعت في يده امرأة حلت له ويقولون : هذا اصطياد مباح . لعنهم الله .

وفيها توفي الموفق تغمده الله برحمته وكان سبب وفاته أنه أصابه مرض النقرس .

وقام بالأمر من بعده ولده أبو العباس أحمد بن الموفق الملقب بالمعتضد .

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وسبعين ومئتين

فيها تولى الخلافة أبو العباس بن الموفق بن المتوكل وكان من خيار خلفاء بني العباس ورجالهم ، وفيها تزوج المعتضد بابنة خمارويه ، فجهزها أبوها بجهاز لم يسمع بمثله ، وفيها توفي أمير المؤمنين المعتمد – كما تقدم – وفيها توفي الترمذي ، يرحمه الله تعالى .

* * * *

ثم دخلت سنة ثمانين ومئتين

فيها قتل المعتضد رجلاً من أمراء الزنج ذكر له أنه كان يدعو إلى رجل لا يعرف من هو وقد أفسد جماعة وفيها زلزلت أدربيل ست مرات ومات تحت الردم مئة ألف وخمسون ألفاً .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين ومئتين

فيها دخل المسلمون بلاد الروم فغنموا وسلموا ولله الحمد .

وفيها تكامل غور مياه الري وطبرستان وغلت الأسعار جداً وجهد الناس وقحطوا حتى أكل بعضهم بعضاً فكان الرجل يأكل ابنه وابنته فإنا لله وإنا إليه راجعون . وفيها وصلت قطر الندى بنت خمارويه إلى بغداد .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين ومئتين

وفيها نهى المعتضد أن يعمل الناس في يوم النيروز ما كانوا يتعاطونه من إيقاد النيران وصب الماء وغير ذلك من الأفعال المشابهة للمجوس .

وفي هذه السنة قدم البريد فأخبر المعتضد بأن خمارويه ذبحه بعض خدامه على فراشه وولوا بعده ولده جيشاً ثم قتلوه ونهبوا داره ثم ولوا هارون بن خمارويه وقد التزم في كل سنة ألف ألف دينار وخمسمئة ألف دينار تحمل إلى باب الخلافة فأقره المعتضد على ذلك .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين ومئتين

وفيها توفي ابن الرومي الشاعر علي بن العباس بن جريج ومن لطيف شعره :

يامستحل دمي محرِّم رحمتي
ما أنصف التحليل والتحريم

وفيها توفي البحتري الوليد بن عبادة الطائي الشاعر المشهور وقيل له : إنك أشعر من أبي تمام فقال : لولا أبو تمام ما أكلت الخبز . كان أبو تمام أستاذنا .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وثمانين ومئتين

وفي هذه السنة أمر المعتضد بلعن معاوية وكتبت نسخ بلعن معاوية وذكر فيها ذمه وذم ابنه يزيد بن معاوية وجماعة من بني أمية .

فلم يزل به الوزير حتى قال له فيما قال : يا أمير المؤمنين إن هذا الصنيع مما يرغب العامة في الطالبيين وقبول الدعوة إليهم فوجم لذلك المعتضد وقدر الله تعالى أن هذا الوزير كان ناصبياً يبغض علياً ، فكان هذا من هفوات المعتضد سامحه الله .

وفي هـذه السنة وعـد المنجمـون النـاس أن أكثـر الأقـاليم ستغرق في زمـن الشتاء مـن كثرة الأمطـار وزيـادة الأنهـار فأكذبهم الله تعـالى في قولهم هـذا فلم تكن سنة أقل مطـراً منهـا وقلت العيون جـداً وقحطت النـاس في كل بقعـة حتـى استقى النـاس ببغـداد وغيرهـا مـن الـبلاد مـراراً كثيرة فلله الأمر من قبل ومن بعد .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة خمس وثمانين ومئتين

وفيها توفي المبرد النحوي البصري إمام في اللغة العربية .

قـال المـبرد : دخلنـا يومـاً علـى المجـانين نـزورهم أنـا وأصحاب معي بالرقة فإذا شـاب قريب عهد بالمكان فلما أبصرنا قال : حياكم الله من أنتم ؟

قلنـا : مـن أهـل العـراق فقـال : بـأبي العـراق وأهلـها أنشدوني أوأنشدكم ؟

قال المبرد : فقلت : بل أنشدنا أنت فقال :

الله يعلـــم أنـــني كمـــد
لا اســتطيع أبــث مــا أجــد
روحــان لـــي ؛ روح تــضمنها
بلــد وأخــرى حازهــا بلــد

وأرى المقيمـــة لـــيس ينفعهـــا
صـــبر ولا يقـــوى لهـــا جلَـــد
وأظـــن غـــائبتي كـــشاهدتي
بمكانهـــا تجـــد الـــذي أجـــد

قال المبرد : فقلت : والله إن هذا لظريف فزدنا .

فأنشأ يقول :

لمـــا أنـــاخوا قبيـــل الـــصبح عيرهـــمُ
ورحّلوهـــا فثـــارت بـــالهوى الإبـــل
وأبـــرزت مـــن خـــلال الـــسجف ناظرهـــا
ترنـــو إلـــي ودمـــع العـــين ينهمـــل
ياراحـــل العـــيس عجـــل كـــي أودعهـــم
ياراحـــل العـــيس في ترحالـــك الأجـــل
إنـــي علـــى العهـــد لم أنقـــض مـــودتهم
فليـت شـعري لطـول العهـد مـا فعلـوا؟

فقـال رجـل مـن البغـضاء الـذين معـي : مـاتوا . فقـال الشـاب : إذاً أموت . فقال له : إن شئت .

فتمطـى واسـتند إلى سـارية عنـده ومـات . ومـا برحنـا حتى دفناه رحمه الله .

* * * *

ثم دخلت سنة ست وثمانين ومئتين

وفيها وقعت عجيبة من العجائب وهي أنه تحارب إسماعيل بن أحمد الساماني وعمرو بن الليث وكان معه خمسون ألف مقاتل لم يصب أحد منهم ولا أسر سواه .

ومن عجائب ما وقع من الحوادث في هذه السنة أن أمرأة تقدمت إلى قاضي الري فادعت على زوجها بصداقها خمسمئة دينار فأنكره الزوج فجاءت ببينة تشهد لها به فقالوا : نريد أن تسفر لنا عن وجهها حتى نعلم أنها الزوجة أم لا .

فلما صمموا على ذلك قال الزوج : لا تفعلوا هي صادقة فيما تدعيه وأقر بما ادعت ليصون زوجته عن النظر إلى وجهها ، فقالت المرأة : هو في حل من صداقي .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وثمانين ومئتين

وفيها تفاقم أمر القرامطة صحبة أبي سعيد الجنابي فجهز الخليفة جيشاً وأمر عليهم العباس بن عمرو الغنوي وأمره على اليمامة والبحرين ليحارب أبا سعيد فالتقوا هناك والعباس في عشرة آلاف مقاتل فأسرهم أبو سعيد كلهم وقتلوا صبراً عن آخرهم وهذا عكس واقعة عمرو ابن الليث .

ويقال إن إبا سعيد أطلق العباس وقال : ارجع إلى صاحبك فأخبره بما رأيت .

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومئتين

اتفق في هذه السنة مصائب عديدة منها أن الروم قصدوا بلاد الرقة في جحافل فقتلوا خلقاً وأسروا نحواً من خمسة عشر ألفاً من الذرية .

ومنها أن بلاد أذربيجان أصاب أهلها وباء شديد حتى لم يبق أحد يقدر على دفن الموتى فتركوا في الطريق لا يوارون عن الأبصار .

ومنها أن بلاد أردبيل زلزلوا وخسف بآخرين فمات تحت الهدم مئة ألف وخمسون ألفاً .

وفيها اقترب القرامطة من البصرة فخاف أهلها خوفاً شديداً .

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وثمانين ومئتين

فيها عاثت القرامطة بسواد الكوفة فظفر بعض العمال بطائفة منهم فبعث برئيسهم إلى المعتضد وكان يقال له : أبو الفوارس فقتل وصلب ببغداد .

وفيها ادعى يحيى بن زكرويه بن مهرويه أنه من سلالة علي بن أبي طالب وقد كذب في ذلك ، وزعم للقرامطة أيضاً أنه قد اتبعه على أمره مئة ألف وسموا بالفاطميين وفي هذه الحال الشديدة اتفق موت المعتضد . وكان ذا فراسة عجيبة وبعد نظر وشهامة وشجاعة .

عن خفيف السمر قندي الحاجب قال : كنت مع مولاي المعتضد في بعض متصيداته وكان قد انقطع عن العسكر وليس معه غيري إذ خرج علينا أسد فقصد قصدنا فقال لي المعتضد : ياخفيف أفيك خير ؟ قلت : لا والله يامولاي . فقال : ولا حتى تمسك فرسي وأنزل أنا ؟ فقلت : بلى قال : فنزل عن فرسه فأمسكتها وفغرز أطراف ثيابه في منطقته واستل سيفه ورمى بقرابه إلي ثم تقدم إلى الأسد فوثب الأسد عليه فضربه المعتضد بالسيف فأطار يده فاشتغل الأسد بيده فضربه ثانية في هامته ففلقها فخر الأسد صريعاً فدنا منه فمسح سيفه في صوفه ثم أقبل إلي فأغمد سيفه في قرابه ثم ركب فرسه ثم عدنا إلى العسكر قال وصحبته إلى أن مات فوالله ماسمعته ذكر ذلك لأحد ، فما أدري من أي شيء أعجب ، من شجاعته ؟ أم من عدم احتفاله بذلك حيث لم يذكره لأحد ؟

أم من عدم عتبه علي حيث ضننت بنفسي عنه ؟ والله ما عاتبني في ذلك قط .

ومن شعره في جارية له توفيت فوجد عليها وجداً عظيماً فقال :

يا حبيباً لم يكن يعـ ـد له عندي حبيب
أنت عن عيني بعيد ومن القلب قريب
ليس لي بعدك في شيـ ـئ من اللهو نصيب
لك من قلبي على قلـ ـبي وإن بنت رقيب
وخيالي منك مذغبـ ـت خيال ما يغيب
لو تراني كيف لي بعـ ـدك عول ونحيب
وفؤادي حشوه من حرق الحزن لهيب

وحين ولي المكتفي كثرت الفتن وانتشرت القرامطة. وهبت ريح عاصفة بالبصره وخسف بموضع منها فمات تحته ستة آلاف نسمة .

* * * *

ثم دخلت سنة تسعين ومئتين من الهجرة النبوية

فيها قتل يحيى بن زكرويه قتله جيش المصريين زَرَقَهُ رجل من المغاربة بمزراق من نار فحرقه ففرح المسلمون بقتله فقام بأمر القرامطة من بعده أخوه الحسين وتلقب بأمير المؤمنين .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين ومئتين

وفيها هزمت القرامطة وأسر رئيسهم الحسين بن زكرويه الملقب ذا الشامة وهو شقيق يحيى فضرب مئتي سوط ثم قطعت يداه ورجلاه وكوي ثم أحرق .

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين ومئتين

فيها دخل محمد بن سليمان في نحو عشرة آلاف مقاتل من جهة الخليفة المكتفي إلى الديار المصرية لقتال هارون بن خمارويه ، فبرز إليه هارون فاقتتلا فقهره محمد ابن سليمان وجمع آل طولون فكانوا سبعة عشر رجلاً فقتلهم واستحوذ على أموالهم وأملاكهم ، وانقضت دولة الطولونية عن الديار المصرية .

وفيها توفي إبراهيم الكجي ، كان يحضر مجلسه نحو من خمسين ألفاً ممن معه محبرة سوى النظارة . قال : خرجت ذات ليلة من المنزل بليل فمررت بحمام فدخلت فقلت : للحمامي أدخل حمامك أحد ؟ فقال : لا فدخلت ، فلما فتحت باب الحمام الداخل إذا قائل يقول : أبا مسلم – كنيه إبراهيم – اسلم تسلم ثم أنشأ يقول :

لـــك الحمـــد إمـــا علـــى نعمـــة
وإمـــا علـــى نقمـــة تـــدفع
نـــشاء فتفعـــل مـــا شـــئته
وتـــسمع مـــن حيـــث لا تُـــسمع

قال : فبادرت فخرجت فقلت للحمامي : أنت زعمت انه لم يدخل حمامك أحد . فقال : نعم ، وما ذاك ؟ فقلت : أني سمعت قائلاً يقول كذا . قال : أو سمعته ؟ قلت : نعم فقال : ياسيدي هذا رجل من الجان يتبدى لنا في بعض الأحيان فينشد الأشعار ويتكلم بكلام حسن فيه مواعظ، فقلت : هل حفظت من شعره شيئاً ؟ فقال : نعم ثم أنشد من شعره :

أيهـــا المـــذنب المفـــرط مهـــلا
كـم تمـادى وتركـب الـذنب جهـلا
كـــم وكـــم تـــسخط الجليـــل بفعـــل
سمـــج وهـــو يحـــسن الـــصنع فعـــلا

كيف تهدا جفون من ليس يدري
أرضي عنه من على العرش أم لا

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين ومئتين

فيها التفت على أخي الحسن القرمطي المعروف بذي الشامة خلائق من الأعراب واللصوص فعاث بهم في الأرض فساداً ودخلت فرقة إلى هيت فقتلوا أهلها إلا القليل منهم .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وتسعين ومئتين

في المحرم من هذه السنة اعترض زكرويه لعنه الله وأصحابه الحجاج من أهل خراسان وهم قافلون من مكة فقتلهم عن آخرهم .

ولما بلغ الخليفة خبر الحجيج وما أوقع بهم الخبيث زكرويه جهز إليه جيشاً كثيفاً فالتقوا معه فاقتتلوا قتالاً شديداً قتل من القرامطة خلق كثير ولم يبق إلا القليل ، وضرب زكرويه لعنه الله بالسيف فقتل وطيف برأسه في سائر بلاد خراسان .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومئتين

وفيها كانت وفاة الخليفة المكتفي بالله بن المعتضد وبويع لأخيه المقتدر بالله بن المعتضد وكان عمره إذ ذاك ثلاث عشرة سنة ، وكان كريماً جداً مع كثرة صلاة وصيام وتطوع .

* * * *

ثم دخلت سنة ست وتسعين ومئتين

وفيها خلع المقتدر وبويع لعبد لله بن المعتز ثم قبض على ابن المعتز وأصحابه فقتل أكثرهم وبينهم ابن المعتز فما مكث خليفة إلا يوماً أو بعض يوم .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وتسعين ومئتين

فيها غزا القاسم بن سيما الصائفة ، وفادى مؤنس الخادم الأسارى الذين بأيدي الروم .

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومئتين

وفيها توفي الراوندي أحد مشاهير الزنادقة الملحدين كان أبوه يهودياً فأظهر الإسلام ، ووضع كتاباً لليهود والنصارى وفضل دينهم على دين المسلمين .

وقد ذكره القاضي ابن خلكان في (الوفيات) ولم يُجرّجه بشيء

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومئتين

وفيها ظهرت ثلاثة كواكب مذنبة . وفيها وقع الطاعون بأرض فارس مات بسببه سبعة آلاف إنسان .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاثمئة من الهجرة

وفيها صلب الحسين بن المنصور الحلاج وهو حي صلب الاشتهار لا القتل .

وفيها سقطت شرذمة من جبل لبنان إلى البحر . وفيها حملت بغلة ووضعت مهرة .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثمئة من الهجرة

وفيها جيء بالحسين بن منصور الحلاج إلى بغداد فإذا هو لا يقرأ القرآن ولا يعرف الحديث ولا الفقه ولا اللغة ولا من الشعر شيئاً .

ويقول في مكاتباته : تبارك ذو النور الشعشعاني . ثم أمر به فصلب حياً صلب الاشتهار أيضاً لا القتل .

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثمئة

وفيها ورد كتاب مؤنس الخادم بأنه قد أوقع بالروم بأساً شديداً وأنه قد أسر منهم مئة وخمسين بطريقاً .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثمئة

وفيها توفي الحسن بن سفيان محدث خراسان . ومن غريب ما اتفق له أنه كان هو وجماعة من أصحابه بمصر في رحلتهم لطلب الحديث ، فضاق عليهم لحال حتى مكثوا ثلاثة أيام لا يأكلون فيها شيئاً ولا يجدون ما يبيعونه للقوت واضطرهم الحال إلى تجشم السؤال وأنفت أنفسهم من ذلك وعزت عليهم وامتنعت كل الامتناع والحاجة تضطرهم إلى تعاطي ذلك فاقترعوا فيما بينهم أيهم يقوم بأعباء هذا الأمر فوقعت القرعة على الحسن فقام عنهم فاختلى في زاوية المسجد فصلى ركعتين واستغاث بالله عز وجل فما انصرف من الصلاة حتى دخل المسجد شاب فقال : أين الحسن بن سفيان ؟ فقلت : أنا .

فقال : الأمير طولون يقرأ عليكم السلام ، ويعتذر إليكم في تقصيره عنكم ، وهذه مئة دينار لكل واحد منكم .

فقلت له : ما الحامل له على هذا ؟ فقال : بينما هو الآن نائم إذ جاءه فارس في الهواء بيده رمح فدخل عليهم المنزل ووضع عقب الرمح في خاصرته فوكزه وقال : قم فأدرك الحسن بن سفيان وأصحابه فإنهم منذ ثلاثة أيام جياع في المسجد الفلاني فقال له : من أنت ؟ فقال : أنا رضوان خازن الجنة ، فاستيقظ الأمير وخاصرته تؤلمه ألماً شديداً فبعث بالنفقة في الحال عليكم ، ثم جاء لزيارتهم واشترى ما حول ذلك المسجد ووقفه على الواردين عليه من أهل الحديث .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وثلاثمئة

وفيها اشتهر ببغداد أن حيواناً عجيباً يقال له : الزيزب يطوف بالليل يأكل الأطفال من الأسرة ويعدو على النائم ، فربما قطع يد الرجل وثدي المرأة فجعل الناس يضربون على أسطحتهم بالنحاس من الهواوين والطسوت وغير ذلك كي ينفرونه عنهم ، حتى كانت بغداد ترتج من شرقها وغربها ، واصطنع الناس لأولادهم مكبات من السعف وغير ذلك .

واغتنمت اللصوص هذه الشوشة فكثرت النقوب وأخذ الأموال فأمر الخليفة بأن يؤخذ حيوان من كلاب الماء فيصلب على الجسر ليسكن الناس عن ذلك ، ففعل فسكن أمر الناس .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس وثلاثمئة

فيها قدم رسول ملك الروم في طلب المفاداة والهدنة .

* * * *

ثم دخلت سنة ست وثلاثمئة

في أول يوم من المحرم فتح المارستان الذي بنته السيدة أم المقتدر وجلس فيه سنان بن ثابت الطبيب .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وثلاثمئة

وفي ذي القعدة انقض كوكب عظيم غائب الضوء وتقطع ثلاث قطع وسمع بعد انقضاضه صوت رعد شديد هائل من غير غيم .

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثمئة

وفيها غلت الأسعار ببغداد واضطربت العامة وكسروا المنابر ودكة الشُّرط وخرقوا جسوراً كثيرة ، وأمر الخليفة بقتال العامة .

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وثلاثمئة

وفيها كان مقتل الحسين بن منصور الحلاج .

كان جده مجوسياً . والصوفية مختلفون فيه فأكثرهم نفى أن يكون منهم .

قال ابن كثير : قلت : لم يزل الناس منذ قتل الحلاج مختلفين في أمره ؛ فأما الفقهاء فقد حُكي عن غير واحد من الأئمة إجماعهم على قتله وأنه كان كافراً ممخرقاً مموها مشعبذا .

وكذلك قول أكثر الصوفية منهم .

ومنهم طائفة أجمعوا القول فيه وغرهم ظاهره ولم يطلعوا على باطنه قال بعض السلف : من عبد الله بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه . وعن سفيان بن عيينة أنه قال : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود .

ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى ولهذا دخل الحلاج باب الحلول والاتحاد فصار من أهل الانحلال والإلحاد .

ذكر أشياء من حيل الحلاج :

وروي عن بعضهم قال : كنت أسمع أن الحلاج له أحوال ، فأحببت أن أختبره ، فجئته فسلمت عليه فقال: تشه علي فقلت : أشتهي سمكاً طرياً فدخل منزله فغاب ساعة ثم خرج ومعه سمكة تضرب ورجلاه عليهما الطين .

فقال : دعوت الله فأمرني أن آتي البطائح لأتيك بهذا فخضت الأهواز وهذا الطين منها فقلت : إن شئت أدخلتني منزلك لأكشف أمرك فإن ظهرت على شيء وإلا آمنت بك. فقال : ادخل .

فدخلت فلم أجد في البيت منفذاً إلى غيره ، فتحيرت في أمره ثم نظرت فإذا تأزير – من الإزار وهو التغطية – فكشفته فإذا من ورائه باب فدخلت فخرجت منه إلى بستان هائل فيه من سائر الثمار الجديدة والمعتقة وإذا أشياء كثيرة معدة للأكل وإذا هناك بركة كبيرة فيها سمك كثير كبار فدخلتها فأخرجت منها واحداً فنال رجلي من الطين كما نال رجليه وجئت إلى الباب فقلت له : افتح فقد آمنت بك ، فلما خرجت ورآني على مثل حاله جرى ورائي ليقتلني فضربته بالسمكة في وجهه وقلت : ياعدو الله أتعبتني هذا اليوم ، ولما خلصت منه لقيني بعد ذلك فضاحكني وقال : لا تفش هذا لأحد أبعث إليك من يقتلك على فراشك .

قال : فلم أحدث به أحداً حتى صُلب .

ولما ورد بغداد جعل يدعو إلى نفسه ويظهر أشياء من المخاريق وغيرها من الأحوال الشيطانية ، وأكثر ما يروج على الرافضة لقلة عقولهم وضعف تمييزهم بين الحق والباطل فاستدعى يوماً برئيس من الرافضة فدعاه إلى الإيمان به فقال الرجل : إني رجل أحب النساء وإني أصلع وقد شبت فإن أنت أذهبت عني هذا وهذا آمنت بك أنك الإمام المعصوم وإن شئت قلت : إنك نبي ، وإن شئت قلت : إنك أنت الله . فبهت الحلاج ولم يرد جواباً .

ولما أقام بالأهواز جعل ينفق من دراهم يخرجها يسميها دراهم القدرة فسئل الشيخ أبو علي الجبائي عن ذلك فقال : إن هذا كله مما يُنال بالحيلة ، ولكن أدخلوه بيتاً لا منفذ له ، ثم سلوه أن يخرج لكم جوزتين من شوك ، فلما بلغ الحلاج كلام أبي علي الجبائي فيه ، تحول من الأهواز .

ذكر عنه ضروب من الزندقة وادعاء النبوة والربوبية فضرب بالسياط نحواً من ألف سوط وقطعت يداه ورجلاه وضربت عنقه ثم أحرقت جثته بالنار ونصب رأسه للناس على سور الجسر الجديد وعلقت يداه ورجلاه إلى جانب رأسه .

وقد اتفق علماء بغداد على كفر الحلاج وزندقته وأجمعوا على قتله وصلبه .

قال أبو بكر الصولي : قد رأيت الحلاج وخاطبته ، فرأيته جاهلاً يتعاقل ، وغبياً يتبالغ ، وفاجراً يتعبد .

ولما كان آخر مجلس أحضر القاضي أبو عمرو محمد بن يوسف وجيء بالحلاج وقد أحضر له كتاب من دور بعض أصحابه وفيه : ومن أراد الحج ولم يتيسر له فليبتن في داره بيتاً ، فإن كان في أيام الحج فليصم ثلاثة أيام وليطف به كما يطاف بالكعبة ثم يفعل في داره ما يفعل الحجيج في مكة ثم يستدعي بثلاثين يتيماً فيطعمهم من طعامه ويتولى خدمتهم بنفسه ثم يكسوهم قميصاً ، ويعطي كل واحد منهم سبعة دراهم ، فإن فعل ذلك قام له مقام الحج ، وإن من صام ثلاثة أيام لا يفطر إلا في اليوم الرابع على ورقة هندباء [1] أجزأه ذلك عن الصلاة بعد ذلك .

وأن من جاور بمقابر الشهداء بمقابر قريش عشرة أيام يصلي ويدعو ويصوم ثم لا يفطر إلا على شيء من خبز الشعير والملح الجريش أغناه ذلك عن العبادة في بقية عمره . فقال له القاضي أبو عمر : من أين لك هذا ؟ فقال : من كتاب (الإخلاص) للحسن البصري فقال له : كذبت ياحلال الدم ، قد سمعنا كتاب (الإخلاص) للحسن بمكة ليس فيه شيء من هذا .

(١) الهندباء : مقصورة وتمد : البقلة .

وذكر الخطيب أنه قال وهو يضرب لمحمد بن عبد الصمد والي الشرطة : أدن بي إليك فإن عندي لك نصيحة تعدل فتح القسطنطينية فقال له : قد قيل لي : إنك ستقول مثل هذا ، وليس إلى رفع الضرب عنك سبيل ، ثم قطعت يداه ورجلاه وحز رأسه وأحرقت جثته وألقي برمادها في دجلة ، ونصب الرأس يومين ببغداد على الجسر ، ثم حمل إلى خراسان وطيف به في تلك النواحي .

* * * *

ثم دخلت سنة عشر وثلاثمئة

فيها أطلق يوسف بن أبي الساج من الضيق ، وكان معتقلاً ، وردت إليه أمواله وأعيد إلى عمله وأضيف إليه بلدان أخرى ، فبعث حينئذ إلى مؤنس الخادم يطلب منه أبابكر بن الآدمي القارىء ، وكان قد قرأ بين يديه حين اعتقل وأُشهر في سنة إحدى وسبعين ومئتين ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود : ١٠٢) فخاف القارىء سطوته واستعفى من مؤنس الخادم فقال له مؤنس : اذهب وأنا شريكك في الجائزة . فلما دخل عليه وقرأ بين يديه فقال : بل أحب أن تقرأ ذلك العشر الذي قرأته عند إشهاري ؛ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ فإن ذلك كان سبب توبتي إلى الله عز

وجل ، وكان ذلك على يديك . ثم أمر له بمال جزيل وأحسن إليه .

وفيها توفي أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله . قال الخطيب : وبلغني عن الشيخ حامد أحمد بن أبي طاهر الفقيه الإستفراييني أنه قال : لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير محمد بن جرير الطبري لم يكن ذلك كثيراً .

وقال إمام الأئمة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة أنه طالع التفسير لابن جرير في سنين من أوله إلى آخره ثم قال : ما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير . وقد ظلمته الحنابلة .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى عشرة وثلاثمئة

فيها دخل أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي أمير القرامطة إلى البصرة ليلاً وقتلوا من لقوه من أهلها وهرب أكثر الناس فألقوا أنفسهم في الماء فغرق كثير منهم ومكث بها سبعة عشر يوماً يقتل ويأسر من شاء من نسائها وذراريها ويغنم ما يختاره من أموال أهلها ثم عاد إلى بلده هجر وذلك لما بعث إليه الخليفة جنداً من قبله فر وترك البلد يباباً .

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتي عشرة وثلاثمئة

في المحرم منها اعترض القرمطي أبو طاهر سليمان ابن أبي سعيد الجنابي – لعنه الله ولعن أباه – للحجيج وهم راجعون من بيت الله الحرام فقطع عليهم الطريق فقاتلوه فقتل منهم خلقاً كثيراً لا يعلمهم إلا الله عز وجل وأسر من نسائهم وأبنائهم ما اختاره وكان مع القرمطي ثمانمئة مقاتل وعمره إذ ذاك سبع عشرة سنة قصمه الله .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وثلاثمئة

وفيها انقض كوكب من ناحية الجنوب إلى الشمال قبل مغيب الشمس فأضاءت له الدنيا منه وسمع له صوت كصوت الرعد الشديد .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع عشرة وثلاثمئة

فيها وقع ببغداد حريق مات بسببه خلق كثير ، وجاءت الكتب بموت الدمستق لعنه الله وكان دخل ملطية فقتل من أهلها كثيراً وأسر .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس عشر وثلاثمئة

وفيها قبض على رجل خناق قد قتل خلقاً من النساء، لأنه ادعى أنه يعرف التنجيم فقصده النساء لذلك ، فإذا انفرد بالمرأة قام إليها ففعل بها الفاحشة وخنقها بوتر وأعانته امرأة على ذلك ثم حفر لها في داره فدفنها فإذا امتلأت تلك الدار انتقل إلى غيرها ، ولما ظهر عليه وُجد في داره سبع عشرة امرأة قد خنقهن ، ثم تتبعتُ الدور التي سكنها فوجدوا شيئاً كثيراً قد قتل من النساء فضرب ألف سوط ثم صلب حياً حتى مات قبحه الله .

* * * *

ثم دخلت سنة ست عشرة وثلاثمئة

فيها عاث القرمطي – لعنه الله – وهو أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي في الأرض فساداً وحاصر الرحبة وهي رحبة مالك بن طوق فدخلها قهراً وقتل من أهلها خلقاً كثيراً ، وقرر على الأعراب إتاوة يحملها إلى هجر كل سنة عن كل رأس دينار . وعاث في نواحي الموصل وسنجار وتلك الديار .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع عشرة وثلاثمئة

وفيها هاجم القرمطي مكة المكرمة يوم التروية فانتهب أموالهم واستباح قتالهم فقتل الناس في رحاب مكة وشعابها حتى في المسجد الحرام وفي جوف الكعبة ثم قلع الحجر الأسود شرفه الله وعظمه وأخذوه معهم حين رجعوا .

وقد كان القرامطة ممالئين للفاطميين في إفريقية ويلقب أميرهم بالمهدي عبد الله بن ميمون القداح وكان صباغاً بسلمية يهودياً ادعى أنه أسلم ثم سار منها إلى بلاد إفريقية فادعى أنه شريف فاطمي .

والقرامطة شر من اليهود والنصارى والمجوس بل ومن عبدة الأصنام .

❋ ❋ ❋ ❋

ثم دخلت سنة ثماني عشرة وثلاثمئة

وفيها عزل الخليفة ناصر الدولة بن حمدان عن الموصل وولى عليها عميه سعيداً ونصراً ابني حمدان .

وممن توفي فيها الحسن بن علي المعروف بابن العلاف الضرير النهرواني الشاعر المشهور ، كان أحد سمار

الخليفة المعتضد بالله وله مرثاة طنانة في هر له قتله جيرانه لأكله أفراخ الحمام من أبراجهم وفيها آداب ورقة .

ويقال : إنه أراد بها رثاء ابن المعتز لكنه لم يتجاسر أن ينسبها إليه من الخليفة المقتدر بالله حين قتله وأولها :

يـــــــا هر فارقتنـــــــا ولم تعـــــــد
وكنـــت عنـــدي بمنـــزل الولـــد

وهي خمسة وستون بيتاً .

❋ ❋ ❋ ❋

ثم دخلت سنة تسع عشرة وثلاثمئة

فيها خرج مؤنس الخادم إلى الحج في جيش كثيف خوفاً من القرامطة ، وقد بلغ مؤنساً في أثناء الطريق أن القرامطة أمامه ، فعدل بالناس عن جادة الطريق ، فأخذ بهم في شعاب وأودية فتاهوا هنالك أياماً فشاهد الناس هنالك عجائب وغرائب رأوا عظاماً في غاية الضخامة وشاهدوا ناساً قد مسخوا حجارة ، ورأى بعضهم امرأة واقفة على تنور قد مسخت حجراً والتنور قد صار حجراً .

❋ ❋ ❋ ❋

ثم دخلت سنة عشرين وثلاثمئة من الهجرة

فيها كان مقتل الخليفة المقتدر بالله وكان مبذراً مفرطاً في الأموال وطاعة النساء وعزل الوزراء حتى قيل إن جملة ما صرفه في الوجوه الفاسدة والتبذير ما يقارب ثمانين ألف ألف دينار .

ولما قتل المقدر بالله بايع القضاة والأمراء والوزراء أخاه محمد بن المعتضد ولقبوه القاهر بالله .

وفيها توفي القاضي أبو عمر المالكي محمد بن يوسف وكان يضرب بعقله وحلمه المثل وكان من أعظم صواب أحكامه قَتْلُهُ الحسنَ بنَ منصورٍ الحلاج قبحه الله وأخزاه .

* * * *

ثم دخلت سنة أحدى وعشرين وثلاثمئة

وفيها أمر القاهر بالله بإبطال الخمور والمغاني والقيان أمر ببيع الجواري المغنيات في سوق النخس وإنما فعل ذلك لأنه كان محباً للغناء فأراد أن يشتري الجواري بأرخص الأثمان ،نعوذ بالله من هذه الأخلاق .

وكانت فيه عجلة وجرأة وهَوَجٌ وخرق شديد حيث أمر بأن يجعل أبو أحمد بن المكتفي بين حائطين ويسد عليه بالآجر والكلس وهو حي فمات .

ثم ذبح علي بن يلبق ودخل القاهر على أبيه يلبق فذبحة وذبح مؤنس الخادم . وفيها ظهر أمر بني بويه .

وفيها توفي محمد بن الحسن بن دريد اللغوي النحوي الشاعر صاحب المقصورة .

كان أعلم الشعراء وأشعر العلماء وقد كان متهتكاً في الشراب .

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين وثلاثمئة

توجه علي بن بويه إلى أرجان فأخذها وكانت معه أموال كثيرة قد استفادها من أصبهان وهمذان وغيرها إلا أنه كان كريماً جواداً معطاء للجيوش الذين التفوا عليه ، ثم إنه أملق فاستلقى يوماً على قفاه مفكراً في أمره وإذا حية قد خرجت من السقف فوجد هناك مكاناً فيه من الذهب شيء كثير جداً . فأنفق في جيشه ما أراد وبقي عنده شيء كثير .

وركب ذات يوم يتفرج في خراب البلد وينظر إلى أبنية الأوائل ويتعظ بمن كان قبله فانخسفت الأرض من تحت قائمة جواده فأمر فحفر هناك فوجد من الأموال شيئاً كثيراً جداً . واستعمل عند رجل خياط قماشاً ليلبسه ، فاستبطأه فأمر بإحضاره ، فلما وقف بين يديه تهدده ،

وكان الرجل أصم لا يسمع جيداً فقال : والله مالابن ياقوت عندي سوى اثنى عشر صندوقاً لا أدري مافيها ، فأمر بإحضارها ، فإذا فيها أموال عظيمة .

واطلع على ودائع كانت ليعقوب وعمرو ابني الليث فيها من الأموال مالا يحد ولا يوصف كثرة فقوي أمره ، وعظم سلطانه جداً .

وفي هذه السنة سملت عينا الخليفة القاهر وارتكب منه أمر عظيم لم يُسمع بمثله في الإسلام ثم أرسلوه وافتقر حتى قام يوماً بجامع المنصور فسأل فأعطاه رجل خمسمئة درهم ، وقام بعده الخليفة الراضي محمد بن المقتدر .

وفيها كانت وفاة المهدي صاحب إفريقية أول خلفاء الفاطميين فيما زعموا .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وثلاثمئة

وفيها خرج الحجاج في خفارة الأمير لؤلؤ فاعترضهم أبو طاهر بن أبي سعيد الجنابي لعنه الله فقتل أكثرهم وفيها قتل ناصر الدولة نائب الموصل عمه سعيد بن حمدان لأنه أراد أن ينتزعها منه . وممن توفي فيها نفطويه النحوي ومما أنشده له أبو علي القالي في (الأمالي) :

قلبي أرق عليك من خديكا
وقواي أوهى من قوى جفنيكا
لم لا ترق لمن يعذب نفسه
ظلماً ويعطفه هواه عليكا ؟

* * * *

ثم دخلت سنة اربع وعشرين وثلاثمئة

وفيها وقع ببغداد غلاء عظيم وفناء كثير بحيث عدم الخبز منها خمسة أيام ومات من أهل البلد خلق كثير وأكثر ذلك كان في الضعفاء .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وثلاثمئة

وفيها لجأ البريدي نائب الأهواز إلى عماد الدولة واستجار به .

* * * *

ثم دخلت سنة ست وعشرين وثلاثمئة

فيها ورد كتاب من ملك الروم إلى الخليفة الراضي مكتوب بالرومية والتفسير بالعربية فأما الرومي فبارز بالذهب والعربي بالفضة وحاصله طلب الهدنة بينه وبينه ،

ووجه مع الكتاب بهدايا وألطاف كثيرة فاخرة فأجابه الخليفة إلى ذلك وفودي من المسلمين ستة آلاف أسير.

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وثلاثمئة

وفي هذه السنة وقعت فتنه بالأندلس ، وذلك أن عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس الملقب بالناصر لدين الله قتل وزيره أحمد فغضب له أخوه وكان نائباً على مدينة شنترين - غربي قرطبة - فارتد ودخل بلاد النصارى واجتمع بملكهم ردمير ودله على عورات المسلمين فسار إليهم في جيش كثيف من الجلالقة فخرج إليهم الأموي فأوقع بهم بأساً شديداً ثم كر الفرنج على المسلمين فقتلوا منهم كثيراً .

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وثلاثمئة

وفيها ملك ركن الدولة بن بويه الديلمي مدينة أصبهان ؟

وفيها توفي صاحب العقد الفريد أحمد بن محمد بن عبدربه مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، كان من الفضلاء المكثرين والعلماء

بأخبار الأولين والمتأخرين ، وكتابه (العقد الفريد) يدل على فضائل جمة وعلوم كثيرة مهمة ، ولكنه يدل كثير من كلامه على تشيع فيه وميل إلى الحط على بني أمية وهذا عجيب منه لأنه أحد مواليهم .

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وثلاثمئة

وفيها كانت وفاة الراضي . ومن شعره :

لا تعـذلي كرمـي علـى الإسـراف

ربـح المحامـد متجـر الأشـراف

وبويع بعده المتقي إبراهيم بن المقتدر أخي الراضي . وكان تقياً حقاً ، وفيها وقع الفناء في الناس حتى كان الجماعة يدفنون في القبر الواحد من غير غسل ولا صلاة .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاثين وثلاثمئة

وفيها توفي الحسين بن إسماعيل القاضي المحاملي وقد تناظر هو وبعض الشيعة فجعل الشيعي يذكر مواقف علي يوم بدر وأحد والخندق وخيبر وحنين وشجاعته ثم قال للمحاملي أتعرفها ؟ قال : نعم ولكن أتعرف أين كان

الصديق يوم بدر ؟ كان مع رسول الله ﷺ في العريش بمنزلة الرئيس الذي يحامى عنه كما يحامى عن الرسول ﷺ وعلي في مقام المبارزة ولو فرض أنه انهزم أو قتل لم يهزم الجيش بسببه فأفحم الشيعي وقال له المحاملي : وقد قدمه الذين رووا لنا الصلاة والزكاة بعد رسول الله ﷺ حيث لامال له وعبيد ولا عشيرة تمنعه وتحاجف عنه ، وإنما قدموه لعلمهم أنه خيرهم فأُفحم أيضاً .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وثلاثمئة

في هذه السنة ورد كتاب ملك الروم إلى الخليفة يطلب فيه منديلاً بكنيسة الرها كان المسيح قد مسح وجهه به فصارت صورة وجهه فيه . ويعد المسلمين أنه إذا أرسل إليه يبعث من أسارى المسلمين خلقاً كثيراً ، فأحضر الخليفة العلماء فاستشارهم في ذلك ؛ فمن قائل : نحن أحق بعيسى منهم ، وفي بعثه إليهم غضاضة على المسلمين ووهن، فقال علي بن عيسى الوزير : يا أمير المؤمنين إنقاذ الأسارى من أيدي الكفار خير وأنفع للناس من بقاء ذلك المنديل بتلك الكنيسة فأمر الخلفة بإرسال ذلك المنديل وتخليص الأسارى من أيديهم .

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين وثلاثمئة

في هذه السنة أقبلت طائفة من الروس في البحر إلى نواحي أذربيجان فقصدوا بردعة فحاصروها فلما ظفروا بأهلها قتلوهم عن آخرهم وغنموا أموالهم وسبوا من استحسنوا من نسائهم ثم مالوا إلى مراغة فوجدوا فيها ثماراً كثيرة فأكلوا منها فأصابهم وباء شديد فمات أكثرهم ، وأقبل إليهم المرزبان بن محمد فقاتلهم فقتل منهم خلقاً كثيراً أيضاً مع ما أصابهم من الوباء الشديد ، وطهر الله تلك البلاد منهم . وفي جمادى منها غلت الأسعار ببغداد جداً ، وكثرت الأمطار جداً حتى تهدم البناء ، ومات كثير من الناس تحت الهدم ، وتعطلت كثير من الحمامات والمساجد من قلة الناس ، ونقصت قيمة العقار حتى كان يباع بالدرهم ما كان يساوي الدينار ، وخلت أكثر الدور ، فكان الملاك يعطون من يسكنها أجرة ليحفظها عليهم من الداخلين إليها لتخريبها .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمئة

وفيها سمل توزون عيني الخليفة المتقي وبايع للمستكفي بالله وهو عبد الله بن المكتفي بالله .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وثلاثمئة

أقبل معز الدولة أحمد بن بويه في حجافل ، فلما اقترب من بغداد بعث إليه الخليفة المستكفي بالله الهدايا ، وجاء رجلان من الديلم فأنزلا الخليفة عن كرسيه وسملت عيناه وأودع السجن وبويع بالخلافة للمطيع لله بن المقتدر بالله .

وفي هذة السنة وقع غلاء شديد ببغداد حتى أكلوا الميتة والكلاب والسنانير وكان من الناس من يسرق الأولاد فيشويهم ويأكلهم ، وكثر الموت في الناس حتى كان لا يدفن أحد أحداً بل يتركون على الطرقان فيأكل كثيراً منهم الكلاب وبيعت الدور والعقار بالخبز .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وثلاثمئة

في هذه السنة استقر أمر الخليفة المطيع لله في دار الخلافة واصطلاح معز الدولة بن بوبة وناصر الدولة بن حمدان .

* * * *

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وثلاثمئة

في هذه السنة استحوذ ركن الدولة على بلاد طبرستان وجرجان وانتزعها من يد شقيق ملك الديلم .

وفيها توفي أبو بكر الصولي ، كان أحد العلماء بفنون الأدب ، حسن المعرفة بأخبار الملوك وأيام الخلفاء ومآثر الأشراف وطبقات الشعراء كان جده صول وأهله ملوكاً بجرجان ، وكان الصولي جيد الاعتقاد حسن الطريقة وله شعر حسن .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وثلاثمئة

وفيها دخل سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب بلاد الروم فلقيه جمع كثيف من الروم فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم سيف الدولة وأخذت الروم مرعش وأوقعوا بأهل طرسوس بأساً شديداً .

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وثلاثمئة

وفيها وقعت فتنه بين الشيعة وأهل السنة وفيها كانت وفاة المستكفي بالله . وهو الذي خلع وسملت عيناه .

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وثلاثمئة

في هذه السنة المباركة في ذي القعدة منها رُد الحجر الأسود المكي إلى مكانه بعد اثنين وعشرين عاماً ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً .

وفيها توفي أبو نصر الفارابي التركي الفيلسوف ، وكان من أعلم الناس بالموسيقا بحيث كان يتوسل بصناعته إلى التأثير في الحاضرين من مستمعيه إن شاء حرك ما يبكي أو ما يضحك أو ماينوّم .

وكان حاذقاً في الفلسفة ومن كتبه تفقه ابن سينا وكان يقول بالمعاد الروحاني لا الجثماني ويخصص بالمعاد الأرواح العالمة لا الجاهلة وله مذاهب في ذلك يخالف المسلمين والفلاسفة من سلفه الأقدمين فعليه إن كان مات على ذلك لعنة رب العالمين مات بدمشق ولم أر الحافظ ابن عساكر ذكره في تاريخه لنتنه وقباحته .

* * * *

ثم دخلت سنة أربعين وثلاثمئة

فيها توفي الزجاجي مصنف (الجمل) في النحو وهو كتاب نافع كثير الفائدة صنفه بمكة المكرمة ، كان يطوف بعد كل باب منه ويدعو الله تعالى أن ينفع به .

* * * *

ثم دخلت سنة أحدى وأربعين وثلاثمئة

وفيها كانت وفاة المنصور الفاطمي وكان سبب موته ضعف الحرارة الغريزية فعهد بالأمر من بعده لولده المعز الفاطمي باني القاهرة المعزية .

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وثلاثمئة

فيها دخل سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب إلى بلاد الروم فقتل منهم خلقاً كثيراً وأسر آخرين وغنم أموالاً جزيلة ورجع سالماً غانماً .

وممن توفي فيها علي بن محمد التنوخي . فمن شعره :

وراح من الشمس مخلوقة
بدت لك في قدح من نهار
هواء ولكنه جامد
وماء ولكنه غير جار
كأن المدير له باليمين
إذا مال للسقي أو باليسار
تدرع ثوباً من الياسمين
له فرد كم من الجلنار

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وثلاثمئة

فيها كانت وقعة بين سيف الدولة الحمداني وبين الدمستق فقتل خلقاً من أصحاب الدمستق وكان في جملة من قتل قسطنطين بن الدمستق وسبى خلقاً كثيراً وأسر آخرين ، ثم جمع الدمستق خلقاً كثيراً فالتقوا مع سيف

الدولة في شعبان فجرت بينهم حروب عظيمة وقتال شديد فكانت الدائرة للمسلمين وأخزى الله الكافرين فقتل منهم خلق كثير وأسر جماعة من الرؤوس وكان منهم صهر الدمستق وابن ابنته أيضاً .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وثلاثمئة

وفيها خرج رجل بأذربيجان ادعى أنه يعلم الغيب وكان يحرم اللحوم وما يخرج من الحيوانات فأضافه رجل مرة فجاءه بطعام كشكية بشحم فأكله فقال له الرجل بحضرة من معه : إنك تدعي أنك تعلم الغيب ، وهذا الطعام فيه شحم وأنت تحرمه فلم لا علمته ؟ .

قال : فتفرق الناس عنه .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وثلاثمئة

فيها وقعت فتنة عظيمة بين أهل أصبهان وأهل قم بسبب سبب الصحابة من أهل قم فثار عليهم أهل أصبهان فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ونهبوا أموال التجار ، فغضب ركن الدولة لأهل قم لأنه كان شيعياً فصادر أهل أصبهان بأموال كثيرة وفيها توفي أحمد بن محمد بن إسماعيل الشريف الحسني كان نقيب الطالبيين بمصر ، ومن شعره قوله :

قالـت لطيـف خيـال زارنـي ومـضى
بـالله صـفه ولا تـنقص ولا تـزد
فقـال : أبـصرته لومـات مـن ظمـأ
وقلـت : قـف لا تـرد للمـاء لم يـرد
قالـت : صـدقت وفـاء الحـب عادتـه
يـابرد ذاك الـذي قالـت علـى كبـدي

* * * *

ثم دخلت سنة ستة وأربعين وثلاثمئة

فيها نقص البحر ثمانين ذراعاً ويقال : باعاً فبدت فيه جبال وجزائر لم تكن ترى قبل ذلك .

وفيها كثر موت الفجاءة حتى إن لصاً نقب داراً ليدخلها فمات وهو في النقب ، ولبس القاضي إحدى خفيه فمات قبل أن يلبس الأخرى .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وثلاثمئة

فيها كانت زلزلة عظيمة ببغداد وفي غيرها من البلاد الشرقية فمات بسببها خلق كثير وخربت دور كثيرة .

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وثلاثمئة

فيها كانت فتنة بين الرافضة وأهل السنة قتل فيها خلق كثير.

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وثلاثمئة

وفيها رجع حجيج مصر من مكة فنزلوا وادياً فجاءهم سيل فأخذهم كلهم فألقاهم في البحر عن آخرهم.

وفيها أسلم من الترك مئتا ألف خركاه – خيمة كبيرة – فسموا ترك إيمان ثم خفف اللفظ بذلك فقيل: تركمان.

* * * *

ثم دخلت سنة خمسين وثلاثمئة

فيها بنى معز الدولة بن بويه داراً غرم عليها ثلاثة عشر ألف ألف درهم فاحتاج لذلك أن يصادر بعض أصحابه ويقال: أنفق على هذه الدار ألفي ألف دينار ومات وهو يبني فيها وقد خرب أشياء كثيرة من معالم بغداد منها المعشوق من سر من رأى وقلع أبواب الحديد على مدينة المنصور والرصافة وقصرها وحولها إلى داره لاتمت فرحته بها.

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وثلاثمئة

دخول الروم إلى حلب :

فيها دخل المدستق ملك الروم لعنه الله إلى حلب في مئتي ألف مقاتل ، فنهض سيف الدولة بن حمدان بمن معه فقاتله فلم يقو لكثرة جنوده وقتل من أصحاب سيف الدولة خلقاً كثيراً وكان سيف الدولة قليل الصبر ففر منهزماً .

وكان سيف الدولة بن حمدان بحلب فيه تشيع وميل إلى الروافض ولا جرم أن الله لا ينصر أمثال هؤلاء ويديل عليهم أعداءهم لمتابعتهم أهواءهم وتقليدهم سادتهم وكبراءهم وآباءهم وترك متابعتهم أنبياءهم وعلماءهم ، ولهذا لما ملكت الفاطمية بلاد الشام استحوذ على سواحلها كلها حتى بيت المقدس الفرنج ولم يبق مع المسلمين سوى حلب وحماة وحمص ودمشق وبعض عمالها .

وفيها توفي دعلج بن أحمد السجستاني المعدل وكان من ذوي اليسار والمشهورين بالبر والإفضال وكانت له دار عظيمة ببغداد فكان يقول : ليس في الدنيا مثلها .

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين وثلاثمئة

أمر معز الدولة بن بويه قبحه الله أن تغلق الأسواق وأن يلبس الناس المسوح من الشعر وأن تخرج النساء

حاسرات عن وجوههن ناشرات شعورهن في الأسواق يلطمن وجوههن ينحن على الحسين بن علي ففعلن ذلك ولم يمكن أهل السنة منع ذلك لكثرة الشيعة وكون السلطان معهم .

وفيها أنفذ بعض بطارقة الروم إلى ناصر الدولة رجلين من الأرمن ملتصقين سنهما خمس وعشرون سنة ملتحمين ، ولهما سرتان وبطنان ومعدتان وجوعهما يختلف وكان أحدهما يميل إلى النساء والآخر يميل إلى الغلمان ، فوهبهما ناصر الدولة ألفي درهم ودعاهما إلى الإسلام . فيقال إنهما أسلما . فاعتل أحدهما ومات وأنتن ريحه ، وبقي الآخر لا يمكنه التخلص منه وكان اتصال ما بينهما من الخاصرتين ، ولم يمكن للأطباء فصل أحدهما عن الآخر فلما مات أحدهما اتفق اعتلال الآخر من غمه ونتن رائحة أخيه فمات غماً فدفنا جميعاً في قبر واحد .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وثلاثمئة

فيها كانت وقعة المجاز ببلاد صقلية وذلك أنه أقبل من بلاد الروم خلق كثير ومن الفرنج ما يقارب مئة ألف فبعث أهل صقلية إلى المعز الفاطمي يستنجدونه فبعث إليهم بجيوش كثيرة في الأسطول فكانت بين المسلمين

والمشركين وقعة عظيمة صبر فيها الفريقان من أول النهار إلى العصر ثم قُتل أمير الروم منويل وفرت الروم وانهزموا هزيمة قبيحة فقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً وسقط الفرنج في واد من الماء عميق فغرق أكثرهم وركب الباقون في المراكب فبعث الأمير أحمد صاحب صقلية في آثارهم مراكب أخر فقتلوا أكثر المشركين في البحر أيضاً وغنم المسلمون شيئاً كثيراً من جملة ذلك سيف مكتوب عليه : هذا سيف هندي زنته مئة وسبعون مثقالاً طالما قوتل به بين يدي رسول الله ﷺ فبعث في جملة تحف إلى المعز الفاطمي إلى إفريقية .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وثلاثمئة

وفيها توفي الشاعر المشهور أحمد بن الحسين الشاعر المعروف بالمتنبي .

كان مولده بالكوفة ونشأ بالشام بالبادية وطلب الأدب ففاق أهل زمانه ولزم جناب سيف الدولة وامتدحه وحظي عنده ثم صار إلى مصر فامتدح كافوراً الإخشيدي ثم هجاه وهرب منه وقدم الكوفة فامتدح ابن العميد فوصله من جهته ثلاثون ألف دينار ثم سار إلى فارس فامتدح عضد الدولة بن بويه فأطلق له أموالاً جزيلة تقارب مئتي ألف درهم وقيل : بل حصل له نحو من ثلاثين ألف دينار .

ثم دس إليه من يسأله : أيهما أحسن ؛ عطايا عضد الدولة بن بويه أو عطايا سيف الدولة بن حمدان ؟

فقال : هذه أجزل ولكن فيها تكلف وتلك أقل ولكن عن طيب نفس من معطيها فتغيظ عليه عضد الدولة ودس إليه طائفة من الأعراب ويقال : إنه قد كان هجا مقدمهم ابن فاتك الأسدي[1] فلهذا أو عز إليه عضد الدولة أن يتعرضوا له فيقتلوه ويأخدوا مامعه من الأموال . فالتقوا عليه وقتلوه .

وذكر ابن عساكر أنه لما نزل في المنزلة التي كانت قبل منزلته سأله بعض الأعراب أن يعطيهم خمسين درهماً ويخفرونه فمنعه الشح والكبر ودعوى الشجاعة من ذلك .

زعم أنه أنزل عليه قرآن فمن ذلك : والنجم السيار والفلك الدوار والليل والنهار إن الكافر لفي أخطار .

وهذا من خذلانه وكثرة هذيانه في قرآنه أراد بجهله وقلة عقله أن يقول ما يشبه كلام رب الأرض والسماء .

قال بعضهم يهجوه :

أي فضل لشاعر يطلب الفضـ
ـل من الناس بكرة وعشيا

---

(١) وأقول : إن المتنبي هجا ضبة ابن أخت فاتك الأسدي .

عـــاش حينـــا يبيـــع في الكوفـــة المـــا
ء وحينـــــاً يبيـــــع مـــــاء المحيـــــا

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وثلاثمئة

فيها وردت طائفة من جيش خراسان في بضعة عشر ألفاً يظهرون أنهم يريدون غزو الروم فأكرمهم ركن الدولة بن بويه ، وأمنوا إليه فنهضوا إليهم ليأخذوا الديلم على غرة فقاتلهم ركن الدولة فظفر بهم لأن البغي مصرعة وهرب أكثرهم .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة ست وخمسين وثلاثمئة

وفيها مات معز الدولة أحمد بن بويه الديلمي الذي أظهر الرفض ثم تاب ورجع إلى السنة وكان حليماً كريماً عاقلاً وكانت إحدى يديه مقطوعة .

ثم قام بعده ولده عز الدولة فأقبل على اللهو واللعب والاشتغال بأمر النساء فتفرق شمله .

وفيها مات سيف الدولة ومن شعره :

قـــد جـــرى في دمعـــه دمـــه
فـــإلى كـــم أنـــت تظلمـــه

رد عنـــــه الطـــــرف منـــــك فقـــــد
جرحتـــــه منـــــك أســـــهمه
كيـــف يـــسطيع التجلـــد مـــن
خطـــرات الـــوهم تؤلمـــه

وقـد قـال لندمائـه : أيكـم يجيـز قـولي ؟ ومـا أظـن أحـداً يجيزه :

لـــــك جـــــسمي تُعِلُّـــــهُ
فـــدمي لـــمْ تُحِلُّـــهُ ؟

فقال أبو فراس بديهة :

قـــال : إن كنـــتُ مالكـــاً
فلـــي الأمـــر كلـــه

وفيهـا تـوفي كـافور الإخـشيدي وفيهـا تـوفي أبـو علـي القـالي صـاحب كتـاب (الأمـالي) وهـو مـشهور . وفيهـا هلـك الدمستق صاحب بلاد الأرمن .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وثلاثمئة

وفيها قتل أبو فـراس الحمـداني في المعركـة قـال ابـن الأثير : وقد صدق من قال : إن الملك عقيم .

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وثلاثمئة

وفيها عاثت الروم في البلاد فساداً وحرقوا حمص وأفسدوا فيها فساداً عريضاً وسبوا من المسلمين نحواً من مئة ألف إنسان فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وفيها دخل جوهر القائد الرومي في جيش كثيف من جهة المعز الفاطمي إلى ديار مصر وأمر جوهر المؤذنين على أن يؤذنوا بحي على خير العمل وأن يجهر الأئمة بالبسملة .

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وثلاثمئة

وفي هذه السنة توفي النقفور الذي كان دمستقاً ثم صار ملك الروم وكان هذا اللعين من أبناء المسلمين كان أبوه من أهل طرسوس من خيار المسلمين يعرف بابن الفقاس فتنصر ولده هذا وكان من أشد الناس على المسلمين وقتل خلقاً كثيراً لا يعلمهم إلا الله عز وجل .

* * * *

ثم دخلت سنة ستين وثلاثمئة

فيها تزوج أبو تغلب بن حمدان ابنة بختيار عز الدولة وعمرها ثلاث سنين على صداق مئة ألف دينار .

ثم دخلت سنة إحدى وستين وثلاثمئة

في هدة السنة وقعة بين الروافض بالكرخ وقالوا : الشر كله منكم .

وفي هذه السنة توفي علي بن إسحاق الشاعر المعروف بالزاهي ومن شعره :

قـــم نهنــــيء عاشــــقين
أصـــــبحا مـــــصطلحين
جمعـــــا بعـــــد فـــــراق
فجعـــــا منـــــه بـــــبين
ثـــم عـــــادا في ســـــرور
مـــــن صـــــدود آمـــــنين
فهمـــــا روح ولكـــــن
ركبـــــت في بـــــدنين

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وستين وثلاثمئة

وفيها توفي الشاعر السري الرفاء فمن شعره :

بنفـــسي مـــن أجـــود لـــه بنفـــسي
ويبخـــــل بالتحيـــــة والـــــسلام

وحتفـــــي كـــــامن في مقلتيـــــه
كمـــون المـــوت في حـــد الحـــسام

وفيها توفي محمد بن هانئ الأندلسي الشاعر ، كان قد استصحبه المعز الفاطمي من بلاد القيروان وجد محمد بن هانئ مقتولاً على حافة البحر ، وقد كان شاعراً مطبقاً قوي النظم إلا أنه كفّره غير واحد من العلماء في مبالغاته في مدائحه فمن ذلك قوله يمدح المعز قبحهما الله تعالى :

ماشـــــئت لا ماشـــــاءت الأقـــــدار
فـــاحكم فأنـــت الواحـــد القهـــار

وهذا خطأ كبير وكفر كثير.

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وثلاثمئة

وفيها خلع المطيع لله وعقدت البيعة لولده الطائع وفيها سار الحسن بن أحمد القرمطي من الأحساء في جمع كثيف من أصحابه والتف معه أمير العرب ببلاد الشام وهو حسان بن الجراح الطائي في عرب الشام بكمالهم ، وضعف جيش المعز عن مقاومتهم فعدل إلى المكيدة ، فراسل حسان بن الجراح أمير العرب ووعده بمئة ألف دينار

إن هو خذل بين الناس فأرسل إليه أن أبعث إلي بما التزمت وتعال بمن معك فإذا التقينا انهزمت بمن معي ، فأرسل إليه المعز بمئة ألف دينار في أكياس ولكن أكثرها زغل ، ضرب النحاس ولبسه الذهب وجعله في أسفل الأكياس ووضع في رؤوس الأكياس الدنانير الخالصة ، ولما بعثها إليه ، ركب في إثرها بجيشه فالتقى الناس فلما تواجه الفريقان ونشبت الحرب بينهم ، انهزم حسان بن الجراح بالعرب فضعف جانب القرمطي وقوي عليه المعز الفاطمي فكسره ، انهزمت القرامطة بين يديه وبعث المعز في آثارهم عشرة آلاف فارس ليحسم مادة القرامطة ثم تسلم المعز دمشق من القرامطة .

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وستين وثلاثمئة

وفيها غلت الأسعار ببغداد جداً حتى بيع الكر الدقيق الحُوّاري بمئة وسبعين ديناراً ونيفاً .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس وستين وثلاثمئة

وفيها توفي الحافظ الجرجاني له كتاب (الكامل) في الجرح والتعديل ، لم يسبق إليه مثله ولا يلحق في شكله. وفيها توفي المعز الفاطمي باني القاهرة .

كان يدعي ظاهر الرفض ويبطن كما قال القاضي الباقلاني الكفر المحض .

وقد حضر بين يديه الزاهد العابد التقي أبو بكر النابلسي فقال : بلغني أنك قلت : لو كان معي عشرة أسهم لرميت الروم بسهم ورميت المعزيين بتسعة فأمر بسلخه فجيىء بيهودي فجعل يسلخه وهو يقرأ القرآن قال اليهودي: فأخذتني رقة عليه فلما بلغت تلقاء قلبه طعنته بالسكين فمات . رحمه الله تعالى . فقيل له : الشهيد .

وإليه ينسب بنو الشهيد من أهل نابلس إلى اليوم .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة ست وستين وثلاثمئة

وفيها توفي ركن الدولة أبو علي بن بويه .

وفيها توفي القاضي منذر بن سعيد أبو الحكم البلوطي الظاهري مذهباً قاضي قضاة الأندلس .

❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة سبع وستين وثلاثمئة

وفيها دخل أبو الحسين بن سمعون الواعظ على عضد الدولة فوعظه فبكى عضد الدولة بكاء كثيراً وجزاه الله خيراً ، فلما خرج من عنده قال للحاجب : اذهب فخذ

ثلاثة آلاف درهم وعشرة أثواب وادفعها إليه فإذا قبلها فجئني برأسه . فلم يقبلها فقال عضد الدولة : الحمد لله الذي سلمه منا وسلمنا منه .

ثم إن عضد الدولة أخذ ابن بقية الوزير لعز الدولة فأمر به فوضع بين قوائم الفيلة فتخبطته بأرجلها حتى هلك ثم صلب على رأس الجسر في شوال فرثاه الحسين بن الأنباري بأبيات يقول فيها :

علو الحياة وفي الممات
لحق تلك إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا
وفود نداك أيام الصلات
كأنك واقف فيهم خطيباً
وكلهمُ وقوف للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفاء
كمدهما إليهم بالهبات

وهي قصيدة طويلة .

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وستين وثلاثمئة

وفيها توفي تميم بن المعز الفاطمي وبه كان يكنى كان فيه كرم وفضيلة أرسل مرة إلى بغداد فاشتريت له

جارية مغنية بمبلغ جزيل ، فلما حضرت عنده أضاف أصحابه ، ثم أمرها فغنت وكانت تحب شخصاً ببغداد :

وبدا له من بعد ما اندمل الهوى
صعب الذرا متمنع أركانهُ
فبدا لينظر كيف لاح فلم يطق
نظراً إليه وصده أشجانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه
والماء ما سمحت به أجفانه[1]

ثم غنته بأبيات أخر فاشتد طرب تميم وقال لها :
لابد أن تسأليني حاجة . فقالت : عافيتك .
فقال : ومع هذا ، وألح عليها فقالت : تردني إلى بغداد حتى أغني بهذه الأبيات . فوجم ولم يجد بدأ من الوفاء . فأرسلها مع بعض أصحابه فأحجها ثم سار بها إلى بغداد على طريق العراق فلما أمسوا في الليلة التي يدخلون من صبيحتها بغداد ذهبت في الليل فلم يدر أحد أين ذهبت .

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وستين وثلاثمئة

فيها تزوج الخليفة الطائع لله بنت عضد الدولة الكبرى .

(١) هكذا في النسخة المطبوعة ، ولعلها ((ما سحَّت)) .

وفيها كان مقتل أبي تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان بالشام قريباً من نوى وأعمالها وكانت معه أخته جميلة وزوجته بنت عم سيف الدولة .

* * * *

ثم دخلت سنة سبعين وثلاثمئة

في جمادى الآخرة دخل الخليفة بزوجته بنت عضد الدولة وحمل معها من الجهاز شيء عظيم .

وفيه وصلت هدايا من صاحب اليمن إلى عضد الدولة .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وثلاثمئة

وفيها وقع حريق عظيم بالكرخ من بغداد .

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين وثلاثمئة

وفيها توفي عضد الدولة وقام بعده ابنه صمصام الدولة ذكر ابن خلكان أنه امتدحه الشعراء بمدائح هائلة كالمتنبي وغيره فمن ذلك قول أبي الحسن محمد بن عبد الله السلامي من قصيدة له :

إليــك طــوى عــرض البــسيطة جاعــلٌ
قــصارى المطايــا أن يلــوح لهــا القــصر
فكنــت وعزمــي في الظــلام وصــارم
ثلاثــة أشــياء كمــا اجتمــع النــسر
وبــشرت آمــالي بملــك هــو الــورى
ودار هــي الــدنيا ويــوم هــو الــدهر

قال ابن خلكان : وهذا هو السحر الحلال . وقال المتنبي :

هــي الغــرض الأقــصى ورؤيتــك المنــى
ومنزلــك الــدنيا وأنــت الخلائــق

قال ابن خلكان : وليس في الطلاوة كقول السلامي ولا استوفى المعنى كله فإنه لم يذكر الدهر .

وقد ذكر أن لعضد الدولة شعراً فمنه قوله وقد خرج مرة إلى بستان له فقال : أود لو جاء المطر فنزل المطر فأنشأ يقول :

لــيس شــرب الكــأس إلا في المطــر
وغنــاء مــن جــوار في الــسحر
غانيــات ســالبات للنهــى
ناغمــات في تــضاعيف الــوتر
عــضد الدولــة وابــن ركنهــا
مالــك الأمــلاك غــلاب القــدر

سـهل الله لـه بغيتـه
مـن ملـوك الأرض مـادار القمـر
وأراه الخـير فـي أولاده
ليـساس الملـك فـيهم بـالغرر

قـال : فيقـال إنـه منـذ قـال : غـلاب القـدر لم يفلـح بعدها.

وذكر غيره أن هذه الأبيات آخر ما أنشدت فيه بين يديه ثم كانت وفاته عقب ذلك .

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وثلاثمئة

فيها غلت الأسعار ببغداد حتى بلغ الكر من الطعام إلى أربعة آلاف وثمانمئة ، ومات كثير من الناس من الضعف في الطرقات جوعاً.

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وثلاثمئة

وفي رجب منها عمل عرس في درب رباح فسقطت الدار على من فيها فهلك أكثر النساء بها ونبشن من تحت الردم فكانت المصيبة عامة.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وثلاثمئة

وفيها توفي ابن مؤيد الدولة، فجلس صمصام الدولة للعزاء وجاء إليه الخليفة الطائع في ثياب السواد والقراء والأولياء بين يديه فقام إليه صمصام الدولة وقبل الأرض بين يديه.

* * * *

ثم دخلت سنة ست وسبعين وثلاثمئة

وفيها وقع بين صمصام الدولة وبين أخيه شرف الدولة، فاقتتلا فغلبه شرف الدولة وأسره ودخل بغداد فتلقاه الخليفة، وهنأه بالسلامة ثم استدعي شرف الدولة بفراش ليكحل صمصام الدولة فاتفق موته فكحل بعد موته، وهذا من غريب ما وقع.

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وثلاثمئة

في هذه السنة اشتد الغلاء جداً ثم لحقه فناء كثير.

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وثلاثمئة

في المحرم منها كثر الغلاء والفناء ببغداد، وفي شعبان كثرت الرياح العواصف بحيث هدمت شيئاً كثيراً من الأبنية وغرقت سفناً كثيرة.

وفي هذا الوقت لحق أهل البصرة حر شديد بحيث سقط كثير من الناس في الطرقات وماتوا من شدة الحر.

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وثلاثمئة

وفيها توفي شرف الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة وكان يحب الخير ويبغض الشر، وأمر بترك المصادرات، وحمل تابوته إلى تربة أبيه بمشهد علي وكلهم فيه تشيع.

* * * * *

ثم استهلت سنة ثمانين وثلاثمئة من الهجرة

فيها قلد الشريف أبو أحمد الحسن بن موسى الموسوي نقابة الأشراف الطالبيين، والنظر في المظالم وإمرة الحج وكتب عهده بذلك واستخلف له ولداه المرتضي والرضي على النقابة وخلع عليهما من دار الخلافة.

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وثلاثمئة

فيها كان القبض على الخليفة الطائع لله ثم خلع نفسه وسلم الخلافة إلى القادر بالله.

وكان من خيار الخلفاء وسادات العلماء وكان ينشد هذه الأبيات يترنم بها وهي لسابق البربري:

سبق القضاء بكل ما هو كائن
والله يا هذا لرزقك ضامن
تُعنى بما تُكفى وتترك ما به
يُعنى كأنك للحوادث آمن
أو ما ترى الدنيا ومصرع أهلها
فاعمل ليوم فراقها يا خائن
واعلم بأنك لا أبا لك في الذي
أصبحت تجمعه لغيرك خازن
يا عامر الدنيا أتعمر منزلاً
لم يبق فيه مع المنية ساكن
الموت شيء أنت تعلم أنه
حق وأنت بذكره متهاون
إن المنية لا تؤامر من أتت
في نفسه يوماً ولا تستأذن

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين وثلاثمئة

في عاشر المحرم منها رسم الوزير أبو الحسن علي بن المعلم لأهل الكرخ وباب الطاق من الرافضة بألا يفعلوا شيئاً من تلك البدع التي كانوا يتعاطونها في عاشوراء، وكان هذا الرجل من أهل السنة إلا أنه كان طماعاً.

ولما كان في جمادى الآخرة سعت الترك والديلم على ابن المعلم هذا فدافع عنه السلطان وراسلوا بهاء الدولة ليسلمه إليهم، ولم يزالوا يراسلونه في أمره حتى خنق أبا الحسن بن المعلم في جبل ومات ودفن بالمخرم وهي محلة في بغداد بين الرصافة ونهر المعلّى .

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وثلاثمئة

وفي جمادى الأولى فرغ من الجسر الذي بناه بهاء الدولة في مشرعة القطانين واجتاز هو بنفسه عليه وقد زين المكان واحتفل به.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وثلاثمئة

في ذي القعدة عزل الشريف أبو أحمد الحسين بن موسى الموسوي وولداه اللذان كانا وليي عهده من بعده عن نقابة الطالبيين.

ورجع ركب العراق في هذه السنة من أثناء الطريق بعد ما فاتهم وقت الحج، وذلك أن الأصيغر الأعرابي الذي كان قد تكفل بحراستهم اعترض له في أثناء الطريق وذكر لهم أن الدنانير التي أطلقت له من دار الخلافة كانت دراهم مطلية وأنه يريد بدلها من الحجيج، فمانعوه وراجعوه فحبسهم عن المسير حتى ضاق الوقت فرجعوا إلى بلادهم ولم يحج منهم أحد، وكذلك لم يحج من الركب الشامي ولا أهل اليمن أحد وإنما حج أهل مصر والمغرب خاصة.

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وثلاثمئة

وفيها توفي الصاحب بن عباد الوزير الشهير وقد كان من العلم والفضيلة والبراعة والكرم والإحسان إلى العلماء على جانب عظيم. ومن لطيف شعره:

رق الزجاج وراقت الخمر
وتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح
وكأنما قدح ولا خمر

وممن توفي فيها عقيل بن محمد العكبري الشاعر المشهور ومن مستجاد شعره قوله:

من أراد الملك والرا
حة من هم طويل
فليكن فرداً من النا
س ويرضى بالقليل
ويرى بالحزم أن الـ
ـحزم في ترك الفضول
ويداوي مرض الوحـ
ـدة بالصبر الجميل
يلزم الصمت فإن الصـ
ـمت تهذيب العقول
وتمام الأمر لا يعـ
ـرف سمحاً من بخيل
فإذا أكمل هذا
كان في ملك جليل

ثم دخلت سنة ست وثمانين وثلاثمئة

في المحرم من هذه السنة كشف أهل البصرة عن قبر عتيق، فإذا هم بميت طري عليه ثيابه وسيفه، فظنوه الزبير ابن العوام، فأخرجوه وكفنوه ودفنوه واتخذوا عند قبره مسجداً وفيها توفي العزيز صاحب مصر الفاطمي.

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وثلاثمئة

فيها توفي فخر الدولة علي بن ركن الدولة بن بويه.

وفيها توفي ابن سمعون الواعظ محمد بن أحمد، أحد الصلحاء والعلماء.

كان يوماً يعظ الناس على المنبر وتحته أبو الفتح بن القواس فنعس ابن القواس فأمسك ابن سمعون عن الوعظ حتى استيقظ، فحين استيقظ قال ابن سمعون: رأيت رسول الله ﷺ في منامك؟ قال: نعم.

قال: فلهذا أمسكت عن الوعظ حتى لا أزعجك عما كنت فيه.

ورأى بعضهم في المنام رسول الله ﷺ وإلى جانبه عيسى ابن مريم عليه السلام وهو يقول: أليس من أمتي

الأحبار؟ أليس من أمتي الرهبان؟ أليس من أمتي أصحاب الصوامع؟ فبينما هم كذلك؟ دخل ابن سمعون فقال له رسول الله ﷺ ؟ أفي أمتك مثل هذا؟ فسكت عيسى عليه السلام.

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وثلاثمئة

وفيها توفي أبو سليمان أحمد الخطابي البستي أحد المشاهير الأعيان. ومن شعره:

مادمت حياً فدار الناس كلهم
فإنما أنت في دار المداراة
من يدر داري ومن لم يدر سوف يُرى
عما قليل نديماً للندامات

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وثلاثمئة

في هذه السنة قصد محمود بن سبكتكين بلاد خراسان فاستلب ملكها من أيدى السامانية.

وفيها استولى بهاء الدولة على بلاد فارس وخوزستان.

* * * * *

ثم دخلت سنة تسعين وثلاثمئة

في هذه السنة ظهر بأرض سجستان معدن من ذهب كانوا يحفرون فيه مثل الآبار ويخرجون منه ذهباً أحمر.

وفيها توفي الجريري واسمه المعافى بن زكريا ومن شعره:

ألا قل لمن كان لي حاسداً
أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في فعله
لأنك لم ترض لي ماوهب
فجازاك عني بأن زادني
وسد عليك وجوه الطلب

* * * * *

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وثلاثمئة

وفيها قتل الأمير حسام الدولة المقلد بن المسيب العقيلي غلبه ببلاد الأنبار قتله بعض غلمانه الأتراك وقام بالأمر من بعده ولده قرواش.

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين وثلاثمئة

فيها توفي أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي النحوي اللغوي، صاحب التصانيف الفائقة المتداولة في النحو واللغة، وكان أبوه جني عبداً رومياً مملوكاً لسليمان بن فهد الموصلي. ومن شعره:

فإن أصبح بلا نسب
فعلمي في الورى نسبي
على أني أؤول إلى
قروم سادة نجب
قياصرة إذا نطقوا
أرمَّ الدهرُ ذو الخطب
أولاك دعا النبي لهم
كفى شرفاً دعاء نبي

قال القاضي ابن خلكان: ويقال: إنه كان أعور.

وفيها توفي أبو الحسن علي بن عبدالعزيز الجرجاني القاضي الشاعر ومن شعره:

يقولون لي: فيك انقباض وإنما
رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
إذا قيل: هذا منهل قلت: قد أرى
ولكن نفس الحر تحتمل الظما

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وثلاثمئة

فيها منع عميد الجيوش الشيعة من النوح على الحسين في عاشوراء، ومنع جهلة السنة بباب البصرة وباب الشير من النياحة على مصعب بن الزبير.

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وثلاثمئة

فيها خرج الركب العراقي في جحفل كبير وتجمل كثير فاعترضهم الأصيفر أمير الأعراب لينهبهم، فبعثوا إليه بشابين قارئين مجيدين كانا معهم يقال لهما: أبو الحسين الرفاء وأبو عبدالله الدجاجي ليكلماه في شيء يأخذه من الحجيج ويطلق سراحهم ليدركوا الحج، فلما جلسا بين يديه قرأا جميعاً عشراً بأصوات هائلة مطبوعة، فأدهشه ذلك وأعجبه جداً فأطلق لهما ألف ألف دينار، وأطلق بسببهما الحجيج فلم يعرض لأحد منهم.

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وثلاثمئة

وممن توفي هذه السنة ابن فارس اللغوي قال:

إذا كنت في حاجة مرسلاً
وأنت بها كلف مغرم

فأرسل حكيماً ولا توصه
وذاك الحكيم هو الدرهم

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وتسعين وثلاثمئة

وفيها كانت الخطبة بالحرمين للحاكم العبيدي وتجدد في حال الخطبة أنه إذا ذكر الخطيب الحاكم يقوم الناس كلهم وكذلك بديار مصر مع زيادة السجود فكانوا يسجدون عند ذكره يسجد من هو في الصلاة ومن هو في الأسواق أيضاً يسجدون لسجودهم لعنه الله سبحانه وتعالى.

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وثلاثمئة

وفيها قتل أبو العباس بن واصل صاحب سيراف - مدينة على ساحل بحر فارس - والبصرة وغيرهما من البلاد ، ظفر به بهاء الدولة فقتله وطيف برأسه في البلاد.

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وثلاثمئة

فيها غزا يمين الدولة محمود بن سبكتكين بلاد الهند ، ففتح حصوناً كثيرة وأخذ أموالاً جزيلة وجواهر نفيسة وكان من جملة ماوجد بيت طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه خمسة عشر ذراعاً مملوءاً فضة.

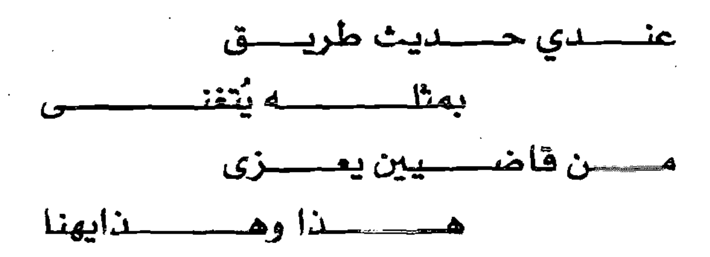
وفيها وقع بواسط برد زنة الواحدة مئة درهم وستة دراهم.

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وثلاثمئة

وفيها أخذت بنو هلال طائفة من حجاج البصرة نحواً من ستمئة واحد وأخذوا منهم نحواً من ألف ألف دينار.

وفي هذه السنة صُرف عمرو بن عبد الواحد عن قضاء البصرة ووليه أبو الحسن بن أبي الشوارب فذهب الناس يهنئون هذا ويعزون هذا فقال في ذلك العُصفري .



ثم دخلت سنة أربعمئة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

وممن توفي في هذه السنة الحسين بن موسى والد الرضي والمرتضى وقد رثاه ابنه المرتضى هذا بقصيدة حسنة قوية النزع والمطلع منها قوله:

سلام الله تنقله الليالي
ويهديه الغدو إلى الرواح
على جدث تشبث من لؤي
بينبوع العبادة والصلاة
فتى لم يرو إلا من حلال
ولم يك زاده غير المباح
ولادنست له أزر بوزر
ولاعلقت له راح براح
خفيف الظهر من ثقل الخطايا
وعريان الجوانح من جُناح
مشوق في الأمور إلى علاها
ومدلول على باب النجاح
من القوم الذين لهم قلوب
بذكر الله عامرة النواحي

* * * * *

ثم دخلت سنة إحدى وأربعمئة

فيها توفي علي بن محمد الكاتب صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأنيس، البدائع التاسيس كقوله: من أصلح فاسده أرغم حاسده وقوله:

من أطاع غضبه أضاع أدبه، من سعادة جدك وقوفك عند حدك.

ومن شعره:

إن هز أقلامه يوماً ليعملها
أنساك كل كمي هز عامله
وإن أقر على رَق أنامله
أقر بالرِّق كُتَّاب الأنام له

وقوله:

إذا تحدثت في قوم لتونسهم
بما تحدث من ماض ومن أت
فلا تعد لحديث إن طبعهم
موكل بمعاداة المعادات

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وأربعمئة

وفي ربيع الآخر منها كتب أئمة بغداد محاضر تتضمن الطعن والقدح في نسب الخلفاء المصريين الذين يدعون أنهم

فاطميون وليسوا كذلك، ونسبتهم إلى ديصان بن سعيد الخرمي، وشهدوا أن الحاكم تسمى بعبيد الله وتلقب بالمهدي وهم أدعياء خوارج وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار فساق فجار ملحدون زنادقة معطلون وللإسلام جاحدون ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون.

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعمئة

ومن توفي في هذه السنة أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب وقد كان في غاية الذكاء والفطنة، ذكر الخطيب البغدادي وغيره أن عضد الدولة بعثه في رسالة إلى ملك الروم فلما انتهى إليه إذا هو يدخل عليه من باب قصير ففهم أن مراده بذلك أن ينحني كهيئة الراكع للملك فدخل الباب بظهره وجعل يمشي القهقرى إلى نحو الملك ثم انفتل فسلم عليه، فعرف الملك مكانه من العلم والفهم فعظمه.

وفيها توفي الحافظ ابن الفرضي قاضي بلنسيه وكان علامة زمانه قتل شهيداً على يد البربر وقد كان سأل الله تعالى الشهادة عن أستار الكعبة فأعطاه الله ذلك.

ومن شعره:

ومن ذا الذي يرجى سواك ويتقى
ومالك في فصل القضاء مخالف

فياسـيدي لا تخزنـي في صـحيفتي
إذا نـشرت يـوم الحـساب الـصحائف
وكـن مؤنـسي في ظلمـة القـبر عنـدما
يـصد ذوو القربـى ويجفـو المؤالـف

* * * *

ثم دخلت سنة أربع وأربعمئة

وفيها عاثت بنو خفاجة ببلاد الكوفة فبرز إليهم نائبها أبو الحسن بن مزيد فواقعهم، فقتل منهم خلقاً وأسر محمد ابن ثمال وجماعة من رؤوسهم وانهزم الباقون، فأرسل الله عليهم ريحاً حارة فأهلكت منهم خمسمئه إنسان .

* * * *

ثم دخلت سنة خمس وأربعمئة

فيها منع الحاكم صاحب مصر النساء من الخروج من المنازل أو أن يطلعن على الأسطحة أو الطاقات، ومنع الخفافين من عمل الأخفاف لهن، ومنعهن من الخروج إلى الحمامات، وقتل خلقاً من النساء لمخالفته في ذلك.

وجهز عجائز كثيرة يطفن في البيوت، يستعلمن أحوال النساء من منهن تعشق أو تعشق، بأسمائهن وأسماء من يتعرض لهن، فمن وجد منهن كذلك أطفأها – قتلها-

وأكثر من الدوران في الليل في البلد في طلب ذلك، وغرق خلقاً ممن يطلع على فسقهم من الرجال والنساء فضاق النطاق على النساء والفساق، ولم يتمكن أحد أن يصل إلى أحد إلا نادراً حتى إن امرأة نادت القاضي بالديار المصرية وهو مالك بن سعيد الفارقي وحلفت بحق الحاكم لما وقف لها واستمع كلامها، فوقف لها، فبكت بكاء شديداً وقالت:

إن لي أخاً ليس لي غيره في السياق، وأنا أسالك لما وصلتني إليه لأنظر إليه قبل الموت فرق لها القاضي رقة شديدة وأمر رجلين معه أن يكونا معها حتى يبلغاها إلى المنزل الذي تريده، فأغلقت بأبها وأعطت المفتاح جارتها، وذهبت حتى وصلت مع الرجلين إلى المنزل، فطرقت ودخلت وقالت لهما: اذهبا راشدين.

فإذا هو منزل رجل تهواه فأخبرته بما احتالت من الحيلة على القاضي فأعجبه ذلك، وجاء زوجها من آخر النهار فوجد بابه مغلقاً، فسأل عن أمرها فذكر له ما صنعت، فاستغاث على القاضي وذهب إليه وقال له: ما أريد امرأتي إلا منك فإنها ليس لها أخ بالكلية وإنما ذهبت إلى عشيقها فخاف القاضي من معرة هذا الأمر فركب إلى الحاكم وبكى لديه فسأله عن شأنه فأخبره بما اتفق من الأمر فأرسل الحاكم مع الرجلين اللذين سارا بها من جهة

القاضي من يحضر المرأة والرجل جميعاً على أي حال كانا عليه فوجدوهما متعانقين سكارى فسألهما الحاكم عن أمرهما فأخذا يعتذران.

فأمر بتحريق المرأة في بارية – حصير – وضرب الرجل بالسياط ضرباً مبرحاً وازداد احتياط الحاكم على النساء حتى مات.

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وأربعمئة

في هذه السنة توفي الشريف الرضي محمد بن الحسين كان نقيب الطالبيين ببغداد بعد أبيه وكان فاضلاً ديناً وكان شاعراً مطبقاً سخياً جواداً ورعاً.

وقد قال بعضهم: كان الشريف الرضي في كثرة شعره أشعر قريش. ومن شعره:

الفتـــــى مـــــن جعـــــل الأمـــــ
ـــــوال أثمـــــان المعـــــالي

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وأربعمئة

وفيها احترق مشهد الحسين بن علي بكربلاء واحترق جامع سامراء وفي هذا الشهر تشعب الركن اليماني في

المسجد الحرام وسقط جدار بين يدي قبر النبي ﷺ وسقطت القبة الكبيرة على صخرة بيت المقدس، وهذا من أغرب الاتفاقات وأعجبها.

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وأربعمئة

وفيها وقعت فتنة عظيمة بين السنة والروافض ببغداد فقتل خلق كثير من الفريقين.

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وأربعمئة

وفيها قرئ بدار الخلافة في الموكب كتاب في مذهب أهل السنة وفيه أن من قال: إن القرآن مخلوق فهو كافر حلال الدم.

وفيها فاض ماء البحر المالح ووافى الأبلة ودخل البصرة بعد يومين.

* * * * *

ثم دخلت سنة عشر وأربعمئة

فيها ورد كتاب من يمين الدولة محمود بن سبكتكين يذكر فيه ما افتتحه من بلاد الهند في السنة

الخالية وفيه أنه دخل مدينة وجد فيها ألف قصر مشيد وألف بيت للأصنام وعندهم صنم معظم يؤرخون مدته بجهالتهم بثلاثمئة ألف عام. وحصل من الأموال عشرون ألف ألف درهم.

* * * * *

ثم دخلت سنة إحدى عشرة وأربعمئة

وفيها قتل الحاكم العبيدي صاحب مصر، وقد كان يعمل الحسبة بنفسه يدور في الأسواق على حمار له وقطع الأعناب حتى لا يتخذ الناس خمراً ومنعهم من طبخ الملوخية. ثم زاد ظلم الحاكم وعن له أن يدعي الربوبية.

عملت أخته على قتله، وقتلت قاتله ابن دواس بعد أن خلعت عليه خلعة سنية.

* * * * *

ثم دخلت سنة اثنتي عشرة وأربعمئة

فيها توفي محمد بن عمر أبو بكر العنبري الشاعر وهو القائل:

إنـــــي نظـــــرت إلى الزمـــــا
ن وأهلـــــه نظـــــراً كفـــــاني

فعرفتـــــــه وعـــــــرفتهم
وعرفـــت عـــزي مـــن هـــواني

فلـــــذاك أطْـــــرح الـــــصديـ
ـــــق فـــــلا أراه ولا يرانـــــي
وزهـــــدت فيمـــــا في يديـــــ
ـــــه ودونـــــه نيـــــل الأمـــــاني
فتعجبـــــــــــوا لمغالـــــــــــب
وهـــــب الأقاصـــــي فـــــالأداني
وانـــــسل مـــــن بـــــين الزحـــــا
ـــــم فمالـــــه في الكـــــون ثـــــاني

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وأربعمئة

وفيها قدم رجل من أصحاب الحاكم اتفق مع جماعة من الحجاج المصريين على أمر سوء وذلك الأول يوم النفر طاف هذا الرجل بالبيت فلما انتهى إلى الحجر الأسود جاء ليقبله فضربه بدبوس كان معه ثلاث ضربات متواليات وقال: إلى متى يعبد هذا الحجر؟ فتقدم إليه رجل من أهل اليمن معه خنجر فوجأه بها وتكاثر عليه الناس فقتلوه وقطعوه وحرقوه وتتبعوا أصحابه فقتل منهم جماعة ونهب أهل مكة ركب المصريين.

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع عشرة وأربعمئة

وحج أهل العراق في هذه السنة، ولكن رجعوا على طريق الشام لاحتياجهم إلى ذلك.

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس عشرة وأربعمئة

وفيها توفي عمر بن عبدالله الدلال قال: سمعت الشبلي ينشد قوله:

وقد كان شيء يسمى السرور
قديماً سمعنا به ما فعل
خليليَّ إن دام همُّ النفوس
قليلاً على ما نراه قتل
يؤمل دنيا لتبقى له
فمات المؤمل قبل الأمل

* * * * *

ثم دخلت سنة ست عشرة وأربعمئة

فيها توفي التهامي على بن محمد أبو الحسن له ديوان مشهور وله مرثاة في ولده وكان قد مات صغيراً أولها:

حكم المنية في البرية جاري
ما هذه الدنيا بدار قرار

ومنها في ذم الدنيا وكل هذه القصيدة مليح مختار:

طُبعتْ على كدر وأنت تريدها
صفواً من الأقذار والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها
متطلب في الماء جذوة نار

ومنها قوله في ولده بعد موته:

جاورتُ أعدائي وجاوَرَ ربه
شتان بين جواره وجواري

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع عشرة وأربعمئة

فيها توفي صاعد البغدادي اللغوي: كان متهماً فيما ينقله وكان طريفاً ماجناً سريع الجواب.

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان عشرة وأربعمئة

في هذه السنة دخل محمود بن سبكتكين بلاد الهند أيضاً وكسر الصنم الأعظم الذي لهم المسمى سومنات وقد كانوا يفدون إليه من كل فج عميق وينفقون عنده من الأموال شيئاً كثيراً جداً، وكان عليه من الأوقاف عشرة

آلاف قرية مشهورة وعنده ألف رجل يخدمونه وثلاثمئة يحلقون حجيجه وثلاثمئة وخمسون يغنون ويرقصون على باب الصنم، ملكه محمود وقتل من أهله خمسين ألفاً .

وقد بذل له أموالاً عظيمة ليترك لهم هذا الصنم ثم عزم فكسره فوجد عليه وفيه من الذهب واللآلىء والجواهر النفيسة ما ينيف على ما بذلوه بأضعاف مضاعفة.

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع عشرة وأربعمئة

فيها توفي حمزة بن إبراهيم المنجم حظي عند بهاء الدولة وعلْمُه النجوم وكان ذا وجاهة عنده حتى إن الوزراء كانوا يكارمونه ويراسلونه ويتوسلون به إليه في أمورهم.

ثم صار أمره طريداً بعيداً حتى مات غريباً فقيراً مفلوجاً. قد ذهب ماله وجاهه.

* * * * *

ثم دخلت سنة عشرين وأربعمئة

فيها سقط بناحية المشرق مطر شديد معه برد كبار قال ابن الجوزي: حزرت البردة الواحدة منها بمئة وخمسين رطلاً وغاصت في الأرض نحواً من ذراع.

* * * * *

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وأربعمئة

وفيها توفي محمود بن سبكتكين رحمه الله تعالى .

اشتكى إليه رجل أن ابن أخت الملك يهجم عليه وعلى أهله في كل وقت فيخرجه من البيت ويختلي بامرأته ولا يتجاسر أحد من أولي الأمر على إقامة الحد عليه يهابون الملك، فقال له الملك محمود رحمه الله: ويحك متى جاءك فائتني فأعلمني وتقدم إلى الحجبة أن هذا لا يمنع فما كان إلا ليلة أوليلتان حتى هجم عليه ذلك الشباب فأخرجه فاختلى بأهله فذهب باكياً إلى دار الملك فخرج معه بنفسه وحده وجاء منزل ذلك الرجل فنظر إلى الغلام وهو نائم مع المرأة في فراش الرجل فاحتز رأس الغلام وهو يعلم أنه ابن أخته وقال الملك للرجل: ويحلك الحقني بشربة ماء. فإذا به منذ يومين لم يأكل ولم يشرب فقال الرجل : سألتك بالله لِمَ أطفأت الشمعة ؟ فقال : ويحك ! إنه ابن أختي وكرهت أن أشاهده حالة الذبح . فقال : ولم طلبت الماء سريعاً ؟ فقال : كنت آليت منذ أخبرتني ألا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أقوم بحقك .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين وأربعمئة

فيها كانت وفاة القادر بالله وخلافة ابنه القائم بأمر الله.

وفيها توفي عبدالوهاب بن علي ومن شعره:

بغـــداد دار لأهـــل المـــال طيبـــة
وللمفـــاليس دار الـــضنك والـــضيق
ظللـــت حـــيران أمـــشي في أزقتهـــا
كـــأنني مـــصحف في بيـــت زنـــديق

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وأربعمئة

فيهـا وقـع مَوَتـانٌ عظـيم ببـلاد الهنـد وغزنـة وخراسـان وجرجان والري وأصبهان . وممن توفي فيها الشاعر علي بن أحمد البصري ومن شعره:

إذا أظمأتـــــك أكـــــف اللئـــــام
كفتـــك القنـاعـــة شـــبعاً وريـــا
فكـــن رجـــلاً رجلـــه في الثـــرى
وهامـــــة همتـــــه في الثريـــــا
أبيـــــاً لنائـــــل ذي ثـــــروة
تـــراه بمـــا في يديـــه أبيـــا
فـــإن إراقـــة مـــاء الحيـــا
ة دون إراقـــة مـــاء المحيـــا

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وأربعمئة

فيها تفاقمت الحال بأمر العيارين وقوي أمر مقدمهم البرجمي وقتل صاحب الشرطة غيلة، وكان من شأن البرجمي هذا أنه لا يؤذي امرأة ولا يأخذ مما عليها شيئاً وهذه مروءة في الظلم.

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وأربعمئة

فيها كثرت الزلازل بمصر والشام وسقط نصف بنيان نابلس وخسف بقرية بإزائها وبأهلها وبقرها وغنمها.

وساخت في الأرض كذلك قرى كثيرة هناك.

وكان غلاء شديد بإفريقية وعصفت ريح سوداء بنصيبين واقتلعت قصراً مشيداً بحجارة وآجر وكلس ثم سقط مطر معه برد أمثال الأكف والزنود والأصابع، وجزر البحر من تلك الناحية ثلاثة فراسخ فذهب الناس خلف السمك فرجع الماء عليهم فهلك خلق كثير.

وفيها كثر الموت بالخوانيق - كتم النفس - حتى كان يغلق الباب على من في الدار كلهم قد مات.

وأكثر ذلك ببغداد فمات من أهلها في شهر ذي الحجة سبعون ألفاً. وفيها وقعت الفتنة بين السنة والشيعة حتى بين

العيارين من الفريقين فقتل ابن البرجمي وأخوه في هذه السنة.

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وعشرين وأربعمئة

في شعبان منها ورد كتاب من مسعود بن محمود بن سبكتكين بأنه قد فتح فتحاً عظيماً في الهند وقتل منهم خمسين ألفاً وأسر تسعين ألفاً وغنم شيئاً كثيراً. ولله الحمد والمنة.

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وأربعمئة

وفيها تفاقم أمر العيارين وكبسوا الدور وتزايد شرهم.

وفيها توفي صاحب مصر الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن علي بن الحاكم وكانت سيرته جيدة وقام بالأمر ولده المستنصر.

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وأربعمئة

فيها نزل مطر ببلاد قم ومعه سمك وزن السمكة رطل ورطلان.

فيها توفي مهيار الديلمي، كان مجوسياً فأسلم إلا أنه سلك سبيل الرافضة حتى قال أبو القاسم بن برهان: يا مهيار انتقلت من زاوية في النار إلى زاوية أخرى.

ومن شعره:

مـا كنـت أعـرف مـا مقـدار وصـلكم
حتـى هجـرتم وبعـض الهجـر تأديـب

ولمهيار:

أجارتنـا بـالغور والركـب مـتهم
أيعلـم خـال كيـف بـات المتـيم؟
بنـا أنـتم مـن ظـاعنين وخلفـوا
قلوبـاً أبـت أن تعـرف الـصبر عـنهم
بكيـت علـى الـوادي فحرمـت مـاءه
وكيـف يحـل المـاء أكثـره دم

فيها توفي أبو علي بن سينا. الطبيب الفيلسوف الحسين ابن عبد الله بن سينا. الشيخ الرئيس الذي كان نادرة في زمانه.

ومن أشعاره:

هبطـت إليـك مـن المحـل الأرفـع
ورقـاء ذات تعـزز وتمنـع
محجوبـة عـن كـل مقلـة عـارف
وهـي الـتي سـفرت ولم تتبرقـع
وصـلت علـى كـره إليـك وربمـا
كرهـت فراقـك وهـي ذات تفجـع

وقد لخص الغزالي كلامه في (مقاصد الفلاسفة) ثم رد عليه في (تهافت الفلاسفة) كفره في ثلاث مسائل منهن: قوله بقدم العالم. وعدم المعاد الجسماني وأن الله لا يعلم الجزئيات. وبدعه في الجزئيات. ويقال: إنه تاب عند الموت.

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وأربعمئة

فيها بدوُّ ملك السلاجقة وفيها استولى ركن الدولة أبو طالب طغرلبك محمد بن ميكائيل بن سلجوق على نيسابور.

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاثين وأربعمئة

فيها التقى الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين والملك طغرلبك السلجوقي ومعه أخوه داود في شعبان فهزمهما مسعود وقتل من أصحابهما خلقاً كثيراً.

* * * * *

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وأربعمئة

فيها زادت دجلة زيادة عظيمة بحيث حملت الجسر ومن عليه فألقتهم بأسفل البلد وسلموا.

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين وأربعمئة

فيها عظم شأن السلجوقية وارتفع شأن ملكهم طغرلبك والسلاجقة هم التركمان وسلجوق جدهم.

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وأربعمئة

فيها ملك طغرلبك جرجان وطبرستان ثم عاد إلى نيسابور مؤيداً منصوراً. وفيها توفي مسعود بن الملك محمود ابن سبكتكين.

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وأربعمئة

وفيها استولى السلطان طغرلبك على أكثر البلاد الشرقية خوارزم ودهستان وطيس والري وبلاد الجبل وكرمان وأعمالها وقزوين.

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وأربعمئة

وفيها أرسل الملك مودود بن مسعود عسكراً كثيفاً إلى خراسان فبرز إليهم ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل

ابن سلجوق في عسكر آخر فاقتلا قتالاً عظيماً.

وفيها أسلم من الترك نحو من عشرة آلاف خركاه -خيمة- .

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وأربعمئة

وفيها استوزر طغرلبك أبا القاسم علي بن عبدالله الجويني وهو أول وزير وزر له.

وفيها توفي الشريف الموسوي الملقب المرتضى، ومن تفرداته في التشيع أن الكتابيات حرام، وذبائح أهل الكتاب حرام، وأن الطلاق لا يقع إلا بحضرة شاهدين والمعلق منه لا يقع وإن وجد شرطه، وأن قطع السارق من أصول الأصابع. وهذه مذاهب عجيبة تخرق الإجماع وأعجب منها ذم الصحابة رضي الله عنهم.

ويقال إنه هو الذي وضع كتاب (نهج البلاغة).

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وأربعمئة

وفيها توفي أحمد بن يوسف المنازي الشاعر الكاتب له ديوان شعر قليل النظير ومن شعره في وادي بُزاعا قوله:

وقانـــــا لفحـــــة الرمـــــضاء واد
سـقاه مـضاعف الغيـث العمـيم
نزلنـــــا دوحـــــه فحنـــــا علينـــــا
حنـــو المرضـــعات علـــى الفطـــيم
وأرشـــــفنا علـــــى ظمـــــأ زلالاً
ألـــــذ مـــــن المدامـــــة للنـــــديم
يـــصد الـــشمس أنـــى قابلتـــه
فيحجبهـــا ويـــأذن للنـــسيم
يـــروع حـــصاه حاليـــة العـــذارى
فـــتلمس جانـــب العقـــد النظـــيم

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وأربعمئة

وفيها حاصر السلطان ابن طغرلبك أصبهان فصالحه أهلها على مال يحملونه إليه وأن يخطب له بها فأجابوه إلى ذلك.

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وأربعمئة

وفيها توفي محمد بن علي بن إبراهيم الشاعر فمن شعره:

مـــا حكـــم الحــب فهـــو ممتثـــل
ومــــا جنــــاه الحبيـــب محتمَـــل
يهــوى ويــشكو الـضنى وكــل هــوى
لا ينحـــل الجـــسم فهـــو منتحَـــل

* * * * *

ثم دخلت سنة أربعين وأربعمئة

وفيها غزا إبراهيم ينّال بلاد الروم فغنم مئة ألف رأس وأربعة آلاف درع وحمل له من الغنائم على عشرة آلاف عجلة.

* * * * *

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وأربعمئة

وفيها وقعت وحشة بين طغرلبك وأخيه إبراهيم ينال، وكتب ملك الروم إلى طغرلبك في فداء بعض ملوكهم ممن كان أسره إبراهيم ينال ويبذل له فيه قطعة كثيرة من المال، فبعثه إليه مجاناً من غير عوض أشرطه عليه، فأرسل ملك الروم هدايا وتحفاً عزيزة وأمر بعمارة المسجد الذي في القسطنطينية.

وأقيمت فيه الصلاة والجمعة، وخطب فيه للملك طغرلبك فبلغ هذا الأمر العجيب سائر الملوك فعظموا الملك

طغرلبك تعظيماً زائداً وخطب له نصر الدولة بن مروان بالجزيرة.

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين وأربعمئة

فيها فتح السلطان طغرلبك أصبهان بعد حصار سنة وخرب قطعة من سورها وقال: وإنما يحتاج إلى السور من تضعف قوته وإنما حصني عساكري وسيفي.

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وأربعمئة

وممن توفي فيها محمد بن أحمد الشاعر البصروي نسبة إلى بصرى باسم المدينة التي هي أم حوران. ومن نوادر شعره:

ترى الدنيا وزهرتها فتصبو
وما يخلو من الشهوات قلب

فضول العيش أكثرها هموم
وأكثر ما يضرك ما تحب

فلا يغررك زخرف ما تراه
وعيش لين الأعطاف رطب

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وأربعمئة

وفيها كانت زلازل عظيمة بنواحي أرَّجان والأهواز وحكى أحدهم أنه انفرج إيوانهم وهو يشاهد ذلك حتى رأى السماء منه ثم عاد إلى حاله لم يتغير.

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وأربعمئة

وفيها توفي أحمد بن عمر بن روح وله شعر حسن قال: كنت يوماً على شط النهروان فسمعت رجلاً يتغنى في سفينة منحدرة:

ومــــا طلبــــوا ســــوى قتلــــي
فهــــان علــــي مــــا طلبــــوا

فاستوقفته وقلت: أضف إليه أيضاً:

علــــى قتلــــي الأحبــــة بالتــــ
ــــمادي في الجفــــا غلبــــوا
وبــــالهجران طيــــب النــــو
ــــم مــــن عــــيني قــــد ســــلبوا
ومــــا طلبــــوا ســــوى قتلــــي
فهــــان علــــى مــــا طلبــــوا

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وأربعين وأربعمئة

فيها غزا السطان طغرلبك بلاد الروم بعد أخذه بلاد أذربيجان فغنم من بلاد الروم وسبى.

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وأربعمئة

فيها دخل طغرلبك بغداد وهو أول ملوك السلجوقية لبلاد العراق وآخر ملوك بني بويه. وفيها توفي الحسين بن علي العجلي ومن شعره:

سلام الله عوداً ثم بدءاً
على أيام ريحان الشباب

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وأربعمئة

وممن توفي فيها هلال بن المحسن الكاتب الصابئ وكان سبب إسلامه أنه رأى رسول الله ﷺ في المنام مراراً يدعوه إلى الله عز وجل ويأمره بالدخول في الإسلام ويقول: أنت رجل عاقل فلم تدع دين الإسلام الذي قامت عليه الدلائل وأراه الله آيات في المنام شاهدها في اليقظة فمن ذلك أنه قال: إن امرأتك حامل بذكر فسمه محمداً فولدت

ذكراً فسماه محمداً. وكناه أبا الحسن فأسلم وحسن إسلامه وكان صدوقاً.

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وأربعمئة

وممن توفي فيها أحمد بن عبدالله أبو العلاء المعري الشاعر المشهور بالزندقة اللغوي أصابه الجدري وله أربع أو ست أو سبع فذهب بصره ودخل بغداد فأقام بها سنة وسبعة أشهر ثم خرج منها طريداً منهزماً لأنه قال شعراً يدل على قلة دينه وعلمه وعقله وهو:

تناقضٌ ما لنا إلا السكوت له
وأن نعوذ بمولانا من النار
يدٌ بخمس مئينٍ عسجدٍ فُديت
ما بالها قطعت في ربع دينار

يقول: اليد ديتها خمسمئة دينار فما لكم تقطعونها إذا سرقت ربع دينار، وهذا من قلة عقله وعمى بصيرته وذلك أنها إذا جُني عليها يناسب أن يكون ديتها كثيرة ينزجر الناس عن العدوان؛ وأما إذا جنت بالسرقة فيناسب أن تقل قيمتها لينزجر عن أخذ الأموال وتصان أموال الناس ولهذا قال بعضهم: كانت ثمينة لما كانت أمينة فلما خانت هانت.

ولما عزم الفقهاء على أخذه بهذا الكلام هرب ورجع إلى بلده ولزم منزله فكان لا يخرج منه. كان ذكياً ولم يكن زكياً.

* * * * *

ثم دخلت سنة خمسين وأربعمئة

في أواخر هذه السنة خرج السطان طغرلبك من همذان فقاتل أخاه وانتصر عليه وقتله والحمد لله والمنة فسار إلى العراق.

* * * * *

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وأربعمئة

هزم طغرلبك البساسيري وقتله وحمل رأسه إلى بغداد.

وفيها تولى الملك ألب أرسلان بن داود جغريبك بن ميكائيل بن سلجوق بلاد خراسان . وكان في هذه السنة بمكة رخص لم يُسمع بمثله، بيع التمر والبر كل مئتي رطل بدينار.

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين وأربعمئة

وفيها عاد الملك طغرلبك إلى الجبل وعقد بغداد على العميد بمئة ألف دينار في السنة.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وأربعمئة

وفيها توفي أحمد بن مروان أبو نصر الكردي صاحب بلاد بكر وميافارقين لقبه القادر بالله نصر الدولة.

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وأربعمئة

فيها وردت الكتب الكثيرة من الملك طغرلبك يشكو قلة إنصاف الخليفة وعدم موافاته بما أسداه إليه من الخدم وأنعم إلى ملوك الأطراف.

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وأربعمئة

فيها دخل السطان طغرلبك بغداد ثم زفت السيدة ابنة الخليفة إلى دار المملكة ومات طغرلبك.

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وخمسين وأربعمئة

فيها قبض السلطان ألب أرسلان على وزير عمه الملك الكندري وسجنه في بعض القلاع سنة ثم أرسل إليه من قتله. وفيها توفي ابن حزم الظاهري.

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وأربعمئة

فيها كان مقتل عميد الملك الكندري وهو محمد بن منصور وزير طغرلبك ومن شعره:

إن كان بالناس ضيق عن منافستي
فالموت قد وسع الدنيا على الناس
مضيت والشامت المغبون يتبعني
كل لكاس المنايا شارب حاسي

وقد كان الملك طغرلبك بعثه مرة لتخطب له امرأة خوارزم شاه فتزوجها هو، فخصاه وأقره على عمله فدفن ذكره بخوارزم، وسفح دمه حين قتل بمرو الروذ ودفن جسده بكندر وحمل رأسه فدفن بنيسابور ونقل قحف رأسه إلى كرمان.

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وأربعمئة

في ربيع الأول ولد بباب الأزْج صبية لها رأسان ووجهان ورقبتان وأربع أيد على بدن كامل. ثم ماتت.

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وأربعمئة

وفي شعبان هبت ريح حارة فمات بسببها خلق كثير وفيها وقع غلاء وفناء بدمشق وحلب وخراسان بكمالها.

* * * * *

ثم دخلت سنة ستين وأربعمئة من الهجرة

في جمادى الأول كانت زلزلة شديدة بأرض فلسطين أهلكت بلد الرملة وانشقت الأرض عن كنوز من المال وبلغ حسها الرحبة والكوفة وانشقت الصخرة التي ببيت المقدس ثم عادت فالتأمت بقدره الله تعالى، وغار البحر مسيرة يوم وساخ في الأرض وظهر مكان الماء أشياء من جواهر وغيرها ودخل الناس إلى أرضه يلتقطون فرجع عليهم فأهلك خلقاً كثيراً منهم.

* * * * *

ثم دخلت سنة إحدى وستين وأربعمئة

وفيها كان حريق جامع دمشق، وتغيرت معالمه ومحاسنه وتبدلت بهجته بضدها، وقد كانت سقوفه مذهبة مبطنة كلها والجمالونات من فوقها وجدرانه بالفصوص المذهبة الملونة مصور فيها جميع بلاد الدنيا، الكعبة ومكة في المحراب والبلاد كلها شرقاً وغرباً

ومصور فيه كل شجرة مثمرة وغير مثمرة وأرضه كلها بالفصوص ؛ الرخام والفسيفساء ولم يكن في الدنيا بناء أحسن منه لا قصور الملوك ولا دور الخلافة.

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وستين وأربعمئة

وفيها كان غلاء شديد وقحط عظيم بديار مصر بحيث إنهم أكلوا الجيف والميتات، ونزل الوزير يوماً عن بغلته فغفل الغلام عنها لضعفه من الجوع، فأخذها ثلاثة نفر فذبحوها وأكلوها فأخذوا فصلبوا فاصبحوا فإذا عظامهم بادية قد أكل الناس لحومهم.

وكان لا يجسر أحد أن يدفن ميِّته نهاراً وإنما يدفنه ليلاً خفية لئلا ينبش فيؤكل.

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وأربعمئة

وفيها أقبل ملك الروم أرمانوس في جحافل أمثال الجبال من الروم والكرج والفرنج وعُدد عظيمة وتجمل هائل ومعه خمسة وثلاثون ألفاً من البطارقة مع كل بطريق ما بين ألفي فارس إلى خمسمئة فارس، ومعه من الفرنج خمسة وثلاثون ألفاً ومعه مئة ألف نقاب وحفار والمجانيق منها منجنيق يمده ألف ومئتا رجل ومن عزمه – قبحه الله –

أن يجتث الإسلام وأهله، وقد أقطع لبطارقته البلاد حتى بغداد، واستوصى نائبها بالخليفة خيراً فقال له: ارفق بذلك الشيخ فإنه صاحبنا، ثم إذا استوسقت ممالك العراق وخراسان لهم مالوا على الشام وأهله ميلة واحدة فاستعادوه من أيدي المسلمين واستنقذوه فيما يزعمون.

فالتقاه السلطان ألب أرسلان في جيشه وهم قريب من عشرين ألفاً بمكان يقال له: الرهوة.

وخاف من كثرة المشركين، فأشار عليه الفقيه أبو نصر محمد بن عبدالملك البخاري بأن يكون وقت الوقعة يوم الجمعة بعد الزوال حين يكون الخطباء يدعون للمجاهدين، فلما تواجه الفئتان نزل السلطان عن فرسه وسجد لله عز وجل ومرغ وجهه في التراب، ودعا الله تعالى واستنصره فأنزل الله نصره على المسلمين ومنحهم أكتاف المشركين فقتلوا منهم خلقاً لا يحصون كثرة وأسر ملكهم أرمانوس.

وفيها توفي ابن زيدون الشاعر أحمد بن عبدالله أبو الوليد الأندلس القرطبي. وهو صاحب القصيدة الفراقية المشهورة التي يقول فيها:

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا

شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وستين وأربعمئة

وفيها تزوج الأمير عدة الدين ولد الخليفة بابنة السلطان ألب أرسلان من سفرى خاتون في نيسابور.

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وستين وأربعمئة

كان السلطان قد سار في أول هذه السنة في مئتي ألف مقاتل يريدون غزاة ماوراء النهر فاتفق في بعض المنازل أنه غضب على رجل يقال له : يوسف الخوارزمي فأوقف بين يديه فشرع في أشياء صدرت منه ثم أمر من يضرب له أربعة أوتاد ويصلب بينهما فقال للسطان : يامخنث أمثلي يقتل هكذا ؟ فاحتد السلطان وأمر بإرساله وأخذ القوس فرماه بسهم فأخطأه وأقبل يوسف نحو السلطان فنهض السلطان عن السرير فنزل فعثر فوقع فأدركه يوسف فضربه بخنجر كان في يده في خاصرته وأدركه الجيش فقتلوه وجرح السلطان جرحاً منكراً فتوفي وجلس مكانه ابنه ملكشاه .

والسلطان ألب أرسلان صاحب الممالك الشاسعة ملك بعد عمه طغرلبك وكان عادلاً كريماً شفوقاً على الرعية كثير الصدقات ولا يعرف في زمانه جناية ولا مصادرة ، بلغة أن غلاماً من غلمانه أخذ إزاراً لبعض التجار فصلبه فارتدع سائر المماليك به خوفاً من سطوته .

ثم دخلت سنة ست وستين وأربعمئة

فيها جاء مطر عظيم وسيل قوي كثير وغرقت بغداد ومات خلق كثير تحت الردم ، وصدم سور سنجار فهدمه وأخذ بابه من موضعه إلى مسيرة أربعة فراسخ .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وستين وأربعمئة

وفيها مات الخليفة القائم بأمر الله ، وقام بعده المقتدي بأمر الله في شعبان أخرج الخواطىء من بغداد على حُمُرات ينادين على أنفسهن بالعار والفضيحة وضرب دورهن وخرب أبرجة الحمام ومنع من اللعب بها ، وألزم الناس بالمآزر في الحمامات ، ومنع حجَّاب الحمامات أن يصرفوا فضلاتها إلى دجلة وألزمهم بحفر آبار لتلك المياه القذرة صيانة لماء الشرب .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وستين واربعمئة

وفيها جاء جراد في شعبان بعدد الرمل والحصى ، فأكل الغلات وأكدى الناس وجاعوا ، ثم منع الله الجراد من الفساد ، فكان يمر ولا يضر فرخصت الأسعار .

وفيها توفي مسعود البياض الشاعر ومن شعره .

ليس لي صاحب معين سوى الليـ
ـل إذا طال بالصدور عليا
أنا أشكو بُعد الحبيب إليه
وهو يشكو بعد الصباح إليا

وله أيضاً :
إن كان يوسف بالجمال مقطِّع الـ
أيدي فأنت مفتت الأكباد

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وستين وأربعمئة

وفيها أزيلت المنكرات والبغايا ببغداد وهرب الفساق منها .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبعين وأربعمئة من الهجرة

وفيها ولي تاج الدولة تُتُش بن ألب أرسلان الشام وحاصر حلب .

* * * * *

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين واربعمئة

وفيها ملك السلطان الملك المظفر تاج الملوك تتش بن ألب أرسلان السلجوقي دمشق وقتل ملكها أقسيس ، وذلك أن أقسيس بعث إليه يستجده على المصريين ، فلما وصل إليه لم يركب لتلقيه فأمر بقتله لساعته فقتل .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين واربعمئة

فيها أمر السلطان بتغريق ابن علان اليهودي ضامن البصرة وأخذ من ذخائره أربعمئة ألف دينار .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين واربعمئة

وفيها توفي محمد بن الحسين بن الشبل الشاعر البغدادي وله شعر رائق منه :

لا تظهرن لعاذل أو عاذر
حاليك في السراء والضراء
فلرحمة المتوجعين مرارة
في القلب مثل شماتة الأعداء

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وأربعمئة

فيها أرسل الخليفة ابن جهير إلى السلطان ملكشاه يخطب له ابنته عنه ، فأجابت أمها إلى ذلك بشرط ألا يكون له زوجه ولا سرية سواها وأن يكون مبيته عندها ، فوقع الشرط على ذلك .

وفيها توفي الباجي القاضي الأندلسي أبو الوليد .

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وسبعين واربعمئة

وفيها توفي ابن ماكولا الأمير أبو نصر أحد أئمة الحديث وسادات الأمراء ، قتله مماليكه في كرمان ومن شعره قوله :

قوض خيامك عن أرض تهان بها
وجانب الذل إن الذل يُجتنَب
وارحل إذا كان في الأوطان منقصة
فالمندل الرطب في أوطانه حطب

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وسبعين وأربعمئة

وفيها توفي الشيخ إبراهيم الشيرازي ومن شعره :

سـألت النـاس عـن خـل وفي
فقـالوا : مـا إلى هـذا سـبيل
تمـسك إن ظفـرت بـذيل حـر
فـإن الحـر في الـدنيا قليـل

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وسبعين واربعمئة

وفيها عصى تكشُ أخو السلطان ، فأخذه السلطان فسمله وسجنه .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين واربعمئة

فيها زلزلت أرجان فهلك خلق كثير من الروم وفيها كثرت الأمراض بالحمى ، والطاعون بالعراق والحجاز والشام وأعقب ذلك موت الفجاءة .

ومع هذا وقعت فتنة عظيمة بين الروافض والسنة فقتل خلق كثير .

وفيها توفي إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله أبو المعالي الجويني ،وجوين من قرى نيسابور ، كانت أمه جارية اشتراها والده من كسب يده من النسخ وأمرها ألا

يرضعه غيرها ، واتفق أن امرأة دخلت عليه فأرضعته مرة فأخذه الشيخ أبو محمد فنكسه ووضع يده على بطنه ووضع أصبعه في حلقه ولم يزل به حتى استقاء ما كان في بطنه من لبن تلك المرأة .

قال : فربما حصل لإمام الحرمين في بعض مجالس المناظرة فتور فيقول : هذا من آثار تلك الرضعة .

وقد رثي بمراث كثير من ذلك قول بعضهم :

قلوب العالمين على المقالي
وأيام الورى شبه الليالي
أيثمر غصن أهل العلم يوماً
وقد مات الإمام أبو المعالي

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وأربعمئة

فيها ظهر رجل بين السندية وواسط يقطع الطريق وهو مقطوع اليد اليسرى يغوص دجلة في غوصتين ويقفز القفزة خمسة وعشرين ذراعاً ولا يقدر عليه أحد .

وفيها كانت الوقعة بين تتش صاحب دمشق وبين سليمان بن قتلمش صاحب حلب وأنطاكية فانهزم أصحاب

سليمان وقتل هو نفسه بخنجر ، ومَلِكُ شاه حلب وحران والرها وقلعة جعبر وهي قلعة على الفرات مقابل صفين .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمانين وأربعمئة

فيها توفي أبو بكر عمر أمير المؤمنين الملثمين كان في أرض فرغانة وهي مدينة كبيرة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان ، كان يركب معه إذا سار لقتال عدو خمسمئة ألف مقاتل كلٌّ يعتقد طاعته ، وكان يقيم الحدود ويحفظ محارم الإسلام ويسير في الناس سيرة شرعية مع صحة معتقده وموالاة الدولة العباسية .

أصابته نشابة في بعض حروبه فجاءته في حلقه فقتلته .

* * * * *

ثم دخلت سنة إحدة وثمانين وأربعمئة

فيها كانت فتنة عظيمة بين الروافض والسنة ببغداد

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين وأربعمئة

وفيها كانت فتنة عظيمة بين الروافض والسنة نقل ابن الجوزي في (المنتظم) قال : وسب أهل الكرخ

الصحابة وأزواج رسول الله ﷺ وارتفعوا إلى سب رسول الله ﷺ ، فلعنة الله على أهل الكرخ الذين فعلوا ذلك ، وإنما حكيت هذا ليعلم الواقف عليه ما في طوايا الروافض من الخبث والبغض لدين الإسلام وأهله والعداوة الباطنة الكامنة في قلوبهم لله ولرسوله وشريعته .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وأربعمئة

فيها استفتي على معلمي الصبيان أن يُمنعوا من المساجد صيانة لها ولم يستثن منهم سوى رجل كان فقيهاً شافعياً يدري كيف تصان المساجد .

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وثمانين واربعمئة

فيها عُزل الوزير أبو شجاع عن وزارة الخلافة فأنشد عند عزله :

تولاها وليس له عدو
وفارقها وليس له صديق

وفي هذه السنة ملك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين صاحب بلاد المغرب كثيراً من بلاد الأندلس وأسر صاحبها المعتمد بن عباد وسجنه وأهله بأغمات .

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وأربعمئة

فيها توفي السطان ملكشاه بن أبي شجاع ألب أرسلان .

امتدت مملكته من أقصى بلاد الترك إلى أقصى بلاد اليمن حتى ملك الروم والخزر ، وكان قد ملك بغداد وكانت دولتة صارمة والطرقات في أيامه آمنة، ومع عظمته يقف للمرأة والمسكين والضعيف ويقضي حوائجهم .

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وثمانين وأربعمئة

وفيها وقعت الفتنة بين الروافض والسنة وانتشرت بينهم شرور كثيرة .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وأربعمئة

فيها كانت وفاة الخليفة المقتدي بأمر الله . وكان غيوراً على حريم الناس آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر حسن السيرة والسريرة رحمه الله ، وأخفي أمره ثلاثة أيام

هم دفن ، قام بالأمر بعده ولده المستظهر بالله حيث بويع له بالخلافة ومن لطيف شعره :

أذاب حر الجوى في القلب ماخمدا
يوماً مددت على رسم الوداع يدا
فكيف أسلك نهج الإصطبار وقد
أرى طرائق في مهوى الهوى قددا
قد أخلف الوعدَ بدرٌ قد شغفت به
من بعد ما قد وفى دهراً بما وعدا
إن كنت أنقض عهد الحب في خلدي
من بعد هذا فلا عاينتُه أبدا

وكان المستظهر بالله كريم الأخلاق حافظاً للقرآن فصيحاً بليغاً شاعراً مطبقاً .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وأربعمئة

وفيها خرج أبو حامد الغزلي من بغداد متوجهاً إلى بيت المقدس تاركاً التدريس في النظامية وعاد في السنة الثالثة من خروجه ثم حج ورجع إلى بلده وقد صنف كتاب الإحياء في هذه المدة .

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وأربعمئة

وفيها ملك تميم بن المعز مدينة قابس وأخرج منها أخاه عَمْراً فقال خطيب سوسة في ذلك :

ضحك الزمان وكان يلفى عابسا
لما فتحت بحد سيفك قابسا
وأتيتها بكراً وما أمهرتها
إلا قناً وصوارماً وفوارسا
الله يعلم ما جنيت ثمارها
إلا وكان أبوك قبل الفارسا
من كان في زرق الأسنة خاطباً
كانت له قلل البلاد عرائسا

* * * * *

ثم دخلت سنة تسعين وأربعمئة

فيها كان ابتداء ملك الخوارزمية ، محمد بن أنوشتكين كان أبوه من أمراء سلجوق ونشأ هو في أدب وفضيلة وحسن سيرة وعامل الناس بالجميل .

* * * * *

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وأربعمئة

فيها ملك الفرنج مدينة انطاكية بعد حصار شديد بمواطأة من بعض المستحفظين على بعض الأبراج وهرب صاحبها ياغي سيان في نفر يسير ثم أخذه في أثناء الطريق ندم شديد على ما فعل بحيث إنه غشي عليه وسقط عن فرسه فذهب أصحابه وتركوه فجاء راعي غنم فقطع رأسه .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين وأربعمئة

سقوط بيت المقدس

وفيها أخذت الفرنج خذلهم الله تعالى بيت المقدس لما كان ضحى يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان .

وهم في نحو ألف ألف مقاتل فقتلوا في وسطه أزيد من سبعين ألفاً من المسلمين ، وذهب الناس على وجوههم هازعين من الشام إلى العراق . فقال في ذلك أبو المظفر الأبيوردي :

مزجنا دماء بالدموع السواجم
فلم يبق منا عرضة للمراحم
وشر سلاح المرء دمع يشبه
إذا الحرب شُبت نارها بالصوارم

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وأربعمئة

وفيها أقبل ملك الفرنج في ثلاثمئة ألف مقاتل ، فالتقى معه كمشتكين أتابك الجيوش بدمشق فهزم الفرنج وقتل منهم خلقاً كثيراً بحيث لم ينج منهم سوى ثلاثة آلاف وأكثر ثلاثة الآلاف جرحى ولحقهم إلى ملطية فملكها وأسر ملكها ولله الحمد .

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وأربعمئة

فيها عظم الخطب بأصبهان ونواحيها بالباطنية وكان داعيهم الحسن بن الصبّاح كان قد دخل مصر وتعلم من الزنادقة الذين كانوا بها فكان لا يدعو إلا غبياً لا يعرف يمينه من شماله ثم يطعمه من العسل بالجوز والشونيز — الحبة السوداء — حتى يحترق مزاجه ويفسد دماغه ، وقد بعث إليه السلطان ملكشاه يتهدده وينهاه عن بعثه الفداوية إلى العلماء فلما قرأ الكتاب بحضرة الرسول قال لمن حضره من الشباب : إني أريد أن أرسل منكم رسولاً إلى مولاه فاشرأبت وجوه الحاضرين منهم ثم قال لشاب منهم : اقتل نفسك ، فأخرج سكيناً فضرب بها غلصمته فسقط ميتاً . وقال لآخر منهم ألق نفسك من هذا الموضع ، فرمى نفسه من رأس القلعة إلى أسفل الخندق فتقطع .

فقال للرسول : هذا الجواب فمنها امتنع السلطان .

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وأربعمئة

وفيها توفي أبو القاسم صاحب مصر الملقب بالمستعلي وقام بالأمر من بعده ابنه أبو علي ولقب : الآمر بأحكام الله .

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وتسعين وأربعمئة

فيها التقى الأخوان بركياروق ومحمد فانهزم محمد أيضاً للمرة الثانية ثم اصطلحا . وفيها قتل أبو المظفر الخجندي الواعظ الري ، وكان فقيهاً مدرساً قتله رافضي في الفتنة . وكان عالماً فاضلاً .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وأربعينة

فيها قصد الفرنج – لعنهم الله – الشام فقاتلهم المسلمين فقتلوا منهم اثني عشر ألفاً ، وقد أسر في هذه الوقعة بردويل صاحب الرُّها .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وأربعمئة

وفيها توفي بركياروق ملكشاه السلجوقي وقام بالأمر بعده ولده ملكشاه .

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وأربعمئة

وفيها كسر طغتكين أتابك العساكر بدمشق الفرنج وعاد منصوراً إلى دمشق وزينت البلد سبعة أيام سروراً بكسرة الفرنج .

* * * * *

ثم دخلت سنة خمسمائة من الهجرة النبوية

مما وقع في هذه السنة من الحوادث أن السلطان محمد ابن ملكشاه حاصر قلاعاً كثيراً من حصون الباطنية وافتتح منها أماكن كثيرة وقتل منها خلقاً كثيراً .

وكان من جملة ما افتتح من ذلك قلعة حصينة كان أبوه قد بناها بالقرب من أصبهان في رأس جبل منيع فاستحوذ عليها بعد ذلك رجل من الباطنية يقال له : أحمد بن عبد الملك ابن عطاش فتحها السلطان محمد وسلخ هذا الرجل وحشى جلده تبناً وقطع رأسه ثم نقض هذه القلعة حجراً حجراً .

* * * * *

ثم دخلت سنة أحدى وخمسمئة

وفيها توفي تميم بن المعز بن باديس صاحب إفريقية ومن أحسن ما مدح به الأمير تميم قول الشاعر :

أصح وأعلى ما سمعناه في الندى
من الخبر المروي منذ قديم
أحاديث ترويها السيول عن الحيا
عن البحر عن كف الأمير تميم

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسمئة

فيها توفي عبد الواحد بن إسماعيل الروياني من أهل طبرستان وفي المثل : حدث عن البحر ولا حرج .

وكان يقول : لو احترقت كتب الشافعي أمليتها من حفظي ، قتل ظلماً يوم الجمعة وهو يوم عاشوراء في الجامع بطبرستان .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسمئة

فيها أخذت الفرنج لعنهم الله مدينة طرابلس وقتلوا من فيها من الرجال ، وسبوا الحريم والأطفال ثم أخذوا مدينة جبلة ، وفيها وثب بعض الباطنية على الوزير أبي نصر أحمد بن نظام الملك فجرحه ثم أخذ الباطني فسقي الخمر فأقر على جماعة من الباطنية فأخذوا فقتلوا .

ثم دخلت سنة أربع وخمسمئة

في أول هذه السنة تجهز جماعة من الفقهاء البغاددة وغيرهم للخروج إلى الشام ليقاتلوا الفرنج لعنهم الله وذلك حين بلغهم أنهم قد فتحوا مدائن عدة ثم رجع منهم حين بلغهم كثرة الفرنج .

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وخمسمئة

دخل الأمير مودود إلى جامع دمشق ليصلي فيه فجاءه باطني في زي سائل يطلب منه شيئاً فلما اقترب منه ضربه في فؤاده فمات من ساعته فلعنة الله على هذا الباطني .

وفيها توفي محمد أبو حامد الغزالي . رحل إلى الشام فأقام بدمشق وبيت المقدس مدة ثم إنه صنف في هذه المدة كتاب (إحياء علوم الدين) فيه أحاديث كثيرة غرائب ومنكرات ومنها ما هو موضوع وقد شنع عليه أبو الفرج ابن الجوزي وغيره وقالوا : هذا إحياء علوم دينه وأما ديننا فإحياء علومه كتاب الله وسنة رسول ﷺ .

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وخمسمئة

وفيها دخل الشيخ الصالح يوسف بن أيوب إلى بغداد فوعظ الناس وكان له القبول التام جاراه مرة رجل يقال

له : ابن السقاء في مسألة فقال له : اسكت فإني أجد من كلامك رائحة الكفر ولعلك أن تموت على غير دين الإسلام ، فاتفق بعد مدة أنه خرج إلى بلاد الروم في حاجة فتنصر هناك .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وخمسمئة

فيها كانت وقعة عظيمة بين المسلمين والفرنج في أرض طبرية كان فيها ملك دمشق الأتابك طغتكين وفي خدمته صاحب سنجار ، وصاحب ماردين وصاحب الموصل، فهزموا الإفرنج هزيمة فاضحة وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وغنموا منهم أموالاً جزيلة وملكوا تلك النواحي كلها والحمد لله ، وكان مودود صاحب الموصل يده بيد طغتكين في يوم عيد الأضحى فظفر باطني على مودود فقتله . ويقال : إن طغتكين هو الذي مالأ عليه .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وخمسمئة

فيها وقع حريق عظيم ببغداد . وفيها كانت زلزلة هائلة بأرض الجزيرة ، هدمت منها ثلاثة عشر برجاً ، ومن الرها بيوتاً كثيرة وبعض سور حران ، ودوراً كثيرة في

بلاد شتى فهلك أكثرها وفي بالس نحواً من مئة دار ، وقُلِبَ بنصف قلعة حران ، وسلم نصفها ، وخسف بمدينة سميساط ، وهلك تحت الردم خلق كثير ، وفيها قتل صاحب حلب تاج الدولة ألب أرسلان بن رضوان بن تتش ، قتله غلمانه ، وقام من بعده أخوه سلطانشاه بن رضوان .

وفيها ملك السلطان سنجر بن ملكشاه بلاد غزنة ، وخطب له به بعد مقاتلة عظيمة ، وأخذ منها أموالاً كثيرة ، من ذلك خمسة تيجان قيمة كل تاج منها ألف دينار ، وسبعة عشر سريراً من ذهب وفضة ، وألف وثلاثمئة قطعة مصاغ مرصعة ، وأقام بها أربعين يوماً وقرر في مُلكها بهرام شاه ، من بيت بني سبكتكين ، ولم يخطب بغزنة قبل السلطان سنجر من السلجوقية لأحد . وقد ولى السلطان محمد للأمير آق سنقر البرسقي الموصل وأعمالها ، وأمره بمقاتلة الفرنج فقاتلهم في أواخر هذه السنة ، فأخذ منهم الرها وخربها وسروج وسميساط ، ونهب ماردين ، وأسر ابن ملكها إياز بن إيلغازي ، فأرسل السلطان محمد إليه يتهدده ، ففر منه طغتكين صاحب دمشق ، واتفقا على عصيان السلطان محمد فجرت بينهما وبين نائب حمص فرجان بن قراجة حروب كثيرة ، ثم اصطلحوا .

وفيها ملكت زوجة مَرعَش الإفرنجية بعد وفاة زوجها لعنهما الله ، وحج بالناس فيها أمير الجيوش أبو الخير يمن الخادم وشكر الناس حجهم معه .

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وخمسمئة

فيها توفي يحيى بن تميم المعز بن باديس صاحب إفريقية كان من خيار الملوك ، عارفاً حسن السير محباً للفقراء والعلماء وقام بالأمر بعده ولده علي .

* * * * *

ثم دخلت سنة عشر وخمسمائة

وفيها قتل صاحب مراغة في مجلس السلطان محمد قتله الباطنية ، وفي عاشوراء وقعت فتنة عظيمة بين الروافض والسنة بمشهد علي بن موسى الرضا بمدينة طوس ، فقتل فيها خلق كثير .

* * * * *

ثم دخلت سنة إحدى عشرة وخمسمئة

في رابع عشر صفر منها انكسف القمر كسوفاً كلياً وفي تلك الليلة هجم الفرنج على ربض حماة – قرى

حماة - فقتلوا خلقاً كثيراً ورجعوا - لعنهم الله - إلى بلادهم ولم يدخلوا المدينة إنما كان خارج السور .

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

ثم دخلت سنة ثنتي عشرة وخمسمئة

فيها توفي الخليفة المستظهر بالله ، كانت أيامه ببغداد كأنها الأعياد ثم ولي الأمر ابنه المسترشد بالله أبو منصور الفضل .

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

ثم دخلت سنة ثلاث عشر وخمسمئة

وفيها سارت الفرنج إلى مدينة حلب ففتحوها عنوة وملكوها فسار إليهم صاحب ماردين إيلغازي بن أرتق في جيش كثيف فهزمهم عنها ولحقهم إلى جبل قد تحصنوا فيه فقتل منهم هناك مقتلة عظيمة .

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

ثم دخلت سنة أربع عشر وخمسمئة

في هذه السنة كان ابتداء ملك محمد بن تومرت ببلاد المغرب .

ثم دخلت سنة خمس عشر وخمسمئة

فيها توفي الطغرائي ناظم لامية العجم الحسين بن علي بن عبد الصمد وأولها :

أصالة الراي صانتني عن الخطل
وحلية الفضل زانتني لدى العطل
فيم الإقامة بالزوراء ؟ لا سكني
بها ولا ناقتي فيها ولا جملي

* * * * *

ثم دخلت سنة ست عشر وخمسمئة

وفيها أقبل دبيس وبين يديه الإماء يضربن بالدف والمخانيث بالملاهي وبرز الخليفة لقتاله وقد شهر سيفه وكبر فحمل عنبر بن أبي العسكر على ميمنة الخليفة فكسرها وقتل أميراً .

ثم حمل ثانية فكشفهم كالأولى فحمل عليه عماد الدين زنكي بن آق سنقر فأسر عنبر فانهزم عسكر دبيس وألقوا أنفسهم في الماء فغرق كثير منهم فأمر الخليفة بضرب أعناق الأسارى صبراً بين يديه وعاد الخليفة إلى بغداد .

ثم دخلت سنة سبع عشر وخمسمئة

وفيها توفي الشاعر أحمد بن محمد التغلبي المعروف بابن الخياط الشاعر الدمشقي له ديوان شعر مشهور ، وله قصيدة لو لم يكن له سواها لكفته ومطلعها :

خذا من صبا نجد أماناً لقلبه
فقد كاد رياها يطير بلبه

* * * * *

ثم دخلت سنة ثماني عشرة وخمسمئة

فيها ظهرت الباطنية بآمد فقاتلهم أهلها فقتلوا منهم سبعمئة ولله الحمد .

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع عشرة وخمسمئة

وفيها قتل القاضي أبو سعد محمد بن نصر الهروي بهمذان قتلته الباطنية . وفيها أيضاً قتل آق سنقر صاحب الموصل قتلته الباطنية في مقصورة جامعها .

* * * * *

ثم دخلت سنة عشرين وخمسمئة من الهجرة

وفيها اقتتل طغتكين صاحب دمشق وأعداؤه من الفرنج فقتل منهم خلقاً كثيراً وغنم منهم أموالاً جزيلة ولله الحمد .

* * * * *

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وخمسمئة

فيها مرض السلطان محمود ببغداد وفوض شحنكية بغداد إلى عماد الدين زنكي ثم بعث عماد الدين زنكي إلى الموصل وأعمالها .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين وخمسمئة

وفيها ملك الأتابك زنكي بن آق سنقر مدينة حلب وماحولها من البلاد .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وخمسمئة

وفيها قتل صاحب دمشق من الباطنية ستة آلاف وعلق رأس كبيرهم على باب القلعة وأراح الله أهل الشام منهم .

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وخمسمئة

وفيها ملك عماد الدين زنكي بلاداً كثيرة من الجزيرة ومن بلاد الفرنج وقتل خلقاً من جيش الروم حين قدموا إلى الشام . وفيها قتل الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله صاحب مصر قتلته الباطنية . وفيها مات إبراهيم الكلبي ومن شعره .

خلت البلاد فلا كريم يرتجى
منه النوال ولا مليح يُعشق

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وخمسمئة

وممن توفي في هذه السنة أحمد أبو نصر الطوسي ، ومن شعره :

لبست ثوب الرجا والناس قد رقدوا
وقمت أشكو إلى مولاي ما أجد
وقلت : ياعدتي في كل نائبة
ومن عليه لكشف الضر أعتمد
وقد مددت يدي والضر مشتمل
إليك ياخير من مُدت إليه يد
فلا تردنها يارب خائبة
فبحر جودك يروي كل من يرد

ثم دخلت سنة ست وعشرين وخمسمئة

قدم عماد الدين زنكي إلى بغداد ليأخذها فتلقاه قراجا الساقي فهزمه فهرب إلى تكريت فخدمه نائب قلعتها نجم الدين أيوب والد صلاح الدين .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وخمسمئة

وفيها اشترى الباطنية بالشام حصن القدموس فسكنوه وحاربوا من جاوروهم من المسلمين والفرنج ، فيها اقتتل الفرنج فيما بينهم قتالاً شديداً فمحق الله منهم خلقاً كثيراً ، وغزاهم فيها أيضاً عماد الدين زنكي فقتل منهم ألف قتيل وغنم أموالاً جزيلة . وفيها توفي الشاعر الصقلي ومن أشعاره :

قم هاتها من كف ذات الوشاخ
فقد نعى الليل بَشير الصباح
باكر إلى اللذات واركب لها
سوابق اللهو ذوات المراح
من قبل أن ترشف شمس الضحى
ريق الغوادي من ثغور الأقاح

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وخمسمئة

فيها اصطلاح الخليفة وزنكي وفيها فتح زنكي قلاعاً كثيرة وقتل خلقاً من الفرنج .

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وخمسمئة

فيها كان مقتل الخليفة المسترشد .

كان شجاعاً مقداماً فصيحاً بليغاً وهو آخر خليفة رئي خطيباً قتله الباطنية أولئك الرهط وهم عشرة فقتلوا وأحرقوا قبحهم الله وبويع لولده الراشد .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاثين وخمسمئة

دخل السلطان مسعود إلى بغداد وأبرز للعلماء خط الراشد أنه متى خرج من بغداد لقتال السلطان فقد خلع نفسه من الخلافة . فأفتى من أفتى من الفقهاء فخلع واستدعى السلطان بعمه المقتفي بن المستظهر فبويع بالخلافة عوضاً عن ابن أخيه الراشد بالله .

* * * * *

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وخمسمئة

فيها كثر موت الفجأة فمات ألوف من الناس وأغلقت دور كثيرة وفيها صام أهل بغداد رمضان ثلاثين يوماً ولم يروا الهلال ليلة إحدى وثلاثين مع كون السماء مصحية ، قال ابن الجوزي : وهذا شيء لم يقع مثله .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين وخمسمئة

وفيها ولد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي بقلعة تكريت .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وخمسمئة

فيها كانت زلزلة عظيمة بمدينة جنزة مات بسببها مئتا ألف وثلاثون ألفاً ،وصار مكانها ماء أسود عشرة فراسخ في مثلها ، وزلزل أهل حلب في ليلة واحدة ثمانين مرة .

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وخمسمئة

فيها حاصر زنكي دمشق ، فحصنها الأتابك معين الدين مملكوك طغتكين ، فاتفق موت ملكها جمال الدين محمد بن بوري بن طغتكين ، فأرسل معين الدين إلى أخيه

مجير الدين أبق ، وهو ببعلبك فملكه دمشق ، فذهب زنكي إلى بعلبك ، فأخذها واستتاب عليها نجم الدين أيوب .

وفيها دخل الخليفة المقتفي لأمر الله على الخاتون فاطمة أخت السلطان مسعود وأغلقت بغداد أياماً ، وكان وقتاً مشهوداً .

وفيها تزوج السلطان ببنت أمير المؤمنين ، وفيها نودي للصلاة على رجل صالح ، فاجتمع الناس بمدرسة الشيخ عبد القادر ، ثم اتفق أن الرجل عطس فأفاق ، وحضرت جنازة آخر فصلى عليه .

وفيها نقصت المياه من سائر الدنيا . وفيها ولد صاحب حماه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي .

* * * * *

ثم دخلت سنة خمسة وثلاثين وخمسمئة

فيها وصلت البردة والقضيب إلى بغداد ، وكانا قد أخذا مع المسترشد سنة تسع وعشرين ، فحفظهما السلطان سنجر عنده حتى ردهما في هذه السنة .

وفيها كملت المدرسة الكمالية ببغداد المنسوبة إلى كمال الدين أبي الفتوح ، صاحب المخزن ودرس فيه الشيخ أبو الحسن بن الخل .

وممن توفي فيها من الأعيان : إسماعيل بن محمد بن الفضل ، أبو القاسم الطلحي الأصبهاني ، سمع الكثير ورحل وكتب وأملى بأصبهان قريباً من ثلاثة آلاف مجلس ، وكان إماماً في الحديث والفقه والتفسير واللغة ، توفي ليلة عيد الأضحى وقد قارب الثمانين ، ولما أراد الغاسل تنحية الخرقة عن فرجه ردها بيده .

وممن توفي في هذه السنة : محمد بن عبد الباقي بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الربيع بن ثابت بن وهب بن مشجعة بن الحارث بن عبد الله بن كعب ابن مالك الأنصاري أملى الحديث في جامع القصر ، وكان مشاركاً في علوم كثيرة وقد أسر في صغره في أيدي الروم فأرادوه أن يتكلم بكلمة الكفر فلم يفعل ، وتعلم منهم خط الروم ، وكان يقول : من خدم المحابر خدمته المنابر. ومن شعره الذي أورده ابن الجوزي عنه قوله :

احفظ لسانك لا تبح بثلاثة
سن ومال ما ستطعت ومذهب
فعلى الثلاثة تبتلى بثلاثة
بمكفر وبحاسد ومكذب

ومن شعره :

لي مدة لابد أبلغها
فإذا انقضت وتصرمت مت

لــــو عانــــدتني الأســـد ضـــارية
مـــا ضـــرني مـــا لم يجـــي الوقـــت

قال ابن الجوزي : بلغ من العمر ثلاثاً وتسعين سنة ، لم تتغير حواسه ولا عقله ، وكانت وفاته ثاني رجب من هذه السنة ، وحضر جنازته الأعيان والناس ، ودفن قريباً من قبر بشر .

وممن توفي في هذه السنة : يوسف بن أيوب بن يوسف ابن الحسن بن زهرة ، أبو يعقوب الهمزاني ، تفقه بالشيخ أبي إسحاق ، وبرع في الفقه والمناظرة ، ثم اشتغل بالتعبد وصحب الصالحين وأقام بالجبال ثم عاد إلى بغداد فوعظ بها ، وحصل له قبول ، توفي في ربيع الأول ببعض قرى هراة رحمه الله تعالى .

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وخمسمئة

فيها كانت حروب كثيرة بين السلطان سنجر وبين السلطان خوارزم شاه ، فاستحوذ خوارزم شاه على مرو بعد هزيمة سنجر فقتل بها ، وكان جيش خوارزم شاه ثلاثمئة ألف مقاتل .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وخمسمئة

فيها ملك عماد الدين زنكي الحديثة ونقل آل مهارش منها إلى الموصل ورتب لها نواباً من جهته .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وخمسمئة

وفيها ملك عماد الدين زنكي بعض بلاد بكر .

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وخمسمئة

فيها أخذ العماد زنكي الرها وغيرها من حصون الجزيرة من أيدي الفرنج وقتل منهم خلقاً كثيراً وغنم أموالاً جزيلة وأزاح عن المسلمين كرباً شديدة كثيرة جزاه الله خيراً .

* * * * *

ثم دخلت سنة أربعين وخمسمئة

وفيها توفي موهوب بن أحمد الجواليقي شيخ اللغة في زمانة وكانت فيه لكنة وكان يجلس إلى جانبه المغربي معبر المنامات وكان فاضلاً لكنه كثير النعاس في مجلس قال فيهما بعض الأدباء :

بغـــداد عنـــدي ذنبهـــا لـــن يُغفـــرا
وعيوبهـــا مكـــشوفة لـــن تـــسترا
كـــون الجـــوا ليقـــي فيهـــا ممليـــا
لغـــة وكـــون المغربـــي معـــبرا
مأســـور لُكنتـــه يقـــوم فـــصاحة
ونـــؤوم يقظتـــه يعـــبر في الكـــرى

* * * * *

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وخمسمئة

فيها قتل الملك عماد الدين زنكي وكان محاصراً قلعة جعبر وفيها سالم بن مالك العجيلي ، فبرطل بعض مماليك زنكي حتى قتلوه ، وكان من خيار الملوك وأحسنهم سيرة وشكلاً وكان شجاعاً حازماً مقداماً ، وكان من أشد الناس غيرة على نساء الرعية .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين وخمسمئة

فيها ملكت الفرنج عدة حصون من جزيرة الأندلس وفيها ملك نور الدين محمود بن زنكي عدة حصون من أيدي الفرنج بالسواحل وغيرها .

وفيها توفي هبة الله بن الشجري انتهت إليه رئاسة النحاة ، قال : ما سمعت في الذم أبلغ من قول مسكويه :

وما أنا إلا المسك قد ضاع ، عندكم
يضيع وعند الأكثرين يضوع

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمئة

فيها استغاث مجير الدين بن أتابك دمشق بالملك نور الدين صاحب حلب على الفرنج فركب سريعاً فالتقى معهم بأرض بصرى فهزمهم .

وفيها حاصرت الفرنج – وهم في سبعين ألف مقاتل ومعهم ملك الألمان في خلق لايعلمهم إلا الله عز وجل – دمشق وعليها مجير الدين أبقُ وأتابكه معين الدين ، فاستغاث أبق بالملك نور الدين محمود صاحب حلب وبأخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل فقصداه سريعاً في نحو من سبعين ألفاً ممن انضاف إليهم من الملوك غيرهم فلما سمع الفرنج قبحهم الله بقدوم الجيوش نحوهم أجلوا عن البلد ، فلحقهم الجيش فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وقتل معهم قسيس اسمه إلياس وهو الذي أغراهم بدمشق وذلك أنه افترى مناماً عن المسيح أنه وعده فتح دمشق فقتل لعنه الله ، ومدينة دمشق لا سبيل للأعداء من الكفرة عليها لأنها

المحلة التي أخبر بها رسول الله ﷺ أنها معقل الإسلام عند الملاحم والفتن ، وبها ينزل عيسى ابن مريم .

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وخمسمئة

وفيها غزا الملك نور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب بلاد الفرنج فقتل منهم خلقاً كثيراً .

* * * * *

ثم دخلت سنة خمسة وأربعين وخمسمئة

فيها فتح نور الدين محمود حصن أفامية ، وهو من أحصن القلاع وأوسع البقاع . وفيها فتح نور الدين حصن عَزاز وأسر ملكها ابن جوسلين ثم أسر بعده والده جوسلين الملك الإفرنجي فكانت الفرحة أعظم وفتح بعد أسره من بلاده شيئاً كثيراً من الحصون .

وفي هذه السنة وقع باليمن مطر كله دم حتى صبغ ثياب الناس .

ومممن توفي فيها الحسن النيسابوري ومن شعره :

مات الكرام ومروا وانقضوا ومضوا
ومات من بعدهم تلك الكراماتُ

وخلفـــــوني في قـــــوم ذوي ســـــفه
لو أبصروا طيف ضيف في الكرى ماتوا

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وأربعين وخمسمئة

فيها اقتتل الفرنج وجيش نور الدين محمود فانهزم المسلمون وقتل منهم خلق فإنا لله وإنا إليه راجعون .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمئة

وفيها كانت وقعة عظيمة بين نور الدين محمود وبين الفرنج فكسرهم وقتل منهم خلقاً كثيراً والحمد لله والمنة.

وفيها باض ديك بيضة واحدة ، ثم باض باز بيضتين وهذا شيء عجيب .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وخمسمئة

وفيها أخذت الفرنج عسقلان من السواحل .

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمئة

فيها ركب الخليفة المقتفي في جيش كثيف إلى تكريت فحاصر قلعتها والتقى جمعاً هنالك من الأتراك والتركمان فأظفر الله بهم وهزمهم له وأعلى كلمته عليهم. وجاءت الأخبار بأن مصر قد قُتل خليفتها الظافر .

وفيها انتزع الملك نور الدين محمود بن زنكي دمشق من يد ملكها مجير الدين أبق ، وذلك لسوء سيرته وضعف دولته ومحاصرة العامة له في القلعة غير مرة .

فرفع المكوس عن الناس ففرح المسلمون وأكثروا الدعاء له . وكتب ملوك الفرنج إليه يهنئونه ويتقربون إليه ويخضعون له .

* * * * *

ثم دخلت سنة خمسين وخمسمئة

وفيها جعل نور الدين صلاح الدين يوسف من خواصه لايفارقه حضراً ولاسفراً لأنه كان حسن اللعب بالكرة وكان نور الدين يحب لعب الكرة لتمرين الخيل وتعليمها الكر والفر يقول الشاعر :

رويدكمُ يالصوص الشآم
فإني لكم ناصح في مقال
فإياكم وسمي النجيب
يوسف رب الحجا والجمال

فـــذاك مقطـــع أيـــدي النـــساء
وهـــذا مقطـــع أيـــدي الرجـــال

* * * * *

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وخمسمئة

وفيها فتح نور الدين محمود بن زنكي قلعة حارم واقتلعها من أيدي الفرنج وكانت من أحصن القلاع وأمنع البقاع وذلك بعد قتال عظيم ووقعة هائلة كانت من أكبر الفتوحات . قال الشاعر :

بـــأي لـــسان للوشـــاة ألام
وقـــد علمـــوا أنـــي ســـهرت ونـــاموا
ويـــستكثرون الوصـــل لـــي منـــك ليلـــة
وقـــد مـــر عـــام بالـــصدود وعـــامُ

فطرب الخليفة عند ذلك وخلع عليه ثيابه وأطلق له خمسين يناراً .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين وخمسمئة

وفيها كانت زلزلة عظيمة بالشام هلك بسببها خلق كثير لا يعلمهم إلا الله وتهدم أكثر حلب وحماة وشيزر

وحمص وكفر طاب وحصن الأكراد واللاذقية والمعرة وأفامية وأنطاكية وطرابلس ، وأما شيزر فلم يسلم منها إلا امرأة وخادم لها ، وأما كفر طاب فلم يسلم منها أحد وأما أفامية فساخت قلعتها وهلك من مدائن الإفرنج شيء كثير .

وفيها أغارت الإسماعيلية على حجاج خراسان فلم يبقوا منهم على أحد

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمئة

فيها كسر جيش مصر الفرنج بأرض عسقلان كسرة فظيعة صحبة الملك الصالح طلائع بن رُزّيك .

وفيها قدم الملك نور الدين من حلب إلى دمشق وقد شفي من المرض ففرح به المسلمون وخرج إلى قتال الفرنج فانهزم جيشه فبقي هو وشر ذمة من أصحابه في لجة العدو فرموهم بالسهام الكثيرة ثم خافوا أن يكون وقوفه في هذه الشرذمة القليلة خديعة لمجيء كمين إليهم ففروا منهزمين ولله الحمد .

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وخمسمئة

وفيها زادت دجلة زيادة عظيمة فغرقت بسبب ذلك محال كثيرة حتى صار أكثر الدور بها تلولاً وغرقت تربة الإمام أحمد وتخسفت هنالك القبور وطفت الموتى على وجه الماء .

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة خمسة وخمسين وخمسمئة

فيها كانت وفاة الخليفة المقتفي وقام بالأمر بعده ابنه يوسف .

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمئة

وفيها قتل الملك الصالح طلائع بن رزيك ومن شعره :

مشيبك قد نضا صبغ الشباب
وحل الباز في وكر الغراب
وكيف بقاء عمرك وهو كنز
وقد انفقت منه بلا حساب

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمئة

فيها دخلت الكُرج بلاد المسلمين فقتلوا خلقاً من الرجال وأسروا من الذراري أمماً فاجتمع لحربهم ملوك تلك الناحية ؛ إيلدكُرز صاحب أذربيجان وغيره فالتقوا معهم فكسروهم كسرة ذريعة فظيعة منكرة ، مكثوا يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمئة

فيها مات بالمغرب عبد المؤمن بن علي تلميذ ابن تومرت وخليفته من بعده في الملك بمدينة سلا ، وقد كان عبد المؤمن هذا حازماً شجاعاً جواداً معظماً للشريعة وكان من لا يحافظ على الصلوات في زمانه يقتل .

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمئة

وفيها فتح نور الدين بانياس وكان معه أخوه نصر الدين فأصابه سهم في إحدى عينيه فأذهبها فقال له الملك نور الدين : لو نظرت إلى ما أعد الله لك من الأجر في الآخرة لأحببت أن تذهب الأخرى ، وقال لابن معين الدين أَنُر : إنه اليوم الذي بردتْ جلدة والدك من نار جهنم ، لأنه كان سلمها إلى الفرنج صلحاً عن دمشق .

ثم دخلت سنة ستين وخمسمئة

فيها ولدت امرأة ببغداد أربع بنات في بطن واحدة .

* * * * *

ثم دخلت سنة احدى وستين وخمسمئة

وفيها توفي الشيخ عبد القادر الجيلي كان صالحاً ورعاً من السادات المشايخ الكبار .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وستين وخمسمئة

فيها سار أسد الدين شيركوه إلى مصر ومعه ابن أخيه صلاح الدين ولما بلغ الوزير شاور قدوم أسد الدين بعث إلى الفرنج فجاؤوا من كل فج عميق ، ولما بلغ أسد الدين ذلك - وإنما معه ألفا فارس - استشار من معه من الأمراء ، فكلهم أشار عليه بالرجوع إلى الملك نور الدين لكثرة الفرنج إلا أميراً واحداً يقال له : شرف الدين بزغُس فإنه قال : من خاف القتل والأسر فليقعد في بيته عند زوجته ، ومن أكل من أموال المسلمين فلا يسلم بلادهم إلى العدو وقال مثل ذلك ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب ، فعزم الله لهم فساروا نحو الفرنج فاقتتلوا وإياهم قتالاً عظيماً فكسروا الفرنج وهزموهم

وقتلوا منهم خلقاً كثيراً لا يعلمهم إلا الله عز وجل ولله الحمد والمنة على كل حال .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمئة

وفيها أفسدت خفاجة في البلاد ونهبوا القرى فجُهز إليهم جيش من بغداد فهربوا في البراري فانحسر الجيش عنهم خوفاً من العطش فكروا على الجيش فقتلوا منهم خلقاً وأسروا آخرين وكان قد أسر الجيش منهم خلقاً فصلبوا على الأسوار .

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمئة

فيها كان فتح مصر على يد أسد الدين شيركوه ، وكان في حلب لدى نور الدين ثم توجه بأمره إلى مصر وكان ابن أخيه صلاح الدين ولم يكن منشرحاً لهذا الخروج بل كان كارهاً له ، وفي مصر قبض صلاح الدين على شاور فقتل شاور ودخل أسد الدين على العاضد فاستوزره ولم ينشرح لذلك نور الدين ، ولما توفي أسد الدين شيركوه رحمه الله أشار الشاميون على العاضد بتولية صلاح الدين يوسف الوزارة بعد عمه فولاه الوزارة ولم ينشرح لذلك نور الدين .

وأقام الملك صلاح الدين بمصر بصفته نائباً للملك نور الدين يخطب له على المنابر بالديار المصرية وكتب إليه نور الدين يعنفه على قبول الوزارة بدون مرسومه ، وأمره أن يقوم حساب الديار المصرية فلم يلتفت لذلك صلاح الدين .

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمئة

في صفر منها حاصرت الفرنج مدينة دمياط من بلاد مصر خمسين يوماً بحيث ضيقوا على أهلها وقتلوا أمماً كثيرة جاؤوا إليها من البر والبحر رجاء أن يملكون الديار المصرية ، وخوفاً من استيلاء المسلمين على القدس .

فكتب الملك صلاح الدين للملك نور الدين يستنجده عليهم فجاءت الجيوش وجاء أبوه الأمير نجم الدين أيوب في جيش ومعه بقية أهله . وأجلت الفرنج عن دمياط لأنه بلغهم أن الملك نور الدين قد غزا بلادهم وقتل خلقاً من رجالهم وسبى كثيراً من نسائهم وأطفالهم .

ورأى إمام مسجد أبي الدرداء بالقلعة المنصورية في تلك الليلة التي أجلي فيها الفرنج عن دمياط رسول الله ﷺ وهو يقول له : سلم على نور الدين وبشره بأن الفرنج قد رحلوا عن دمياط . فقلت : يارسول الله بأي علامة ؟ فقال : بعلامة ماسجد يوم تل حارم وقال في سجوده : اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً ومن هو محمود الكلب حتى ينصر ؟

ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمئة

وفيها كانت وفاة المستنجد وخلافة ابنه المستضيء واسمه الحسن بن يوسف المستنجد بن المقتفي وأمه أرمنية تدعى غضة . وفيها دخل نور الدين الموصل فأقام بها أربعة وعشرين يوماً ، فلما كانت آخر ليلة أقام بها رأى رسول الله ﷺ في المنام يقول له : (طابت لك بلدك وتركت الجهاد وقتال الأعداء) فنهض من فوره إلى الشام .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمئة

فيها أمر صلاح الدين الأيوبي بإقامة الخطبة لبني العباس بمصر وكانت الخطبة قد قطعت في ديار مصر مئتي سنة وثماني سنين .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمئة

وفيها كانت وفاة نجم الدين أيوب والد الملك صلاح الدين ، سقط عن فرسه فمات .

وفيها توفي يزْدن التركي كان رافضياً خبيثاً متعصباً للروافض وحين مات فرح أهل السنة بموته وغضب الشيعة من ذلك .

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمئة

وفيها سقط بَرَدٌ كبار كالنارنج ومنه ماوزنه سبعة أرطال . وفيها قتل عمارة اليمني الشاعر ومن شعره :

لـي في هـوى الرشـأ العـذري أعـذار
لم يبـق لـي مـذ أقـر الـدمع إنكـار
لـي في القـدود وفي لـثم الخـدود وفي
ضـم النهـود لبانـات وأوطـار
هـذا اختيـاري فوافـق إن رضـيت بـه
أو لا فـدعني لمـا أهـوى وأختـار

وفيها مات نور الدين رحمه الله وكان طويل القامة أسمر اللون حلو العينين واسع الجبين حسن الصورة تركي الشكل ليس له لحية إلا في حنكة مهيباً متواضعاً عليه جلالة ونور الإسلام وتعظيم قواعد الشرع رحمه الله .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمئة

وفيها جاء الفرنج بأسطول لم يسمع بمثله ، فاقتتلوا واستمر القتال أياماً وقتل من كل الفريقين خلق كثير ثم اتفق أهل البلد على تحريق مانصبه الفرنج من المنجنيقات والدبابات فأضعف ذلك قلوب الفرنج ثم كبسهم المسلمون في منازلهم فقتلوا منهم جماعة وغنموا منهم ما أرادوا

فانهزم الفرنج في كل وجه ولم يكن لهم ملجأ إلا القتل أو البحر أو الأسر .

وسار صلاح الدين إلى دمشق حين مات نور الدين بن زنكي ولما استقر له دمشق بحذافيرها سار إلى حماة فتسلمها من صاحبها عز الدين جُردَيْك ثم سار إلى حلب .

* * * * *

ثم دخلت سنة احدى وسبعين وخمسمئة

وفيها أرسل الحلبيون إلى سنان فأرسل جماعة من أصحابة ليقتلوا السلطان فدخل طائفة في جيشه في زي الجند فقاتلوا أشد قتال حتى اختلطوا بهم فوجدوا فرصة ذات يوم والسلطان ظاهر للناس فحمل عليه واحد منهم فضربه بالسكين على رأسه فإذا هو محترس منهم باللأمة فسلمه الله ثم أخذ الفداوي رأس السلطان ليذبحه فبادروا إلى الفداوي فقتلوه وقطعوه ، ثم هجم آخر في الساعة الراهنة على السلطان فقتل ثم هجم آخر فقتل وهرب الرابع فأدرك فقُتل .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين وخمسمئة

فيها قصد السلطان الإسماعيلية الذين اعتدوا عليه فحاصر حصنهم مصياف فقتل وضرب وسبى وخرب

ديـارهم حتـى شـفع فـيهم خالـد شـهاب الـدين محمـود بـن تكش صاحب حماة لأنهم جيرانه فقبل شفاعته .

وفيهـا تـزوج الـسطان صـلاح الـدين بالـست خـاتون عصمة الدين بنت معين الدين أنـر وكانت زوجة الملك نـور الدين محمود ثم سافر إلى مصر بعد يومين من الدخول بها .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمئة

فيها أمر السلطان ببناء قلعة الجبل وإحاطة سـور علـى القاهـرة ومصر يشملها جميعاً فعمرت قلعة للملك لم يكـن في الديار المصرية مثلها ولا على شكلها وولي عمارة ذلـك ، الأمير بهاء الدين قراقوش .

وفيهـا قـصد الفـرنج مدينـة حمـاة ، وصـاحبها شـهاب الدين محمود خال السطان مريض ، ونائب دمشق ومن معـه مـن الأمـراء مـشغولون بلـذاتهم ، فكـادوا يأخـذون الـبلاد ولكن هزمهم الله بعد أربعة أيام .

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمئة

وفيها توفي الحيص بيص سعد بن محمد أبـو الفـوارس الصيفي الشاعر له ديوان شعر مشهور من شعره :

سـلامة المـرء سـاعة عجـب
وكـل شـيء لحتفـه سـبب
يفـر والحادثـات تطلبـه
يفـر منهـا ونحوهـا الهـرب
فكيـف يبقـى علـى تقلبـه
مـسلّماً مـن حياتـه العطـب

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمئة

استهلت هـذه السنة والسلطان صـلاح الـدين نـازل بجيشه على تل القاضي ببانياس ثم قصده الفرنج بجمعهم فنهض إليهم نهوض الأسـد فمـاهو إلا أن تواجـه الفريقـان واصطدم الجنـدان حتـى أنـزل الله نـصره وأعـز جنـده وهـزم الأعداء وحده ففرت ألوية الصلبان ذاهبة .

وفيهـا تـوفي المستـضيء بـأمر الله وقـام بـالأمر بعـده ولده أحمد .

* * * * *

ثم دخلت سنة ستة وسبعين وخمسمئة

وفيهـا هـادن السلطان صـلاح الـدين الفـرنج ، وكـر على بلاد الأرمن فأهان ملكها وفتح بعض حصونها وأخذ

منه غنائم كثيرة جداً من أواني الذهب والفضة ثم عاد السلطان مؤيداً منصوراً فدخل حماة وامتدحه الشعراء .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمئة

استهلت والملك الناصر صلاح الدين مقيم بالقاهرة ، وجاء كتاب من نائبه بالشام بما من الله تعالى به على الناس من كثرة ولادة النساء من التوائم جبراً لما أصابهم في العام الماضي من الوباء والفناء .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمئة

وفيها توفي الشيخ أبو العباس الرفاعي أحمد المعروف بابن الرفاعي شيخ الطائفة الأحمدية والرفاعية ومن شعره على ما قيل :

إذا جن ليلي هام قلبي بذكركم
أنوح كما ناح الحمام المطوق
وفوقي سحاب يمطر الهم والأسى
وتحتي بحار بالأسى تتدفق
سلوا أم عمرو كيف بات أسيرها
تفك الأسارى دونه وهو موثق
فلا هو مقتول ففي القتل راحة
ولا هو ممنون عليه فيطلق

ومن شعره :

أغـــار عليهـــا مـــن أبيهـــا وأمهـــا
ومـــن كـل مــن يـدنو إليهــا وينظــر
وأحـــذر للمـــرآة أيـــضاً بكفهـــا
إذا نظـرت منـك الـذي أنـا أنظـر

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمئة

فيها تسلم السلطان صلاح الدين مدينة آمد صلحاً بعد حصار طويل فوجد فيها السلطان ألف ألف مجلد وأربعين ألف مجلد وهبها كلها للقاضي الفاضل وكان في خزانتها ثلاثة آلاف ألف دينار قال بعضهم يمدح السلطان :

قـل للملـوك تنحـوا عـن ممـالككم
فقـد أتـى آخـذ الـدنيا ومعطيهـا

ونظم ابن الزكي قصيدة يقول فيها :

وفـتحكم حلـب الـشهباء في صـفر
قضى لكم بافتتاح القدس في رجب

فقويت همة السلطان لذلك .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمئة

فيها أقام السلطان بدمشق ليؤدي فرض الصلاة ولتجم الخيل ويُحد الحسام .

* * * * *

ثم دخلت سنة احدى وثمانين وخمسمئة

استهلت هذه السنة والسلطان مخيم بظاهر حماة ثم سار إلى حلب حتى إذا وصل إلى حران مرض مرضاً شديداً ونذر لله تعالى لئن شفاه الله من مرضه هذا ليصرفن همته كلها إلى قتال المشركين ولا يقاتل بعد ذلك مسلماً وليجعلن أكبر همه فتح بيت المقدس ويقتلن البرنس صاحب الكرك بيده ، وكان هذا النذر كله بإشارة القاضي الفاضل رحمه الله عز وجل ثم عافاه الله تعالى والحمد لله .

وفيها توفي أبو القاسم الخثعمي السهيلي ومن شعره :

يامن يرى ما في الضمير ويسمع
أنت المعَد لكل ما يتوقع
يامن يرجى للشدائد كلها
يامن إليه المشتكى والمفزع
مالي سوى فقري إليك وسيلة
فبالافتقار إليك فقري أدفع

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين وخمسمئة

في هذه السنة هادن قومص طرابلس السلطان وصالحه وصافاه حتى كان يقاتل ملوك الفرنج أشد القتال ويسبي منهم النساء والأطفال وكاد يسلم ولكن صده شيطانه ، وكانت مصالحته من أقوى أسباب نصرة السلطان على الفرنج ومن أشد مادخل عليهم في دينهم ودنياهم . وكان المنجمون في جميع البلاد يحكمون بخراب العالم في شعبان عند اجتماع الكواكب الستة في الميزان بطوفان الريح من سائر البلدان .

فلما كانت تلك الليلة التي اشاروا إليها وأجمعوا عليها لم يُرَ ليلة مثلها في ركودها وركونها وهدوها . قال عيسى بن مودود رحمه الله :

مزق التقويم والزيـ
ـجَ فقد بان الخفاء
قلتَ للسبعة إبرا
ك ومنع وعطاء
ومتى ينزلن في الميـ
ـزان يستولي الهواء

ويعم الأرض خسف
وخراب وبلاء

وحكمتم فأبي الحا
كم إلا ما يشاء
حسبكم خزياً وعاراً
ما يقول الشعراء

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة وفيها كانت وقعة حطين

فيها كانت وقعة حطين التي كانت أمارة ومقدمة وبشارة لفتح بيت المقدس على المؤمنين ، واستنقاذه من أيدي الكافرين ، قال ابن الأثير في الكامل : كان أول يوم منها يوم السبت ، وكانت يوم النيروز وذلك أول سنة الفرس ، واتفق أول سنة للروم أيضاً ، وهو اليوم الذي نزلت فيه الشمس برج الحمل ، وكذلك القمر في برج الحمل أيضاً . قال : وهذا شيء يبعد وقوع مثله .

وبرز السلطان من دمشق يوم السبت مستهل المحرم – وقيل في أثنائه – في الجيش العرمرم ليجاهد بأهل الجنة أهل جهنم ، فسار إلى رأس الماء ، فنزل ولده الأفضل هناك في طائفة من الجيش وتقدم السلطان ببقية الجيش إلى بصرى ، فخيم على قصر أبي سلامة ينتظر قدوم الحجاج ، وفيهم أخته ست الشام وابنها حسام الدين محمد بن عمر

ابن لاجين ، ليسلموا من معرة إبرنس الكرك الذي غدر ونقض العهد وفجر .

فلما اجتاز الحجيج في أواخر صفر ، سار السلطان فنزل الكرك وقطع ما حوله من الأشجار ورعى الزروع وأكلوا الثمار ، وجاءته العساكر المصرية وتوافت الجيوش الشرقية بالرماح الخطية والسيوف المشرقية ، فنزلوا عند ابن السلطان على رأس الماء ، وبعث الأفضل سرية نحو بلاد الفرنج ، فقتلت وغنمت وسلمت وكسرت وأسرت ورجعت فبشرت بمقدمات الفتح والنصر ، وجاء السلطان في حجافله والتفت عليه جميع العساكر البادي منهم والحاضر ، وفرتب الجيوش والأطلاب ، وسار قاصداً بلاد الساحل ، وكان جملة من معه من المقاتلة اثني عشر ألفاً في غير المطّوعة ، فتسامعت الفرنج بمقدمه ، فاجتمعوا كلهم وتصالحوا فيما بينهم ، ودخل معهم قومس طرابلس الغادر وإبرنس الكرك الفاجر ، وجاؤوا بقضهم وقضيضهم وأهل أوجهم وحضيضهم ، واستصحبوا معهم صليب الصلبوت يحمله منهم عباد الطاغوت ، في خلق لا يعلم عددهم إلا الله ، قيل : كانوا خمسين ألفاً . وقيل : ثلاثة وستين ألفاً .

وقد خوفهم صاحب طرابلس بأس المسلمين ، فاعترض عليه الإبرنس أرناط صاحب الكرك فقال له : لا أشك أنك تحب المسلمين تخوفنا كثرتهم ، والنار لا تخاف من كثرة الحطب . فقال قومص لهم : ما أنا إلا منكم ،

فتقدموا وأقبل السلطان ففتح طبرية ، وتقوى بما فيها من الأطعمة والأمتعة وغير ذلك ، وتحصنت عنه القلعة فلم يشتغل بها ، وحاز البحيرة في حوزته ، ومنع الكفرة أن يصلوا منها إلى غرفة ، أو يروا للماء رياً ، وأقبلوا في عطش لا يعلمه إلا الله ، فبرز لهم السلطان إلى سطح الجبل الغربي من طبرية عند قرية يقال لها : حطين . يقال : إن فيها قبر شعيب عليه السلام .

فتواجه هنالك الجيشان ، عشية يوم الجمعة ، وبات الناس على مصافهم وأسفر الصباح عن يوم السبت الذي كان يوماً عسيراً على أهل يوم الأحد ، وذلك لخمس بقين من ربيع الآخر في شدة الحر ، فتبارز الشجعان في حومة الوغى ، ثم أمر السلطان بالتكبير والحملة الصادقة ، فكان النصر من الله تعالى .

فقتل منهم ثلاثون ألفاً في ذلك اليوم وأسر ثلاثون ألفاً من شجعانهم وفرسانهم ، وكان في جملة الأسارى جميع ملوكهم سوى قومس طريلس ، فإنه انهزم أول المعركة ، وأخذ صليبهم الأعظم عندهم ، وهو الذي يزعمون أنه الذي صلب عليه المصلوب . ولم يسمع بمثل هذا اليوم في عز الإسلام وأهله ودمغ الباطل وذله ، حتى إنه ذكر أن بعض الفلاحين رآه بعضهم وهو يقود نيفاً وثلاثين أسيراً من الفرنج، قد ربطهم بطنب خيمة ، وباع بعضهم أسيراً بنعل .

ولما تمت هذه الوقعة العظيمة ، أمر السلطان بضرب مخيم عظيم وجلس فيه على سرير المملكة وعن يمينه أسرَّة وعن يساره مثلها ، وجيء بالأسارى تتهادى في قيودها ، فضربت أعناق جماعة من مقدمي الداوية والاسبتارية بين يديه صبراً ، ثم جيء بالملوك فأجلسوا عن يمينه ويساره على مراتبهم . فأجلس ملكهم الكبير عن يمينه ، وتحته أرناط إبرنس الكرك - قبحه الله - وبين يديه بقية الملوك وعن يساره ، فجيء السطان بشراب مثلوج من الجلاب ، فشرب منه ثم ناول الملك فشرب ، ثم ناول ملكهم أرناطَ فشرب ، فغضب السلطان ، وقال : إنما سقيتك ولم آمرك أن تسقيه ، هذا لا عهد له عندي .

ثم تحول السلطان إلى خيمة داخل الخيمة واستدعى أرناط ، فلما أوقف بين يديه قام إليه بالسيف وقال : أنا أنوب عن رسول الله ﷺ في الانتصار لأمته ، ثم دعاه إلى الإسلام فامتنع ، فقتله وأرسل برأسه إلى الملوك ، وقال : إن هذا تعرض لسب رسول الله ﷺ فقتلته ، ولم يسلم ممن عرض عليه الإسلام منهم إلا القليل ، فيقال : إنه بلغت القتلى ثلاثين ألفاً ، وكذلك الأسارى كانوا ثلاثين ألفاً ، وكان جملة جيش الفرنج ثلاثة وستين ألفاً ، ومن سلم منهم - أكثرهم جرحى ، فماتوا ببلادهم بعد رجوعهم .

ثم أرسل برؤساء الأسارى ورءوس أعيان القتلى ، وبصليب الصلبوت صحبة القاضي ابن أبي عصرون على

دمشق ليودعوا في قلعتها ، فدخل بالصليب منكوساً فكان يوماً مشهوداً ولله الحمد والمنة .

ثم سار السلطان إلى قلعة طبرية ففتحها ، ثم سار إلى عكا فنزل عليها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر ، فافتتحها صلحاً يوم الجمعة ، وأخذ ما كان بها من أموال وذخائر ، واستنقذ من كان بها من المسلمين ، فوجدوا بها أربعة آلاف أسير منهم ، وأمر بإقامة الجمعة بها ، فكانت أول جمعة أقيمت بالساحل بعد أن أخذه الفرنج من سبعين سنة ، فلله الحمد دائماً .

وسار منها إلى صيدا وبيروت وتلك النواحب من السواحل فأخذها ثم سار نحو عسقلان وغزة ونابلس وبيسان وأراضي الغور ، فملكها واستناب السلطان على نابلس ابن اخته حسام الدين بن لاجين وهو الذي افتتحها .

وغنم الجيش والمسلمون من هذه الأماكن شيئاً كثيراً ، واستبشر الإسلام وأهله شرقاً وغرباً بهذا النصر، وترك السلطان جيوشه ترتع في هذه الفتوحات والغنائم مدة شهور ، ليستريحوا ويتأهبوا لفتح بيت المقدس الشريف ، وذاع الخبر أن السلطان عزم على فتح بيت المقدس ، فقصده العلماء والصالحون والمتطوعة من كل فج عميق وقد امتدح الشعراء الملك صلاح الدين بسبب وقعة حطين فقالوا وأكثروا . ومما ذكر في مديحه :

تلــك المكـــارم لاقعبـــان مـــن لـــبن
وذلـــك الفـــتح لاعمـــان والـــيمن
وذلك السيف لاسيف ابن ذي يزن

* * * * *

فتح بيت المقدس في هذه السنة واستنقاذه من أيدي النصارى

لما افتتح السلطان ما حول بيت المقدس من الأماكن المباركة وما يقرب من تلك السواحل المتقدم ذكرها والإشارة إليها ، أمر العساكر فاجتمعت والجيوش المتفرقة في البلدان فائتلفت ، وسار نحو بيت المقدس الشريف يوم الأحد ، في الخامس عشر من رجب من هذه السنة – سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة – فنزل غربي بيت المقدس وقد حصنت الفرنج ، الأسوار بالمقاتلة ، وكانوا ستين ألف مقاتل ، دون بيت المقدس أو يزيدون وكان صاحب البلد يومئذ رجلاً يقال له : باليان بن بارزان .

ومعه من سلم من وقعة حطين يوم التقى الجمعان ، من الداوية والاسبتارية أتباع الشيطان ، فأقام السلطان بمنزله خمسة أيام ، وسلم إلى كل طائفة من جيشه المنصور ناحية من أبرجة السور ، ثم تحول إلى ناحية الشمال ؛ لأنه رآها أوسع وأنسب للمجال ، والنزال ، وقاتل

الفـرنج دون البلـد قتـالاً هـائلاً ، وبـذلوا في نـصرة قمامـة والقيامـة بـذلاً طـائلاً ، واسـتشهد بعض أمـراء المسلمين إلى رحمة الله .

فحنق كثير من أمراء الإسلام ، واجتهدوا في القتال بكـل خطـي وحسام ، وقـد نـصبت المجـانيق والعـرادات ، وغنـت الـسيوف وعملـت الـسمهريات ، والعيـون تنظـر إلى الـصلبان وهـي منـصوبة فـوق الجـدران ، حتـى فـوق قبـة الصخرة قبة أهل الأديان من قديم الأزمان ، فزاد ذلـك أهـل الإيمان الحنق الكثير وشدة التشمير ، فبادر السلطان أيده الله بأصـحابه إلى الزاويـة الـشرقية الـشمالية مـن الـسور فنقبهـا وعلقهـا وحـشاها بـالنيران وأحرقهـا ، فـسقط ذلـك الجانب ، وخر البرج برمتـه ، فإذا هـو واجـب ، فلمـا شـاهد الفرنج ذلك الحادث المقطـع ، والخطـب المؤلم لهم الموجـع ، قـصد أكـابرهم الـسلطان وتـشفعوا إليـه بكـل إنـسان أن يعطـيهم الأمـان ، فـامتنع وقـال : لا أفتحهـا إلا كمـا افتتحتموها عنوة ، ولا أترك بها أحداً من النصارى إلا قتلته كما قتلتم أنتم من كان بها من المسلمين ، فطلب صاحبها باليان بن بارزان من السلطان الأمـان ليحـضر عنـده فـأمنـه ، فلما حضر ترقق لـه ، وتشفع إليـه بكـل مـا أمكنـه ، فلـم يجبـه إلى الأمـان لهـم فقـالوا : لـئن لم تعطنـا الأمـان رجعنـا فقتلنـا كـل أسـير مـن المـسلمين بأيـدينا وقتلنـا ذراريهـم ، وأتلفنا ما بأيدينا من الأموال ، وألقينا قبـة الـصخرة ، وبعـد

ذلك نقاتل قتال الموت ، فلا يقتل واحداً منا حتى يقتل أعداداً منكم ، فماذا ترتجي بعد هذا من الخير ؟

فلما سمع السلطان ذلك أجاب إلى الصلح ، على أن يبذل كل رجل منهم عن نفسه عشرة دنانير ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن كل صغير وصغيرة دينارين ، ومن عجز عن ذلك كان أسيراً للمسلمين ، وأن تكون الغلات والأسلحة والدور للمسلمين ، ويتحولوا منها إلى مأمنهم وهي مدينة صور .

فكتب الصلح على ذلك ، ومن لا يبذل ما شرط عليه إلى أربعين يوماً فهو أسير ، فكان جملة من أسر بهذا الشرط ستة عشر ألف إنسان ؛ من رجال ونساء وولدان ، ودخل السلطان والمسلمون البلد يوم الجمعة قبيل وقت الصلاة بقليل ، وذلك يوم السابع والعشرين من رجب قال العماد : وهي ليلة الإسراء برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى إلى السموات العلا .

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة : وهو أحد الأقوال في الإسراء ، والله تعالى أعلم . ولم يتفق للمسلمين صلاة الجمعة يومئذ ، والصحيح أن الجمعة لم تكن إقامتها يومئذ لضيق الوقت ، وإنما أقيمت في الجمعة المقبلة ، وكان الخطيب القاضي محي الدين محمد بن علي ، القريشي ابن الزكي . ولكن نظف الأقصى يومئذ مما

كان فيه من الصلبان والرهبان والخنازير ، وخربت دور للداوية كانوا بنوها غربي المحراب الكبير ، واتخذ المحراب حشا ، فنظف المسجد من ذلك كله ، وأعيد إلى ما كان عليه في الأيام الإسلامية والدولة المحمدية وغسلت الصخرة ثم أورد تحميدات القرآن كلها ، ثم قال : الحمد لله معز الإسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ، الذي قدر الأيام دولاً بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ، القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليقته فلا ينازع ، والآمر بما يشاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فلا يدافع ، أحمده على إظفاره وإظهاره ، وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه ، وأرضى به ربه ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، رافع الشك وداحض الشرك ، وراحض الإفك ، الذي أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وعرج به منه إلى السموات العلا ، إلى سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، ﷺ

وعلى خليفته الصديق السابق إلى الإيمان ، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان ، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشرك ، ومكسر الأوثان ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان .

ثم ذكر الموعظة وهي مشتملة على تغبيط الحاضرين على ما يسره الله على أيديهم من فتح بيت المقدس ، الذي من شأنه كذا وكذا ، فذكر فضائله ومآثره ، وأنه أول القبلتين ، وثاني المسجدين ، وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه ، وإليه أسري برسول الله ﷺ من المسجد الحرام ، وصلى فيه بالملائكة المقربين والأنبياء والرسل الكرام ، ومنه ما كان المعراج إلى السموات ، ثم عاد إليه، ثم سار منه إلى المسجد الحرام البراق ، وهو أرض المحشر والمنشر يوم التلاق ، وهو مقر الأنبياء ومقصد الأولياء ، وقد أسس على التقوى من أول يوم .

قلت : - والكلام لابن كثير - ويقال : إن الذي أسسه أولا يعقوب عليه السلام بعد أن بنى الخليل عليه السلام المسجد الحرام بأربعين سنة ، ثم جدد بناءه سليمان بن داود عليهما السلام وسأل سليمان عليه السلام الله عند الفراغ منه خلالاً ثلاثاً حكماً يصادف حكمة ، وملكاً

لا ينبغي لأحد من بعده وأنه لا يأتي أحد هذا المسجد لا ينهزه إلا الصلاة فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

وذكر الخطيب تمام الخطبتين ، ودعا للخليفة العباسي ، ثم للسطان الملك الناصر صلاح الدين رحمهما الله ، وبعد الصلاة جلس الشيخ زين الدين على كرسي الوعظ بإذن السلطان ، فوعظ الناس وكان وقتاً مشهوداً .

واستمر القاضي محي الدين بن الزكي يخطب بالناس في أيام الجمع أربع جمعات ، ثم قرر السلطان للقدس خطيباً مستقراً ، وأرسل إلى حلب فاستحضر المنبر الذي كان الملك العادل نور الدين محمود قد استعمله لبيت المقدس ، وقد كان يؤمل أن يكون فتحه على يديه ، فما كان إلى على يدي بعض أتباعه بعد وفاته ، رحمه الله تعالى .

وأما الصخرة العظيمة فإن السلطان أزال ما حولها وما عندها من المنكرات والصور والصلبان ، وأظهرها بعدما كانت مخفية مستورة غير مرئية ، وأمر الفقيه ضياء الدين الهكاري أن يعمل حولها شبابيك من حديد ، ورتب لها إماماً راتباً ووقف عليها رزقاً جيداً ، وكذلك على إمام محراب الأقصى ، وعمل للشافعية المدرسة الصلاحية ويقال لها : الناصرية .

وكان موضعها كنيسة على صند حنة أي قبر حنة أم مريم ، عليها السلام ، ووقف على الصوفية رباطاً كان

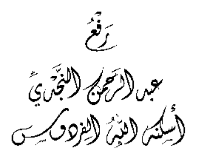
داراً للبترك إلى جنب القمامة ، وأجرى على الفقهاء والفقراء الجرايات ، وأرصد الختمات والربعات في أرجاء المسجد الأقصى لمن يقرأ أو ينظر فيها من المقيمين والزائرين .

وتنافس بنو أيوب فيما يفعلونه من الخيرات بالقدس الشريف للقادمين والظاعنين والقاطنين ، وعزم السلطان على هدم قمامة وجعلها دكاً لتتحسم مادة النصارى من بيت المقدس، فقيل له: إن هؤلاء لا يتركون الحج إلى هذه البقعة ، ولو تركتها قاعاً صفصفاً ، وقد فتح هذا البلد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وترك هذه الكنيسة بأيديهم .

فأعرض عنها وتركها على حالها تأسياً بعمر بن الخطاب أحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين ، ولم يترك بها من النصارى سوى أربعة يخدمونها ، وحال بين النصارى وبينها ، وهدم المقابر التي كانت لهم عند باب الرحمة ، وعفى آثارها ، وهدم ما كان هناك من القباب ، وعجل دمارها .

وأما الأسارى المسلمون الذين كانوا بالقدس ؛ فإن السلطان أطلقهم وأطلق لهم إعطاءات هنية ، وكساهم حللا سنية ، وانطلق كل منهم إلى وطنه ، فلله الحمد والمنة .

* * * * *



فصل

انفصل السلطان صلاح الدين عن القدس الشريف في الخامس والعشرين من شعبان ، وأمر ولده العزيز بالرجوع إلى مصر ، وسار السلطان بجيشه فقصد مدينة صور ، وكانت قد تأخرت من بين تلك النواحي ، وقد استحوذ عليها بعد وقعة حطين رجل من التجار يقال له : المركيس ، فحصنها وضبط أمرها وحفر حولها خندقاً من البحر إلى البحر ، وجمهورها في البحر ، وجاء السلطان بجيشه فحاصرها مدة ، واستدعى بالأسطول من الديار المصرية في البحر ، فاحتاط بها براً وبحراً ، فعدت الفرنج في بعض الليالي على خمس شوان من الأسطول ، فملكتها ونكبتها ، فأصبح المسلمون واجمين ، وقد دخل عليهم البرد وقلت الأزواد ، وكثرت الجراحات وكلَّ الأمراء من المحاصرات ، فسألوا السلطان أن ينصرف بهم إلى دمشق في هذا الوقت حتى يستريحوا ثم يعودوا إليها بعد هذا الحين ، فأجابهم بعد تمنع منه وذلك أن السور من صور كان قد هدم ولم يبق إلا الفتح والنجح ، فتوجه إلى دمشق واجتاز في طريقه على عكا ، وتفرقت العساكر : كل إلى بلده ورستاقه ، مستصحباً كثرة حنينه إلى أهله ووطنه .

وأما السلطان فإنه لما وصل إلى عكا نزل بقلعتها وأسكن ولده الأفضل برج الداوية ، وولى نيابتها عز الدين

جرديك ، وقد أشار بعضهم على السلطان بتخريب مدينة عكا خوفاً من عودة الفرنج اليها ، فكاد ، ولم يفعل ، بل وكل بعمارتها وتجديد محاسنها بهاء الدين قراقوش ، ووقف دار الاسبتار نصفين على الفقهاء والفقراء، وجعل دار الأسقف مارستاناً ووقف على ذلك كله أوقافاً دارَّة ، وولى نظر ذلك لقاضيها جمال الدين ابن الشيخ أبي النجيب ، وهو في جميع ذلك بأرائه مصيب .

ولما فرغ السلطان من هذه الحروب ، وعاد إلى دمشق مؤيداً منصوراً ،أبهج العيون وسر القلوب وجاءته رسل الملوك بالتهاني من سائر الأقطار بالتحف والهدايا التي تبهر الأبصار ، وكتب الخليفة إليه يعتب عليه في أشياء منها ؛ أنه بعث في بشارة الفتح بحطين مع شاب بغدادي كان وضيعاً عندهم ، لا قدر له ولا قيمة وأرسل بفتح القدس الشريف مع نجاب ، ولقب نفسه بالملك الناصر مضاهاة للخليفة الناصر ، فتلقى الرسول بالبشر واللطف ، ولم يظهر له إلا السمع والطاعة ، وأرسل يعتذر مما وقع بأن الحرب كانت قد شغلته عن التروي في كثير من الأمور ، وأما لقبه بالناصر فهو من أيام الخليفة المستضيء ،ومع هذا فمهما لقبني به أمير المؤمنين فهو الذي لا يعدل عنه ، وتأدب مع الخليفة غاية الأدب رحمه الله تعالى .

وفي هذه السنة كانت وقعة عظيمة ببلاد الهند بين الملك شهاب الدين الغوري صاحب غزنة ، وبين ملك الهند

الكبير ، فأقبلت الهنود في كثير من الجنود ، ومعهم أربعة عشر فيلاً ، فانهزمت ميمنة المسلمين وميسرتهم ، فقيل للملك ، انج بنفسك .

فما زاده إلا إقداماً ، فحمل على الفيلة فجرح بعضها – وجرد الفيل لا يندمل – فرماه بعض الفيالة بحربة في ساعده فخرجت من الآخر فخر صريعاً ، فحملت الهند عليه ليأخذوه فجاحف عنه أصحابه ليحموه ، فجرت عنده حرب لم يسمع بشدتها في موقف ، فغلب المسلمون فخلصوا ملكهم واحتملوه على كواهلهم في محفة عشرين فرسخاً وقد نزفه الدم ، فلما تراجع إليه جيشه أخذ في تأنيب الأمراء ، وحلف ليأكلن كل أمير عليقة فرسه ، وما أدخلهم غزنة إلا مشاة حفاة .

وفي هذه السنة ولدت امرأة من سواد بغداد بنتاً لها أسنان .

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمئة

فيها دخل السلطان دمشق ووجد الصفي بن القابض وكيل الخزانة قد بنى للملك داراً بالقلعة هائلة مطلة على الشرف القبلي فغضب عليه وعزله من وظيفته وقال : إنا لم نخلق للمقام بدمشق وإنما خلقنا للعبادة والجهاد .

ثم سمت همته إلى فتح أنطاكية وذلك لأنه أهلك ما حولها من القرى واستظهر عليها بكثرة الجنود فراسله صاحب أنطاكية يطلب منه الهدنة على أن يطلق من عنده من أسارى المسلمين ، فأجابه السلطان إلى ذلك لعلمه بضجر من معه من المقاتلة والأعوان فوقعت الهدنة على سبعة أشهر ومقصود السلطان أن تستريح الجيوش من تعبها وتجم النفوس من نصبها .

ولم يقم السلطان بدمشق إلا أياماً معدودة حتى خرج بجيشه قاصداً بلاد صفد فنازلها في العشر الأوسط من رمضان وحاصرها بالمنجنيقات والشجعان وكان البرد شديداً يصبح الماء فيه جليداً فمازال حتى فتحها صلحاً في ثامن من شوال ولله الحمد والمنة .

ثم سار إلى صور فألقت إليه بقيادها . ثم سار إلى حصن كوكب ، وكوكب اسم قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية – وهي معقل الاستبارية كما أن صفد كانت معقل الداوية – وكانوا أبغض أجناس الفرنج إلى الملك الناصر صلاح الدين الذي لا يكاد يترك منهم أحداً إلا قتله إذا وقع في المأسورين ، فحاصر قلعة كوكب حتى قهرها وقتل مقاتلها هذا والسماء تصب والرياح تهب والسيول تعب والأرجل في الأوحال تخب .

وممن توفي في هذه السنة أسامة بن منقذ أحد الشعراء المشهورين والأمراء المشكورين وله من الأشعار الرائقة والمعاني الفائقة شيء كثير ولدية علم غزير وقد كان من أبناء ملوك شيزر وله ديوان شعر كبير وكان صلاح الدين يفضله على سائر الدواوين وكان في شبيبته شهماً شجاعاً فاتكاً قتل الأسد مواجهة وحده ومن شعره .

فاعجب لضعف يدي عن حملها قلماً
من بعد حطم الظبا في لبة الأسد

*****

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمئة

فيها قدم من جهة الخليفة رسل إلى السلطان ثم جهز السلطان مع الرسل تحفاً عظيمة وأرسل بأسارى من الفرنج على هيئتهم في حال حربهم وأرسل بصليب الصلبوت فدفن تحت عتبة باب النوى من دار الخلافة فكان بالأقدام يداس بعدما يعظم – ويباس – وصار يبصق عليه بعدما كان يسجد إليه .

*****

ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمئة

استهلت والسلطان محاصر الإفرنج الذين كانوا محاصرين عكا ، حتى النساء ؛ وكانت تخرج بنية

القتال، ومنهن من تأتي بنية راحة الغرباء في الغربة ، وقدم إليهم مركب فيه ثلاثمئة أمرأة حسناء بهذه النية حتى إن كثيراً من فسقة المسلمين تحيزوا إليهم لأجل هذه النسوة .

واشتهر الحبر بأن ملك الألمان قد أقبل في نحو ثلاثمئة ألف مقاتل من ناحية القسطنطينية يريد أخذ الشام وقتل أهله انتصاراً لبيت المقدس ولكن الله لطف بالمسلمين أهلك غالب أمة الألمان في الطرقات في البرد والجوع والضلال في المهالك ، وكان جماعة من الرهبان والقسوس قد صوروا صورة المسيح وصورة عربي يضربه فإذا سألوهم من هذا الذي يضرب المسيح ؟ قالوا : هذا نبي العرب يضربه وقد جرحه ومات ، فيحمون ويخرجون من بلادهم لنصرة دينهم .

ولما جاء ملك الألمان بهذا الجحفل الجرار كان جيشه يتخطف في كل مكان حتى اجتاز ملكهم بنهر شديد الجرية فدعته نفسه أن يسبح فيه فلما صار فيه حمله الماء إلى جذع شجرة فشجت رأسه وأخمدت أنفاسه ووصل من هذا الجيش خمسة آلاف فقط وكرهت ملوك الفرنج كلهم قدومه عليهم وكان متولي عكا من جهة السلطان صلاح الدين هو الأمير بهاء الدين قراقوش وتقدم الإفرنج بثلاثة أبراج من خشب وحديد يسع البرج منها خمسمئة مقاتل وهي أعلى من أبرجة البلد وعلى ظهر كل برج منها

منجنيق فانتدب لها شاب نحاس من دمشق يعرف بعلي ابن عريف النحاسين فصنع ناراً رمى كل برج منها من داخل عكا بالمنجنيق فاحترقت الأبراج الثلاثة وكانت الفرنجة قد بقوا فيها سبعة أشهر ثم عرض السلطان على ذلك الشاب النحاس العطية السنية فامتنع من قبولها وقال : إنما عملت هذا ابتغاء وجه الله ، فلا أريد منكم جزاء ولا شكوراً .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمئة

فيها قدم ملك الإفرنسيس وملك إنكلترا وغيرهما من ملوك البحر على الفرنج إلى عكا . وظفر ملك إنكلترا بُبطسة عظيمة للمسلمين قد أقبلت من بيروت مشحونة بالأمتعة والأسلحة فأخذها وكان فيها ستمئة من الصناديد الأبطال فهلكوا عن آخرهم لما تحققوا إما الغرق وإما القتل خرقوا من جوانبها كلها فغرقت ولم يقدر الفرنج على أخذ شيء منها لا الميرة ولا من الأسلحة ، وحزن المسلمون على هذا المصاب حزناً عظيماً فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ولكن جبر الله سبحانه هذا البلاء بأن أحرق المسلمون في هذا اليوم للفرنج دبابة كانت أربع طبقات الأولى من خشب والثانية من رصاص والثالثة من حديد والرابعة من نحاس وهي مشرفة على السور والمقاتلة فيها

وقد قلق أهل البلد منها بحيث حدثتهم أنفسهم من خوفهم من شرها بأن يطلبوا الأمان من الفرنج ويسلموا البلد ففرج الله وأمكنهم من حريقها ثم تهدمت ثلمة كبيرة من السور وكانت تجري مناوشات قتال ثم تهدأ ثم ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه على أسوار البلد ودخل المركيس لعنه الله وقد أسرت النساء والأبناء وغُنمت الأموال وقيدت الأبطال وأهين الرجال ولكن الحرب سجال ولم يستبقوا من المسلمين إلا أميراً أو سرياً أو من يرونه في عملهم قوياً أو امرأة أو صبياً وجملة من قتل من الفرنج خمسون ألفاً بعد سبعة وثلاثين شهراً من حصار عكا .

ثم سار الفرنج برمتهم قاصدين عسقلان والسلطان بجيشه يسايرهم ويعارضهم منزلة منزلة ومرحلة مرحلة والمسلمون يتخطفونهم ويسلبونهم في كل مكان وكل أسير أتي به إلى السلطان يأمر بقتله في ذلك المكان والأوان ثم اجتمعت الفرنج على حرب السلطان عند غابة أرسوف على ساحل بحر الشام قرب يافا فكانت النصرة للمسلمين .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمئة

استهلت والسلطان صلاح الدين مخيم بالقدس الشريف وهو يعمل بالسور بنفسه ويحمل الحجر والناس يقتدون به والعلماء ، والفرنج لعنهم الله حول البلد من

ناحيـة عـسقلان ومـا والاهـا لا يتجاسـرون أن يقتربـوا مـن الحرس الـذين للسطان حـول القـدس الـشريف إلا أنهـم علـى نية محاصرة القدس الشريف مصممون .

وفي ربيع الآخر قتل المركيس صاحب صور لعنـه الله أرسل إليه ملك الإنكليز اثنين من الفداوية فقتلـوه وقـتلا . ولما صـار إلى صـور ابتنـى بزوجـة المـركيس بعـد موتـه بليلـة واحـدة وهـي حبلـى أيضاً ثـم أقبلـوا نحـو بيـت المقـدس وبـرز إلـيهم الـسلطان ، فلمـا تـراءى الجمعـان نكـص حـزب الـشيطان علـى عقبيـه وانقلبـوا راجعـين قبـل القتـال والنـزال وعاد السلطان إلى القدس الشريف .

وفيهـا تم صلح الرملة على وضع الحـرب ثـلاث سـنين وثمانيـة أشـهر ، وعلـى أن يُقَـرَّ مـا بأيـدي الفـرنج مـن الـبلاد الساحلية وللمسلمين ما يقابلها من البلاد الجبلية وما بينهما من المعاملات فقسمهما على المناصفة .

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمئة

فيهـا كانـت وفـاة الملـك الناصـر صـلاح الـدين رحمـه الله تعالى مـات صـلاح الـدين رحمـه الله تعـالى رحمـة واسـعة ولم يـترك في خزانتـه مـن الـذهب سـوى دينـار واحـد وسـتة وثلاثـين درهمـاً ولم يـترك داراً ولا عقـاراً ولا مزرعـة ولا بستاناً .

ثم دخلت سنة تسعين وخمسمئة

لما استقر الملك الأفضل بن صلاح الدين مكان أبيه بدمشق بعث بهدايا سنية فيها تحف شريفة إلى باب الخلافة من ذلك سلاح أبيه وحصانه الذي كان يحضر عليه الغزوات .

وكان الأفضل بعد موت أبيه قد أساء التدبير فأبعد أمراء أبيه وخواصه وقرب الأجانب وأقبل على شراب المسكر واللهو واللعب واستحوذ عليه وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزري وهو الذي كان يحدوه إلى ذلك .

* * * * *

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وخمسمئة

فيها كانت وقعة الزلاقة ببلاد الأندلس شمالي قرطبة فكانت الدائرة أولاً على المسلمين فقتل منهم عشرون ألفاً ثم كانت أخيراً على الكافرين فهزمهم الله وكسرهم أقبح كسرة وشر هزيمة وأشنعها فقتل منهم مئة ألف وثلاثة وأربعون ألفاً وأسر منهم ثلاثة عشر ألفاً وغنم المسلمون منهم شيئاً كثيراً من ذلك مئة ألف خيمة ومن الخيل ستة وأربعون ألف رأس ومن البغال مئة ألف بغل ومن الحمر مثلها ومن السلاح التام سبعون ألفاً وملك عليهم من حصونهم شيئاً كثيراً ، ولما حصل للفنش ما حصل حلق

رأسه ولحيته ونكس صليبه وركب حماراً وحلف لا يركب فرساً ، ولا ينام مع امرأة حتى تنصره النصرانية فجمع من الجنود مالا يعلمه إلا الله عز وجل فاستعد له السلطان يعقوب فالتقيا فاقتتلا قتالاً عظيماً فانهزم الفرنج أقبح من الهزيمة الأولى وغنموا منهم نظير ما تقدم ذكره أو أكثر .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين وخمسمئة

في رجب منها أقبل العزيز بن صلاح الدين صحبة عمه الملك العادل في عساكره ، فدخلا دمشق قهراً وأخرجا منها الملك الأفضل ووزيره الذي أساء تدبيره .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمئة

وفي هذه السنة انقضت مدة الهدنة التي كان عقدها الملك صلاح الدين للفرنج فأقبلوا بقضهم وقضيضهم فتلقاهم الملك العادل شقيق السلطان صلاح الدين رحمة الله بمرج عكا فكسرهم وغنمهم وفتح يافا عنوة ولله الحمد والمنة .

وأخذت الفرنج في هذه السنة بيروت من نائبها عز الدين شامة من غير قتال ولا نزال ولهذا قال بعض الشعراء :

سلّم الحصن ما عليك ملامة
ما يلام الذي يروم السلامه
فعطاء الحصون من غير حرب
سنة سنها ببيروت شامه

وجرت خطوب كثيرة بينهم وبين العادل ففي كلها يستظهر عليهم ويكسرهم ولله الحمد ولم يزالوا كذلك معه حتى طلبوا الصلح والمهادنة فعاقدهم على ذلك .

وفي هذه السنة توفي ملك اليمن سيف الإسلام طغتكين أخو السلطان صلاح الدين وقام بعده ولده إسماعيل وكان أهوج قليل التدبير فقتل .

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وخمسمئة

فيها جمعت الفرنج جموعها وأقبلوا فحاصروا تبنين - بلدة مطلة على بانياس - فاستدعى العادل بني أخيه لقتالهم فجاءه العزيز من مصر والأفضل من صرخد فأقلعت الفرنج عن الحصن ، فطلب الفرنج الهدنة من العادل والأمان فهادنهم ورجعت الملوك إلى أماكنها وفيها توفي القاضي أبو الحسن البطائحي وكان أديباً سمع من شيخه

أبي عبد الله بن النبيه ينشد لنفسه معارضاً الحريري في بيتيه اللذين زعم أنهما لا يعززان بثالث لهما وهما قوله :

سِمْ سِمَةً يُحمَد آثارُها
واشكر لمن أعطى ولو سمسمه
والمكرمهما استطعت لا تأته
لتقتني السؤدد والمكرمه

فقال ابن النبيه :

ما الأمَةُ الوكعاء بين الورى
أحسن من حر أتى ملأمه
فمهْ إذا استُجديت عن قول : لا
فالحر لا يملأ منها فمه

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسمئة

وفيها كانت وفاة الملك صاحب مصر وذلك أنه خرج إلى صيد ساق خلف ذئب فكبا بها الفرس فسقط عنه فمات.

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وتسعين وخمسمئة

وفيها توفي القاضي الفاضل ولم يكن له في زمانه نظير وكان أعز على صلاح الدين من أهله وولده ،

وتساعدا حتى فتح الأقاليم ؛ هذا بحسامه وسنانه وهذا بقلمه وبيانه رحمه الله .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمئة

فيها اشتد الغلاء بأرض مصر جداً فهلك خلق كثير من الفقراء والأغنياء ، وقد كفن العادل من ماله في مدة شهر من هذه السنة نحواً من مئتي ألف وعشرين ألف ميت وأكل من الصغار والأطفال خلق كثير يشويه والداه ويأكلانه وكثر في الناس هذا حتى صار لايُنكر بينهم ثم صاروا يحتالون على بعضهم بعضاً فيأكلون من يقدرون عليه ومن غلب من قوي ضعيفاً ذبحه وأكله .

وكان الرجل يضيف صاحبه فإذا خلا به ذبحه وأكله ووجد عند بعضهم أربعمئة رأس وهلك في هذه السنة كثير من الأطباء يستدعون إلى المرضى فيذبحون ويؤكلون .

فيها كانت زلزلة عظيمة ابتدأت من بلاد الشام إلى الجزيرة وبلاد الروم والعراق وكان عُظمها بالشام ومات في هذه السنة بسبب الزلزلة نحو من ألف ألف ومئة إنسان .

وفيها مات الشيخ أبو الفرج بن الجوزي أوصى أن تكتب على قبره هذا الأبيات :

يـــــاكثير العفـــــو عَمَّـــن
كثـــر الـــذنب لديـــهِ
جـــاءك المـــذنب يرجـــو الـــصـ
ـــفح عـــن جـــرم يديـــه
أنـــا ضـــيف وجـــزاء الـــضـ
ـــيف إحـــسانٌ إليـــه

وفيها توفي الأمير بهاء الدين قراقوش أحد كبار أمراء الدولة الصلاحية كان شهماً شجاعاً فاتكاً .

صنف بعضهم كتاب (الفاشوس في أحكام قراقوش) [١] .

وفيها توفي مكلبة بن عبد الله المستنجدي سمع المؤذن وقت السحر وهو ينشد على المنارة :

يارجـــال الليـــل جـــدوا
رُبَّ صـــوتٍ لا يُـــردُّ
مـــا يقـــوم الليـــل إلا
مـــن لـــه عـــزم وجـــدُّ

(١) وأقول : إنه كان ضد الباطنية ومن المرجح أنهم هم الذين وضعوا هذا الكتاب لتشويه سمعته ، والله تعالى أعلم .

فبكى مكلبة وقال يامؤذن زدني فقال المؤذن :

قـــد مـــضى الليـــل وولى
وحبـــيبي قـــد تجلـــى

فصرخ مكلبة صرخة كان فيها حتفه .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وخمسمئة

وفيها توفي القاضي محمد بن علي بن محمد بن يحيى ابن علي بن عبد العزيز محي الدين قاضي القضاة بدمشق وكل منهم كان قاضياً أبوه وجده وأبو جده وهو أول من خطب بالقدس خطبة الجمعة الأولى لما فتحه الملك صلاح الدين .

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وخمسمئة

وفيها استحوذت الكرج على مدينة دوين فقتلوا أهلها ونهبوها وهي من بلاد أذربيجان ، وذلك لاشتغال ملكها بالفسق وشرب الخمر قبحه الله فتمكنت الكفرة من رقاب المسلمين بسببه .

* * * * *

ثم دخلت سنة ستمئة من الهجرة النبوية

في هذه السنة كانت الفرنج قد جمعوا خلقاً كثيراً منهم ليستعيدوا بيت المقدس من المسلمين ، فاجتازوا في طريقهم بالقسطنطينية فحاصروها حتى فتحوها قسراً وآباحوها ثلاثة أيام قتلاً وأسراً ولجأ عامة من بقي منهم إلى كنيستها العظمى المسماة بصوفيا فقتلوهم أجمعين أمتعين أبصعين وأخذوا ما كان في الكنيسة من الحلي والذهب والأموال التي لا تحصى ولا تعد وتحول الملك من الروم إلى الفرنج بالقسطنطينية في هذه السنة ثم نزل الفرنج عكا فنهض إليهم الملك العادل واستدعى بالجيوش المصرية والمشرقية ونازلهم بالقرب من عكا فكان بينهم قتال شديد ومصابرة عظيمة ثم وقع الصلح بينهم والهدنة . وفيها قتل خلق كثير من الباطنية بواسط ولله الحمد .

* * * * *

ثم دخلت سنة أحدى وستمئة

فيها وقعت الحرب بين أمير مكة قتادة الحسني وبين أمير المدينة سالم بن قاسم الحسيني فكسره سالم وكر سالم راجعاً إلى المدينة وهو سالم .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وستمئة

فيها وقعت حرب عظيمة بين الملك شهاب الدين محمد بن سالم الغوري صاحب غزنة وبين بني كوكر أصحاب الجبل الجودي وكانوا قد ارتدوا عن الإسلام فقاتلوهم وكسرهم وغنم منهم شيئاً لا يحد ولا يوصف فاتبعه بعضهم حتى قتله غيلة .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وستمئة

وفيها قبض الخليفة على عبد السلام بن عبد الوهاب ابن الشيخ عبد القادر الجيلاني بسبب فسقه وفجوره وقد أحرقت كتبه وأمواله قبل ذلك لما فيها من كتب الفلاسفة وعلوم الأوائل وأصبح يستعطي من الناس .

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وستمئة

فيها رجع الحاج إلى العراق وهم يدعون الله ويشتكون إلى الناس ما لقوا من صدر جهان البخاري الحنفي الذي كان قدم بغداد في رسالة فاحتفل به الخليفة وخرج إلى الحج في هذه السنة فضيق على الناس في المياه

والميرة فمات نحو من ستة آلاف من الحجيج العراقي بسببه وسماه الناس صدر جهنم .

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وستمئة

في محرمها تكامل بناء دار الضيافة ببغداد التي أنشأها الناصرلدين الله بالجانب الغربي من بغداد للحاج والمارة ، لهم الضيافة ماداموا نازلين بها فإذا عزم أحدهم على السفر منها زود وكُسِيَ وأعطي بعد ذلك كله ديناراً للسفر . جزاه الله خيراً .

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وستمئة

وفيها كانت وفاة ابن خروف شارح كتاب (سيبويه) قدم الكتاب إلى صاحب المغرب فأعطاه ألف دينار ، وقد تغير عقله في آخر عمره فكان يمشي في الأسواق مكشوف الرأس .

وفيها توفي الفخر الرازي المتكلم صاحب التفسير .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وستمئة

وفيها عاثت الفرنج نواحي القدس الشريف فبرز إليهم الملك المعظم في عساكره فقتلوا خلقاً وخربوا أماكن كثيرة وغنموا وعادوا سالمين فبعث الفرنج إلى العادل يطلبون منه الأمان والمصالحة فهادنهم .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وستمئة

وفيها أظهرت الباطنية الإسلام وأقامت الحدود على من يتعاطى الحرام وبنوا الجوامع والمساجد وكتب زعيمهم جلال الدين إلى الخليفة يعلمه بذلك وقدمت أمة منهم إلى بغداد لأجل الحج فأكرموا وعظموا بسبب ذلك ولكن لما كانوا بعرفات ظفر واحد منهم على قريب لأمير مكة قتادة الحسيني فقتله ظاناً أنه قتادة . فثارت فتنة بين سودان مكة وركب العراق ونهب الركب وقتل منهم خلق كثير .

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وستمئة

فيها استولى صاحب قبرس لعنه الله على مدينة أنطاكية فحصل بسببه شر عظيم وتمكن من الغارات

على بلاد المسلمين ولا سيما على التراكمين الذي حول بلدة أنطاكية .

قتل منهم خلقاً كثيراً ، وغنم من أغنامهم شيئاً كثيراً فمكنهم الله منه في بعض الأودية فقتلوه وطافوا برأسه في تلك البلاد كلها .

* * * * *

ثم دخلت سنة عشر وستمئة

فيها قُدم بالفيل من الديار المصرية فحمل هدية إلى صاحب الكرج فتعجب أهل دمشق منه ومن بديع خلقته .

وفيها توفي سنجر الخليقي كان بخيلاً ذليلاً ساقط النفس ، اتفق أنه خرج أمير الحاج فاعترضه بعض الأعراب في نفر يسير وكان مع سنجر خمسمئة فارس فدخل الذل من الأعرابي فطلب منه الأعرابي خمسين ألف دينار فجباها سنجر من الحجيج ودفعها إليه فلما عاد إلى بغداد أخذ الخليفة منه خمسين ألف دينار ودفعها إلى أصحابها وعزله .

* * * * *

ثم دخلت سنة أحدى عشرة وستمئة

فيها أرسل الملك خوارزم شاة أميراً من أخصاء أمرائه عنده ، وكان قبل ذلك سيروانا فصار أميراً خاصاً .

وفيها بني المعظم الفندق المنسوب إليه بناحية قبر عاتكة ظاهر باب الجابية .

وفيها توفي عبد السلام بن عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر وكان أبوه صالحاً وكان هو مهتماً بالفلسفة ، وكان مصاحباً لأبي القاسم بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي ، وكان الآخر مديراً فاسقاً وكانا يجتمعان على الشراب والمردان ، قبحهما الله ويقال :

نعم الجدود ولكن بئس ما نسلوا .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتي عشرة وستمئة

فيها توفي الوجيه الأعمى أبو بكر المبارك بن سعيد وكان لا يغضب قط ، تراهن جماعة مع واحد أنه كان له كذا وكذا إن أغضبه ، فجاء إليه فسأله عن مسألة في العربية فأجابه فيها فقال له السائل : أخطأت أيها الشيخ فأعاد عليه الجواب بعبارة أخرى فقال له : أخطأت أيضاً وأعاد ثالثه بعبارة أخرى فقال له : كذبت .

فتبسم ضاحكاً وقال له الوجيه : إن كنت راهنت فقد غُلبت .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وستمئة

وفيها توفي الشيخ تاج الدين أبو اليُمن زيد بن الحسن وحيد عصره ، ونسيج وحده قال السخاوي : كان عنده من العلوم مالا يوجد عند غيره ، وكان حسن العقيدة ظريف الخلق طريفاً لا يسأم الإنسان من مجالسته وله النوادر العجيبة وله ديوان كبير وشعره رائق ، ومن شعره :

وصال الغواني كان أروى وأروجا
وعصر الغواني كان أبهى وأبهجا
أغازل غيداء المعاطف طفلة
وأغيد معسول المراشف أدعجا

ومن شعره أيضاً :

ليهنك سمع لا يلائمه العذل
وقلب قريح لا يمل ولا يسلو
وإني لأهوى الهجر ما كان أصله
دلالاً ولولا الهجر ما عذب الوصل

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع عشرة وستمئة

في ثالث المحرم كمل تبليط داخل الجامع الأموي ، وجاء المعتمد مبارز الدين إبراهيم المتولي بدمشق فوضع آخر بلاطه منه بيده وكانت عند باب الزيارة .

وفيها أزدات دجلة بغداد زيادة عظيمة وارتفع الماء حتى ساوى وطفح الماء من فوقه وبقيت بغداد تلولا .

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس عشرة وستمئة

وفيها أخذ الفرنج دمياط وذلك حين انتهى الخبر بموت العادل إلى ابنه محمد الكامل وهو بثغر دمياط مرابط الفرنج ، وقد أضعف موت العادل أعضاد المسلمين .

ثم بلغ الكامل أن الأمير أحمد بن علي بن المشطوب وكان أكبر أمير بمصر قد أراد أن يبايع للفائز عوضاً عن الكامل ، فساق وحده جريدة من دمياط قاصداً إلى مصر لا ستدراك هذا الخطب الجسيم ولما فقده الجيش من بينهم انحل نظامهم واعتقدوا أنه قد حدث أمر أكبر مما بلغهم فركبوا رواءه ، فدخلت الفرنج حينئذ بأمان إلى الديار المصرية واستحوذوا على معسكر الكامل فوقع أمر عظيم

جداً . ودخل الكامل مصر فلم يقع مما ظنه شيء وهرب منه ابن المشطوب إلى الشام ثم ركب في الجيش إلى الفرنج فإذا الأمر قد تزايد وقد تمكنوا هنالك من البلدان وقتلوا خلقاً ، وعاثت هناك أعراب على أموال الناس ببلاد دمياط فكانوا أضر على المسلمين من الفرنج .

وفي رجب أعاد المعظم ضمان القيان والخمور وغير ذلك من الفواحش والمنكرات التي كان أبوه قد أبطلها واعتذر المعظم في صنعه هذا المنكر بقلة الأموال على الجند واحتياجهم إلى النفقات في قتال الفرنج وما استشعر أن هذا الصنيع يديل عليهم الأعداء ويمكن فيهم الداء .

* * * * *

ثم دخلت سنة ست عشرة وستمئة

جنكز خان

وفيها عبرت التتار نهر جيحون صحبة ملكهم جنكز خان من بلادهم ، وكانوا يسكنون جبال طمغاج من أرض الصين ولغتهم مخالفة للغة سائر التتار ، وهم من أشجعهم وأصبرهم على القتال ، وسبب دخولهم أن جنكز خان بعث تجاراً له ومعهم أموال كثير إلى بلاد خوارزم شاه يتبضعون له ثياباً للكسوة ، فكتب نائبها إلى السلطان خوارزم شاه يذكر له ما معهم من كثرة الأموال فأرسل

إليه بقتلهم وبأخذ ما معهم ، ففعل ذلك فغضب عند ذلك جنكز خان ، وأرسل يتهدد خوارزم شاه فأشار من أشار على خوارزم شاه بالمسير إليهم فسار إليهم وهم في شغل بقتال كشلى خان فنهب خوارزم شاه أموالهم وسبى ذراريهم وأطفالهم ، وأقبلوا إليه محروبين فاقتتوا معه أربعة أيام قتالاً لم يسمع بمثله أولئك عن حريمهم والمسلمون عن أنفسهم يعلمون أنهم متى ولوا استأصلوهم ، فقتل من الفريقين خلق كثير حتى إن الخيول كانت تزلق من الدماء ثم تحاجر الفريقان وولى كل منهم إلى بلاده .

فقصدت التتار بخارى وبها عشرون ألف مقاتل فحصرها جنكز خان ثلاثة أيام فطلب منه أهلها الأمان فأمنهم ودخلها فأحسن السيرة فيهم مكراً وخديعة ثم أباحها للجند فقتلوا من أهلها خلقاً لا يعلمهم إلا الله عز وجل وأسروا الذرية والنساء وفعلوا بهن الفواحش بحضرة أهليهن ، فمن الناس من قاتل دون حريمة حتى قتل ثم أحرقوا البلد فأضحت بلاقع .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمئة

في هذه السنة عم البلاء بجنكز خان المسمى بتيموجين لعنه الله ، وقد بسط ابن الأثير خبرهم في هذه السنة بسطاً حسناً مفصلاً قال : هذا فصل يتضمن ذكر

الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين فلو قال قائل : إن العالم منذ خلق الله آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعل بختنصر ببني إسرائيل من الفتك وتخريب البيت المقدس وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس ، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا ؟ فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل .

إن الإسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في سنة واحدة وإنما ملكها في نحو عشر سنين ولم يقتل أحداً بل رضي من الناس بالطاعة ..

- ثم قال – ثم قصدوا مدينة مرو مع جنكز خان وقد عسكر بظاهرها نحو من مئتي ألف مقاتل من العرب وغيرهم فاقتتوا معهم قتالاً عظيماً حتى انكسر المسلمون ثم حصروا البلد خمسة أيام واستنزلوا نائبها خديعة ثم غدروا بأهل البلاد فقتلوهم وغنموا وسبوا حتى إنهم قتلوا منهم في يوم واحد سبعمئة ألف إنسان .

ثم ساروا إلى نيسابور ففعلوا قريباً مما فعلوا بأهل مرو ثم ساروا إلى غزنة فقاتلهم جلال الدين بن خوارزم شاه

فكسرهم ثم عادوا إلى ملكهم جنكز خان وهو مخيم على الطالقان فجهز منهم طائفة إلى غزنة فاقتتل معهم جلال الدين بن خوارزم شاه فكسرهم جلال الدين كسرة عظيمة واستنقذ منهم خلقاً من أسارى المسلمين .

وفيها قتل قتادة بن إدريس ، قتله والده حسن لظلمه وكان قتادة شيخاً طويلاً مهيباً لا يخاف من أحد من الخلفاء ولا الملوك وكان الخليفة يود لو حضر عنده ليكرمه وكان يأبى ذلك ويمتنع منه أشد الامتناع ولم يفد إلى أحد قط ولاذل لخليفة ولا ملك . كتب إليه الخليفة مرة يستدعيه فكتب إليه :

ولي كف ضرغام أذل ببطشها
واشري بها بين الورى وأبيع
وكل ملوك الأرض تلثم ظهرها
وفي وسطها للمجدبين ربيع
أأجعلها تحت الرحى ثم ابتغي
خلاصاً لها ؟ إني إذاً لرقيع
وما أنا إلا المسك في كل بقعة
يضوع وأما عندكم فيضيع

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان عشرة وستمئة

فيها استولت التتار على كثير من البلدان وقتلوا أهاليها واستأسروا ذريتها واقتربوا من بغداد وحصر المسلمون الإفرنج في دمياط وأرسلت المياه على أراضي دمياط من كل ناحية فعند ذلك أنابوا إلى المصالحة بلا معارضة فوقع الصلح على ما أراد الكامل بيض الله وجهه وقام راجح الحلي فأنشد :

هنيئاً فإن السعد راح مخلدا
وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبه
وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
أعباد عيسى إن عيسى وحزبه
وموسى جميعاً يخدمون محمدا

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة تسع عشرة وستمئة

وفيها كان بالشام جراد كثير أكل الزرع والثمار والأشجار وفيها توفي عبد القادر الواسطي الفقيه الشافعي الملقب بالمحب ومن شعره :

الفرقدان كلاهما شهدا له
والبدر ليلة رسمه بسهاده

دنــف إذا اعتبــق الظــلام تــضرمت
نــار الجــوى في صــدره وفــؤاده
فجـــرت مـــدامع جفنـــه في خـــده
مثـل المـسيل يـسيل مـن أطـواده
شـــوقاً إلى مـــضنيه لم أر هكـــذا
مـــشتاق مـــضنى جـــسمه ببعـــاده
ليـــت الـــذي أضـــناه ســـحر جفونـــه
قبــل الممــات يكــون مــن عــواده

* * * * *

ثم دخلت سنة عشرين وستمئة

فيها توفي عبد الله بن أحمد المقدسي ومن شعره :

لا تجلـــــسن ببـــــاب مـــــن
يـــــأبى عليـــــك دخـــــول داره
وتقـــــول : حاجـــــاتي إليـــــ
ـــــه يعوقهـــــا إن لـــــم أداره
واتركـــــه واقـــــصد ربهـــــا
تقـــضى ورب الـــدار كـــاره

وفيها توفي أبو علي يحيى الجلاجلي : وكان جميل الهيئة يسكن بدار الخلافة ومن شعره :

خــــير إخوانــــك المــــشارك في المــــ
ــــر وأيــن الــشريك في المــر أينــا
الـــذي إن شـــهدت ســـرك في القـــو
م وإن غبـــت كـــان أذنـــاً وعينـــا
مثـــل ســـر العقيـــان إن مـــسه النـــا
رجـــلاه الجـــلاء فـــازداد زينـــا

* * * * *

ثم دخلت سنة أحدى وعشرين وستمئة

فيهـا وصلـت سـرية مـن جهـة جنكـز خـان إلى الـري فقتلوا أهلها ثم ساروا إلى ساوة ثم إلى قم وقاشـان وهمـذان فقتلوا وسبوا وهذا كله وعدد هذه السرية ثلاثة آلاف .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين وستمئة

فيها عاثت الخوارزمية حين قدموا مع جلال الدين بـن خـوارزم شـاه مـن بـلاد غزنـة مقهـورين مـن التتـار إلى بـلاد خوزستان ونـواحي العـراق ، فأفسدوا فيـه وحاصروا مدنـه ونهبـوا قـراه . وفيهـا تـوفي الخليفـة الناصـر لـدين الله وتـولى مكانه ابنه الظاهر .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستمئة

فيها التقى الملك جلال الدين بن خوارزم شاه مع الكرج فكسرهم كسرة عظيمة وصمد إلى أكبر معاقلهم تفليس ففتحها عنوة وقتل من فيها من الكفرة ولم يتعرض لأحد من المسلمين الذين كانوا فيها .

وفيها توفي الخليفة الظاهر بأمر الله وقام بالأمر بعده ابنه المستنصر حيث بويع له بالخلافة يوم مات أبوه .

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمئة

وفيها توفي جنكز خان ، لا يعرف له أب . وضع للمغول كتابه (الياساق) وهو مجموعة قوانين وضعها جنكز خان من عند نفسه من ذلك أنه من زنى قتل محصناً كان أو غير محصن وكذلك من لاط قتل ومن تعمد الكذب قتل ومن سحر قتل ومن بال في الماء الواقف قتل ومن انغمس فيه قتل ، ومن رمى إلى أحد شيئاً من المأكول قتل ، بل يناوله من يده إلى يده ، ومن أكل ولم يطعم من عنده قتل .

ومن آدابهم الطاعة لسطانهم غاية الاستطاعة ، وأن يعرضوا عليه أبكارهم الحسان ليختار لنفسه ومن شاء من حاشيته ماشاء منهن .

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمئة

فيها كانت حروب كثيرة بين جلال الدين والتتار وكسره غير مرة ثم بعد ذلك كله كسرهم كسرة عظيمة وقتل منهم خلقاً وأمما لا يحصون كثرة .

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمئة

قويت نفوس الفرنج في هذه السنة لكثرتهم بمن وفد إليهم من البحر وبموت المعظم واختلاف من بعده من الملوك فطلبوا من المسلمين أن يردوا إليهم ما كان الناصر صلاح الدين أخذه منهم فوقعت المصالحة بينهم وبين الملوك على أن يردوا لهم بيت المقدس وحده .

فتسلموا القدس الشريف وكان المعظم قد هدم أسواره فعظم ذلك عند المسلمين جداً ، ثم قدم الكامل فحاصر دمشق حتى أخرج منها ابن أخيه صلاح الدين الملك الناصر داود بن المعظم ثم أخذ الأشرف دمشق وأعطى أخاه

الكامل حران والرقة ثم سار الكامل فحاصر حماة وفيها الملك المظفر محمد وهو زوج بنت الكامل .

واستحوذ على حماة أخوه صلاح الدين قليج أرسلان فحاصره الكامل حتى أنزله من قلعتها وسلمها إلى أخيه المظفر محمد .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمئة

فيها رأى الأشرف موسى بن العادل النبي ﷺ في المنام قبل وقعته مع جلال الدين الخوارزمي فقال له النبي ﷺ : يا موسى أنت منصور عليهم .

فهزمه الأشرف هزيمة منكرة وهلك من الخوارزمية خلق كثير ، فالخوارزمية كانوا لا يفتحون بلداً إلا قتلوا من فيه ونهبوا أمواله فكسرهم الله تعالى .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمئة

وفيها خرجت طائفة من التتار مرة أخرى من بلاد ما وراء النهر وكان سبب قدومهم هذه السنة أن الإسماعيلية كتبوا إليهم يخبرونهم بضعف أمر جلال الدين بن خوارزم شاه وأنه عادى جميع الملوك حوله حتى الخليفة وأنه

قدكسره الأشرف مرتين وكان جلال الدين تظهر منه أفعال ناقصة تدل على قلة عقله ،فعاث التتار الفساد وانقطع خبر جلال الدين فلا يدرى أين سلك ولاأين ذهب تمكنت التتار من الناس في سائر البلاد ولايجدون من يمنعهم ولا من ير دعنهم

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمئة

فيها أقبلت طائفة من التتار فوصلوا إلى شهرزور فندب الخليفة صاحب إربل مظف الدين كوكبري بن زين الدين وأضاف إليه عسكره من عنده فساروا نحوهم فهربت منهم التتار ولله الحمد٠

وفيها توفي الشاعر محمود بن زاكي وكا ن شيخاً أديباً فاضلاً ومن شعره قوله :

وأهيف ما الخطي إلاقوامه
ومالغصن إلامايثيه لينه
ومالدعص إلاماتحمل خصره
وما السحر إلاماتكن عيونه
وما الحسن إلاكله فمن الذي
إذامارآه لايزيدجنونه

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاثين وستمئة

وفيها توفي الشاعر ابن عُنين وكان ظريفاً شاعراً مطبقاً مشهوراً حسن الأخلاق جميل المعاشرة .

وقد حضر مرة مجلس الفخر الرازي بخراسان وهو على المنبر يعظ الناس فجاءت حمامة خلفها جارح ، فألقت نفسها على الفخر الرازي كالمستجيرة به فأنشأ ابن عنين يقول :

جـــاءت ســـليمان الزمـــان حمامـــة
والمـوت يلمـع مـن جنـاحي خـاطف
قـــرم لـــواه الجـــوع حتـــى ظلـــه
بإزائـــه يجـــري بقلـــب واجـــف
مـــن أعلـــم الورقـــاء أن محلكـــم
حـــرم وأنـــك ملجـــأ للخـــائف ؟

* * * * *

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وستمئة

وفيها كمل بناء المدرسة المستنصرية ببغداد ، ولم تُبنَ مدرسة قبلها مثلها ، وحضر الخليفة المستنصر بالله بنفسه الكريمة وأهل دولته وعُمل سماط عظيم بها أكل منه الحاضرون وحُمل منه إلى سائر دروب بغداد من بيوتات

الخــواص والعــوام ، وخلــع علــى جميــع المدرســين بهــا والحاضرين فيها وعلى جميع الدولة والفقهاء بها والمعيدين .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين وستمئة

فيهـا خـرب الملـك الأشـرف موسـى بـن العـادل خـان الزنجـاني الـذي كـان بالعقيبـة فيـه خـواطئ وخمـور ومنكرات متعددة فهدمه وأمر بعمارة جامع مكانه سمي جامع التوبة .

وفيهـا تـوفي الـشيخ أبـو محمـد حمـد التميمـي الدنيسري : أنشد عنه ابن الساعي سماعاً منه :

روت لــي أحاديــث الغــرام صــبابتي

بإســنادها عــن بانــة العلــم الفــرد

وحــدثني مــر النــسيم عــن الحمــى

عن الدوح عن وادي الغضا عن رُبا نجد

بــأنْ غرامــي والأســى قــد تلازمــا

فلــن يبرحـا حتـى أوسـد في اللحـدي

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وستمئة

وفيها توفي الشاعر الحاجري صاحب الديوان المشهور وهو عيسى بن سنجر شاعر مطبق ومن شعره :

اللّه يعلــم مــا أبقــى ســوى رمــق
مــني فراقــك يــامن قربــه الأمــل
فابعــث كتابــك واســتودعه تعزيــة
فربمــا مــت شــوقاً قبــل مــا يــصل

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وستمئة

فيها حاصر التتار إربل بالمجانيق ونقبوا الأسوار حتى فتحوها عنوه فقتلوا أهلها وسبوا ذراريها وامتنعت عليهم القلعة وفيها النائب من جهة الخليفة فدخل فصل الشتاء فأقلعوا عنها وانشمروا إلى بلادهم .

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وستمئة

فيها كانت وفاة الأشرف ثم أخيه الكامل .

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وستمئة

فيها قبض الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود ابن العادل على الصفي بن مرزوق وصادره وحبسه بقلعة حمص .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وستمئة

في يوم الأربعاء ثالث ربيع الآخر ولي الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام خطابة جامع دمشق وممن توفي فيها صاحب حمص الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي وكان من أحسن الملوك سيرة ، طهر بلاده من الخمور والمكوس والمنكرات ، لا يتجاسر أحد من الفرنج ولا العرب يدخل بلاده إلا أهانه غاية الإهانه .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وستمئة

فيها سلم الصالح إسماعيل صاحب دمشق حصن شقيفا أرنون لصاحب صيدا الفرنجي فاشتد الإنكار عليه بسبب ذلك من الشيخ عز الدين بن عبد السلام خطيب البلد ، والشيخ أبي عمرو بن الحاجب شيخ المالكية فاعتقلهما مدة ثم أطلقها وألزمهما منازلهما ثم خرج الشيخان من دمشق فقصد أبو عمرو الناصر داود بالكرك، ودخل الشيخ عز الدين الديار المصرية فتلقاه صاحبها بالاحترام وولاه خطابة القاهرة وقضاء مصر .

وفيها قدم رسول من ملك التتار تولي بن جنكز خان إلى ملوك الإسلام يدعوهم إلى طاعته ويأمرهم بتخريب

أسوار بلدانهم وعنوان الكتاب : من نائب رب السماء ماسح وجه الأرض ملك الشرق والغرب خاقان ، وكان الكتاب مع رجل مسلم من أهل أصبهان لطيف الأخلاق فأول ماورد على شهاب الدين بن العادل صاحب ميّافارقين ، وقد أخبره بعجائب في أرضه غريبة منها أن في البلاد المتاخمة للسد أناساً أعينهم في مناكبهم وأفواههم في صدورهم يأكلون السمك وإذا رأوا أحداً من الناس هربوا .

وذكر أن عندهم بزراً ينبت منه الغنم يعيش الخروف منها شهرين وثلاثة ولا يتناسل .

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وستمئة

وفيها ركب الملك المنصور إبراهيم بن الملك المجاهد صاحب حمص ومعه الحلبيون فاقتتلوامع الخوارزمية بأرض حران فكسروهم ومزقوهم كل ممزق وعادوا منصورين إلى بلادهم .

* * * * *

ثم دخلت سنة أربعين وستمئة

وفيها توفي المستنصر بالله وتولى بعده ابنه المستعصم بالله وهو آخر خلفاء بني العباس ببغداد .

* * * * *

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وستمئة

وفيها كانت الخوارزمية قد فتحوا في هذه السنة بلاد الروم وأخذوها من أيدي ملكها ابن علاء الدين وكان قليل العقل يلعب بالكلاب والسباع ويسلطها على الناس فاتفق أنه عضه سبع فمات فتغلبوا على البلاد حينئذ .

وفيها احتيط على أعوان القاضي الرفيع الجبلي ، فسجن ثم انقطع خبره .

قال أبو شامة : وذكر أنه توفي لا رحمه الله . قال السبط : وقد كان فاسد العقيدة ، دهرياً مستهزئاً بأمور الشرع يخرج إلى المجلس سكران ويحضر إلى الجمعة كذلك وكانت داره كالخانات فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

* * * * *

ثم دخلت سنة اثنين وأربعين وستمئة

فيها استوزر الخليفة المستعصم بالله مؤيد الدين أبا طالب محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن العلقمي المشؤوم على نفسه وعلى أهل بغداد . فإنه الذي أعان على المسلمين هولاكو وجنوده قبحه الله وإياهم .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وستمئة

وفي هذه السنة كانت وقعة عظيمة بين جيش الخليفة وبين التتار لعنهم الله فكسرهم المسلمون كسرة عظيمة وفرقوا شملهم وهربوا من بين أيديهم فلم يلحقوهم ولم يتبعوهم خوفاً من غائلة مكرهم عملاً بقوله ﷺ ((اتركوا الترك ما تركوكم)) [1] .

وفي هذه السنة ظهر ببلاد خوزستان على شق جبل داخله من الأبنية الغريبة العجيبة ما يحار فيه الناظر وقد قيل : إن ذلك من بناء الجن وأورد صنعته ابن الساعي في (تاريخة) .

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وستمئة

فيها كسر المنصور الخوارزمية عند بحيرة حمص وفيها قدمت الرسل من عند البابا الذي للنصارى تخبر بأنه قد أباح دم الأنبرور ملك الفرنج لتهاونه في قتال المسلمين ، وأرسل طائفة من عنده ليقتلوه فلما انتهوا إليه كان قد استعد لهم وأجلس مملوكاً له على السرير فاعتقدوه الملك فقتلوه فعند ذلك أخذهم الأنبرور فصلبهم على باب قصره

(١) أخرجه الإمام أبو داود في سننه برقم (٣٧٤٨) .

بعدما ذبحهم وسلخهم وحشا جلودهم تبناً فلما بلغ ذلك البابا أرسل إليه جيشاً كثيفاً لقتاله فأوقع الله تعالى بينهم الخلاف بسبب ذلك والحمد لله . وفيها هبت ريح عاصفة شديدة بمكة فألقت ستارة الكعبة المشرفة وكانت قد عتقت فإنها من سنة أربعين لم تجدد لعدم الحج في تلك السنين من ناحية الخليفة فما سكنت الريح إلا والكعبة عريانة وقد زال عنها شعار السواد وكان هذا فألاً على زوال دولة بني العباس .

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وستمئة

وفيها توفي الشلوبين النحوي الأندلسي الإشبيلي وهو بلغة الأندلسيين الأبيض الأشقر قال ابن خلكان : ختم به أئمة النحو .

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وأربعين وستمئة

وفيها قتل مملوك تركي شاب صبي سيده على دفعه عنه لما أراد به الفاحشة فصلب الغلام مسمراً وكان شاباً حسناً جداً فتأسف الناس له لكونه صغيراً ومظلوماً وحسناً ونظموا فيه القصائد .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وستمئة

فيها كانت وفاة الملك الصالح أيوب وقتل ابنه المعظم تورانشاة وتولية عز الدين إيبك التركماني .

وممن قتل في هذه السنة فخر الدين يوسف بن حمويه وكان فاضلاً ديناً مهيباً وقوراً بالملك وكانت الأمراء تعظمه جداً ولو دعاهم إلى مبايعته بعد الصالح لما اختلف عليه اثنان ولكنه كان لا يرى ذلك حماية لجانب بني أيوب، قتله الداوية من الفرنج شهيداً ومن شعره :

عصيت هوى نفسي صغيراً فعندما
رمتني الليالي بالمشيب وبالكبر
أطعت الهوى عكس القضية ليتني
خلقت كبيراً وانتقلت إلى الصغر

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وستمئة

وفيها في ثالث المحرم يوم الأربعاء كان كسر المعظم تورانشاه للفرنج على ثغر دمياط فقتل منهم ثلاثين ألفاً وقيل : مئة ألف وغنموا شيئاً كثيراً ولله الحمد ثم قتل جماعة من الأمراء الذين أسروا وكان فيمن أسر ملك الفرنسيس وأخوه .

ثم قتل الأمراء البحرية تورانشاة وملكوا عليهم الأمير عز الدين أيبك التركماني ولقبوه بالعز .

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وستمئة

وفيها كمل شرح الكتاب المسمى بـ (نهج البلاغة) في عشرين مجلداً مما ألفه عبد الحميد بن هبة الله بن أبي الحديد الكاتب للوزير مؤيد الدين العلقمي .

* * * * *

ثم دخلت سنة خمسين وستمئة

فيها وصلت التتار إلى الجزيرة فقتلوا وسبوا ونهبوا وخربوا . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

* * * * *

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وستمئة

فيها دخل الشيخ نجم الدين الباذرائي رسول الخليفة بين صاحب مصر وصاحب الشام وأصلح بين الجيشين وكانوا قد اشتدت الحرب بينهم .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين وستمئة

فيها ظهرت نار في أرض عدن في بعض جبالها بحيث إنه يطير شررها إلى البحر في الليل ، فتاب الناس وأقلعوا عما كانوا عليه من المظالم والفساد وشرعوا في أفعال الخير والصدقات .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وستمئة

فيها عاد الناصر داود من الأنبار إلى دمشق ، ثم عاد وحج من العراق وأصلح بين العراقيين وأهل مكة .

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وستمئة

فيها كان ظهور النار في أرض الحجاز التي أضاءت لها أعناق الإبل ببصرى ، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : ((لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى)) في يوم الجمعة انبجست من الحرة قريبة من بني قريظة سالت في واد مقداره أربعة فراسخ ، وعرضه أربعة أميال وعمقه قامة ونصف وهي تجري على وجه الأرض وهو صخر يذوب ، وكانت ترمي بشرر كأنه رؤوس الجبال ودامت خمسة عشر يوماً ولم

تتقطع وألقي فيها سعفة فلم تحرقها بل كانت تحرق الحجارة وتذيبها . وفيها غرقت بغداد . ومما نظمه بعض الشعراء :

أغــــرق بغــــداد بالميـــــاه كمـــــا
أحــــرق أرض الحجـــــاز بالنـــــار

قال أبو شامة : والصواب أن يقال :

في ســـــنة أغـــــرق العــــراق وقــــد
أحــــرق أرض الحجـــــاز بالنـــــار

وقال آخر في الذي وقع في هذه السنة وما بعدها :

نـــار أرض الحجـــاز مـــع حـــرق المســـ
ـــجد معـــه تغريـــق دار الســـلام
ثـــم أخـــذ التتـــار بغـــداد في أو
ل عـــام مـــن بعـــد ذاك وعـــام
لم يُعـــن أهلـــها وللكفـــر أعـــوا
ن علــــيهم ياضـــيعة الإســـلام
وانقـــضت دولـــة الخلافـــة منهـــا
حـــار مستعـــصم بغـــير اعتـــصام
فحنانـــاً علــــى الحجـــاز ومـــصر
وســـلاماً علــــى بـــلاد الـــشآم

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وستمئة

فيها أصبح المعز صاحب مصر عز الدين أيبك التركماني بداره ميتاً وقد ولي الملك بعد أستاذه الملك الصالح نجم الدين أيوب كان فيها الملك توارنشاه ثم خلفته شجر الدر أم خليل ، اتهم مماليكه زوجته أم خليل المسماة شجر الدر فأمرت جواريها أن يمسكنه لها فمازالت تضربه بقباقيبها ، والجواري يعركن في معاريه حتى مات ، ولما سمع مماليكه أقبلوا بصحبه مملوكه الأكبر سيف الدين قطز فقتلوها وألقوها في مزيلة غير مستورة العورة .

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وخمسين وستمئة

فيها أخذ التتار بغداد وقتلوا أكثر أهلها حتى الخليفة وانقضت دولة بني العباس منها .

قال ابن كثير : وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنشاب من كل جانب حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه ، كانت تسمى عرفة ، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة ، فأحضر السهم الذي أصابها فإذا عليه مكتوب : إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم .

فأمر الخليفة بزيادة الاحتراز ، وكان قدوم هولاكو قاد بجنوده كلهم وكانوا نحواً من مئتي ألف مقاتل ، وكان جيش الخليفة عشرة آلاف فارس وهم في غاية الضعف وذلك عن رأي وزيره ابن العلقمي وكان شيعياً رافضياً خبيثاً فقتله وأهله معه ، ودخلوا بغداد فقتلوا جميع من قدروا عليه حتى بلغت القتلى ثمانمئة ألف وقيل ألف ألف وثمانمئة ألف .

وانتنت البلد من جيفهم وتغير الهواء حتى تعدى وسرى إلى بلاد الشام فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون فإنا لله وإنا إليه راجعون .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وستمئة

استهلت هذه السنة وليس للمسلمين خليفة وأقبل هولاكو فقصد نحو الشام بجنوده وعساكره فقتل الملك الكامل وطيف برأسه في البلاد ودخلوا برأسه إلى دمشق ، ودفن رأسه عند رأس الحسين وشبهه به .

وفيها تولى ولاية الملك المظفر قطز وكان هذا من رحمة الله تعالى بالمسلمين .

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وستمئة

استهلت هذه السنة وليس للناس خليفة وملك العراقين وخراسان هولاكو بن تولى بن جنكز خان ، وسلطان ديار مصر المظفر قطز مملوك المعز إيبك التركماني وسلطان دمشق وحلب المظفر الناصر ثم ملكوا حلب بالأمان وغدروا بهم فقتلوا أهلها وجرى فيها ما جرى في بغداد ووردوا دمشق فأخذوها سريعاً من غير ممانعة .

* * * *

وقعة عين جالوت

لما بلغ صاحب الديار المصرية ما فعل التتار بالشام وأنهم وصلوا إلى غزة وقد عزموا على الدخول إلى مصر بادرهم قبل أن يبادروه واستيقظ له عسكر المغول وعليهم كتبغا نوين ومعنى نوين : أي أمير عشرة آلاف ، فكان اجتماعهم على عين جالوت فاقتلوا اقتتالاً عظيماً شديداً فكانت النصرة ولله الحمد والمنة للإسلام وأهله فهزمهم المسلمون هزيمة هائلة وقتل كتبغا نوين وجماعة من بنيه والذي قتل كتبغا الأمير جمال الدين آقوش الشمسي .

وقد قاتل الملك المنصور صاحب حماة مع الملك المظفر في هذه الوقعة قتالاً عظيماً . واتبع الأمير بيبرس البندقداري وجماعة من الشجعان التتار يقتلونهم في كل مكان إلى أن

وصلوا إلى حلب ، فطردوهم عنها وتسلم المدينة ووعد قطز بيبرس بنيابتها فاستناب عنها غيره وهو علاء الدين بن صاحب الموصل ، وكان ذلك سبب قتل قطز .

وحكى الشيخ قطب الدين اليونيني .. عن المؤلف تاج الدين أحمد بن الأثير كاتب السر في أيام الناصر صاحب دمشق قال : لما كنا مع السلطان الناصر بوطأة برزة جاءت البريدية يخبرون بأن المظفر قطز قد تولى السلطنة بالديار المصرية فقرأت ذلك على السلطان فقال : اذهب إلى فلان وفلان فأخبرهم بهذا قال : فلما خرجت من عنده لقيني بعض الأجناد فقال لي : جاءكم الخبر من الديار المصرية بأن قطز قد تملك ؟ فقلت : ما عندي من هذا علم ، وما يدريك أنت بهذا ؟ فقلت : بلى والله إنه سيملك وسيكسر التتار ، فقد كنت أخدمه وهو صغير وكان عليه قمل كثير فكنت أفليه وأهينه فقال لي يوماً . ويلك إيش تريد أن أعطيك إذا ملكت الديار المصرية ؟ فقلت له : أنت مجنون ؟ فقال : لقد رأيت رسول الله ﷺ في المنام وقال لي : أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار ، فقلت له حينئذ : أريد منك إمرة خمسين فارساً فقال : نعم . قال ابن الأثير فلما قال لي هذا قلت : هذه كتب المصريين بأنه قد تولى السلطنة فقال : والله ليكسرن التتار ، فكان كذلك كما قال . ولما رجع الناصر إلى ناحية الديار المصرية وأراد دخولها ورجع عنها ودخلها أكثر الجيوش الشامية كان هذا الأمير الحاكي في

جمله من دخلها فأعطاه المظفر إمرة خمسين فارساً ووفى له بالوعد وهو الأمير حسام الدين البركة خاني .

* * * *

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وستمئة

وفي هذه السنة أغار التتار على حلب وانجفل الناس والتقى التتار مع نائب حلب الأمير حسام الدين الجوكندار العزيزي والمنصور صاحب حماة والأشرف صاحب حمص وكانت الوقعة عند حمص قريباً من قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه والتتار في ستة آلاف وكان معهم من المسلمين ألف وأربعمئة فهزمهم الله تعالى وقتلوا أكثر التتار والله الحمد .

وفيها بويع للمستنصر بالله وهو عم المستعصم وكان معتقلاً ببغداد ثم أطلق ، وكان منصب الخلافة شاغراً ثلاث سنين ونصف ، وكان أسمر وسيماً شديد القوى عالي الهمة وقد لقبوه بالمستنصر كما كان أخوه باني المدرسة ببغداد تلقب ، وهذا أمر لم يسبق إليه أن خليفتين أخوين يلقب كل منهما بالآخر .

* * * * *

ثم دخلت سنة ستين وستمئة

قال ابن خلكان : في هذه السنة اصطاد بعض أمراء الظاهر بجرود - بحدود حماة - حمار وحش فطبخوه فلم

ينضج ولا أثر فيه كثير الوقود ، ثم افتقدوا أمره ، فإذا هو موسوم على أذنه : بهرام جور ، وقد أحضروه إلي فقرأته كذلك ، وهذا يقتضي أن لهذا الحمار قريباً من ثمانمئة سنة فإن بهرام جور كان قبل المبعث بمدة متطاولة وحمر الوحش تعيش دهراً طويلاً .

وفي هذه السنة قتل الخليفة المستنصر بالله وفيها توفي عبد العزيز بن عبد السلام .

* * * *

ثم دخلت سنة إحدى وستين وستمئة

وفيها التقى بركة قان التتري مع هولاكو ومع كل واحد جيوش كثيرة ، فاقتتلوا فهزم هولاكو هزيمة فظيعة وقتل أكثر أصحابه وغرق أكثر من بقي وهرب هو في شرذمة قليلة من أصحابه ولله الحمد ، ولما نظر بركة قان إلى كثرة القتلى قال : يعز علي أن يقتل المغول بعضهم بعضاً ولكن كيف الحيلة فيمن غير سنة جنكز خان ؟

* * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وستين وستمئة

وفيها توفي الشمس الوتار الموصلي ومن شعره :

وكنت وإياها مذ اختط عارضي
كروحين في جسم وما نقضت عهدا
فلما أتاني الشيب يقطع بيننا
توهمته سيفاً فألبسته غمدا

* * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وستمئة

وفيها خرج الملك الظاهر في عساكر عظيمة فقصد بلاد الساحل لحصار الفرنج ففتح قيسارية في ثلاث ساعات في يوم نزوله وتسلم قلعتها وانتقل إلى غيرها وفتح مدينة أرسوف وقتل من بها من الفرنج .

* * * * *

ثم دخلت سنة اربع وستين وستمئة

وفيها مات كولاكو قان بن تولى قان بن جنكيز خان وقد كان ملكاً جباراً عنيداً ودفن بمدينة تلا ، لا رحمه الله .

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وستين وستمئة

وفيها توفي السلطان بركة خان بن تولي بن جنكز خان وهو ابن عم هولاكو وقد أسلم بركة خان هذا وكان يحب العلماء والصالحين ومن أكبر حسناته كسره

لهولاكو وتفريقه جنوده ، وكان يناصح الملك الظاهر ويعظمه ويكرم رسله ويطلق لهم شيئاً كثيراً وقد قام بعده منكوتمر بن طغان بن باتو بن تولى وكان في طريقته ومنواله ولله الحمد .

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وستين وستمئة

وفيها فتح السلطان الملك الظاهر أنطاكية وفيها قتل الصاحب علاء الدين صاحب الديوان ببغداد ابن الخشكري النعماني الشاعر الذي كان يعتقد فضل شعره على القرآن المجيد وبعد التأكد من زندقته ضرب عنقه .

* * * *

ثم دخلت سنة سبع وستين وستمئة

وفيها أمر الملك الظاهر بإراقة الخمور وتبطيل المفسدات والخواطىء بالبلاد كلها .

* * * *

ثم دخلت سنة ثمان وستين وستمئة

فيها قتل صاحب مراكش أبو العلاء إدريس بن عبد الله بن محمد بن يوسف الملقب بالواثق قتله بنو مرين في حرب كانت بينه وبينهم بالقرب من مراكش .

* * * * *

دخلت سنة تسع وستين وستمئة

وفيها جرت حروب بين أهل تونس والفرنج ثم تصالحوا بعد ذلك على الهدنة ووضع الحرب بعدما قتل من الفريقين خلائق لا يحصون .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبعين وستمئة

وفيها وصلت الجفالة من حلب وحماه وحمص إلى دمشق بسبب الخوف من التتار وجفل خلق كثير من أهل دمشق .

* * * * *

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وستمئة

وفيها وصل السلطان الظاهر بعسكره إلى الفرات لأنه بلغه أن طائفة من التتار هنالك فخاض إليهم الفرات بنفسه وجنده وقتل أولئك مقتلة عظيمة ثم عاد إلى دمشق ومعه الأسرى فقال القاضي شهاب الدين محمود الكاتب :

سر حيث شئت لك المهيمن جار
واحكم فطوع مرادك الأقدار
لم يبق للدين الذي أظهرته
ياركنه عند الأعادي ثار

لمـــا تراقـــصت الـــرؤوس تحركـــت
مـــن مطربـــات قـــسيك الأوتـــار
خـــضت الفـــرات بـــسابح أفـــضى بـــه
مـــوج الـــصبا مـــن فعلـــه الآثـــار
حملتـــك أمـــواج الفـــرات ومـــن رأى
بحـــراً ســـواك تقلـــه الأنهـــار

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين وستمئة

فيها رأى علاء الدين صاحب الديوان ببغداد بمدينة تستر شاباً يقال له : لي . ادعى أنه عيسى بن مريم وصدقه جماعة من جهة تلك الناحية على ذلك ، وقد أسقط لهم من الفرائض صلاة العصر وعشاء الآخرة فاستحضره وسأله عن ذلك فرآه ذكياً إنما يفعل ذلك عن قصد فأمر به فقتل .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وستمئة

فيها أقبل السلطان بالعساكر فدخل بلاد سيس فملكها وملك إياس والمصيصة وأذنة فقتلوا خلقاً لا يعلمهم إلا الله وغنموا شيئاً كثيراً ثم عاد فدخل دمشق مؤيداً منصوراً .

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وستمئة

وفيها في رمضان منها وجد رجل وامرأة في نهار رمضان على فاحشة الزنى ، فأمر علاء الدين صاحب الديوان برجمهما فرجما ، ولم يرجم ببغداد قبلهما قط أحد منذ بنيت .

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وستمئة

فيها ركب السلطان من مصر في العساكر فدخل دمشق ثم سار حتى دخل حلب ثم واقع التتار وحمل حملة واحدة عليهم فترجلوا إلى الأرض عن آخرهم ، وقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً وصبر المسلمون صبراً عظيماً فأنزل الله نصره على المسلمين ، فأحاطت بالتتار العساكر من كل جانب وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وأسر جماعة من أمراء المغول ومن أمراء الروم وهرب البرواناه فنجا بنفسه ودخل السلطان قيسارية ثم كر راجعاً منصوراً .

وفيها توفي الشاعر شهاب الدين التلعفري توفي بحماة وكان الشعراء مقرين له معترفين بفضله وتقدمه في هذا الفن ومن شعره :

لساني طري منك ياغاية المنى

ومن ولهي أني خطيب وشاعر

فهـــذا لمعنـــى حـــسن وجهـــك نـــاظم
وهـــذا لـــدمعي في تجنيـــك نـــاثر

وفيها توفي الشيخ الصالح أبو إسحاق إبراهيم بن جُماعة الكِناني الحموي . ولد بحماة وتوفي بالمقدس الشريف .

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وسبعين وستمئة

وفيها كانت وفاة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس صاحب البلاد المصرية والشامية وغيرها ، وكان شهماً عالي الهمة شجاعاً بعيد الغور مقداماً جسوراً يشفق على الإسلام ولم يدع مع الإسماعيلية شيئاً من الحصون وناصف الفرنج على ما بأيديهم من الحصون والبلاد ، وفتح قيسارية من بلاد الروم ، وأوقع بالروم والمغول على البُلُستَين بأساً لم يُسمع بمثله من دهور متطاولة ، وجدد بناء مسجد رسول الله ﷺ حين احترق ووضع الدرابزينات حول الحجرة الشريفة وعمل فيه منبراً وسقفه بالذهب وأبطل الخمور ونفى الفساق .

وفيها توفي الشيخ خضر الكردي شيخ الملك الظاهر كان ينسب إليه أحوال ومكاشفات ، ولكنه لما خالط

الناس افتتن ببعض بنات الأمراء وكن لا يتحجبن منه فوقعت الفتنة وفيها توفي الشيخ محي الدين النووي .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وستمئة

وفيها توفي محمد بن سوّار الشيباني الدمشقي ومن شعره :

لقد عادني من لا عج الشوق عائد
فهل عهد ذات الخال بالسفح عائد
وهل نارها بالأجرع الفرد تعتلي
لمنفرد شاب الدجى وهو شاهد
نديميَّ من سعدى أديرا حديثها
فذكرى هواها والمدامة واحد
منعمة الأطراف رقّت محاسناً
كما جل في حبي لها ما أكابد
فللبدر مالاثت عليه خمارُها
وللشمس ما جالت عليه القلائد

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وستمئة

وقد اتفق في هذه السنة أمور عجيبة وذلك أنه وقع الخلف بين الممالك كلها ؛ اختلفت التتار فيها بينهم واقتتلوا

فقتل منهم خلق كثير ، واختلفت الفرنج في السواحل وقتل بعضهم بعضاً وكذلك الفرنج الذين في داخل البحور وجزائرها اختلفوا واقتتلوا . واقتتلت قبائل الأعراب بعضها في بعض قتالاً شديداً .

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وستمئة

في يوم عرفة من هذه السنة وقع ببلاد مصر برد كبار أتلف شيئاً كثيراً من الغلات ، ووقعت صاعقة بالإسكندرية وأخرى من يومها تحت الجبل الأحمر على صخره فأحرقتها فأخذ ذلك الحديد فسبك فخرج منه أواق بالرطل المصري .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمانين وستمئة

في هذه السنة ضمن الخمر والزنى بدمشق وجُعل عليه ديوان ومُشِدٌ فقام في إبطال ذلك جماعة من العلماء والصلحاء والعباد فأبطل بعد عشرين يوماً وأريقت الخمور وأقيمت الحدود ولله الحمد والمنة .

* * * * *

وقعة حمص

ولما كان يوم الخميس رابع عشر رجب التقى التتار وعددهم مئة ألف فارس بالمسلمين وهم على النصف من ذلك والجميع فيما بين مشهد خالد بن الوليد إلى الرستن – وهي قرية بين حماة وحمص – فاقتتلوا قتالاً عظيماً لم ير مثله من أعصار متطاولة فكسر الله بعونه وقوته التتر وجرح منكوتمر ملكهم وقتلوا من التتر مقتلة عظيمة جداً .

* * * * *

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وستمئة

فيها توفي ابن خلكان قاضي القضاة شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد الإربيلي الشافعي .

أحد الأئمة الفضلاء والسادة العلماء ، له التاريخ المفيد الذي رسمه بـ (وفيات الأعيان) من أبدع المصنفات ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين وستمئة

فيها توفي الإمام العالم شهاب الدين عبد الحميد بن تيمية الحراني والد شيخنا العلامة تقي الدين بن تيمية .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وستمئة

فيها اختلف التتر فيما بينهم على ملكهم السلطان أحمد فعزلوه وقتلوه وملكوا عليهم السلطان أرغون بن أبغا .

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وستمئة

فيها توفي الرشيد سعيد بن علي الحنفي ، مدرس الشبلية ومن نظمه .

قل لمن يحذر أن تدركه
نكبات الدهر ، لا يغني الحذر
أذهب الحزن اعقادي أنه
كل شيء بقضاء وقدر

في هذه السنة قدم الملك المنصور إلى دمشق ومعه الجيوش ، وجاء إليه صاحب حماة الملك المظفر بن المنصور، ثم سافر السلطان بالعساكر المصرية والشامية فنزل المرقب ففتحه الله عليهم .

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وستمئة

فيها انعقدت زوبعة بأرض حمص ثم ارتفعت في السماء كهيئة العمود والحية العظيمة وجعلت تختطف

الحجارة الكبار فتصعد في الجو كأنها سهام النشاب وحملت شيئاً كثيراً من الجمال بأحمالها والأثاث والخيام والدواب ، ففقد الناس من ذلك شيئاً كثيراً من الرحال والأمتعة .

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وثمانين وستمئة

فيها توفي الشيخ الصالح عز الدين الصقيل الحراني قال : كنت مرة بقليوب وبين يديَّ صُبْرَةُ قمح ، فجاء زنبور فأخذ واحدة ثم ذهب بها ثم جاء فأخذ أخرى ثم ذهب بها ، ثم جاء فأخذ واحدة أخرى أربع مرات قال : فاتبعته فإذا هو يضع الحبة في فم عصفور أعمى بين تلك الأشجار التي هناك .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وستمئة

فيها كبس نصراني وعنده مسلمة وهما يشربان الخمر في نهار رمضان فأمر نائب السلطنة حسام الدين لاجين بتحريق النصراني فبذل في نفسه أموالاً جزيلة فلم يقبل منه وأحرق بسوق الخيل .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وستمئة

فيها كان فتح طرابلس ، كانت قبل ذلك في أيدي المسلمين من زمان معاوية ، فتحها سفيان بن نجيب لمعاوية فأسكنها معاوية اليهود ، بها ثمار الشام ومصر كانت قبل ذلك ثلاث مدن متقاربة ثم صارت بلداً واحداً ثم حولت عن موضعها حيث أمر السلطان الملك المنصور قلاوون أن تهدم البلد بما فيها من العمائر والدور والأسوار الحصينة التي عليها وأن يبنى على ميل منها بلدة غيرها أمكن منها وأحسن ففعل ذلك فهي هذه البلدة التي يقال لها طرابلس .

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وستمئة

فيها كانت وفاة الملك المنصور قلاوون وجلس بعده ولده الأشرف خليل .

وفيها توفي فخر الدين أبو الطاهر إسماعيل بن أبي اليُمن .
كان زاهداً متقللاً من متاع الدنيا ومن شعره :

مواهب ذي الجلال لدي تترى
فقد أخرسنني ونطقن شكرا
فنعمى إثر نعمى إثر نعمى
وبشرى بعد بشرى بعد بشرى
لها بدء وليس لها انتهاء
يعم مزيدها دنيا وأخرى

ثم دخلت سنة تسعين وستمئة

فيها فتحت عكا وبقية السواحل التي كانت بأيدي الفرنج من مدد متطاولة ولم يبق لهم فيها حجر واحد ولله الحمد والمنة .

وقد نظم شهاب الدين محمود قصيدة في فتح عكا :

ما بعد عكا وقد هُدَّت قواعدها
في البحر للشرك عند البر من أرب
أمُّ الحروب فكم قد أنشأت فتناً
شاب الوليد بها هولاً ولم تشب

* * * * *

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وستمئة

وفيها فتحت قلعة الروم بالسيف قهراً وقد قتل من أهل البلد خلق كثير وغنم المسلمون منها شيئاً كثيراً ، وكان ملك قلعة الروم مع السلطان أسيراً ، وكذلك رؤوس أصحابه فدخل بهم دمشق وهم يحملون رؤوس أصحابهم على رؤوس الرماح . وفيها ولي السلطان نيابة دمشق لعز الدين إيبك الحموي عوضاً عن الشجاعي .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين وستمئة

فيها توفي ابن صاحب حماة الملك الأفضل نور الدين علي بن أيوب .

وهو والد الأميرين الكبيرين بدر الدين حسن وعماد الدين إسماعيل الذي تملك حماة بعد جده .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وستمئة

فيها قتل الأشرف وذلك أنه خرج إلى الصيد فلما كان بالقرب من الإسكندرية حمل عليه جماعة من الأمراء الذين اتفقوا على قتله حين انفرد عن جمهور الجيش فأول من ضربة نائبه بيدرا وتمم عليه لاجين المنصوري وتألم الناس لفقده وأعظموه قتله وقد كان شهماً شجاعاً عالي الهمة حسن المنظر .

* * * * *

واقعة عساف النصراني

كان هذا الرجل من أهل السويداء قد شهد عليه جماعة أنه سبب الرسول ﷺ وقد استجار عساف هذا بابن أحمد بن حجي أمير آل علي فاجتمع الشيخ تقي الدين بن تيمية والشيخ زين الدين الفارقي شيخ دار الحديث فدخلا على الأمير عز الدين أيبك الحموي نائب السلطنة فكلماه

في أمره فأجابهما إلى ذلك وأرسل ليحضره فخرجا من عنده ومعهما خلق كثير من الناس فرأى الناس عسافاً حين قدم ومعه رجل من العرب فسبوه وشتموه فقال البدوي : هو خير منكم – يعني النصراني – فرجمهما الناس بالحجارة وأصابت عسافاً ولحق النصراني بعد ذلك ببلاد الحجاز فاتفق قتله قريباً من مدينة الرسول ﷺ قتله ابن أخيه هنالك وصنف الشيخ تقي الدين بن تيمية في هذه الوقعة كتاب (الصارم المسلول على ساب الرسول) .

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وستمئة

استهلت والخليفة الحاكم بأمر الله ، وسلطان البلاد الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فلما كان يوم عاشوراء نهض جماعة من مماليك الأشرف ، وخرقوا حرمة السلطان ، وأرادوا الخروج عليه ، وجاؤوا إلى سوق السلاح، فأخذوا ما فيه ثم احتيط عليهم فمنهم من صلب ، ومنهم من شنق وقطع أيدي آخرين منهم وألسنتهم .

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وستمئة

فيها كان الغلاء والفناء بديار مصر شديداً جداً وقد تفانى الناس إلا القليل .

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وتسعين وستمئة

فيها قتل قازان الأمير نوروز الذي كان إسلامه على يديه وأسلم معه أكثر التتر ، ثم إن التتر شوشوا خاطر قازان عليه فلم يزل به حتى قتله وقتل جميع من ينسب إليه وكان نوروز هذا من خيار الأمراء عند قازان ، وكان ذا عبادة وصدق في إسلامه وأذكاره وتطوعاته وقصده الحميد يرحمه الله .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وستمئة

فيها قلت المياه بدمشق جداً ، وأما بردى فلم يبق فيه مسكة ماء .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وستمئة

فيها قتل المنصور لاجين ونائبه سيف الدين منكوتمر .

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وستمئة

وفيها كانت وقعة قازان وقد تواترت الأنباء بقصد التتر إلى بلاد الشام فخاف الناس وبلغ كراء الجمل من حماة إلى دمشق نحو المئتي درهم .

ولما وصل السلطان إلى وادي الخزندار عند وادي سلمية التقى التتار هنالك فكسروا المسلمين وولى السلطان هارباً فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وسلطان التتار قصد دمشق بعد الواقعة ، فاجتمع أعيان البلد والشيخ تقي الدين بن تيمية في مشهد علي واتفقوا على المسير إلى قازان لتلقيه وأخذ الأمان منه لأهل دمشق ، فاجتمعوا عند النبك وكلمه الشيخ تقي الدين بن تيمية كلاماً قوياً شديداً فيه مصلحة عظيمة عاد نفعها على المسلمين ولله الحمد .

وحمل إلى قازان ثلاثة آلاف ألف وستمئة ألف سوى ما تمحّق من التراسيم والبراطيل .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبعمئة من الهجرة النبوية الشريفة

فيها وردت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام وأنهم عازمون على دخول مصر فشرع الناس في الهرب ، وجلس الشيخ تقي الدين بن تيمية بمجلسه الجامع وحرض الناس على القتال فأجابوه .

* * * * *

ثم دخلت سنة أحدى وسبعمئة

فيها ثار جماعة من الحسدة على الشيخ تقي الدين بن تيمية وشكوا منه أنه يقيم الحدود ويعزر .

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعمئة

فيها فتحت جزيرة أرواد[1] وكانت من أضر الأماكن على السواحل فجاءتها مراكب من الديار المصرية في البحر وارد فيها جيوش طرابلس ففتحت ولله الحمد .

وفيها كانت وقعة شقحب حضرها تقي الدين بن تيمية حيث توجه إلى العسكر الواصل من حماة فاجتمع بهم في القطيفة ثم دارت الدائرة على التتر في شقحب والكسوة قرب دمشق ومعهم الشيخ ابن تيمية يحضهم على الجهاد وثبت السلطان ثباتاً عظيماً وأمر بجواده فقيّده حتى لا يهرب ثم أنزل الله النصر على المسلمين ولله الحمد والمنة .

فلما جاء الليل هرب التتر إلى التلول والجبال والآكام فقتل منهم المسلمون مالايعلم عدده إلا الله عز وجل .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعمئة

وفيها توفي قازان ملك التتر بالقرب من همذان ونقل إلى تربته بتبريز بمكان يسمى الشام ويقال : إنه مات مسموماً ، وتولى مكانه أخوه خربندا . وفيها توفي الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير القرشي – والد

(١) وأقول : بعدها عن طرطوس على الساحل السوري خمسة كيلو مترات .

المؤلف – في قرية يقال لها : الشركوين غربي بصرى ، عني بالنحو والعربية وحفظ أشعار العرب ، قال شيخنا الحافظ علم الدين البرزالي في معجمه : أنشدنا الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير القرشي خطيب القرية بها لنفسه :

نأى النوم عن جفني فبت مسهدا
أخا كلف حلف الصبابة موجدا
سمير الثريا والنجوم مدلّهاً
فمن ولهي خلت الكواكب ركدا
طريحاً على فرش الصبابة والأسى
فما ضركم لو كنتم لي عودا
تقلبني أيدي الغرام بلوعة
أرى النار من تلقائها لي أبردا
ومزق صبري بعد جيران حاجز
سعير غرام بات في القلب موقدا
فأمطرته دمعي لعل زفيره
يقل فزادته الدموع توقدا
غراماً ووجداً لا يحدُّ أقله
بأهيف معسول المراشف أغيدا
له طلعة كالبدر زان جمالها
بطرة شعر حالك اللون أسودا

يهــــز مـــن القـــد الرشـــيق مثقفـــاً
ويــشهر مــن جفنيــه ســيفاً مهنــدا
إذا مارنـــا واهتـــز عنـــد لقائـــه
ســباك فلــم تملــك لــساناً ولا يــدا
قنعــت بطيــف مــن خيالــك طــارق
وقــد كنت لا أرضى بوصلك سـرمدا

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وسبعمئة

فيهـا راح الـشيخ تقـي الـدين بـن تيميـة إلى مـسجد النارنج وأمر أصحابه ومعهم حجارون بقطع صخرة كانت هنالك بنهر قلوط تزار وينذر لها فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها .

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وسبعمئة

فيها عقد للشيخ ابن تيمية ثلاثة مجالس برئ فيها ثم نقل إلى مـصر فحـوكم وكـان الخـصم فيهـا القاضـي المالكي هـو الحكـم أيضاً فقـال لـه الـشيخ ابـن تيميـة : كيف تحكم في وأنت خصمي ؟ فغضب المالكي غضباً شديداً وحبس ابن تيمية في برج أياماً ثم نقل منه ليلة العيد

إلى الحبس المعروف بالجب هو وأخواه شرف الدين عبد الله وزين الدين عبد الرحمن .

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة ست وسبعمئة

استهلت والشيخ تقي الدين بن تيمية مسجون بالجب من قلعة الجبل .

وفيها أخبر نائب السلطنة بوصول كتاب من الشيخ تقي الدين من الحبس فأرسل في طلبه فجيء به فقرئ على الناس وجعل يشكر الشيخ ويثني عليه وعلى علمه وديانته وشجاعته وزهده وقال : ما رأيت مثله .

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة سبع وسبعمئة

فيها وقعت الحرب بين التتر وبين أهل كيلان ، وذلك أن ملك التتر طلب منهم أن يجعلوا في بلادهم طريقاً إلى عسكره ، فامتنعوا من ذلك ، فأرسل ملك التتر خربندا جيشاً كثيفاً ستين ألفاً من المقاتلة ، أربعين ألفاً مع قطلوشاه ، وعشرين ألفاً مع جوبان ، فأمهلهم أهل كيلان حتى توسطوا بلادهم ، ثم أرسلوا عليهم خليجاً من البحر ورموهم بالنفط فغرق كثير منهم واحترق آخرون ، وقتلوا

بأيديهم طائفة كثيرة فلم يفلت منهم إلا القليل وكان في من قتل أمير التتر الكبير قطلوشاه .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وسبعمئة

وفيها توفي الشيخ صالح عثمان الحلبوني أصله من صعيد مصر فأقام مدة بقرية حلبون من تلك الناحية ، توفي بقرية برزة ودفن بها وحضر جنازته نائب الشام .

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وسبعمئة

فيها أقام الشيخ تقي الدين بثغر الإسكندرية ثمانية أشهر مقيماً ببرج متسع مليح نظيف له شباكان أحدهم من جهة البحر والآخر من جهة المدينة ، وكان يدخل عليه من شاء ، ويتردد إليه الأكابر والأعيان والفقهاء يقرؤون عليه ويستفيدون منه وهو في أطيب عيش وأشرح صدر .

* * * * *

ثم دخلت سنة عشر وسبعمئة

فيها توفي الأمير سيف الدين قبجق ، نائب حلب ، مات بها ودفن بتربته بحماة ، وكان شهماً شجاعاً ولي نيابة دمشق .

* * * * *

ثم دخلت سنة أحدى عشرة وسبعمئة

فيها توفي الشيخ الرئيس بدر الدين محمد بن رئيس الأطباء الأنصاري من سلالة سعد بن معاذ رضي الله عنه من سويداء حوران سمع الحديث وبرع في الطب .

* * * * *

ثم دخلت سنة اثنتي عشرة وسبعمئة

فيها دخل الأمير سيف الدين تنكز بن عبد الله المالكي الناصري نائباً على دمشق .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وسبعمئة

فيها تكامل حفر النهر الذي عمله سوجي نائب حلب بها ، وكان طوله من نهر ساجور – نهر صغير بمنبج – إلى نهر قويق أربعين ألف ذراع في عرض ذراعين وعمق ذراعين .

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع عشرة وسبعمئة

فيها توفيت الشيخة الصالحة العابدة الناسكة أم زينب فاطمة بنت عباس البغدادية بظاهر القاهرة .

وكانت من العالمات الفاضلات تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وقد كانت تحضر مجلس الشيخ تقي الدين بن تيمية فاستفادت من ذلك ، ويذكر عنها أنها كانت تستحضر كثيراً من (المغني) أو أكثره ، وأنه كان يستعد لها من كثرة مسائلها وحسن سؤالاتها وسرعة فهمها وهي التي ختمت نساء كثيراً القرآن الكريم .

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس عشرة وسبعمئة

فيها خرج الأمير سيف الدين تنكز بالجيوش قاصداً ملطية فحاصرها فأمنوا المسلمين وقتلوا من الأرمن خلقاً ومن النصارى .

* * * * *

ثم دخلت سنة ست عشرة وسبعمئة

وفيها وصلت الأخبار بموت ملك التتر خربندا محمد ابن أرغون بن أبغا بن هولاكو قان .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع عشرة وسبعمئة

فيها خرجت النصيرية عن الطاعة فأقاموا من بينهم رجلاً سموه محمد بن الحسن المهدي ، وحملوا على مدينة جبلة

فدخلوها وقتلوا خلقاً من أهلها وخرجوا منها يقولون : لا إله إلا علي ، وأمر أصحابه بخراب المساجد واتخاذها خمارات فجردت إليهم العساكر فهزموهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً .

وفيها توفي الصاحب أنيس الملوك بدر الدين الإربلي فمن رقيق شعره :

ومدامـــة حمـــراء تـــشـــبه خـــد مـــن أهـــوى ودمعـــي
يـــسعى بهـــا قمـــرٌ أعـــزُّ علـــي مـــن نظـــري وسمعـــي

وقوله في مغنية :

وغريـــرة هيفـــاء ناعمـــة الـــسنا طـــوع العنـــاق مريـــضة الأجفـــان
غنـــت ومـــاس قوامهـــا فكأنهـــا الـــورقاء تـــسجع فـــوق غـــصن البـــان

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان عشرة وسبعمئة

وفيها مات الشيخ الصالح تقي الدين الحنبلي ومن شعره :

أسكان المعاهد من فؤادي
لكم في خافق منه سكون
وأبتكر المعاني في هواكم
وفيكم كل قافية تهون
وأسأل عنكم الباكين سراً
وسر هواكم سر مصون
فكم لي في محبتكم غرامٌ
وكم لي في الغرام بكم فنون

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع عشرة وسبعمئة

فيها كانت وقعة عظيمة بين التتار .

* * * * *

ثم دخلت سنة عشرين وسبعمئة

فيها كانت وقعة عظيمة ببلاد المغرب بين المسلمين والفرنج فنصر الله المسلمين على أعدائهم فقتلوا منهم خمسين ألفاً وأكثر وأسروا خمسة آلاف ، وكان في جملة القتلى خمسة وعشرون ملكاً من ملوك الإفرنج وغنموا شيئاً كثيراً يقال كان من جملة ما غنموا سبعون قنطاراً من الذهب والفضة ، وإنما كان جيش الإسلام يومئذ

ألفين وخمسمئة فارس غير الرماة ولم يقتل منهم سوى أحد عشر قتيلاً ، وهذا من غريب ما وقع وعجيب ما سُمع .

* * * * *

ثم دخلت سنة أحدى وعشرين وسبعمئة

فيها خرج الشيخ تقي الدين بن تيمية من السجن بالقلعة بمرسوم السلطان وتوجه إلى داره ، وكانت مدة إقامته بالقلعة خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين وسبعمئة

فيها صرف ابن معبد إلى ولاية حوران لشهامته وصرامته وديانته وأمانته .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وسبعمئة

فيها قتل الشيخ ضياء الدين الدربندي النحوي كان قد اضطراب عقله ، فسافر من دمشق إلى القاهرة ثم دخل إلى القلعة وبيده سيف مسلول فقتل نصرانياً فحمل إلى السلطان وظنوه جاسوساً فأمر بشنقه فشنق .

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وسبعمئة

فيها توفي كريم الدين الكبير وكيل السلطان قد شنق نفسه داخل خزانة له قد أغلقها عليه من داخل وربط حلقه في حبل وكان تحت رجله قفص فدفع القفص برجله فمات في مدينة أسوان .

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وسبعمئة

وفيها منع شهاب الدين بن مري البعلبكي من الكلام على الناس بمصر على طريقة الشيخ تقي الدين بن تيمية وعزره القاضي المالكي بسبب مسألة الاستغاثة .

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وعشرين وسبعمئة

فيها ضربت عنق ناصر بن الشرف أبي الفضل الهيتي على كفره وصحبته الزنادقة كالنجم بن خلكان وكان قتله عزاً للإسلام وذلا للزنادقة .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وسبعمئة

فيها توفي كمال الدين بن الزملكاني شيخنا العلامة علي عبد الواحد شيخ الشافعية بالشام وغيرها .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وسبعمئة

ذكر وفاة الشيخ تقي الدين بن تيمية

قال الشيخ علم الدين البرزالي في (تاريخه) : وفي ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة توفي الشيخ الإمام العلامة الفقيه الحافظ القدوة شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية الحراني ثم الدمشقي بقلعة دمشق بالقعة التي كان محبوساً فيها ، وحضر جمع كثير إلى الغاية إلى القلعة فأذن لهم في الدخول ، وجلس جماعة عنده قبل الغسل وقرؤوا القرآن ، ثم انصرفوا ، واقتصر على من يغسله فلما فرغ من ذلك أخرج وقد اجتمع الناس بالقلعة والطريق إلى الجامع ، وامتلأ الجامع وصحنه وحضرت الجنازة في الساعة الرابعة من النهار أو نحو ذلك ، وحمل من باب البريد ، واشتد الزحام ، وصار النعش على الرؤوس ، وتقدم للصلاة عليه هناك أخوه زين الدين عبد الرحمن ، وحمل إلى مقبرة الصوفية فدفن إلى جانب أخيه شرف الدين عبد الله رحمهما الله ، وكان دفنه وقت

العصر أو قبلها بيسير ، وكان مولده يوم الاثنين عاشر ربيع الأول بحرّان سنة إحدى وستين وستمئة ، وقدم مع والده وأهله إلى دمشق وهو صغير ، فسمع الحديث من خلق كثير وقرأ بنفسه الكثير ، ثم اشتغل بالعلوم ، وكان ذكياً كثير المحفوظ ، فصار إماماً في التفسير وما يتعلق به ، عارفاً بالفقه واختلاف العلماء ، والنحو واللغة وغير ذلك من العلوم النقلية والعقلية ، وما تكلم معه فاضل في فن من الفنون العلمية إلا ظن أن ذلك الفن فنه ، أثنى عليه وعلى فضائله جماعة من علماء عصره ووجدت بخط ابن الزملكاني أنه اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها هذا الثناء عليه وكان عمره نحو الثلاثين سنة .

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وسبعمئة

فيها رُسم بقتل الكلاب فقتل منها شيء كثير جداً .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاثين وسبعمئة

فيها قدم على السلطان رسل من الفرنج يطلبون منه بعض بلاد السواحل فقال السلطان : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم .

ثم دخلت سنة أحدى وثلاثين وسبعمئة

فيها وصل نهر ساجور إلى مدينة حلب

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين وسبعمئة

فيها توفي الملك المؤيد صاحب حماة عماد الدين إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين بن أيوب ، كانت له فضائل كثيرة في علوم متعددة من الفقه والهيئة والطب وغير ذلك وكان يحب العلماء ويشاكلهم ويشاركهم في فنون كثيرة وكان من فضلاء بني أيوب وكان الملك الناصر يكرمه ويعظمه ولي بعده في الملك ولده الملك الأفضل علي .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وسبعمئة

فيها أمر السلطان بتسليم المنجمين إلى والي القاهرة فضربوا وحبسوا ثم نفوا لإفسادهم حال النساء فمات منهم أربعة تحت العقوبة ثلاثة من المسلمين ونصراني .

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وسبعمئة

فيها توفي الشيخ نجم الدين القبابي الحموي عبد الرحمن بن الحسن بن يحيى اللخمي ، أقام بحماة في زاوية يزار ويلتمس دعاؤه ، وكان عابداً ورعاً زاهداً ، أماراً بالمعروف نهاء عن المنكر ، وكانت جنازته حافلة هائلة جداً ودفن شمالي حماة ، وكان عنده فضيلة واشتغل على مذهب الإمام أحمد بن حنبل وله كلام حسن يُؤثر عنه رحمه الله تعالى .

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وسبعمئة

فيها رجع جيش حلب إليها وكانوا عشرة آلاف سوى من تبعهم من التركمان وكانوا في بلاد أذنة وطرطوس وآياس وقد خربوا وقتلوا وسبوا وأسروا خلقاً كثيراً ، ولم يعد منهم سوى رجل واحد غرق بنهر جاهان ، ولكن قتل الكفار عندهم من المسلمين نحواً من ألفي رجل يوم عيد الفطر من تجار وغيرهم فإنا لله وإنا إليه راجعون .

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وسبعمئة

فيها توفي ملك التتر بوسعيد بن خربند بن أرغون بن أبغا بن هولاكو وقد كان من خيار ملوك التتر وأحسنهم طريقة وأثبتهم على السنة وأقومهم بها وقد عز أهل السنة في زمانه وذلت الرافضة بخلاف دولة أبيه ، ثم لم يقم من بعده للتتار قائمة بل اختلفوا فتفرقوا شذر مذر إلى زماننا هذا .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وسبعمئة

استهلت بيوم الجمعة والخليفة المستكفي بالله قد اعتقله السلطان الملك الناصر ومنعه من الاجتماع بالناس ، ونائب الشام تنكز بن عبد الله الناصر .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وسبعمئة

فيها سقط بالجانب الغربي من مصر بَرَد كالبيض وكالرمان فأتلف شيئاً كثيراً .

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وسبعمئة

فيها توفي الشيخ العالم الحافظ علم الدين بن البرزالي مؤرخ الشام .

* * * * *

ثم دخلت سنة أربعين وسبعمئة

مما وقع من الحوادث العظيمة الهائلة أن جماعة من رؤوس النصارى اجتمعوا في كنيستهم وجمعوا من بينهم مالاً جزيلاً فدفعوه إلى راهبين قدما عليهما من بلاد الروم يحسنان صنعة النفط وتلطفا حتى عملاه لا يظهر تأثيره إلا بعد أربع ساعات وأكثر من ذلك فوضعاه في شقوق دكاكين التجار في سوق الرجال عند الدهشة في عدة دكاكين من آخر النهار بحيث لا يشعر أحد بهما وهما في زي المسلمين فلما كان في أثناء الليل لم يشعر الناس إلا والنار قد عملت في تلك الدكاكين وكان مقصودهم وصول النار إلى معبد المسلمين فحال الله بينهم وبين ما يرجون . ولما تحقق نائب السلطة أن هذا من فعلهم أمر بمسك رؤوس النصارى فأمسك منهم نحواً من ستين رجلاً فأخذوا بالمصادرات والضرب والعقوبات وأنواع المثلات ثم بعد ذلك صلب منهم أزيد من عشرة على الجمال وطاف بهم في أرجاء البلاد وصلبوا يتماوتون واحداً بعد واحد ثم أحرقوا بالنار حتى صاروا رماداً لعنهم الله تعالى .

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وسبعمئة

وفيها قتل الأمير سيف الدين تنكز وتوفي الملك الناصر محمد بن قلاوون وكان قبل موته أخذ بالعهد لابنه سيف الدين أبي بكر ولقبه بالملك المنصور .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين وسبعمئة

استهلت بيوم الأحد وسلطان الإسلام بالديار المصرية الشامية الملك الناصر لدين الله محمد بن السلطان قلاوون .

وفي المحرم : ولاية الخليفة الحاكم بأمر الله أبو القاسم أحمد بن المستكفي بالله .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وسبعمئة

فيها توفي الشاب الحسن شهاب الدين أحمد بن فرج المؤذن بمئذنة العروس وكان شهيراً بحسن الصوت ذا حظوة عظيمة عند أهل البلد وكان رحمه الله كما في النفس وزيادة في حسن الصوت الرخيم البليغ المطرب وليس في القراء ولا المؤذنين قريب منه ولا من يدانيه في وقته وكان في آخر وقته على طريقة حسنة وعمل صالح

وانقطاع عن الناس وإكباب على شأن نفسه فرحمه الله وأكرم مثواه .

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وسبعمئة

استهلت والجيوش المصرية والشامية محيطة بحصن الكرك يحاصرونه ويبالغون في أمره ، والمنجنيق منصوب وأنواع آلات الحصار كثيرة .

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وسبعمئة

الحصار واقع بقلعة الكرك وأما البلد فأخذ ثم قدم البريد من الكرك مخبراً بفتح القلعة .

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وأربعين وسبعمئة

وفيها كانت وفاة الملك الصالح إسماعيل وكان قد عهد بالأمراء إلى أخيه الملك الكامل سيف الدين أبي الفتوح شعبان .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وسبعمئة

وفيها صلى في شهر رمضان بالشامية البرانية صبي عمره ست سنوات ، وقد رأيته وامتحنته فإذا هو يجيد الحفظ والأداء وهذا من أغرب ما يكون .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وسبعمئة

وفيها قتل السلطان الملك المظفر حاجي بن الناصر محمد ، وبويع لأخيه السلطان الناصر حسن بن السلطان محمد بن قلاوون .

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وسبعمئة

فيها تواترت الأخبار بوقوع الوباء في أطراف البلاد فذكر عن بلاد القرم أمر هائل وموتان فيهم كثير ثم انتقل إلى بلاد الإفرنج حتى قيل : إن أهل قبرص مات أكثرهم أو ما يقارب من ذلك . وكان يموت من النساء أكثر من الرجال بكثير كثير .

* * * * *

ثم دخلت سنة خمسين وسبعمئة

فيها تقاصر أمر الطاعون جداً ولكن لم يرتفع بالكلية .

* * * * *

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وسبعمئة

فيها توفي صاحبنا الإمام العلامة شمس الدين محمد إمام الجوزية وابن قيمها أخذ عن ابن تيمية علماً جماً وكانت جنازته حافلة رحمه الله وأكرم مثواه .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين وسبعمئة

في يوم الأحد خامس عشر جمادي الأولى استلم القاضي الحنبلي جماعة من اليهود ، كان قد صدر منهم نوع من الاستهزاء بالإسلام وأهله فإنهم حملوا رجلاً منهم صفته أنه ميت على نعش ويهللون كتهليل المسلمين ويقرؤون الإخلاص فأخذهم المسلمون إلى ولي الأمر نائب السلطنة فدفعهم إلى الحنبلي فاقتضى الأمر استسلامهم فأسلم يومئذ منهم ثلاثة وتبع أحدهم ثلاثة أطفال وأسلم في اليوم الثاني ثمانية آخرون .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وسبعمئة

فيها وقع حريق عظيم عند باب جيرون ، واتصل الحريق بالباب الأصفر النحاس ثم غدوا عليه يكسرون خشبة بالفؤوس وتأسف الناس عليه لكونه كان من محاسن البلد ومعالمه وله في الوجود ما ينيف على خمسة آلاف سنة .

ولم يُر باب أوسع ولا أعلى منه فيما يعرف من الأبنية في الدنيا وكان من عجائب الدنيا وقد ذكرته العرب في أشعارها وهو منسوب إلى ملك يقال له جيرون بن سعد بن عاد بن عوص بن إرم بن سام ابن نوح وكان بناؤه له قبل الخليل عليه السلام بل قبل ثمود وهود وهو أيضاً على ما ذكره الحافظ بن عساكر في تاريخه وغيره .

وفي أوائل شهر رجب الفرد من هذه السنة وثلاث وخمسين وسبعمئة اشتهر أن نائب حلب بيبغا آروس اتفق مع نائب طرابلس بكلمش ونائب حماه أمير أحمد بن مُشد الشريخانه على الخروج عن طاعة السلطان حتى يمسك شيخون وطاز وهما عضدا الدولة بالديار المصرية .

وانزعج الناس لذلك وخافوا من غائلة هذا الأمر ، ثم حلف الأمراء واتفقوا على السمع والطاعة .

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وسبعمئة

استهلت هذه السنة وسلطان المسلمين الملك الصالح صلاح الدين صالح بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون ونائبه بالديار المصرية سيف الدين قُبلاس والمشار إليهم في تدبير المملكة الأمراء الثلاثة سيف الدين شيخون وسيف الدين طاز وسيف الدين صرغتمُش .

وفيها صنف تقي الدين الشبلي القاضي مصنفاً يتضمن منع ما استهدم من الكنائس سماه الديائس في الكنائس .

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وسبعمئة

دخلت هذه السنة والأمير سيف الدين شيخون في طلب الأحدب من مدة شهر والأحدب رجل كان قد ادعى السلطة ببلاد الصعيد . وفيها اجتاز رجل من الروافض من أهل الحلة بجامع دمشق بعد صلاة الظهر وهو يسب أول من ظلم آل محمد يكرر ذلك لا يفتر فجئت واستنطقته : من الذي ظلم آل محمد ؟ فقال : أبو بكر الصديق ثم قال جهرة والناس يسمعون : لعن الله أبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية ويزيد . واسم هذا اللعين علي بن أبي الفضل بن محمود بن حسين بن كثير قبحه الله وأخزاه . وحضر

القضاء الأربعة وعقدله مجلس فحكم نائب المالكي بقتله فضربت عنقه تحت القلعة . هذا جزاء من سب أصحاب رسول الله ﷺ .

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وخمسين وسبعمئة

وفيها حكم القاضي جمال الدين المسلاتي بقتل نصراني من قرية الرأس من معاملة بعلبك واسمه داود بن سالم ثبت عليه أنه اعترف بالكلام المسيء الذي نال به من رسول الله ﷺ وسبه وقذفه بكلام لا يليق ذكره فقتل لعنه الله وحرقه الناس ولله الحمد والمنة .

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وسبعمئة

فيها استحوذ الإفرنج على صيدا وقتلوا طائفة من أهلها ، وقد قتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وسبعمئة

فيها حكي عن جارية من عتيقات الأمير سيف الدين تمر المهمندار أنها حملت قريباً من سبعين يوماً ثم شرعت تطرح ما في بطنها فوضعت قريباً من أربعين يوماً في أيام

متوالية ومتفرقة أربعة عشر بنتاً وصبياً بعدهن . وفيها توفي الأمير سيف الدين شيخون .

* * * * *

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وسبعمئة

وفيها مُسك الأمير صرغتمش أتابك الأمراء بالديار المصرية ثم اختلفت الرواية في قتله .

* * * * *

ثم دخلت سنة ستين وسبعمئة

فيها أن صاحب المدينة النبوية عدا عليه فداويان فقتلاه من ساعته وقد مسك الفدويان وقتلا .

* * * * *

ثم دخلت سنة إحدى وستين وسبعمئة

فيها مات فياض بن مهنا أمير العربان وكان قد خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات ميتة جاهلية بأرض العراق أرض الشقاق والنفاق وقد ذكرت عنه أشياء صدرت عنه من ظلم الناس والإفطار في شهر رمضان بلا عذر وأمر أصحاب وذويه بذلك .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثنتين وستين وسبعمئة

فيها تواتر خبر الفناء الذي بالديار المصرية بسبب كثرة المستنقعات من فيض النيل عندهم على خلاف المعتاد فبلغنا أنه يموت من أهلها كل يوم فوق الألفين .

وفيها أبطل ملك الأمراء المكس الذي يؤخذ من الملح وأبطل مكس الأفراح وأبطل أن تغني أمرأة لرجال ولا رجل لنساء وهذا في غاية ما يكون من المصلحة العظيمة الشامل نفعها .

* * * * *

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وسبعمئة

وفيها مات الخليفة المعتضد بالله ثم بويع بعده ولده المتوكل على الله علي أبو عبد الله محمد بن المعتضد .

* * * * *

ثم دخلت سنة أربع وستين وسبعمئة

فيها وضع الشطر من مكس الغنم وكان عبرته أربعة دراهم ونصفاً وصار إلى درهمين وربع درهم وقد نودي بذلك في البلد ففرح الناس بذلك فرحاً شديداً والحمد لله والمنة .

* * * * *

ثم دخلت سنة خمس وستين وسبعمئة

واستهلت هذه السنة وداء الفناء موجود في الناس .

* * * * *

ثم دخلت سنة ست وستين وسبعمئة

وفيها قتل الرافض الخبيث واسمه محمود بن إبراهيم الشيرازي وهو يسب الشيخين ويصرح بلعنهما فعند ذلك حكم عليه القاضي بإراقة دمه ، فأخذ إلى ظاهر البلد فضربت عنقه وأحرقه العامة قبحه الله ،

* * * * *

ثم دخلت سنة سبع وستين وسبعمئة

فيها وردت الأخبار بما وقع من الأمر العظيم بمدينة الإسكندرية من الفرنج لعنهم الله وعاثوا في أهلها فساداً لما كان صبيحة يوم الأربعاء قدم الشاليش المصري – الرايات – فأقعلت الفرنج لعنهم الله عنها .

وقد أسروا خلقاً كثيرا يقاربون أربعة آلاف وتحولت الغنائم كلها إلى الشواني بالبحر فسمع للأسارى من العويل والبكاء والشكوى والجأر إلى الله والاستغاثة به وبالمسلمين ما قطع الأكباد وذرفت له العيون وأصم الأسماع فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم دخلت سنة ثمان وستين وسبعمئة

وفيها توفي جمال الدين بن نباته حامل لواء شعراء زمانه بديار مصر بمرستان الملك المنصور قلاوون ، وذلك يوم الثلاثاء سابع صفر من هذه السنة رحمه الله تعالى .

وفي يوم الأربعاء خامس عشر اجتمعت في آخر هذا اليوم بالأمير زين الدين زُبالة فأخبرني أن البريدي أخبره أن صاحب قبرس رأى في النجوم أن قبرس مأخوذة ، فجهز مركبين من الأسرى الذين عنده من المسلمين إلى يلبغا ، ونادى في بلاده : أن من كتم مسلماً صغيراً أو كبيراً قُتل، وكان من عزمه ألا يبقي أحداً من الأسارى إلا أرسله .

في يوم الأحد بعد العصر دخل الأمير سيف الدين طيبغا الطويل من القدس الشريف إلى دمشق ، فنزل بالقصر الأبلق ورحل بعد يومين أو ثلاثة إلى نيابة حماة حرسها الله تعالى بتقليد من الديار المصرية .

مقتل يلبغا الأمير الكبير:

جاء الخبر بقتله إلينا بدمشق في ليلة الاثنين السابع عشر من ربيع الآخر من أسيرين جاءا على البريد من الديار المصرية ، فأخبرا بمقتله في يوم الأربعاء ثاني عشر هذا الشهر ، تمالأ عليه مماليكه حتى قتلوه يومئذ ، وفرح أكثر الأمراء بمصر بما وقع ، وقدم نائب السلطنة إلى دمشق من

بيروت فأمر بدق البشائر وتزيين البلد ، وأُطلقت الفرنج الذين كانوا بالقلعة المنصورة ، فلم يَهُن ذلك على الناس .

وهذا آخر ما وجد من التاريخ ، والحمد لله وحده ، وصلواته على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

* * * * *

في الفتن والملاحم وأشراط الساعة

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى : .. وقد ذكرنا فيما تقدم من كتابنا هذا إخباره ﷺ عن الغيوب الماضية ، ولو أعدنا الأحاديث المذكورة فيما تقدم لطال ذلك ، ولكن نشير إلى ذلك إشارة لطيفة فمن ذلك قوله ﷺ لتلك المرأة التي قالت : أرأيت إن لم أجدك ؟ كأنها تريد الموت ، فقال : ((إن لم تجديني فأتي أبا بكر)) [1] .

فكان القائمَ بالأمر بعده أبو بكر .

وقوله ﷺ : ((اقتدوا باللذين من بعدي ، أبي بكر وعمر))[2] والمقصود : أنه وقع الأمر كذلك ، ولي أبو بكر الصديق الخلافة بعد رسول الله ﷺ ، ثم وليها عمر بعده ، كما أخبر ﷺ سواء بسواء .

(١) أخرجه الإمام البخاري برقم (٣٣٨٦) .

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٥٩٥) والإمام أحمد برقم (٢٢٣٢٨) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا أجريري عن أبي نضرة قال : كنا عند جابر فقال : يوشك أهل العراق أن لا يجبى إليهم قفيز ولا درهم .

قلنا : من أين ذاك ؟ قال : من قبل العجم ، يمنعون ذاك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق .. قال : فقال عبد الله : بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب إذ سئل رسول الله ﷺ : أي المدينتين تفتح أولاً ؟ قسطنطينية أورومية ؟ فقال رسول الله ﷺ : ((مدينة هرقل تفتح أولاً))[1] يعني القسطنطينية .

* * * * *

ملخص سيرة الدجال لعنه الله

هو رجل من بني آدم كنيته أبو يوسف أو ابن صياد . يخرج من أصبهان من حارة يقال لها : اليهودية ، وينصره من أهلها سبعون ألف يهودي فينظر أولاً في صورة ملك من الملوك الجبابرة ، ثم يدعي النبوة ، ثم يدعي الربوبية ، فيتبعه على ذلك الجهلة من بني آدم ، ويخالفه ويردُّ عليه من هداه الله من عباده الصالحين .

ولا يبقى بلد إلا وطئه بخيله ورجله غير مكة والمدينة ومدة مقامه في الأرض أربعون يوماً ، يوم كسنة ويوم

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٦٣٥٨) والدارمي برقم (٤٨٦) .

كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيام الناس هذه . قال مجمع بن جارية الأنصاري : سمعت رسول الله ﷺ يقول :
((يقتل ابن مريم الدجال بباب لُدٍّ)) (١) .

وفي الأحاديث أن الدجال أعور كثير الشعر قصير ، مكتوب بين عينيه (كافر) يقرؤه كل مؤمن . وقد خلق الله على يديه خوارق كثيرة ، يضل بها من يشاء من خلقه ، ويثبت معها المؤمنون فيزدادون إيماناً مع إيمانهم وهدى إلى هدى .

* * * *

إيراد شيء من أشراط الساعة

روى البخاري عن أبي اليمان عن شعيب عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ((لا تقوم الساعة حتى يتطاول الناس في البنيان)) (٢) .

وعن عبد الله بن عمرو – رفعه – قال : ((يؤتى برجلٍ يوم القيامة إلى الميزان ، فيخرج له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مد البصر ، فيها ذنوبه وخطاياه ، فتوضع في كفة ثم يخرج له قرطاس مثل أنملة فيه شهادة أن لا إله

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٤٩٢١) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد برقم (١٠٤٣٨) .

إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فتوضع في الكفة الأخرى فترجح بخطاياه)) [1] .

وقد قال بعض الوعاظ فيما حكاه القرطبي في (التذكرة) : فتوهم نفسك يا أخي إذا صرت على الصراط ونظرت إلى جهنم تحتك سوداء مظلمة مدلهمة ، وقد تلظى سعيرها ، وعلا لهيبها وأنت تمشي أحياناً وتزحف أخرى ثم أنشد :

أبت نفسي تتوب فما احتيالي
إذا برز العباد لذي الجلال
وقاموا من قبورهمُ حيارى
بأوزار كأمثال الجبال
وقد نصب الصراط لكي يجوزوا
فمنهم من يكب على الشمال
ومنهم من يسير لدار عدن
تلقاه العرائس بالغوالي [2]
يقول له المهيمن : ياوليي
غفرت لك الذنوب فلا تبال

(١) أخرجه الترمذي .
(٢) الغالية : نوع من الطيب .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ((لا تدرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم ؟ لهي أشد سواداً من دخان ناركم هذه بسبعين ضعفاً)) .

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : ((والذي نفس محمد بيده ، لو رأيتم ما رأيت لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً)) قالوا : يارسول الله ، وما رأيت ؟ قال : ((رأيت الجنة والنار)) [(١)] .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ((من آمن بالله ورسوله ، وأقام الصلاة ، وصام رمضان ، فإن حقاً على الله أن يدخله الجنة ، هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها)) قالوا : يارسول الله أفلا نخبر الناس ؟ قال : ((إن في الجنة مئة درجة أعدها الله عز وجل للمجاهدين في سبيله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة)) [(٢)] .

وقال أحمد : حدثنا علي بن عياش ، حدثنا محمد بن مطرف ، حدثنا أبو حازم ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : ((إن المتحابين لترى غرفهم في الجنة كالكوكب الطالع الشرقي أو الغربي فيقال : من هؤلاء ؟

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٢٨٠١) .

(٢) أخرجه الإمام البخاري برقم (٢٥٨١) ، والإمام أحمد برقم (٢١٦٧٦) .

فيقال : هؤلاء المتحابون في الله عز وجل)) [١] . وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : ((من سأل الله الجنة ثلاث مرات قالت الجنة : اللهم أدخله الجنة ، ومن استجار من النار ثلاث مرات قالت النار : اللهم أجره من النار)) [٢] .

وفي الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ قال : ((حُفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات)) [٣] .

وقال رسول الله ﷺ : ((ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة)) [٤] . والله أعلم .

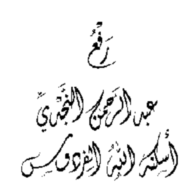
والحمد لله رب العالمين

(١) مسند الإمام أحمد . حديث مرفوع عن النبي ﷺ .
(٢) رواه الترمذي . حديث مرفوع إلى النبي ﷺ .
(٣) رواه الإمام مسلم . حديث مرفوع .
(٤) لم نجده في الصحاح .



أهم المصادر والمراجع





أهم المصادر والمراجع

(١) القرآن الكريم .
(٢) صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج ، ت / محمد فؤاد عبد الباقي ، ط دار الدعوة ودار سحنون ، تونس .
(٣) مسند أحمد للإمام أحمد بن حنبل ، ت / شعيب الأرناؤوط وآخرين ، ط مؤسسة الرسالة بيروت .
(٤) مسند أحمد للإمام أحمد بن حنبل ، ت / أحمد شاكر ، ط دار المعارف مصر .
(٥) جامع الترمذي للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى بن محمد ابن سورة الترمذي ت / أحمد شاكر وآخرون ط دار الدعوة ودار سحنون ، تونس – وط بيت الأفكار الدولية بلا تحقيق .
(٦) صحيح البخاري للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، ط بيت الأفكار الدولية .
(٧) سنن ابن ماجه للإمام أبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه ، ت / محمد فؤاد عبد الباقي ، ط دار الدعوة دار سحنون ، تونس .
(٨) سنن أبي داود للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث ط دار الدعوة ودار سحنون ، تونس .
(٩) سنن النسائي للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب ، ط دار الدعوة ودار سحنون ، تونس .
(١٠) موطأ مالك بن أنس ، تونس ، ت / خليل مأمور شيحا ، ط دار المعارف ، بيروت .
(١١) السيرة النبوية لابن هشام ، ت / د همام عبد الرحمن سعيد ومحمد بن عبد الله أبو صعليك ، ط / مكتبة المنار ، الأردن .
(١٢) البداية والنهاية ، لابن كثير بتحقيق صديق جميل العطار ط٢ .

(١٣) البداية والنهاية ، لابن كثير بتحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي .
(١٤) ديوان جرير ، ط دار بيروت للطباعة والنشر .
(١٥) ديوان الفرزدق ، ط١ دار الكتب العلمية بيروت .
(١٦) السيرة النبوية ، لابن هشام ج٤ .
(١٧) القاموس المحيط ، للفيروز آبادي ج٢ ط١ بيروت .
(١٨) مجلة السكري ، سنة ١٤٢٢هـ عدد / ٥ / .

الفهارس

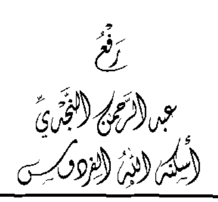
(١) فهرس الآيات .

(٢) فهرس الأحاديث .

(٣) فهرس الأشعار .

(٤) فهرس الموضوعات .

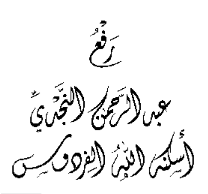




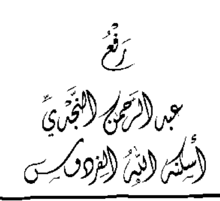
○○فهرس الآيات القرآنية○○

السورة	الآيـــة	رقمها	الصفحة
	﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾	٣٠	٦٧
	﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى﴾	٣٢	٦٧
طه	﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ﴾	٥٩	٣٥
الأنبياء	﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾	٦١	٣٥
	﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾	٦٢	٣٥
	﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾	٦٩	٣٦
	﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾	٨٣	٤٦
	﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ﴾	١١١	٣٢٧
النور	﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾	١١	١٤٠
الشعراء	﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾	٦٢	٥٢
	﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾	٢١٤	١٠٠
النمل	﴿قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾	٥٦	٣٩
القصص	﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾	٩	٤٩
	﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ﴾	١٩	٥٠
	﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾	٢٤	٥٠
	﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾	٢٥	٥٠
العنكبوت	﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾	١٤	٢٧
الأحزاب	﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾	٣٣	٣٠٧
يس	﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾	١ - ٩	٩٠
الصافات	﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾	٧٧	٢٨

السورة	الآيـــة	رقمها	الصفحة
	﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ ﴾	١٠٢	٣٧
ص	﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾	٤٢	٤٦
غافر	﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾	٧	٢٠
الشورى	﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ ﴾	٢٣	٣٠٧
ق	﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾	١٧	١٩
الحديد	﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾	١٦	
الحشر	﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ﴾	٧	٣٠٧
الملك	﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾	٥	١٥
الحاقة	﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ ﴾	٧	٣٠
نوح	﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ﴾	٢٣	٢٧
الجن	﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾	١٣	٢٠
المدثر	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾	١- ٥	٩٩
العلق	﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾	١- ٥	٩٨
القدر	﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾	١- ٣	٣٢٥
البينة	﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾	٧	٢٠
الكوثر	﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾	١	٣٢٥
النصر	﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾	١- ٣	١٧١



○○ فهرس الأحاديث ○○



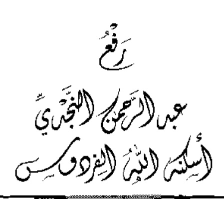
○○ فهرس الأشعار ○○

أول البيت	القافية	إسم الشاعر	العدد	الصفحة
		ي		
إما تري	الدجى	ابن دريد	٢	٦٣
		أ		
أأذكر	الحياء	أمية بن أبي الصلت	٦	٩١
عدمنا خيلنا	كداء	حسان بن ثابت	١٢	١٥٨
جزى	جزاء	خالد بن الوليد	٣	١٦٧
فجع	الطائي	————	١	٤٠٠
لا تظهرن	والضراء	محمد بن حسين	٢	٥٣٢
مزق	الخفاء	عيسى بن مودود	٢	٥٨٢
		ب		
قد علمت	مجرب	مرحب	١	١٤٦
ظللت	تصب	عمرو بن الاهتم	٢	١٧٤
فإن	حبيب		٢	٢٦٦
لج الفرار	الهرب		٣	٣١٤
تعاف	فتشرب	————	٣	٣٩٩
ياحبيبا	حبيب	الخليفة المعتضد	٧	٤٣٤
ألا قل	الأدب	المعاض بن زكريا	٣	٤٩٢
فإن أصبح	نسبي	عثمان بن جني	٤	٤٩٣
ما كنت	تأديب	مهيار الديلمي	١	٥١٣
ترى	قلب	محمد بن أحمد	٣	٥١٩
وما طلبوا	ما طلبوا	————	١	٥٢٠
على قتلي	غلبوا	أحمد بن عمر	٣	٥٢٠
سلام	الشباب	الحسين بن علي	١	٥٢١
قوض	يجتنب	ابن ماكولا	٢	٥٢٣
احفظ	ومذهب	محمد بن عبد الباقي	٢	٥٥٩
مشيبك	الغراب	طلائع بن رزيك	٢	٥٦٩
سلامة	سبب	سعد بن محمد	٣	٥٧٨
وفتحكم	رجب	ابن الزكي	١	٥٨٠
ما بعد	أرب	شهاب الدين	٢	٦٦٠
		ت		
يانفس	صليت	عبد الله بن رواحة	٢	١٥٢
تميم	لضلت		٢	١٧٥

أول البيت	القافيـة	إسم الشاعر	العدد	الصفحة
الا أبلغ	مصمتات	سراقة بن مرداس	٣	٢٥٨
أحبب	الأوقات	البحتري	١	١٠١
علو	المعجزات	ابن الأنباري	٤	٤٧٩
مادمت	المدارة	البستي	٢	٤٩١
إذا تحدث	ومن آت	علي بن محمد الكاتب	٢	٤٩٨
لي مدة	ومذهب	محمد بن عبد الباقي	٢	٥٥٩
مات	الكرامات	الحسن النيسابوري	٢	٥٦٤
		ج		
صبرا	نجا	الخليل الفراهيدي	٢	٣٦٢
من	اللهج	سلم الخاسر	٢	٣٧١
ولرب	مخرج	الصولي	٢	٤٠٧
وصال	وأبهجا	زيد بن الحسن	٢	٦١٧
		ح		
ماذا	جحا جح	أمية بن أبي الصلت	١	٩١
لقد ذاق	ومسطح		٤	١٤٠
أبت	الربيح	عمرو بن الإطنابه	٤	٢٣٩
الستم	راح	جرير	١	٣٩٠
سلام	الرواح	المرتضى	٧	٤٩٧
قم	الصباح	الصقلي	٣	٥٥٥
		د		
له داع	ينادي	أمية بن ابي الصلت	٢	٨٨
ألم	مسهدا	الأعشى	٢	١٠٤
وببئر	ومحمد	حسان بن ثابت	١	١١٥
لاهم	الأتلدا	عمرو بن سالم	٥	١٥٥
تبارك	هاد	يُجَير بن بجرة	٢	١٦٤
أمرتك	رَشَده	عمرو بن معد يكرب	٩	١٧٧
بطيبته	وتمهد	حسان بن ثابت	١١	١٨٤
كل يوم	جديدا	كعب الأشقري	٣	٢٧٣
زار الحجيج	الواحد	————	٣	٢٩٥
ومن	الأسد	أبو مسلم الخرساني	١	٣٤٤
سألت	خالد	————	٢	٣٧٤
ياذا	زائده	عمرو بن الأطنابة	١	٣٨٥
نحن	الحديد	عبد الله بن طاهر	٥	٤٠٠

أول البيت	القافيــة	إسم الشاعر	العدد	الصفحة
وراح	من نهار	التنوخي	٤	٤٦٤
ما شئت	القهار	ابن هانئ الأندلسي	١	٤٧٦
إليك	القصر	السلامي	٣	٤٨٢
ليس	من السحر	عضد الدولة	٥	٤٨٢
رق	الأمر	الصاحب بن عباد	٢	٤٨٩
حكم	قرار	التهامي	٤	٥٠٦
تناقض	من النار	المعري	٢	٥٢٢
بغداد	تسترا	موهوب الجواليقي	٣	٥٦٢
لي	إنكار	عمارة اليمني	٣	٥٧٥
أغار	وينظر	أحمد الرفاعي	٢	٥٨٠
عصيت	وبالكبر	ابن حمويه	٢	٦٣٨
أغرق	بالنار	————	١	٦٤١
سر	الأقدار	شهاب الدين محمود	٥	٦٥٠
لساني	وشاعر	شهاب الدين التلعفري	٢	٦٥٢
قل	الخذر	سعيد بن علي الحنفي	٢	٦٥٧
مواهب	شكرا	إسماعيل بن أبي اليمن	٣	٦٥٩
		ز		
ولقد	مبارز	عمرو بن ود العامري	٤	١٢٩
لا تعجلنَّ	غير عاجز	علي بن أبي طالب	٤	١٢٩
		س		
لو حُزَّ	رأسي	————	١	٢٧٨
		ع		
طلع	الوداع	————	٤	١٠٨
ولست	مصرعي	خبيب	١	١٢٣
نحن	البَيع	الزبرقان بن بدر	٨	١٧٢
إن الذوائب	وتُتَّبع	حسان بن ثابت	٩	٢٤٠
وكنا	القلانس	أبو دلامة	٢	٣٥٣
إن كان	على الناس	محمد بن منصور	٢	٥٢٥
ضحك	قابسا	————	٤	٥٤٠
لك الحمد	تدفع	————	٢	٤٣٦
هبطت	تمنع	ابن سينا	٣	٥١٣
وما أنا	يضوع	مسكويه	١	٥٦٣
يامن	يتوقع	أبو القاسم	٣	٥٨١
ولي	وأبيع	قتادة بن أدريس	٤	٦٢٢

أول البيت	القافيـة	إسم الشاعر	العدد	الصفحة
وقانا	العميم	أحمد بن يوسف المنازي	٥	٥١٧
مزجنا	للمراحم	الأبيوردي	٢	٥٤١
أصح	قديم	————	٢	٥٤٥
بأي	وناموا	الأبله	٢	٥٦٧
سلم	السلامة	————	٢	٦٠٦
سم سمه	سمسمه	الحريري	٢	٦٠٧
ما الأمة	ملأمه	ابن النبيه	٢	٦٠٧
نار	السلام	————	٥	٦٤١
		ن		
شهدت	الكافرينا	عبد الله بن رواحة	٣	١٤
ألا حييت	عينا	نفيل	٥	٨٤
ولقد	الديان	أميه	٢	٨٨
ألا رسول	مجرانا	أميه	١	٨٩
ما تنقم	سني	أبو جهل	١	١١٤
والله	صلينا	عامر	٣	١٤٥
إنني	عيانا	عمرو بن معد يكرب	٧	١٧٨
ألا أبلغ	اليماني	يزيد الحمري	٣	٢٥٢
ألا أخبر	علينا	سراقة	٧	٢٥٧
أيها	يلتقيان	عمر بن أبي ربيعة	٢	٢٧٤
عندي	يتغنى	العصفري	٢	٤٩٦
وغريرة	الأجفان	الإربيلي	٢	٦٧٢
هل	أقصاني	بشار بن برد	١	٣٦٠
ياقوم	أحيانا	بشار بن برد	١	٣٦٠
تغطيت	يراني	أبو نواس	٢	٣٧٩
قم نهنىء	مصطحبين	علي بن إسحاق	٤	٤٧٥
لهت	الجنان	————	٣	٣٨٤
سبق	ضامن	سابق البربري	٧	٤٨٦
إني	كفاني	العنبري	٦	٥٠٤
بنتم	مآقينا	ابن زيدون	١	٥٢٨
تلك	واليمن	————	١	٥٨٨
خير	أينا	يحيى الجلاجلي	٣	٦٢٥
إسكان	سكون	تقي الدين الحنبلي	٤	٦٧٢
		هـ		
من لم يع	مرّه	————	٢	٧



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

القضاء على الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة



صدر للمؤلف

(أ) النثر

(١) ملحمة النبي ﷺ لعمر أبي ريشة تحليل ونقد ط ، ١٤٠٦هـ

(٢) شعراء عرفتهم ط١ ١٤٠٨هـ .

(٣) ديوان الانتفاضة دراسة ط٢ ١٤١٢هـ .

(٤) مدرسة بدر وشعراوها ط٢ ١٤١٢هـ .

(٥) يحيى المعلمي أديباً ط٢ ١٤١٨هـ .

(٦) الصالونات الأدبية في المملكة العربية السعودية ط١ ١٤٢٧هـ .

(٧) قصة أم عامر ط١٩٧٠م .

(٨) الشاب الفدائي ط ١٩٧٠م

(٩) التصريف الملوكي لابن جني تعليق بالاشتراك ط٢ ١٩٧٠م .

(١٠) قصة يوسف الصديق للحسن بن علي البغدادي مخطوط عمره أكثر من ٨٠٠ عام تهذيب ط ١٩٧٠م .

(١١) مختصر البداية والنهاية لأبن كثير ط ١٤٢٤هـ .

(ب) الشعر :

(١) ديوان لحن الجراح ط ١٤٠٣هـ .

(٢) ديوان في القطار ط ١٤٠٣هـ .

(٣) ديوان وعاد القبطان ط ١٤٠٥هـ .

(٤) ديوان مع الشعراء ط ١٤٠٥هـ .

(٥) ديوان الحنين ط ١٤٠٩هـ .

(٦) ملحمة بدر عشرة آلاف بيت في ٣ مجلدات ط٢ ١٤١٣هـ .

(٧) ملحمة أحد عشر آلاف بيت في ٣ مجلدات ط٢ ١٤١٣هـ .

(٨) ديوان : عندما ينعس القمر ط ١٤١٤هـ .

(٩) ديوان : همسة ط ١٤٢٠هـ .

(١٠) ملحمة الفلوجة ط ١٤٢٥هـ .

أدب الأطفال :

(أ) المسرحيات الشعرية :

مجموعة الممثل الصغير وتضم المسرحيات الشعرية التالية :

(١) الوحش .

(٢) في بيته يؤتى الحكم .

(٣) الميزان العادل .

(٤) القصعة .

(٥) ابن تيمية .

(٦) الحمال .

(٧) صياد السمك .

(٨) صلاح الدين الأيوبي .

(٩) الأسكندر .

(١٠) هانيبال .

(ب) فتح القسطنطينية مسرحيتان شعرية ونثرية . حازت على المركز الأول في مسابقة وزارة المعارف السعودية ط٢ ١٤٢٤هـ .

الأناشيد :

ديوان لحن البراءة ط١ ١٤٠٥هـ .

(ج) النثر:

سلسلة الإيمان ١٠ أجزاء وهي :

(١) على نهر الفانج .

(٢) العجوز الفقير.

(٣) اليتيم .

(٤) التاجر .

(٥) إلى السجن .

(٦) الشريد .

(٧) في المزرعة .

(٨) صياد السمك .

(٩) قريتي .

(١٠) شيخ التجار .

سلسلة البحار الصغير ١٠ أجزاء ط ١٤٠٦هـ .

سلسلة : من غزوات الرسول ﷺ ١٤٢٣هـ .

(١) غزوة بدر .

(٢) غزوة أحد .

(٣) غزوة الخندق .

(٤) غزوة مؤته .

(٥) غزوة تبوك .

(٦) غزوة يهود بني قينقاع .

(٧) غزوة الرجيع .

(٨) غزوة بئر معونة .

(٩) غزوة بني النضير .

(١٠) غزوة بني قريظة .

(١١) غزوة بني المصطلق .

(١٢) غزوة الحديبية .

(١٣) غزوة خيبر .

(١٤) غزوة الفتح الأعظم .

(١٥) غزوة حنين .

سلسلة : من معارك الإسلام الخالدة ط ١٤٢٣هـ

(١) حروب الردة .

(٢) معركة اليرموك .

(٣) معركة القادسية .

(٤) فاتح القسطنطينية .

نشر دار الوطن .

قاهر الروم ط٢ ١٤٢٤هـ .

سلسلة : أبطال من مدرسة الرسول ﷺ ط ١٤٢٤هـ .

(١) حمزة بن عبد المطلب .

(٢) علي بن ابي طالب .

(٣) خالد بن الوليد .

(٤) عكرمة .

(٥) أبو دجانة .

(٦) الزبير بن العوام .

(٧) عبد الله بن الزبير .

(٨) العلاء بن الحضرمي .

(٩) المثنى بن حارثة الشيباني .

(١٠) سعد بن أبي وقاص .

نشر دار الوطن .

سلسلة : القصص المصورة ط ١٤٢٥هـ .

(١) التاجر التقي .

(٢) الطفل الذكي .

(٣) السيف والقلم .

(٤) برميل العسل .

(٥) زهرة تروي حكايتها .

(٦) القصعة .

(٧) السائق .

(٨) الوحش الكاسر .

(٩) رغيف الخبز .

(١٠) النملة والصرصار .

(١١) الورد له شوك .

(١٢) الثعلب والعنب .

نشر دار الوطن .

سلسلة : روائع الأدب العالمي :

(١) الغيبة الحنون .

(٢) البلبل .

(٣) الشاب الأعرج .

(٤) الأفعى والصقر .

(٥) الحطاب التقي .

(٦) العصفور والبغل .

(٧) المنجنون هرب .

(٨) النحلة .

(٩) صياد السمك .

(١٠) وجاء الربيع .

طبع سنة ١٤٢٨هـ نشر دار الوراق .

تحت الطبع :

(١) الملحمة الإسلامية الكبرى ٢٥ ألف بيت .

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي والجاليات المسلمة في العالم ١٢ مجلداً .